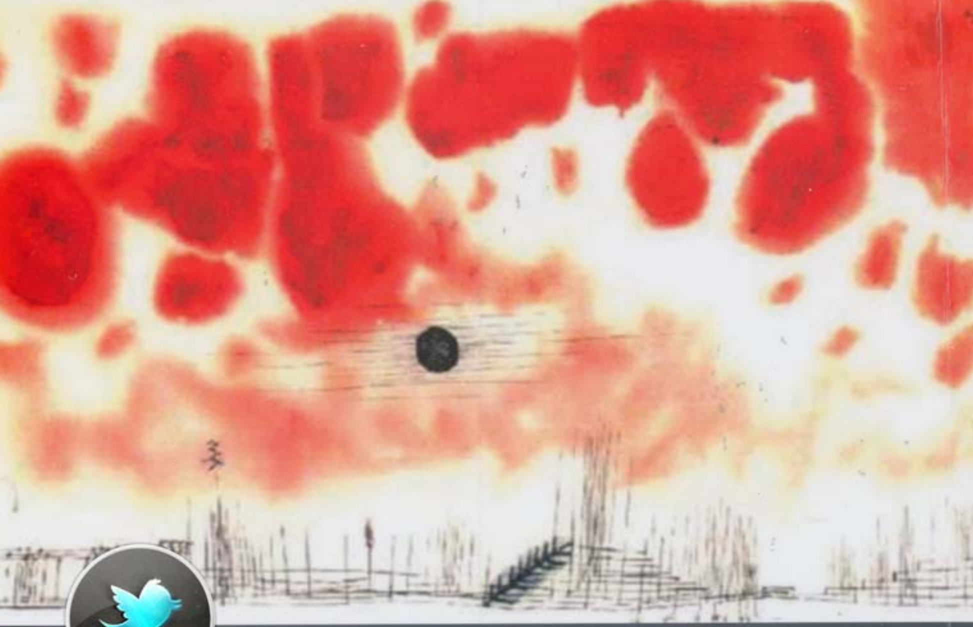

@ketab_n
Follow Me
13.12.2016

فيرجيل جيورجيو

الساعة الخامسة والعشرون

رواية

المركز الثقافي العربي

قسطنطين فيرجيل جيورجيو

الساعة الخامسة والعشرون

Twitter: @ketab_n

قسطنطين فيرجيل جيورجيو

الساعة الخامسة والعشرون

رواية

المركز الثقافي العربي

Twitter: @ketab_n

الكتاب

الساعة الخامسة والعشرون

تأليف

قسطنطين فيرجيل جيورجيو

الطبعة

الأولى، 2016

عدد الصفحات: 544

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-816-9

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 - 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

Twitter: @ketab_n

فانتانا

- 1 -

قالت سوزانا تُحدِّث إيوهان موريتز وهي تلتصق به:

- لا يمكنني أن أصدق أنك ذاهب!

ووضعت يديها على رأس الرجل وراحت تداعب شعره الأسود. فتراجع هذا خطوة، وأجابها بصوت خشن:

- لِمَ لا تصدقين؟ لن ينبثق فجر بعد غد، إلا وأكون قد ذهبت.

تمتمت:

- إنني أعرف ذلك!

لبثا واقفين قرب السياج. كان الجو رطباً، والليل قد مضى أكثر من نصفه... أخذ إيوهان يدي المرأة وأزاحهما جانباً وقال:

- والآن، الوداع!

فقالت متوسلة:

- البثْ وقتاً آخر!

- لِمَ تريدينني أن أبقى؟ ...

كان صوته ثابتاً جازماً... أردف:

- إن الوقت متأخر، وعلي أن أشتغل غداً.

لم ترد عليه، بل ازدادت التصاقاً به، وكشفت طرفي القميص

Twitter: @ketab_n

عن صدر الرجل، ثم أراحت وجنتها على صدره، ورفعت عينيها إليه. . .

قالت:

- إن النجوم جميلة!

كان ينتظر منها شيئاً آخر. ظن أنها استَبْقَته لتقول له شيئاً مهماً، وإذا بها تحدِّثه عن النجوم. فتخلص منها وأراد أن يبتعد. لكنه تذكر أنه سيسافر قريباً، وأنه سيغيب ثلاث سنوات على الأقل، وعندئذٍ نظر بدوره إلى النجوم يُجاريها في أفكارها.

- أصحيح أن لكل رجل نجماً في السماء، فإذا مات سقط نجمه؟

فأجابها:

- لست أدري!

ثم أضاف وقد صمَّم على الذهاب:

- إلى اللقاء!

سألت:

- هل لنا - نحن أيضاً - نجوم في السماء؟

أجاب موريتز:

- ككل الناس: في السماء أو في نفوسنا!

وأمسك برأس المرأة بين يديه؛ فأزاحه عن صدره، ومضى. لبثت ترافقه ويده في يدها، حتى بلغا الطريق. كانت تنظر إلى النجوم وتنظر إليه. قالت:

سأنتظرك غداً مساءً!

- إذا لم تمطر السماء.

أرادت سوزانا أن تسير معه شوطاً آخر، وأن ترجوه المجيء حتى ولو أمطرت السماء، لكنه ابتعد عنها بخطى واسعة، واختفى

Twitter: @ketab_n

عند منعطف الطريق وراء البستان. لبثت المرأة جامدة في مكانها برهة، وهي تسوي ثوبها حول وركيها، لتزيل عنه الأعشاب التي علقت به. وقبل أن تدخل إلى الباحة، ألقت نظرة أخيرة على الحشائش المتكسرة تحت شجرة الجوز، حيث كانت مستلقية بالقرب منه منذ قليل. كانت رائحة جسد موريتز - وهي مزيج من رائحة الأعشاب والتبغ وبذور الكرز - ما زالت عالقة في خياشيمها...

قطع إيوهان موريتز الحقل، واتجه نحو البيت، وهو يصفر لحناً. كان يرتدي سراويل سوداء عسكرية المنشأ، وقميصاً أبيض يكشف عن عنقه. وكان حافي القدمين. توقف مرّات عن الصفير ليتثاءب، وراح يفكّر في المرأة التي فارقها منذ حين... راح يفكّر في سوزانا، وأراد أن يبتسم وهو يهمس في سره: «تحدثني عن النجوم... إن النساء كالأطفال، يطرحن على أنفسهن مجموعات من الأسئلة عديمة النفع» انتقل بتفكيره إلى الرحلة التي سيقوم بها بعد يومين، إلى أميركا. ثم لم يعد يفكّر في شيء. عاد يصفر وهو يشعُر بالنعاس. كان يتمنى لو كان في تلك اللحظة، نائماً في غرفته، إذ كان عليه أن ينهض مبكراً جداً... سيكون الغد آخر أيام عمله. ها إن الفجر قد انبثق أو كاد، وستشرق الشمس بعد سويعات... راح إيوهان موريتز يحثّ الخطى...

- 2 -

توقف إيوهان موريتز عند الفجر، أمام عين القرية، وحسر قميصه عن عنقه، ثم أخذ الماء بين يديه، وراح يغسل وجهه وعنقه. ثم توسط الطريق، وراح يجفف يديه بتمريرهما على شعره؛ ثم سوى ياقة قميصه دون أن يغلقها عند فتحة العنق من الأمام، وألقى نظرة

Twitter: @ketab_n

على القرية. كان الضباب الأبيض الكثيف على وشك الانقشاع عن قرية فانتانا الرومانية. وكان إيوهان موريتز قد وُلِد فيها منذ خمسة وعشرين عاماً. تذكّر وهو يتأمل تلك القرية، ببيوتها الصغيرة، وأبراج النواقيس الثلاثة الشامخة فوق كنائسها الثلاث: الأرثوذوكسية، والكاثوليكية والبروتستانتية، - سوزانا، حينما سألته: عمّا إذا كان لن يذبل ويسقم إذا ابتعد عن تلك القرية، وتذكر جوابه عن سؤالها: بأنه رجل! وأن النساء وحدهن يذبلن. فشعر بموجة من الأسف تنتابه تلك اللحظة، وأشاح بوجهه عن المنظر، ومضى وهو يصفر على عادته!

كان منزل القس ألكسندرو كوروغا، قائماً على جانب الطريق، بالقرب من الكنيسة الأرثوذوكسية. وكان بابه مغلقاً. فانحنى إيوهان، وأخذ المفتاح المخبأ أسفل الباب، والذي وضع خصيصاً هناك، لتسهيل دخوله عندما يحضر لمباشرة عمله كل صباح، ففتح الباب الثقيل المصنوع من خشب البلوط بتمهل، ودخل الباحة. فهرعت إليه الكلاب تبصبص أذنابها، وتقفز حوله بمرح... لقد كانت تعرفه وتأنس به، لأنه كان يشتغل لدى القس ألكسندرو كوروغا، منذ ستة أعوام مضت، فكان كل يوم - في خلال هذه الأعوام الست، يدخل إلى هذه الدار كما يدخل مسكنه... لكن اليوم، كان آخر أيام عمله، ولسوف يقضي نهاره يجني ثمار التفاح، ثم يقبض أجره، ويعلم القس بذهابه، لأنه لم يكن مُطلعاً بعد على عزمه على السفر.

دخل إيوهان موريتز المَكدَس، فحمل السلال، ووضعها على العربة الصغيرة. وفي تلك اللحظة، خرج القس إلى الشرفة، مرتدياً قميصاً من القماش الأبيض، وسراويل النوم التي درج على ارتدائها قبل أن يأوي إلى الفراش. كان يحمل في يده دلو ماء. فحياه موريتز

Twitter: @ketab_n

باسماً، ووضع السلال أرضاً، وهو يفرك يديه، ثم هرع إلى الشرفة، يأخذ الدلو من يد العجوز ويقول:

- انتظر، سأصب الماء على يديك.

أخذ إيوهان يصب الماء على يدي القس. كان ينظر إلى أصابع يديه، تلك الأصابع الطويلة المعقدة، التي يكسوها الجلد الأبيض أشبه بأصابع النساء. كان ينظر بسرور إلى ذلك العجوز، وهو يدلك بالصابون، لحيته ووجهه وعنقه. فسها وهو في استغراقه، عن يدي القس الممدودتين، المطالبتين بالماء لإزالة الصابون الذي يغمرهما. انتبه موريتز إلى نفسه، وشعر بخطئه، فاحمرّ وجهه.

كان القس كوروغا، راعي الكنيسة الشرقية في القرية. وكان يناهز الخمسين من عمره، رغم لون شعر رأسه ولحيته، الذي كان أبيض كالفضة. كان طويل القامة، رقيق العود، هزيلاً يشبه القديسين الذين تُشاهَد صورهم مرسومة على «أيقونات» الكنائس الأرثوذوكسية، لكن نظرته الملتمعة، وصوته المرح، كانا يُشعران بأنه ما زال شاباً.

فرغ الكاهن من غسل يديه ووجهه، فجفّف وجهه وعنقه بمنشفة من الكتان الغليظ. وكان موريتز واقفاً أمامه والإناء في يده. قال:

- أودّ أن أتحدث إليك يا أبي.

فأجابه الكاهن:

- انتظر ريثما أرتدي ثيابي.

ثم استعاد آنية الماء من يد إيوهان موريتز، ومضى نحو المنزل. فلما بلغ العتبة، التفت إليه وقال وهو يبتسم:

- وأنا كذلك سأتحدث إليك. إنّ لدي نبأ سيسرُّك سماعه. أما الآن فخُذ السلال إلى العربة وجهِّزها.

Twitter: @ketab_n

أمضى إيوهان موريتز والقس كوروغا ذلك الصباح، في جني التفاح وملء السلال به. كانا صامتين. ولمّا دنت ساعة الظهرية، توقف الكاهن، وأسدل ذراعيه تعباً.

- لنسترح قليلاً.

فأجاب موريتز:

- لنسترح.

اتجها نحو الأكياس الملأى بالتفاح، وجلسا فوقها. واستغرقا في الصمت من جديد. بحث الكاهن في جيوبه عن علبة السجائر التي كان يأتي بها معه دائماً، ليقدم منها إلى موريتز. فلما وجدها، مدّ يده بها إليه وقال:

- كنت تريد أن تحدثني بشيء.

- هو كذلك.

أشعل موريتز لفافة، وألقى بعود الثقاب على الحشائش، ولبث يراقبه حتى انطفأ. كان يشعر بصعوبة في إنهاء عزمه على الذهاب إلى الكاهن... كان يود لو تريث قليلاً. فأنقذه الكاهن من تردده بقوله:

- أريد إطلاعَك على الخبر الذي عندي أولاً.

سُرّ موريتز، إذ أتيح له أن يحتفظ بما عنده، ولو إلى حين. أردف الكاهن يقول:

- لقد أصبحت الغرفة الصغيرة، الكائنة قرب المطبخ، فارغة. وقد فكّرت في أنك قد تقبل السكنى فيها. لقد طلَت زوجتي جدرانها بالجير مرة أخرى، وعلقت على النوافذ ستائر صغيرة نظيفة. إنني أعرف أنه ليس لديكم في الدار، مكان كافٍ، إذ إنك وذويك، تأوون إلى غرفة واحدة. فاحمل معك غداً أمتعتك، عندما تحضر، لأن الغرفة باتت لك.

- لن أحضر غداً يا أبي.

Twitter: @ketab_n

- ليكن إذن بعد غد. إن الغرفة ستبقى لك.

قال موريتز:

- لن أعود بعد اليوم يا أبي، لأنني مسافر غداً إلى أميركا.

حملق الكاهن في وجهه وقال:

- غداً؟

- غداً عند الفجر!

كان صوت موريتز ثابتاً، لكنه كان مشوباً بلهجة أسف. أردف:

- لقد تلقيت رسالة، والباخرة راسية في «كونستانزا»، ولم يبقَ على موعد إقلاعها إلا ثلاثة أيام.

كان الكاهن يعرف أن موريتز راغب في السفر إلى أميركا. لأن عدداً كبيراً من القرويين الشبان، ارتحلوا إليها وعادوا بعد عامين أو ثلاثة، وجيوبهم عامرة بالمال، فاشتروا أجمل مساكن القرية وقطع الأرض، وعادوا يعملون فيها لأنفسهم. وكان الكاهن مسروراً لذهاب موريتز، لأنه سيحصل بدوره بعد سنين قليلة، على المسكن الجديد، والأرض الحسنة، أسوة بالآخرين. لكنه دهش لسفره المفاجئ القريب، الذي لم يكن موريتز قد حدّثه عنه، رغم أنهما كانا يشتغلان كل يوم، جنباً إلى جنب، من الصباح حتى المساء.

قال موريتز:

- لقد تلقيت الرسالة البارحة.

- أوَتسافر وحيداً؟

- بل مع غيتزا إيوان، وسنشتغل وقّادين على ظهر الباخرة، نُعنَى بالمراجل، وبذلك لن ندفع من مجموع أجر الرحلة إلا خمسمائة «لي» عن الشخص الواحد. إن لغيتزا صديقاً في كونستانزا، وهو يشتغل في المرفأ. وهو الذي أكّد كل شيء.

تمنى له الكاهن حظاً سعيداً، وهو يأسف لرحيله. فقد كان

Twitter: @ketab_n

إيوهان موريتز شاباً مخلصاً في عمله، طيّب القلب، شريف النفس. لكنه كان فقيراً لا يملك شبراً من الأرض. استمر الرجلان في عملهما بقية اليوم، والكاهن يتحدث عن أميركا، وموريتز يصغي إلى حديثه، كان موريتز يزفر بين الحين والحين. . . لقد شعر في تلك اللحظة، بأسف حقيقي لفراق ذلك الرجل الطيب. . .

حان المساء، وانتهى العمل. فوقف موريتز أمام الكاهن مُطرق الرأس، ولبث كذلك لحظة طويلة، لا يجد في نفسه القوة على مغادرة المكان. بعد أن نفحه الكاهن أجره، ربت على كتفه وقال مشجعاً:

- اكتب إليّ حال وصولك. وتعال غداً لأخذ الربطة التي وعدتك بها. لسَوف أزوّدك بما تأكل طيلة الطريق.

ثم أعطاه خمس ورقات نقدية من فئة المائة «لي» وأضاف:

- تعال منذ الشفق، واقرعْ زجاج النافذة بهدوء، لأنني أفضّل أن لا تسمع زوجتي شيئاً. إن النساء كما تعلم، شديدات البخل. سوف أهيّئ لك كل شيء منذ هذا المساء. فمتى تودّ الرحيل؟

- قبل شروق الشمس. إذ عليّ أن أقابل غيتزا إيون عند طرف القرية.

- حسناً. إن الوقت يسمح لك إذن، بالمجيء إلى هنا، قبل الذهاب إلى صديقك. غير أنه يمكنك المجيء هذا المساء بدلاً من الغد.

- بل أفضّل الغد يا أبي.

كان موريتز يفكر في سوزانا، التي كانت ولا شك تنتظره هذا المساء.

Twitter: @ketab_n

وضع الكاهن كوروغا كيس المؤونة تحت النافذة، إلى جانب الجدار، ثم أطفأ المصباح، وأوى إلى سريره. راح يفكّر قبل النوم في إيوهان موريتز ورحلته إلى أميركا. لقد شعر وهو يهيّئ كيس المؤونة بشعور غريب، خُيّل إليه معه، أنه هو الذي سيسافر إلى أميركا. عادت به الذاكرة إلى ثلاثين عاماً خلت: كان قد حصل على شهادته في علم اللاهوت، وتطوّع في عداد المبشرين الذاهبين إلى المستعمرة الأرثوذوكسية في مشيغان، وكان قد هيأ أمتعته كما فعل إيوهان موريتز اليوم. لكنه قبل موعد الرحيل بأسبوع، أبرق يعتذِر عن قبول منصبه، لأنه تعرَّف إلى زوجته وتزوجها. ومنذ ذلك الحين أصبح راعي القرية. والقرية صغيرة جداً، والحياة فيها خشنة. لقد أسِف مراراً على تخليه عن تلك الرحلة والمنصب الذي كان سيتولاه، لكن الأسف ما كان يُجديه فتيلاً. ظلّت أميركا في حلمه: فكلما عزم قروي على السفر إليها، كان يعطيه مؤونة كافية، وسجائر، ويطلب إليه أن يكتب إليه حال وصوله، رسائل عن أميركا. كان يعمل ذلك دون إطلاع زوجته. وما كانت الزوجة لتستنكر فعلة زوجها، غير أن الكاهن كان يعتقد أنه كلما فكّر في أميركا، كان في تفكيره لون من عدم الإخلاص لزوجته، لأنه رفض الذهاب إليها من أجلها. وظلّت تلك المعركة النفسانية ناشبة في قلبه، كامنة فيه. غير أن سفر إيوهان موريتز، لم يكُن كسفر الآخرين: لقد كان إيوهان موريتز موضع ثقته، وبذهابه شعَرَ أن جزءاً حياً منه قد ذهب إلى العالم الجديد.

كان القمر بدراً والكاهن كوروغا لا يطيق النوم. نهض من فراشه، وأضاء النور، ومضى إلى مكتبته التي كانت رفوفها تحتلّ

Twitter: @ketab_n

جدران الغرفة الثلاثة، وأخذ كتاباً. كانت الرفوف تنوء بالكتب، بين إنجليزية، وألمانية، وفرنسية، وإيطالية، ويونانية، ولاتينية. كانت كلها أصدقاء قدماء له. كان يتساءل أحياناً عن سبب عزوفه عن التدريس في الجامعة. رغم أن أصدقاء له من «إيازي» و«بوخارست» أغروه بذلك. لكنه رفض مرتين، مقعد أستاذ في التاريخ الكنسي، ولم يأسف قط لهذا الرفض. كان في فانتانا، يُقيم شعائر الصلاة، أيام الآحاد والأعياد. أما بقية الوقت، فكان يشتغل في أرضه، ويعتني بمناحله وبستانه وثماره. فإذا حلّ المساء، خلا إلى كتبه يقرأ، تاركاً للقدر، طائعاً مختاراً، أن يرسم له خطوط مستقبله. لقد حاول مرة واحدة أن يعاند القدر، وكان ذلك عندما قرّر الذهاب إلى أميركا. فأعدَّ كل العدة لذلك. لكنه رغم استعداداته الجمة لم يذهب، لأن أمراً غير متوقع وقف في طريقه. وكان له في ذلك الدرس، ما جعله عازفاً عن وضع الخطط، ومحاولة تنفيذها.

تساءل الكاهن: «هل أنا آسف حقيقة لعدم ذهابي إلى أميركا منذ ثلاثين عاماً؟ وإذا كنت غير آسف، فلِمَ هذه الحمى الغريبة، التي أشعر بها اليوم لذهاب موريتز؟» جذب الغطاء على نفسه واسترسل في تفكيره: «إنه ليس الأسف للبقاء، بل إنه الحنين. الحنين إلى شيء نعتقد بصحته في خيالنا، شيء لن نمتلكه أبداً. وإذا امتلكناه، فإننا سرعان ما نجد، أنه لم يكن هو موضوع أحلامنا. لعلّ أميركا لم تكن هدفي المنشود. لعلها كانت حجة اكتئابي. إن أميركا ليست إلا اختراعاً لفقه حنيننا. وقد يكون عدم رؤيتها، أقل خيبة لآمالنا، ممّا لو شهدناها حقيقة».

مع ذلك، فإن الكاهن كوروغا، لم يكن يستطيع النوم. كان شديد الاضطراب/ منفعلاً، ينتظر بفارغ صبر بزوغ النهار، وكأنه كان هو الذي ينتظره غيتزا إيون، عند طرف القرية، ليذهب معه إلى

Twitter: @ketab_n

كونستانزا، حيث تنتظرهما الباخرة، التي لن تبقى في المرفأ، أكثر من ثلاثة أيام.

عندما استيقظ بعدئذٍ، كان الظلام ما زال مخيِّماً، غير أن صياح الديكة، كان يعلن قرب شروق الشمس. كانت الطريق خالية، والقرية يلفّها ضباب أبيض كثيف. فتح الكاهن الكيس، ووضع فيه رزمة «السجائر» التي كانت على المنضدة وهو يقول: «إذا كان إيوهان ذاهباً، فإنني لن أحتاج إلى هذه «السجائر»، وأنا الذي اشتريتها من أجله». شهد من النافذة انبثاق النهار، فناجى نفسه بقوله: ينبغي أن يُسرع في الحضور، إذا شاء أن لا يتأخر عن موعده». سمع صوت خطى على الطريق، لكنها تجاوزت المنزل، وضاعت في البعيد. خرج إلى الشرفة، وغسل وجهه بالماء البارد. غير أن إيوهان موريتز، لم يكن هناك، ليصبّ الماء على يديه.

أشرقت الشمس، ولم يحضر إيوهان موريتز. لبث الكاهن ينتظره حتى ساعة الإفطار، فلمّا لم يحضر، ظنّ أنه صحا متأخراً، فلم يجد متسعاً من الوقت، ليمرّ بمسكنه، قبل لقاء صديقه، لأخذ الكيس. فغمغم: «يا للأسف! لقد جمعتُ له مؤونة ثلاثة أسابيع، كانت ستكفيه، حتى في أيامه الأولى هناك». نادته زوجته قائلة:

- ألا تفطر يا ألكسندرو؟

وظهرت على عتبة الباب. فقال الكاهن:

- سأحضر حالاً.

دفع الكيس تحت السرير. وهو يشعر بقلبه يعتصره الأسف، ذلك الأسف الذي يحسّ به المرء، كلما عدل عن أمر ما، عدولاً نهائياً. لقد ضاع أمله الأخير، في الوصول إلى أميركا، ممثلاً بشخص موريتز. فلوّح بيده، كما فعل منذ ثلاثين عاماً، ومضى إلى غرفة المائدة.

Twitter: @ketab_n

حدّث نفسه قائلاً: «لو أن إيوهان موريتز، أخذ هذا الكيس، الذي هيأته له، لشعرتُ بأنني ذاهب بنفسي. لكنني آسف لأنه لم يحضر. وغمغم باللاتينية يقول: مَن يعمل للغير فكأنه يعمل من أجل نفسه».

- 4 -

عندما غادر إيوهان موريتز منزل الكاهن، توقف عند النبع الكائن على جانب الطريق، فسفح الماء على وجهه وصدره، وتوجّه نحو الجانب الآخر من القرية، حيث يقطن نيكولاي بورفيري. وكانت لنيكولاي هذا، أرض على تخوم الغابة، يريد بيعها. فلمّا دخل باحة مسكنه، قال له:

- سأذهب غداً إلى أميركا. وعندما أعود، سيكون لديّ من المال، ما أشتري به هذه القطعة من الأرض. لكنني أودّ قبل مغادرتي القرية، أن أعطيك عربوناً، كي لا تبيع الأرض إلى سواي.

سأل القروي:

- كم من الوقت تمضي هناك؟

- عامين أو ثلاثة، بينما أحصل على ما يكفيني.

- نعم إن ثلاث سنين كافية. ولم أرَ من قبل شاباً، مكث فيها أكثر من هذا الوقت، لأن المرء يكسب المال بسهولة في أميركا.

سأل موريتز:

- كم تريد عربوناً على الثمن؟

- لستُ في حاجة إلى المال. إذا عدت في خلال ثلاث سنين، بمبلغ خمسين ألف «ليّ»، فإنك ستحصل على حقلي، الذي لن أبيعه لأحد. سوف أنتظر أوبتك.

Twitter: @ketab_n

غير أنّ موريتز. أخرج من جيب سرواله، رزمة من الأوراق النقدية راح يعدّها على عتبة المسكن، ثم قال:

هناك ثلاثة آلاف «لي». من الخير أن أدفع لك عربوناً.

تمت الصفقة؛ فضغط إيوهان موريتز على يد نيكولاي بورفيري. ولمّا كان الوقت غير شديد الظلمة، فقد أراد أن يلقي نظرة على الأرض. لقد رآها من قبل مئات المرات، وكان يعرفها تماماً، غير أنه في تلك اللحظة، لم يكن مجرد عابر سبيل. كان الأمر مختلفاً بالنسبة إليه، لأن الحقل بات ملكه، ولم يكن عليه إلا أن يعود بالمال.

- 5 -

سار إيوهان موريتز مخترقاً الحقول، بخطوات حثيثة، وكان العرق يغمر جسمه، الذي التصق به القميص. لم يكن يطيق السير متئداً! ولما بلغ غابة البلوط، توقف فجأة. كانت أرضه تمتد من مكان وقوفه على تخوم الغابة، وكانت مزروعة بالذرة التي كانت تبلغ مستوى كتفيه. لم تكن الأرض كبيرة، لكنها كانت كافية لبناء دار حولها فناء وبستان ثمار. راح يقدِّر أبعادها بنظره، ويقيسها طولاً وعرضاً، خُيِّل إليه أنه يرى منذ الآن، وراء ذلك النبات الأخضر الجميل، سقف المنزل، ودولاب البئر، وباب الإسطبل، المصنوع من خشب البلوط السميك. كان يرى غالباً مثل ذلك المشهد بعين خياله، لكنه في تلك المرة، رآه بوضوح أشدّ. كان كل شيء يبدو حقيقياً مطابقاً لرغباته. ابتسم إيوهان موريتز. كانت الريح تحني سوق الذرة الخضراء، وتموّجها أشبه بالبحرِ الزاخر، مُحدِثة هديراً يَروق للسمع؛ فانحنى على الأرض، وملأ ملء قبضته من ترابها.

Twitter: @ketab_n

كانت التربة حارة، وكأنها مخلوق حي في يده... كانت حرارتها تشبه حرارة الجسد، حرارة عصفور دوري، إذا أطبق المرء على جسده بيده. انحنى مرة أخرى، وملأ يده اليمنى بالتراب، ثم انتصب واقفاً، وضغط على أصابعه بشدة، ثم فتح يده، وترك التراب يتسرب من خلال أصابعه، بخطوط ناعمة دقيقة. واخترق المزروعات متجهاً نحو الغابة، فلمّا بلغ منتصف الحقل، انحنى مرة أخرى ليجمع تراب الأرض في يده، وناجى نفسه، وهو يمرغ خدّه بذلك التراب، ويشم عبيره: «إنه ساخن أيضاً. إن له رائحة التبغ، رائحة الأرض». رفع إيوهان مويتز رأسه، وتنفس ملء رئتيه مرّات متلاحقة، ليملأها بشذى الأرض المعطر. اتجه به التفكير إلى سوزانا فغمغم: «إنها تنتظرني»، ومضى في طريقه يصفر.

- 6 -

كان منزل إيورغو إيوردان، والد سوزانا، قائماً عند طرف القرية. وهو منزل كبير، يغطي سقفه قرميد أحمر. اتجه إليه موريتز، مخترقاً البساتين، ميمّماً شطر فنائه، فلما بلغ السياج، توقف وراح ينظر من خلال ثغرة فيه. كان إيورغو إيوردان في تلك اللحظة، على شرفة منزله، يسير ببطء، فيغلق درفات النوافذ، بعضها بالرتاج، والبعض الآخر بالمفتاح. راح موريتز يراقب حركاته، فلمّا انتهى إيوردان من عمله، نظر حوله نظرة مستريبة، وهبط درجات السلم الخشبية، التي كانت تئن تحت وطأة جسمه العملاق. كان يرتدي كعادته سترة خضراء، وأحذية قصيرة، وسراويل الفرسان. اخترق البستان الذي يحيط بمنزله، واتجه نحو الباب، فسحب الرتاج وراءه بعنف، وأدار المفتاح في القفل مرتين، ثم عاد وهو يتأرجح في

Twitter: @ketab_n

مشيته، فدار حول المنزل، متفقداً جنباته، وكأنه يبحث عن شخص مختفٍ في مكان ما في الظل، وأخيراً دخل المنزل من بابه الخلفي، وسمع موريتز صوت المفتاح يُدار في القفل مرتين. ولم يلبث أن ران السكون. دخل إيورغو إيوردان غرفة نومه، التي كانت جدرانها مغطاة برؤوس الحيوانات التي اصطادها، بين وعول وذئاب ودببة. كانت بعض البنادق والمسدسات ومناطق الذخيرة، معلَّقة بين النسور المحنطة، وقرون الوعل، وإلى جانب السرير الضخم، فرش جلدان أسودان، وطأهما إيورغو إيوردان بقدمه، وأخذ بندقية أسندها إلى السرير، ثم أخرج مسدساً من درجه، وشمعة وعلبة ثقاب، وضعها جميعها على المنضدة بجانبه، وجلس على السرير لاهث الأنفاس، فخلع حذاءيه، ووضعهما الواحد بجانب الآخر. كان من عادته أن يترك أحذيته في مكانها المعين، ليجدها في الظلام، كلما احتاج إليها، بمجرد أن يمدّ يده إليها. ثم خلع ثيابه، واستلقى على السرير، غارقاً في الوسائد البيضاء، وكأنه دبّ مستلقٍ على الثلج. شهد إيوهان موريتز النور ينطفىء: لقد تناقص النور أولاً، ثم ارتعد، ثم اختفى، وأصبحت النوافذ سوداء، وكأنها أفواه الظل. أما غرفة إيولاندا، زوجة إيورغو، فقد كانت مضاءة، لكن نورها كان محجوباً، ضئيلاً، لأنه كان قبل بلوغه النافذة، يضيع في طيات الستائر الحريرية. كان الناس يتهامسون بأن إيولاندا تعيسة، وأنها وصلت منذ خمسة وعشرين عاماً مع إيورغو إيوردان إلى تلك القرية، ممتطِيَين جياداً، فحطّا رحالهما في خان القرية. ولم يكن أحد يعرف من أين أتيا، لكن الناس خمنوا أنهما أتيا من مكان قصي. كانت إيولاندا رومانية، أما هو فلا. وقد اتضح فيما بعد، أنهما نزحا عن هنغاريا. كانا يرتديان آنذاك، فراء طويلاً، وبعد أن التهَما كفايتهما من الشواء، وشربا كؤوساً من الخمر، ناما في غرفة صاحب الخان.

Twitter: @ketab_n

كان زوجها يأكل كالغول، أما هي فكانت كالعصفور، لا تكاد تمسّ طعامها. ولم يمضِ على وصولهما ثلاثة أيام، حتى أشيع في القرية، أنهما لن يغادرانها. وصدقت الشائعة، إذ لم تمضِ أسابيع قليلة، حتى اشتريا الخان. كان إيورغو إيوردان، لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الرومانية، عندما وصل إلى فانتانا. أما الآن، فقد أصبح يتكلمها جيداً، كأبنائها. غير أنه لم يكتسب في خلال ربع قرن، أي صديق في القرية، وكذلك زوجته. وقد عمد الوالدان إلى عدم إرسال ابنتهما سوزانا، إلى مدرسة القرية، دفعاً لارتباطها بأية علاقة مع أبناء القرويين الآخرين، فأرسلاها بدلاً من ذلك، إلى المدينة. كان القرويون لا يرون إيولاندا إلّا في الكنيسة الأرثوذوكسية أو عندما تقصد المدينة في عربتها، منطوية منكمشة، بجانب إيورغو إيوردان. كان العملاق أطول منها بمرتين، وكان لها شعر أشقر كالحرير المشغول، وعينان زرقاوان. وكانت سوزانا، تشبهها شبهاً غريباً، حتى إن المرء لَيَخلط بينهما. ذلك كان كلّ ما يُعرف في القرية، عن إيورغو إيوردان. أضف إلى ذلك، أنه ذات شتاء، قتل رجلاً كان يحاول الدخول إلى منزله. لقد قتله ببندقيته، بطلقة أصابته بين عينيه، وادّعى رجال الدرك، أن إيورغو إيوردان، لم يتجاوز حقه، وأنه كان يستطيع قتل أي رجل، يتسلل إلى بيته ليلاً، ليسرق نقوده. غير أن القرويين، ما كانوا من رأي الدرك، لأن الجريمة، هي دائماً جريمة، لكن هذه القضية، لم تلبث أن نُسيَت، بعد أن مرّ عليها زمن طويل.

شاهد إيوهان موريتز من ثغرة السياج، النور يخبو ويرتعد لحظة، ثم ينطفىء. فأحاط فمه بكفيه، وهتف: هو! هو! هو!

ضمّها بعنف إلى صدره فأحاطت عنقه بذراعيها. كانا تحت شجرة الجوز، حيث التقيا الليلة الفائتة، وكل الليالي الأخرى، منذ الأشهر الأربعة، التي قضياها مع بعضهما، بعد تعارفهما. أحسّ

Twitter: @ketab_n

بثقل المرأة بين يديه، فأسندها ومددها على العشب، واستلقى بجانبها، وتداخل جسماهما، وتعاقدا كالحيتين، أو كالنبات المتسلق. كانت الأيدي تبحث عن الأيدي في الظلام، والشفاه تلتصق ببعضها، برغبة وشوق، وقد أغمضا عيونهما. وفي مكان ما من بستان إيورغو إيوردان، كانت الصراصر تردِّد غناءها الوثير. لبثا متعانقين صامتين. وكان ثوب سوزانا، أشبه ببقعة زرقاء على الحشائش، لأنها نزعته عنها، خشية أن يتلوث، أو أن يتسخ فتراه أمها. وكانت الغيوم القاتمة قد نضت عن صفحة القمر، وتبددت حوله، فراحت أكتاف المرأة العارية، تلتمع في الظل. كان موريتز قد نزع قميصه، ووضعه تحت جسد سوزانا، فبدا، إلى جانب الكتفين الأبيضين، صدر موريتز الأسمر، الذي يشبه قلافة الشجر.

قالت المرأة:

- إياني، لا تذهب.

فأجابها مكتئباً:

- لِمَ تقولين ذلك؟ إنك تعلمين أنني إذا لم أذهب إلى أميركا، لن أستطيع شراء الحقل، وأنني إذا كنت لا أمتلك أرضاً، لن نستطيع الزواج. إلى أين تريدين أن نمضي، إذا كنا لا نملك أرضاً، ولا بيتاً؟ ثلاث سنين، وبعدها أعود بالمال، وسنتزوج. ألا تريدين أن نتزوج؟

- بل أريد. غير أنني لا أريدك أن تذهب.

- وكيف أشتري الأرض وبأي شيء؟

ابتسم إيوهان موريتز وأردف:

- لقد أعطيت نيكولاي بورفيري عربوناً على أرضه. وعندما أعود، سأدفع له رصيد قيمتها.

اخترقت صيحة موريتز الفضاء، وردّدها الصدى، ثم عاد

Twitter: @ketab_n

السكون، ولم تمضِ لحظة، حتى فتحت درفات نافذة، وقفزت سوزانا منها، فاخترقت البستان جرياً على أطراف قدميها، ثم خرجت من الباحة، عن طريق الثغرة في السياج، حيث كان إيوهان موريتز ينتظرها.

- 7 -

سألت:

- لِم انتقيت هذه الصيحة؟ لِمَ هذه الزمجرة؟ لماذا؟

كانت قد اجتازت السياج، وبلغت حيث كان موريتز، فأراد أن يعانقها، غير أنها تحاشته. كانت ترتعد مذعورة، وصدرها يعلو وينخفض، تبعاً لوجيب قلبها.

- ألم أخطرك بعدم النداء هكذا؟

سأل إيوهان موريتز:

- وكيف كنت تريدينني أن أصيح؟

- اهتف كيفما تشاء. غير أن صياح البومة، مجلبة للبؤس. إنه إنذار بالموت!

- خرافات النساء العجائز! ليس هناك طير آخر، يغرد ليلاً نهاراً، وفي الأوقات العاصفة، شتاء، وصيفاً، غير البوم. هل تعرفين طيراً آخر؟ إن العندليب لا يغرِّد إلا في الصيف. فإذا قلدت صوت العندليب، أدرك أبوك، أن رجلاً ينتظر، وليس طائراً. أتريدين أن يعرف العملاق، أنني أناديك؟

- كلا لست أريد، لكن البوم يجلب الدمار!

- إنها ليست خطيئتي. لماذا لا يكون هناك طائر آخر، يغني في كل الفصول، وفي كل الساعات، دون أن ينذر بالموت؟ ثم لماذا

Twitter: @ketab_n

نختصم؟ لقد جئت هذا المساء أدعوك للمرة الأخيرة. ولن يكون هناك ما يدعونا إلى التستر في المستقبل سأذهب صباحاً في طريقي إلى أميركا، وستصبحين زوجتي عند عودتي، ولن أكون مضطراً إلى الاختباء وراء السياج، وتقليد صوت البوم.

قصّ إيوهان موريتز قصة ذهابه إلى صاحب الأرض، ودفعه المال، ومروره بالأرض. ووصف لها الدار التي سيبنيها، والإسطبل، وكل شيء.

قالت سوزانا دون أن تصغي إلى حديثه:

- إياني، إذا ذهبت، فلن تراني حية عند عودتك.

انزعج موريتز، وكلح وجهه وقال:

- ماذا دهاك؟

- لا شيء. إن هاتفاً يقول لي ذلك. لك أن لا تصدِّقني، لكنني عند عودتك سأكون قد متّ.

أجاب موريتز:

- كلا. لن تموتي. ستكونين عند أبيك وأمك، كما أنت اليوم. إنك لست وحيدة. ولن أقلق من أجلك. لأنك لست عند غرباء، بل عند والديك.

راحت المرأة تبكي بهدوء، فعانقها وسألها:

- ماذا بك؟ ماذا دهاك؟

كانت شفتاها باردتين، مخضلتين بالدمع المالح.

- لو حدثتك بشأني، لقلت إن لي آراء المجانين، آراء النساء. لذلك يُستحسن أن لا أحدثك بشيء.

- لن أقول إنها آراء النساء.

قالت:

- أعتقد أن أبي يريد أن يقتلني!

Twitter: @ketab_n

فأجابها بصوت خشن:

- مَن الذي حشا هذه الفكرة في رأسك؟ كيف يقتلك أبوك؟

إنني أعرف أنك لن تصدقني، لكنني أرتعد من الخوف. إنني أحسّ أنه سيقتلني. لقد شعر أبي بشيء ما، ولست أدري كيف شعر. ومن أجل ذلك يريد قتلي.

- شعر أبوك بماذا؟

- بحبنا.

ابتعد إيوهان موريتز عنها. كان جسد سوزانا ظاهراً كالرخام على العشب. سألها:

- هل حدَّثك بذلك؟

- كلا.

- هل عنَّفك؟

- كلا.

- إذاً كيف عرفتِ أنه شعر بعلاقتنا؟

- إن قلبي يحدِّثني بذلك.

وراحت تبكي وتشج.

- إنه ليس قلبي فحسب... ظُهر اليوم، عندما حملت الأطباق إلى المائدة، نظر إليّ أبي نظرة غريبة. كانت نظرة حق، ثم هتف بي: «استديري نحو الجدار»، فاستدرت. شعرتُ أنه ينظر إلى وركيّ، ثم قال استديري نحو النافذة» ونظر إليّ أيضاً نظرة طويلة، نظرة جانبية، ثم حدّق في بطني ووركي. كان ينظر إليّ، كما ينظر إلى خيوله، ويفحصها، وفجأة صرخ غاضباً: «اخرجي من هنا أيتها الحقيرة!» وامتنع عن الطعام. ولقد خرجت، وأنا واثقة من أنه أَلَمَّ بكل شيء وعرفه. لقد عنّفني من قبل لما كنت صغيرة، بل وضربني

Twitter: @ketab_n

حتى أدمى جسدي. لكنه لم يقُل لي مرة «حقيرة» أما ظهر اليوم، فقد صرخ «اخرجي من هنا أيتها الحقيرة!».

سأل موريتز:

- كيف استطاع معرفة كل شيء، وهو الذي لم يرنا أبداً معاً؟

- إنه لم يرنا معاً، ولكنه على علم بكلّ شيء!

- ولكن كيف يستطيع معرفة ذلك؟

- بمجرد النظر إليَّ.

ضحك إيوهان موريتز، وقبّل المرأة في جبينها.

- لو أنه نظر إليك من خلال منظار، لما استطاع الكشف عن شيء. أتعتقدين أن نتائج الحب تُرى بهذا الشكل؟ إن كل هذا ليس إلا هراء!

- إنني أعرف أن ذلك لا يُرى عادة، لكن أبي يختلف عن سواه. إنه يعرف ذلك بمجرد النظر إلى أفراسه. إنه بمجرد النظر إليها، يستطيع أن يؤكد إذا كانت ستلد مهراً أم لا تلد. إن أصدقاءه لا يخالفونه في هذه النقطة.

- هل أنت حبلى حتى يبدو ذلك؟

- كلا لست حبلى.

- إذاً ليس هناك أي خطر. بعد عامين أو ثلاثة، أعود ومعي المال. سوف نشتري الأرض، ونتزوج في كنيسة الكاهن كوروغا. سوف نبني بيتاً جميلاً، وسنكون سعداء أليس كذلك يا سوزانا؟

ضمَّته إلى صدرها بكلّ قواها، وهي ترتعد كما لو كانت خائفة. وقالت:

- لو أنك بقيت هنا لما خفت. أما وأنَّك سترحل، فإنني سأموت هلعاً، حتى ولو أن أبي لم يقتلني ببندقيته، فإنك لن تجدني على قيد الحياة عند عودتك. لسوف أموت من الخوف في غيبتك.

Twitter: @ketab_n

إنني أغلق الباب بالمزلاج والقفل كل ليلة. فإذا ما سمعتُ وقع خطى أبي، دفنتُ رأسي تحت الوسادة. لأنني خائفة.

مرَّر إيوهان موريتز يده على كتفيها، وجذبها إلى صدره، وأخذها بين يديه، دون أن ينطق أحدهما بكلمة. كانت تشعر بسعادة غامرة بقربه، وكان سعيداً إذ يراها تكفّ عن البكاء. ولمّا صاح الديك، نهضا. فارتدت سوزانا ثوبها الرطب البارد، الذي بلَّله الندى، ولبس موريتز قميصه، وأمسك بيد سوزانا، وقادها قرب السياج. ثم شيَّعها بنظره وهي تتسلَّل من الثغرة. ولم تكد تختفي وراء السياج. حتى أطلقت صرخة قصيرة. فاشرأبّ إيوهان موريتز بعنقه، ليرى ماذا حدث، غير أن سوزانا لم تكن موجودة في الباحة كانت ملتصقة به وهو لا يدري كيف عادت إليه. حتى كانت ترتعد كأوراق الخريف. كان جسدها دافئاً، وأنفاسها مبهورة. نظر إيوهان موريتز من خلال الثغرة، فرأى نافذة سوزانا مضيئة مفتوحة على مصراعيها، وإيورغو إيوردان في جلباب النوم، يتجول في طول الغرفة وعرضها، وبيده مصباح موقد، وكأنه يبحث عن شيء ما. فراح موريتز يمسح بيده على شعر المرأة، ويضمها إلى صدره، ليمنعها عن رؤية أبيها. لكنها كانت قد رأت كلّ شيء. ولأنها رأت كل شيء، كانت تزداد التصاقاً به. كانت لا تستطيع البكاء لشدة رعبها وارتعادها. سمعا صوت إيورغو إيوردان يسبّ ويصخب. فحدَّق موريتز، يتأمل جسم العملاق، وقد وقفت في ظله إيولاندا، بشحبها الهزيل الناعم. ولبث ذلك المشهد تحت أنظار موريتز لحظة واحدة، ولما أدار العملاق ظهره إلى النافذة، حجب بجسده الضخم، زوجته عن أنظار موريتز، ثم سمعا صيحات إيولاندا، صيحات حادّة تمزق القلب وتفطره، وتتغلغل في مسامات الجلد متفجرة. وفجأة انطفأ النور، ولبثت النافذة مفتوحة، ولكن مظلمة،

Twitter: @ketab_n

بينما استمرت صرخات إيولاندا، تشقّ الظلام وتمزّقه، صرخات تزداد يأساً، وهلعاً، وألماً، لم تلبث أن خبت ببطء، فلم تمضِ برهة، حتى بلغت مسامعهما، أشبه بحشرجة مكتومة، توقفت بعد قليل. كانت التعسة قد سقطت على الأرض، وإيورغو إيوردان يسحقها، بضربات من قدميه، في الغرفة المظلمة، ومن مكانهما، كان موريتز وسوزانا يرتعدان.

قالت المسكينة:

- أمي! إنه يقتل أمي.

انتزعت نفسها من بين ذراعي موريتز، وهمت بالاندفاع نحو الباحة، والذهاب إلى البيت، لكنه قبض عليها بشدة، وهو يلاطفها. وفجأة تخلى عنها، لأنه كان يريد أن يهرع إلى نجدة المرأة، التي كانت على وشك الموت. كان يدرك أنه إذا تأخر فترة أخرى، فإنه سيصل - إذا وصل - بعد فوات الوقت. كانت عضلاته متقلِّصة، متوترة. غير أنه لم يبادر إلى نجدة إيولاندا. إنه لم يكن مسلحاً، بينما كان في متناول يد العملاق، بنادق وأسلحة. وكان العملاق قوياً، وكأنه قُدّ من صخر، فكانت عزيزة موريتز، تُحرِّم عليه القتال، لأنه كان عبثاً.

حمل إيوهان موريتز سوزانا بين ذراعيه. فكانت تتخبط على صدره، وترتعد. لكنه ضمّها إلى صدره بعنف، وراح يبتعد بخطى حثيثة، مخترقاً الحقول. كان يشعر بإحساس غريب، يحدِّثه بأن العملاق، يبحث عن سوزانا، وبندقيته في يده. فأراد أن يخفيها. أراد أن يذهب بها بعيداً، بعيداً ما أمكن، عن ذلك البيت، ذي القرميد الأحمر. كان يجري بعينين مغمضتين، وهو يعتقد أن خطى العملاق تلاحقه، وأنه يريد أن يقتل هذه المرأة، التي يحملها بين ذراعيه.

Twitter: @ketab_n

مضى إيوهان موريتز يخترق الحقول متجنباً الطريق. تعثر مرّات ومرّات، بمكامن الخلد، فلم يحافظ على حمله إلّا بمعجزة. شعر بالتعب في ذراعيه وساقيه. لقد ظلّ يمشي فترة طويلة، لأن ذراعيه كانتا متشنجتين، وخطواته منهوكة، والعرق ينثال على جبينه، فيخترق الحاجبين والأهداب، لينصبّ في عينيه، فيعميهما. توقف وسط حقل الذرة، وأنزل حمله إلى الأرض، لأنه كان على آخر رمق. مدّد سوزانا على الأرض الندية، وأسدل ثوبها على ركبتيها، ووضع يديها على صدره، وراح ينتزع من حوله أوراق الذرة، ليعمل منها وسادة، وضع عليها رأس سوزانا، ثم أخذ أوراقاً أخرى، راح ينثرها فوق الجسد، حتى غطاه بها، وسوزانا صامتة لا تريم. كان موريتز يلمس بتحنان صدغيها، ووجنتيها، وشعرها. وأخيراً، نهض واقفاً. كان الألم يمزّق جسده. كان يحس به في كل مكان: بين كتفيه، وفي ذراعيه، وعضلاته.

حدَّث نفسه بقوله: «لقد جريت زمناً طويلاً»، ورفع رأسه إلى السماء، فإذا هي صافية الأديم، زرقاء. استطاع من مكانه، أن يحدِّد الخطوات القليلة، التي كانت تفصله عن غابة البلوط. فلم يشأ أن يصدِّق عينيه. لعله حلم. لكنه تحقَّق. إنها كانت حقيقة، فراح يرتعد كالقصبة الجوفاء. كلا إنه لم يكن يحلم. لقد بلغ مع سوزانا، حقل نيكولاي بورفيري، حيث قادهما إليه، فرارهما الأعمى. كانت تلك الأوراق التي انتزعها، والتي كانت ترقد سوزانا تحتها، وتضع رأسها عليها، أوراق ذلك الحقل، الذي دفع عربونه مساء أمس.

سالت دموع إيوهان موريتز على خديه، واختلطت بالعرق. بكى

Twitter: @ketab_n

بهدوء، فوق تلك الأرض، التي أدرك الآن، أنها لن تكون له، لأنه لن يذهب إلى أميركا.

- 9 -

كان إيوهان موريتز، يستطيع رؤية القرية كلها، من حيث كان يقف. راح يتأمل البيوت البيضاء، وينظر إليها واحدة واحدة، من طرف القرية إلى طرفها الآخر. ثم عاد بنظره إلى المرأة الممدَّدة تحت قدميه، تكسوها أوراق الذرة. كان يسائل بنظره البيوت، واحداً واحداً، وكأنه يبحث عن المكان الذي يأويها. أما هو، فقد عدل عن السفر، عدل عن الأرض، لأن المرأة التي يحبها، كانت في حاجة إليه، فما كان يستطيع التخلي عنها، لكن ذلك لم يكن كافياً. كان يجب عليه إيجاد مأوى لها. ما كان يستطيع إلا أن يطرق باباً من اثنين: بيته، وبيت الكاهن كوروغا. أما البيوت الأخرى، فقد كانت مغلقة في وجهه، لأن القرويين، كانوا يخافون إيورغو إيوردان. أما والداه، فما كان لديهما إلا غرفة واحدة،لا مكان فيها لسوزانا، وما كان ليستطيع أن يحمل إلى بيت القس، امرأة لم يكن بعد، قد تزوجها. لم يكن يريد أن يسبب للكاهن أية متاعب. فلو أن الكاهن كوروغا، أوى إليه سوزانا وأضافها، فإن إيورغو إيوردان، سيأتي ولا شك، والبندقية في يده، ليصفي حسابه معها. وكان موريتز يعرف ذلك علم اليقين، ولا يريد أن يقع ذلك، لكن سوزانا، ما كانت تستطيع البقاء حيث هي، في ذلك الحقل. وبعد لحظة تفكير، عاد إيوهان موريتز، يحمل سوزانا بين ذراعيه، وراح يسير في طريق القرية. كانت المرأة شاحبة الوجه، وكان يسمع ضربات قلبها البطيئة المتزنة، فحثَّ خطاه، لأنه أراد بلوغ

Twitter: @ketab_n

القرية بأسرع ما يمكن. كان يناجي نفسه بقوله: إنها مريضة من الخوف».

- 10 -

لم يصل موريتز إلى منزله، إلّا وكانت الشمس قد أشرقت. فأنزل سوزانا من بين ذراعيه، وأوقفها قرب الجدار، وراح ينظر إلى المشرق. كان غيتزا إيون ينتظره في تلك اللحظة، عند طرف القرية الآخر. صرف على أسنانه مستجمعاً شجاعة، وأدار ظهره إلى الشمس، ودخل المنزل. كان يريد أن يحمل أبويه على استقبال سوزانا. وكان ذووه نائمين. كانت أريستيتزا، أم إيوهان، امرأة سريعة الغضب. فحاول هذا تجنّبها، والتحدث مباشرة مع أبيه. لكنه ما كان يجتاز العتبة، حتى رفعت أريستيتزا رأسها عن الوسادة.

سألت:

- أتريد أن تأخذ متاعك؟ إنه قرب الباب.

لم يجب موريتز. فكرَّرت أمه السؤال وأردفت:

- ما بالك واقفاً هكذا كالجرة؟ هيا عانق أمك، وودّع أباك وأسرع.

لا تنفق كل نقودك هناك، بل حاول أن تعود ببعضها.

أجاب إيوهان:

- لقد عدلتُ عن السفر إلى أميركا.

- عدلت عن السفر؟

قفزت الأم مروعة منتصبة:

- نعم.

- وهل عدل غيتزا كذلك؟

Twitter: @ketab_n

أجاب موريتز:

- بل إن غيتزا سيذهب.

شعرت أريستيتزا أن في الأمر شيئاً غامضاً، فنهضت وارتدت ثوبها وسألت:

- ما الخبر؟ هل اختلفتَ مع غيتزا؟

- كلا.

- إذن ما الخبر؟

انتصبت أريستيتزا واقفة في وسط الغرفة، وراحت تقترب من ابنها غاضبة. فقال هذا:

- لم يحصل شيء إطلاقاً. كل ما في الأمر، أنني أريد أن أتزوج. لذلك لن أذهب.

كان صوته مرتعداً، لا يدري كيف يبدأ، وأين ينتهي. ففرزت أريستيتزا أظافرها في ابنها، وراحت تهزّه. فقال هذا:

- إنني لن أتناقش معك، بل أريد التحدث إلى أبي.

فصاحت:

- بل إنك ستتناقش معي! ليس بطن أبيك الذي حملك، بل هو بطني.

قال الأب وهو يرفع الغطاء عن رأسه:

- اهدئي يا امرأة.

كان يريد تخفيف غضبها، غير أن أريستيتزا لم تصغِ إلى قوله، بل استمرت تصخب، وهي تضرب بطنها بيديها:

- لقد انتزعت عصلي أنا، ورضعتَ لبني أيها الأثيم، والآن تعزف عن التحدث إليَّ!

قال موريتز:

- سأتحدث إليك أيضاً.

Twitter: @ketab_n

كانت أمه تنتحب، فأراد أن يُسكتها:

- سأحدثك، وأقسم لك، ولكن اهدئي.

جلست العجوز على طرف السرير، وجعلت رأسها بين يديها. كانت تشعر بجرح في كرامتها. غير أن الألم ما كان يستطيع إسكاتها، لأنها لم تكن تستطيع السكوت أبداً. هتفت:

- بمن تريد أن تتزوج؟

- سأقول لك حالاً، ولكن اهدئي أولاً.

- أريد أن أعرف من تتزوج. إنني أمك، ولي حق معرفة التي ستتزوج بها.

وقال الكهل:

- أعلِمها يا إيون. أعلِمها حتى تصمت.

كان الأب يرى أن أريستيتزا على وشك الصياح من جديد. وكان إيوهان موريتز، يعرف اسم سوزانا، لن يخفِّف من ثائرتها، بل على العكس. قال:

- سأتزوج بابنة إيورغو إيوردان، سوزانا.

قفزت أريستيتزا نحوه، لا لتمزِّقه إرباً، بل لتعانقه.

هتفت وهي تعانقه، وتقبّل عينيه، ووجنتيه، وجبينه:

- إنني أفهم لِمَ عدَلت عن الذهاب.

وعادت إلى القُبل والعناق وأردفت:

- إنك لست غبياً حتى تذهب إلى أميركا، فتكدح كالحيوان، لتعود بعد سنوات، وقد خسرتَ قواك، وفتك بك المرض، لقاء بضعة ألوف في جيبك. لقد اتَّبعت نصحي بزواجك من فتاة غنية.

ومضت نظرتها ببريق السرور، وقالت مسترسلة:

- سأكون غنية، وستكون لي أثواب من المخمل، وعربة. سوف أُقيم في منزل إيورغو إيوردان، لأن ذلك من حقي، حقي أنا،

Twitter: @ketab_n

أريستيتزا. لأنني أنا التي جعلتُك ذكياً جميلاً لتخلب لبّ أغنى فتاة في القرية، وتتزوجها، فتاة لها بيت من الحجر، تحته «قبو» ولها أراض شاسعة، وعربة، وخيول.

قال العجوز:

- اهدئي يا امرأة!

غير أنّ صوته كان متهدجاً. لأنه كان منفعلاً هو الآخر، تهدهد خياله، تلك الثروات الطائلة، التي ستهبط عليه من السماء. راح يلف «سيجارة» دون أن يبرح سريره.

استرسلت أريستيتزا:

- سأقطن في مسكن إيورغو إيوردان، حميك. أما أنت، (وخاطبَت زوجها). فستبقى هنا. ينبغي أن أكون أنا، بالقرب من ولدي، إذ مَن ذا الذي يستطيع إسداء النصح لزوجته، خيراً مني؟

قال موريتز:

- أماه. إن هذا ليس كل شيء.

- قل ما تشاء يا عزيزي. إنّ أمك تصغي إليك.

- عديني أن تصغي إليّ بهدوء.

- أعدك بكل ما تريد.

كانت أريستيتزا تداعب وجنته. فقال هذا معقباً:

- أماه إنني أتزوج سوزانا، دون موافقة إيورغو إيوردان.

فقالت أريستيتزا:

- كل ما يهمني من الأمر، هو أن تتزوج بها. وسأكون أنا حماة ابنة إيورغو إيوردان الثري، ولا يهمني سواء شاء أم أبى.

- ستكونين حماتها لكنك لن تكوني غنية.

سألت أريستيتزا:

- مَن الذي سيأخذ المال؟ ليس لإيورغو إيوردان إلّا ابنة

Twitter: @ketab_n

واحدة، ولا يمكن أن يزوِّجها دون بائنة. إنّ كل شخص في القرية، يعرف أنه دفن في قبو منزله، جِراراً ملأى بالقطع الذهبية. لا تهتم بهذا الموضوع، لسوف أتدبره بنفسي. إنك لا تفقه مثل هذه الأمور.

قال إيوهان:

- أماه. إنني أتزوج سوزانا، وليس نقودها.

- لعلك لا تزعم أنك تفضل الفتاة على المال؟

- بل هو كذلك يا أمي.

- أيها الأحمق! لكنني أفهمك. دعني أعمل. إنهم لن يستطيعوا خداعي بهذه السهولة.

خيِّل لأريستيتزا أنها في تلك اللحظة، تناقش إيورغو إيوردان، مصمِّمة على أن لا تدع له، حق حرمان ابنته، من أي قرش من بائنتها.

قصّ إيوهان موريتز الحكاية على العجوز، فانتفضت أريستيتزا وسألت:

- كيف؟ ألا تريد أن تعود إلى مسكن أبيها؟

فأجاب إيوهان موريتز:

- كلا. إنّ أباها ليَقتلها إنْ هي عادت.

قال أبوه الكهل:

- لسوف يقتلها. إنه لا يمزح. إن الفتاة على حق، لأن أباها وحش حقاً. إنه إذا غضب، انتزع بندقيته، وأطلق النار على الفور. حتى إنّ خيوله لم تسلم من غضبته مع أنه، والله يعلم، يحبها أكثر من عيون رأسه. إنه قادر على قتل ابنته، إذا عادت، وخصوصاً الآن، بعد فرارها من بيته.

قال موريتز:

- إنك تفهم الحقائق تماماً.

Twitter: @ketab_n

فأجاب الأب:

إن الأمور على شكلها الواقع. سهلة مفهومة. إنني أعرف الأب معرفة طيبة.

فقالت أريستيتزا:

- لكننا بعد بضعة أيام سنستطيع إرسالها إلى بيتها. سوف أذهب معها.

قال إيوهان موريتز:

- لن تعود سوزانا إلى منزلها، لأنني لا أريدها أن تعود!

سألت العجوز:

- ولكن ماذا عساك فاعلاً، إذا لم تكن تملك مالاً؟ إنك لن ترضى بأن تموت جوعاً معها؟ إن النساء كثيرات لمن يقبل الزواج بهن دون بائنة. إن أحداً لا يقبل الزواج دون بائنة. فهل أنت سترتكب مثل هذه الحماقة؟

- إنني أتزوجها دون بائنة!

- لقد غدوتَ مجنوناً! أتعدل عن كل شيء، في سبيل امرأة؟ أتعدل عن الذهاب إلى أميركا من أجل امرأة؟ من أجلها! كلّ هذا من أجل أنثى حقيرة، لا تساوي نقيراً؟

وقال الأب العجوز:

- إن أمك على صواب، فلا تكن أحمق. اذهَب إلى أميركا. ومتى عدت، فستشتري قطعة من الأرض تبني عليها دارك، وتستطيع بعد ذلك أن تتزوج. لن تعدم امرأة بين كل النساء!

قال موريتز بإصرار:

- لن أذهب إلى أميركا.

فأجابه العجوز:

- لأنك تظن أنك تأخرت. إن غيتزا ما زال ينتظرك ولا شك

Twitter: @ketab_n

عند طرف القرية، والشمس لم ترتفع بعد. فإذا أسرعت خطاك بلغته حيث ينتظر.

- أتطلب مني هجر الفتاة، والسفر إلى أميركا؟ هل تملك مثل هذا القلب يا أبي؟

سألت أريستيتزا:

- أين الفتاة؟

فأجابها موريتز:

- أمام الباب!

انتفَض العجوزان وتغيّرت سحنتاهما. ونظرت أريستيتزا من النافذة، بينما وقف موريتز أمام الباب، ليمنعها من الخروج وقال:

- أماه، أريد سؤالك معروفاً: استقبلي سوزانا واحتفظي بها بضعة أيام حتى أجد مكاناً أحملها إليه. إنها ابنتك الآن.

انفجر غضب الأم وصاحت:

- أتريد أن تُبقيها هنا؟ أتريد أن يقتلنا إيورغو إيوردان: أباك وأنا؟

وقال العجوز:

- إنك تدري أننا لا نكاد نجد مكاناً من أجلنا. فأين تستطيع أن تنام؟ كلا يا أيون إن هذا مستحيل.

وصاحت أريستيتزا:

- لعلك تريد أيضاً أن نطعمها؟ أن نقطع القوت عن أفواهنا، لنعطيه لها؟

أطرق موريتز إلى الأرض. كان يعرف سلفاً أنه سيصطدم بأمه وممانعتها، غير أنه كان يأمل في موافقة أبيه، فقال:

- ستبقى سوزانا إذن حتى المساء فقط، لأنني لا أدري أين أمضي بها. سنذهب مساءً إلى المدينة حيث سأبحث لنفسي عن

Twitter: @ketab_n

عمل. إنها مريضة، وينبغي أن تستريح قليلاً، لتستطيع السير حتى المدينة. إن الخوف الذي أصابها الليلة، سبّب لها كثيراً من العناء.

فقالت العجوز غاضبة:

- ليس لدينا اليوم ما نأكله. فإذا أردتها على أن تنفق جوعاً، فإنك تستطيع تركها هنا.

قال موريتز:

- سآتيها بالطعام. غير أنها لا تقوى على الوقوف على قدميها. وينبغي لها أن تنام.

صرخت أريستيتزا:

- إنّ أباك مريض، وعليه أن يلازم سريره كل الوقت. فأين تجد لها مكاناً للنوم؟ أتنام وأباك في سرير واحد؟

- إذا لم يكن هناك مكان في البيت، فإنها ستنام فوق القش، خارجه، حيث أنام.

فقالت أريستيتزا:

- إنني أوافق على ذلك. غير أنني لن أطعمها كسرة خبز. ليس عندي شيء لها.

استدار إيوهان موريتز يهمّ بالخروج. لكنه توقّف على العتبة وخاطب أباه قائلاً:

- أرجو أن تكونا طيبين معها، في خلال الوقت القصير الذي ستقضيه هنا! إنّ ما بها يكفيها تعاسة!

صاحت أريستيتزا:

- أيها الأثيم، أتَجرُؤ على إعطائنا درساً في آداب السلوك؟ هل تعلِّم البيضة الدجاجة كيف ينبغي أن تبيض؟ بدلاً من ذهابك إلى أميركا، وجني المال، تلصق بنا هذه الفتاة وتحمِّلنا عبئها، وتريد أن تُطعمها فوق ذلك، ثم ينتهي بك الأمر إلى إسداء النصح!

Twitter: @ketab_n

وانحنت أريستيتزا لتأخذ قطعة من الخشب تضربه بها. كان موريتز قد أَلِفَ منها قارص الكلام، والصفع والضرب. فقد أمضى طفولة، كانت سلسلة طويلة من الضرب والشتائم.

قال وهو يبتسم:

- هل ستكونان طيِّبَين معها؟ سأعود على الفور. إنني ماضٍ لآتي لها ببعض الطعام.

ثم غادر الغرفة.

كانت سوزانا في مكانها جامدة، تنتظره أمام البيت. فداعب موريتز شعرها وقال:

- إنني ماضٍ إلى القرية وسأعود بعد قليل. ألا تريدين النوم قليلاً؟ عندما تستيقظين، ستأكلين ما آتيك به، وبعدئذٍ، سنمضي إلى المدينة.

أجفلت سوزانا لمجرد فكرة المشي التي عرضها وقالت:

- ألا نمكث هنا؟

- كلا. تعالي!

وأنهضها بين يديه، وقادها إلى الناحية الخلفية من البيت حيث المكدس وأسجاها فوق القش وهو يقول:

- نامي الآن! وإلا فإنك لن تستطيعي السير إلى المدينة. إن المسافة لا تنقص عن عشرين كيلومتراً.

ابتسمت له سوزانا بامتنان، لأنها كانت في حاجة إلى النوم والانفراد. لم تكن تسمع كلامه بوضوح، لأنها كانت تشعر بالحمى تحرق جسدها، وبِدويّ مزعج في أذنيها.

قال إيوهان موريتز قبل أن يغادرها:

- إذا جاءت أمي تزعجك، فدعيها تقول ما تشاء، ولا تجيبيها بحرف لأنها غاضبة.

Twitter: @ketab_n

وغادرها على الفور. فلمّا بلغ الطريق، استدار برأسه ونظر نحوها وابتسم. لكنها كانت قد أغمضت عينيها.

- 11 -

خرجت أريستيتزا من الغرفة إثر خروج ابنها، ووقفت تتأمل جسد المرأة المتمددة فوق القش، ويداها إلى خاصرتيها. فتحت سوزانا عينيها، فرأت أريستيتزا بأنفها المدبب، الشبيه بمنقار النسر، ووجنتيها الذابلتين الزيتونيتي اللون. شعرت بخوف منها، فحوَّلت عينيها عنها. قالت العجوز:

- إنني أم إيون.

فأشارت سوزانا برأسها محيية ومجيبة. ثم جذبت ثوبها الأزرق فوق ركبتيها. نظرت العجوز إلى ركبتيها ووركيها، وكأنها تراها عارية، وقالت وهي تعجو وجهها:

- إنك تريدين الزواج أليس كذلك؟

فأجابت سوزانا:

- نعم.

قالت أريستيتزا:

- إنني أرى ذلك بوضوح. إنك ضخمة كالفرس.

أخفت سوزانا وجهها في القش. فاقتربت أريستيتزا منها، وصاحت في أذنها:

- إنك لن تجدي ذلك السخيف، الذي يتقبّلك زوجاً يا جميلتي. إن أحداً لن يأخذك دون بائنة، فإذا كنتِ قد ضاجعت ابني، فإن ذلك شأنك. لكنه لن يأخذك زوجة له.

Twitter: @ketab_n

اتّكأت سوزانا على مرفقيها متناهضة، وودّت لو ذهبت، لولا أن أريستيتزا كانت منحنية فوقها.

سألت سوزانا بذعر:

- هل ذهب إياني؟

كانت تريد أن تتحدث عن شيء آخر، غير أن العجوز بهتت، وصاحت:

- أي إياني؟ إنني لا أعرف أحداً هنا يسمى إياني.

فنظرت سوزانا إلى وجه العجوز بذهول، وارتجّ عليها القول.

عادت أريستيتزا تسألها:

- عن أي إياني تسألين؟ هل فقدتِ صوابك؟ إنك تظنين نفسك في غير هذا المكان.

غمغمت سوزانا بصوت منخفض مترددة:

- إياني، ابنك!

فأجابت العجوز بصوت خشن:

- إن ابني اسمه إيون. هكذا عمَّدته. بنفسي، أنا أمه، وليس لأحد الحق، في تبديل اسمه. هل تفهمين؟

شاهدت سوزانا، العجوز تشهر قبضتها مهدِّدة فقالت:

- لقد فهمت.

تذكرت أن إيوهان موريتز أوصاها، قبل مغادرته لها، بأن تكون مرنة، غير مشاكسة، فأضافت:

- إيون أو إياني إنه الاسم ذاته، أو على الأقل، هذا ما كنت أعتقده.

غير أنّ اعتذارها أثار العجوز. فهتفت:

- ألأنت التي تعلمينني اسم ابني؟ سأشجّ رأسك. أتجرؤين؟ أيتها المتبذلة القذرة!

Twitter: @ketab_n

قالت سوزانا:

- لم أكن أريد إزعاجك.

غير أن يدي العجوز أنشبت في كتفيها، وراحت تهزّها.

صرخت سوزانا، فبرز أبو موريتز في تلك اللحظة، مرتدياً جلباب النوم. لقد غادر سريره، استجابة للصيحات، وكانت لفافته بين شفتيه.

أفلتت أريستيتزا فريستها، واستدارت نحو زوجها، ممتقعة الوجه من الغضب. وقالت:

- هل سمعت من قبل بإهانة كهذه؟ إن هذه القذارة، تدّعي أنني لا أعرف اسم ابني. إنها تُخرجني عن طوري.

وانحنت إلى الأرض تلتقط حجراً وهي تقول:

- سوف أشجّ رأسها! لسوف أسحقها كما أسحق الأفعى.

فقبض العجوز على يدها، وقال وهو يدفعها نحو باب المكدس:

- اهدئي يا امرأة.

ثم اقترب من سوزانا، وأمسك بيدها، ونظر إليها بإشفاق وقال:

- لا تبكي! لا معنى لبكائك.

سألت سوزانا:

- أين إياني؟

- لسوف يعود فاطمئني.

شعرت سوزانا أنها في حِمى العجوز. كانت يده كبيرة خشنة البشرة.

قال العجوز:

- يا بنية. سأسدي إليك نصيحة، يجدر بك اتّباعها: عودي إلى ذويك.

Twitter: @ketab_n

راحت سوزانا تبكي، بينما تابع العجوز:

- لن تستطيعي البقاء هنا. وإذا بقيت، فلسوف تخنقك أريستيتزا، أو تشجّ رأسك. إنّ ذلك سيقع، وإني على يقين. وإنه من التعاسة أن يسيل الدم، لأنّ إيون سيذبح أمه إذا رأى ذلك، وستكون فعلته إثماً كبيراً. فلا ينبغي أن تحدث تلك المصيبة. أتسمعينني؟

- إنني أسمعك!

كانت شفتا سوزانا تتحركان بإعياء وجهد. فاسترسل الأب:

- إنني أوصيك أن تنهضي، وأن تذهبي على الفور. اذهبي قبل أن يعود إيون. ما عليك إلّا أن تجتازي حقل الذرة. عودي إلى أبيك وأمك. وإذا عاد إيون، قلت له أنك سرت على الطريق. وهكذا لن يجدك بعد ذلك. ولسوف تنسيان بعضكما. إنكما شابان، والشباب ينسى الحب بسرعة. هيا انهضي واذهبي!

لبثت سوزانا مشيحة بوجهها. كانت قد وضعت يديها على أذنيها تسدّهما، فلم تسمع شيئاً كثيراً ممّا قصّه الهَرِم.

عاد يسألها:

- ألا تودّين الذهاب؟

أراد أن يحملها بين ذراعيه، وأن يقودها إلى أهلها. لكنه شعر بأن إيون لن يغفر له ذلك. فنهض واقفاً وهو يقول:

- إذا وقعت مصيبة، فتلك خطيئتك! أما أنا، فقد قمتُ بواجبي. لقد أنذرتكِ.

عاد العجوز إلى المنزل، وبقيت سوزانا وحدها. ولم يلبث إيوهان موريتز أن عاد من القرية حاملاً إناء مملوءاً بالحليب، وضعه على النار ليغلي.

صرخت أريستيتزا:

- إنك لم تأتِ لنا من قبل بالحليب! أمّا من أجل هذه الساقطة،

Twitter: @ketab_n

فإنّ الأمر يختلف! كان خيراً لي لو خنقتك عندما كنت طفلاً، بدلاً من أن أحملك بين ذراعي، وأرضعك ثديي!

كان إيوهان موريتز راكعاً أمام الموقد، ينظر إلى النار وهي تتأجج، متصاماً عن سماع أقوال أمه. اقتربت أريستيتزا منه وصرخت:

- اخرجْ من فورك من بيتي، واحمل معك تلك العاهرة. طهّر المكان منها فوراً، وإلا قتلتها. إذا لم تُخفها عن عيني في الحال، خنقتها. سوف أخنقها بأصابعي هذه. أتراها؟

أجاب موريتز بهدوء:

- سنمضي بعد أن تشرب هذا الحليب.

لم يلقِ نظرة واحدة على أصابعها، على تلك الأصابع «التي ستخنق سوزانا بها» أضاف:

- سنمضي إلى المدينة، ولن تري وجهنا بعد ذلك.

سألت أريستيتزا:

- ألا تستطيع الكونتيسة الذهاب قبل أن تشرب حليبها؟! إنّ أمك ليست في حاجة إلى الحليب كل صباح، أما هي، فإنها في حاجة إليه.

أخذ موريتز الإناء قبل أن يغلي الحليب، وخرج دون أن ينظر إلى العجوزين.

سمعت سوزانا وقع الخطوات، فانتفضَت جَزِعة. فقال لها موريتز وهو يمدّ يده بالإناء:

- هذا أنا! لقد جئتكِ بحليب ساخن.

تمتمت سوزانا: .

- لا أريد حليباً.

- اشربي قليلاً على الأقل.

Twitter: @ketab_n

أخذت سوزانا وعاء الحليب من يده، فعاد إيوهان موريتز إلى البيت، ليأخذ كيس أمتعته. كان الكيس مُعداً من قبل، استعداداً لرحلته إلى أميركا، لو أنه ذهب.

سألت أريستيتزا:

- أتذهب معها؟

فأجابها:

- نعم.

صرَّت أريستيتزا على أسنانها وقالت:

- حسناً!

وبينما كان موريتز يأخذ ألبسته من تحت السرير، خرجت أريستيتزا إلى الباحة، واتجهت نحو سوزانا. فذعرت هذه، ووجَفَ قلبها. كان وعاء الحليب لا يزال في يدها.

صرخت أريستيتزا:

- انهضي على قدر ما تستطيعين النهوض. لسوف أسحقك بالضرب، أيتها الساقطة القبيحة. انتظريني، لسوف ترين!

وقبل أن تتمّ جملتها، قبضت على شعر سوزانا، وانهالت عليها تضربها، فاستغاثت المسكينة. وخيِّل لإيوهان موريتز، أنه يسمع صرخات إيولاندا، فهرع على الفور وصاح بأمه:

- أماه، ماذا تفعلين.

ألقت عليه العجوز نظرة قصيرة، فيها بريق من الحقد، وأهوت بيدها مرة أخرى على وجه سوزانا، دون أن تنظر إليها. ثم هربت واختفت بين الذرة.

كان وجه سوزانا ممتلئاً بالدم، وشفتاها متورمتين، وعيناها منتفختين، وكان إناء الحليب قد تحطم بين يديها، فترك آثاراً عميقة على معصميها، واختلطت نقاط الدم بالحليب، وتلطَّخ الثوب

Twitter: @ketab_n

الأزرق به. فحملها إيوهان موريتز بين يديه. ولمّا وصل إلى الباب، أخذ كيس متاعه، ثم مضى والكيس على ظهره، والمرأة بين يديه. كان الحملان ثقيلين، بل شديدَي الثقل، حتى ليتعذّر على المرء، أن يسير بهما، مرفوع الجبين. وهكذا مشى إيوهان موريتز متثاقلاً، ورأسه غارق بين كتفيه.

- 12 -

عند بزوغ الفجر، نهض إيورغو إيوردان، وأورَد خيوله الماء، وقدّم لها العلف، وراح يداعب رقابها بيده. كانت أربعة منها، تُستخدم في جر العربة. أما الأربعة الأُخر، فكانت للركوب فقط. كانت جميلة جداً، ذات لون أدهم، عربية المنشأ والدم، سريعة الجري، دقيقة القوائم. كانت هي كلّ أصدقائه، فراح يحدِّثها عن سوزانا، ويقصّ عليها ما يثقل قلبه من هموم. كان لا يثق بالرجال، أما خيوله، فكان إذا حدَّثها، نظرت إليه بعيونها الكبيرة المُضيئة، كالمرآة اللامعة. قال يحدِّثها:

- والآن. إنّ زوجتي تغوص في دمها، محطَّمة العظام، ملقاة على الأرض.

ولمّا لم تحر الخيول جواباً، اعتبر سكوتها لوناً من التأنيب فقال:

- إذا شئت حملتها إلى المستشفى!

لم تمضِ نصف ساعة، حتى اخترق القرية بعربته، متجهاً نحو المدينة. كانت إيولاندا ملفوفة بمعطف كبير، ممدّدة بين وسائد تحيط بها، وعيناها شاخصتين إلى الأفق. بلغ المستشفى مبكراً، واضطر إلى الانتظار أمام الباب، حتى الساعة الثامنة، إذ إنه لم يكن هناك

Twitter: @ketab_n

أي طبيب. كان إيورغو إيوردان، في خلال فترة الانتظار؛ يتحدث إلى خيوله، دون أن يلقي على زوجته نظرة، أو أن يوجِّه إليها كلمة. فلمّا بلغت الساعة الثامنة، حمل زوجته مع الأغطية والوسائد، وكأنه يحمل طرداً صغيراً، وذهب بها إلى غرفة المعاينة فكان أول داخل إليها. وبينما كانت الممرضة تنزع معطف المرأة، شاهد الطبيب رأسها المتورم، وجسدها المغطى بالدم. لبثت إيولاندا مسجاة، وهي في جلباب النوم الذي كان ملتصقاً بجلدها. كانت كتلة من الدم، صامتة لا تريم.

- مَن الذي ضربها؟

أجاب إيورغو إيوردان:

- ذلك لا يعنيك. اعتنِ بها، ولا تشغل فكرك بشيء آخر. إنك طبيب، وهذه مهنتك. ولهذا السبب، جئتُ بها إلى المستشفى.

رفض إيورغو إيوردان إعطاء تفسير آخر. فراح الطبيب يفحص إيولاندا، ثم نقلها إلى غرفة العمليات، لإجراء إسعاف مستعجل لها.

قال إيورغو إيوردان، وهو يحمل قبعته، ويتّجه نحو الباب:

- سأترككم وأعود إلى مسكني لتقوموا بعملكم. سوف أدفع كلّ النفقات، بل إنني أستطيع أن أدفع لكم مقدماً، إذا كنتم تستطيعون تكوين فكرة عن الحساب، قبل إجراء العملية. وإلا فإنني أستطيع أن أترك لكم، دفعة على الحساب.

ومدّ يده إلى جيبه، ليُخرج حافظة النقود. فقال الطبيب:

- إنك لن تستطيع الذهاب الآن. انتظر قليلاً.

- ولِمَ الانتظار؟

كان يكره أن يؤخِّره أحد. ويودّ ترك المستشفى بأسرع ما يمكن، لأنّ رائحة العقاقير كانت تصعد إلى رأسه، عدا عن أنه أحسّ بشيء من الشفقة. أخذ يشعر بشيء من الأسف، لأنه حطَّم امرأته

Twitter: @ketab_n

بالضرب، فراح يغمغم في نفسه: «وكأنه لا يكفي أنني وطأتها بقدمي، حتى يجيء هؤلاء الأطباء، فيقطّعونها بمباضعهم». كان يشعر بإشفاق، ولكنه لا يريد إظهاره. كان يريد الخروج بكل بساطة، ليتنفس ويملأ رئتيه بالهواء. لم تمضِ ربع ساعة، حتى وصل أحد المحققين ومعه دركي، فاستدعى إيورغو إيوردان إلى ديوان المستشفى، حيث راح يستجوبه. ألقى عليه طائفة من الأسئلة، حول اسمه الحقيقي، والمكان الذي يقطن فيه، وعمّا إذا كان هو الذي ضرب زوجته أم لا. فكان إيورغو إيوردان يُجيب مغمغماً، وعيناه جامدتان. أعلن المحقق؛ أنه يوقفه بسبب ضربه واعتدائه على زوجته، فلم يطرف. ولكن عندما وضع الدركي يده على كتفه، ليسوقه إلى السجن؛ امتقع وجهه وسأل:

- أتقودني إلى السجن؟

- نعم إلى السجن.

- وخيولي المقطورة إلى العربة أمام الباب؟ ماذا تعملون بها؟

ألقى المحقق نظرة على الدركي وسأل:

- أليس لديك مَن يعنى بها؟

فأجاب إيورغو إيوردان:

- ليس لي أحد يعنى بها.

فقال الدركي:

- لنعهَد بها إلى رجال المطافىء. إنّ لديهم غيرها، ولسوف يعنون بها أيضاً. ليس في السجن مكان لها.

شكر المحقق الجندي بابتسامة، لأنه أنقذه من ورطة. لقد كان المحقِّق، واسمه جورج دِاميان، حديث العهد بالمنطقة. وكانت هذه أولى قضاياه. ولم تكن لديه فكرة عمّا يفعل بالخيول.

عاد المحقّق إلى مكتبه، فلبث هناك حتى الظهر، ولمّا همَّ

Twitter: @ketab_n

بمغادرته لتناول طعامه، أعلم أن إيورغو إيوردان، قد حاول الانتحار، بضرب رأسه على جدران الزنزانة، وقد جاء في تقرير مدير السجن: «إنّ السجين أعلن في المستشفى، أنه حاول وضع حد لحياته، لأنه لا يستطيع أن يتصوّر، أن خيوله العربية الأصيلة الأربعة، ستنفق من الجوع والعطش. إن السجين على ما يبدو، شديد الشغف بالخيول، وإن حالته الصحية خطرة».

وقد ورد إلى قاضي التحقيق، إشعار آخر، ينبىء بموت إيولاندا، فشعر المحقّق جورج داميان بمرارة في حلقه. ولمّا قصد المطعم، غسل يديه بالماء والصابون فترة طويلة، قبل أن يجلس إلى المائدة، وهو مستغرق في تفكيره: «إن القانون سيعاقب إيورغو إيوردان لأنه ضرب زوجته ضرباً مميتاً. إنّ ضربه زوجته وواقع حبه العنيف لخيوله، ذلك الحب الذي لا يشعر بمثله نحو البشر، ليسا أكبر خطيئاته، بل إنهما مجرد التأثير المباشر، لعقلية معينة. إنها البربرية! هذا هو خطأ إيورغو إيوردان الوحيد! إنه ككل البرارة، يمقت البشر، حتى يبلغ به المقت حدّ إفنائه. إنّ أيّ قانون في العالم، لا يمكن أن يعاقب المرء على بربريته، رغمَ أن كل الجرائم الأخرى، تنتج عنها. إنّ البربرية لا تُعتبر غير قانونية، إلا في مناسبات محدودة جداً، ومبينة».

- 13 -

سارت سوزانا بضعة كيلومترات، ثم جلست على الأرض، إلى جانب الطريق. لقد كانت متعَبة مرتفعة الحرارة. قالت يائسة:

- لن أستطيع السير أكثر من ذلك يا إياني.

استلقَت على العشب منهوكة. كانا قد قطعا نصف المسافة بين

Twitter: @ketab_n

فانتانا والمدينة، فتركها تنام، بانتظار مرور عربة تحملهما. لكنه لم يرَ في الطريق إلّا عدداً من المشاة والخيالة، وما كادت الساعة تشرف على الخامسة بعد الظهر، حتى بدأ المطر يهطل. رفع موريتز عينيه إلى السماء والمطر البارد يغسل وجهه، وفكر في سرِّه: «لو أن المطر هطل مساء أمس، لما ذهبتُ للقاء سوزانا، ولبقيَت الآن لدى ذويها، ولكنتُ الآن على الباخرة في كونستانتزا. لو أن المطر هطل مساء أمس... ولكن، ليكن».

بدأ الظلام يزحف وئيداً، والمطر لم يتوقف. شعر موريتز أنّ عليه أن يتّخذ قراراً. قال وهو يلقي نظرة حانية على سوزانا:

- سأمضي إلى القرية لأستحضر عربة.

كانت قابعة تحت بعض الأغصان، تحتمي من المطر، وكان ثوبها وشعرها قد أغرقهما البلل، فكانت ترتجف مقرورة، وأسنانها تصطكّ ببعضها. قالت:

- كما تشاء يا إياني.

- ألا تخافين إذا لبثتِ وحيدة؟

- لن أخاف إذا كنتَ ستعود!

عانقها ومضى. فلما بلغ فانتانا، كان الظلام شديد الحلكة، والقرويون قابعون في دورهم، فراراً من المطر. قرع كلّ الأبواب، لكنه لم يجد أحداً يقبل مساعدته. كان القرويون يصرّون على معرفة اسم المرأة، حتى إذا أطلعهم عليه، وعرفوا أن الأمر متعلّق بابنة إيورغو إيوردان، اعتذروا ورفضوا مدّ يد العون. كانوا جميعهم يرفضون إيواءها، خشية من أبيها إيورغو إيوردان. ولمّا انتصف الليل، تخطى موريتز مدخل بيت الكاهن كوروغا. كان النور يشعّ من المكتبة: وأمام الباب، كانت سيارة سوداء، تلتمع كالمرآة، صافية

Twitter: @ketab_n

الأديم، تحت المطر. كانت أصوات تتعالى من بيت القسّ، فاستنتج موريتز: «أن لدى الكاهن زواراً». هَمَّ بمغادرة الباحة، دون أن يطرق الباب، مقتنعاً «أنه لا ينبغي أن يزعجه في تلك الساعة». كان المطر ينهمر مدراراً، والماء ينصب انصباباً، من أطراف سطح المنزل. فلبث موريتز يصغي إلى هذا الصوت الوتير برهة، وهو ساكن. وفجأة، تذكَّر أن سوزانا، تنتظره وحيدة على جانب الطريق. فقرع بهدوء على زجاج النافذة.

- 14 -

قال القس كوروغا لولده تريان:

- لقد وصلتَ في الوقت المناسب! كنت أريد رؤيتك.

كان الكاهن يساعد ابنه في نقل حقيبته من السيارة، وإدخالها إلى البيت. وكانت السيارة واقفة أمام الشرفة، غارقة حتى نصفها، في نبات الحلبلاب المتسلق، والورد البري. وكان المطر يهطل بغزارة.

سأل الكاهن، وهو يرى شاباً آخر يهبط من السيارة:

- أرى أنك لست وحيداً!

فقال تريان يقدّم صديقه لأبيه:

- أقدم لك جورج داميان، زميل في الجامعة، وصديق ممتاز. لقد قابلته بعد ظهر اليوم في المدينة. إنه وكيل النيابة الجديد لدى محكمة الصلح في مقاطعتنا.

اعتذر الكاهن للزائر، عن عدم عنايته بهندامه، لأنه لم يكن يتوقع زيارة في مثل تلك الساعة، وقاد الشابين، إلى غرفة الاستقبال، ثم انسحب فترة. راح وكيل النيابة يتأمل ساعة الجدار

Twitter: @ketab_n

الدقاقة، وقطع السجاد الشرقي، التي كانت تغطي الجدران، والرفوف المحمَّلة بالكتب. فقال تريان ضاحكاً:

- إنني أخمِّن ما تفكر فيه! إنك في دهشة إذ ترى أشهر الروائيين العصريين، الذي لا يفتأ يتحدث في مؤلفاته عن السيارة، والطائرة، والمشارب الحديثة، والأنوار الكهربائية، قد نشأ وقضى طفولته، في منزل حيث يبدو الزمان فيه متوقفاً، لأن كلّ ما فيه، يتحدث عن الماضي، دون أن تنال منه يد السنين الطويلة تبديلاً ولا تغييراً. ألستَ تفكِّر في ذلك؟

احمرَّ وجه وكيل النيابة وقال:

- الحقيقة أنني أفكِّر في ذلك!

دخل الكاهن في تلك اللحظة، فأضاء بيديه المعروقتين الهزيلتين، مصباحاً وضعه بوقار على المنضدة. فتح تريان حقيبته الجلدية، وأخرج منها بعض الرزم الملفوفة بعناية، فوضعها إلى جانب المصباح، ثم فتح زجاجة خمر، ودعا أمه إلى الغرفة. فلما حضرت، ملأ تريان الأقداح، وأخرج من غلافٍ مذَهَّب، كتابين مجلدين تجليداً أنيقاً، وقال:

- هذه هي روايتي الأخيرة، الثامنة. إنّ هذين الكتابين، هما أول ما أنتجته المطبعة. إنهما - كالعادة - لكما، ولسوف نشرب نخبهما من هذه الخمرة، التي اشتريتها من محلّ «كايسا». لقد شربنا منها عندما احتفلنا من قبل، برواياتي السبع السابقة. ألا تذكران سروري عندما صدرت روايتي الأولى؟

أخذ الكاهن الكتاب بين يديه، بمثل الاحترام الذي يوليه للكتب المقدَّسة التي يقرؤها أمام المذبح. أما الأم، فقد لسمت نسختها بأطراف أناملها، وتركتها حيث هي على حافة المنضدة وهي تقول:

- إن يدي متسختان، ولا أريد تلويث كتاب تريان بهما.

Twitter: @ketab_n

هتف الفتى يحدِّث زميله:

- ستكون النسخة الثالثة لك يا جورج!

قبَّل الكاهن جبين ابنه، وكيل النيابة، فقد صافحه بحرارة، وجاءت أم تريان تقبِّل وجنتيه، وهمست في أذنه صوت تعمَّدت أن يسمعه الآخرون:

- لم أقرأ مؤلفاتك الأخرى بعد، فاغفر لي. إن أباك قصَّ عليّ موضوعاتها. أما هذا، فإنني أريد قراءته بنفسي. لا أريد أن أموت، قبل أن أقرأ كتاباً، وضعه ولدي.

اهتزت عواطف تريان لحديث أمه، فقرع كأسه بكأسها، وكرَّر ذلك مع أبيه وصديقه، وشربوا جميعاً النخب. ولم تلبث الأم أن اعتذرت بأعمالها في المطبخ، فقال تريان:

- امكثي لحظة أخرى يا أماه! لقد جئتُ أراكما لأمر آخر، لا يقلّ في أهميته عن هذا.

وأخرج تريان كوروغا من جيبه مغلفاً، قدّمه إلى أبيه وهو يقول:

- هذه حصّتي من الريع، عن الطبعة الأولى. أريد أن أشتري بها أرضاً في فانتانا، وأن أبتني عليها مسكناً، أفضّل أن يكون قريباً منك؛ إذا أمكن يا أبي. سأبتني بيتاً أقطن فيه كل حياتي.

أخذ الكاهن الغلاف ووضعه على المائدة وهزّ يبتسم، وراحت زوجته تمسح عينيها بطرف مئزرها وهي تقول:

- إنني واثقة من أنك تقول ذلك لإدخال السرور على نفسنا. إنك لم تستطع مرة أن تمكث هنا، أكثر من أيام ثلاثة. إنك تعِدُ كل مرة أن تقضي شهراً معنا، فلا يمضي اليوم الثاني أو الثالث، حتى ترتحل، فلا نراك إلا بعد شهور طويلة.

فردَّ عليها تريان:

- صحيح. لكنني في هذه المرة، سأبتني بيتاً.

Twitter: @ketab_n

ألقى تريان نظرة على أبيه، ثم على وكيل النيابة، فلاحظ أنهما يعتبران توكيداته لوناً من المستحيل. فقال:

- أرى أن أياً منكم؛ لا يعتقد بصحة عزمي على تنفيذ ما أقول. لكنني سأدعوكم بعد عامين بالضبط، إذا بقيت على قيد الحياة، لزيارة منزلي في فانتانا. لعلَّكم تثقون الآن بوعدي، بعد كل هذا التأكيد.

- 15 -

بعد أن تناولوا طعام العشاء، سأل الكاهن ابنه عن مشاريعه الأدبية الجديدة، فبانَ التردُّد على وجه تريان ثم قال:

- إن روايتي المقبلة، ستكون كتاباً حقيقياً؛ لا تمتُّ إلى الأدب، إلا من حيث الأسلوب فقط. أما الأشخاص، فإنني سأنتقيهم من الحياة الحقيقية، فيمكن لأيٍّ كان، أن يراهم؛ ويحييهم في الشارع؛ لأنه سيعرفهم بعد قراءة الكتاب. إنني أفكِّر أحياناً في إعطاء عناوينهم؛ وأرقام هواتفهم أيضاً.

سأل وكيل النيابة باسماً:

- ومَن هم هؤلاء الأشخاص الذين ستذيع شهرتهم على هذا النحو؟

- إن أشخاصي سيكونون من الرجال الذي يعيشون على سطح الكرة الأرضية! ولما كان هومير[1] نفسه؛ يعجز عن كتابة قصة،

(1) هومير: شاعر يوناني عاش في القرن التاسع قبل الميلاد، اعتبر مؤلفاً للإلياذة والأوديسا. تتنافس سبع مدن شهيرة في شرف انتسابه إليها. وتمثله الخرافة هرماً أعمى متجولاً من مدينة إلى أخرى منشداً أشعاره. وقد ثبت أخيراً أن الإلياذة والأوديسا لكاتبين مختلفين. [المترجم]

Twitter: @ketab_n

أبطالها ملياران من الأشخاص، فإنني بدوري، لن آخذ إلا عدداً قليلاً؛ لا يتجاوز العشرة؛ لأنني لن أحتاج إلى أكثر من هذا العدد. مع ذلك، فإن هؤلاء العشرة؛ سيحيون الحوادث نفسها، التي يحياها الآخرون.

سأل وكيل النيابة:

- ستنتقي أشخاصك إذن على هدى الدوافع العلمية، لتجعلهم يمثلون الإنسانية على حقيقة جوهرها، أليس كذلك؟

- كلا. لسوف أنتقي شخصيات روايتي دون تمييز، وعلى هدى الظروف. إن المقاييس العلمية، غير ذات موضوع في نظري. لأن ما سيقع لأشخاصي العشرة، يمكن أن يقع لأي كان سواهم، ولو من حيث التشابه. لسوف أعنى في إيراد حوادث، لا يمكن للمخلوق البشري أن ينجو من الوقوع في مثلها. ولن أكون في حاجة إلى شخصيات، تقوم بدور البطولة، أو تكون ذات أهمية معيّنة، بل سأترك للصدف، أمر إبرازهم. وعلى ذلك، فإنني سأنتقي من بين مليارين من البشر، عشرة أعرفهم، أكثر من سواهم؛ أسرة كاملة: أسرتي مثلاً، أبي وأمي وأنا وأنت وخدم أبي، وبعض الأصدقاء والجيران.

ابتسم الكاهن كوروغا وهو يملأ الأقداح، بينما استرسل تريان:

- سوف أحصي الحوادث التي تقع لهؤلاء الأشخاص، في خلال أعوام مقبلة. إنني أعتقد أن أموراً خارقة ستقع، وأن المستقبل القريب، يخفي لكلٍّ منا، أشياء هامة، أشياء لم نرَ مثلها في التاريخ.

قال وكيل النيابة:

- إذا كان المستقبل ينبىء بنتائج على هذا المقياس المفجع، فإنني آمل ألا يكون إلّا في روايتك.

فأجاب تريان:

Twitter: @ketab_n

- إن الأحداث المحزنة، ستقع أولاً على مسرح الحياة، ثم أنقلها في روايتي.

سأل وكيل النيابة:

- أتعتقد بأنني سأحيا فترات مفجعة؟ أنت تعرف أنني أعيش حياة برجوازية، لا يمكن أن يعنى بها الجمهور. إنني على نقيض المغامر.

- يا صاحبي العجوز، إنّ معظم الناس على هذه الأرض، ليسوا مغامرين. مع ذلك. فإنهم جميعاً، يمرون أحياناً مرغمين، في مغامرات، يعجز الكتَّاب العاطفيون عن تخيّل مثلها.

سأل وكيل النيابة باسماً:

- وما هي تلك الأمور الحساسة الدقيقة التي ستحدث؟

- يا للسخرية يا جورج! إنني أشعر أنّ حدثاً خطيراً قد وقع حولنا. إنني أجهل أين انفجر، ومتى بدأ، وكم سيدوم. لكنني أشعر بوجوده. لقد أخذنا في الدوامة، ولسوف تمزّق هذه الدوامة جلودنا، وتحطّم عظامنا، الواحد تلو الآخر. إنني أشعر بهذا الحدث الهائل، شعوراً لا يضاهيه إلا إحساس الجرذان المسبق، الذي يدعوهم إلى هجر مركبٍ على وشك الغرق. لن يكون لنا أي مأوى، في أي مكان من العالم.

- أي حدث تلمِّح إليه؟

فقال تريان:

- يمكنك دعوته ثورة إذا شئت. إنه ثورة على مقاييس لا يتصوّرها العقل. سيذهب كلّ البشر ضحايا لها.

سأل وكيل النيابة وهو يعتبر أقوال تريان مجرد دعابة:

- ومتى ستنفجر هذه الثورة؟

Twitter: @ketab_n

- لكنها بدأت بالفعل يا صديقي العجوز. لقد نشبت الثورة، رغم تفاؤلك وسخريتك. إن أبي وأمي وأنت وأنا وكلّ الآخرين، سوف نشعر بالخطر رويداً رويداً، وسوف نحاول الفرار منه والاختفاء. إنّ بعضاً من الناس بدؤوا منذ الآن يختفون كالحيوانات المتوحِّشة، التي تحتمي عندما تشعر بهبوب العاصفة، أما أنا، فإنني سأعتزل في الريف. إن أعضاء الحزب الاشتراكي، يدَّعون أنّ الفاشيين، هم المسؤولون، وأن الخطر لا يمكن أن يزول، إلا بزوالهم. إن النازيين يريدون حماية أنفسهم بذبح اليهود، لكن هذه التصرفات، ليست إلّا دلائل الخوف الذي يشعر به كل كائن حي، إزاء الخطر. مع ذلك، فإنّ الخطر في كل مكان هو هو، غير أن انتفاضة الناس، وردّ الفعل لنفوس البشر إزاء الخطر هما اللذان يختلفان.

سأل جورج:

- وما هو ذلك الخطر الذي يتهدَّدنا جميعاً؟

فأجاب تريان كوروغا:

- إنه الرقيق الفني! إنك تعرف ذلك بنفسك يا جورج. إنّ الرقيق الفني، هو الخادم الذي يقدِّم لنا يومياً، ألف خدمة، لم نعُد نستطيع الاستغناء عنها. إنه يدفع سيارتنا، ويعطينا النور، ويصبّ لنا الماء لنغتسل، ويحمل لنا مخابراتنا، ورسائلنا، ويروي لنا قصصاً لنتسلى عندما ندير زرّ المذياع، إنه يخطط لنا الطرق، ويزيل الجبال من أماكنها.

- كنت واثقاً من أنّ هذا ليس إلا استعارة شعرية!

- كلا يا عزيزي جورج، إنه ليس مجازاً! إن الرقيق الفني، حقيقة لا يمكن نكران وجودها.

Twitter: @ketab_n

فأجاب وكيل النيابة:

- إنني لا أنكر وجوده. ولكن لِمَ تسميه «الرقيق الفني»؟ إن الأمر لا يعدو قوة آلية.

- إن الرقيق البشري، زميل الرقيق الفني في المجتمع العصري، كان معتبراً عند اليونان والرومان، كالقوة العمياء، عديمة الإحساس. كانوا يبيعون الرقيق ويشترونه، ويقدّمونه هدايا ويقتلونه. فكانت قيمته، تتناسب دائماً، مع قوة عضلاته وإمكاناته العملية. لقد كان الأمر في ذلك الحين، مشابهاً تماماً للمقياس الذي نستعمله اليوم، في تقدير الرقيق الفني.

أجاب جورج:

- إن الفوارق كبيرة جداً بينهما، إننا لا نستطيع إحلال الرقيق الفني محل الرقيق البشري.

- بل على العكس، إننا نستطيعه تماماً! لقد برهن الرقيق الفني، على أنه أكثر طواعية، وأقل ثمناً من الرقيق البشري. فراح تدريجياً، يحلّ محل سلفه، من بني الإنسان. لقد حلّت سفننا الحديثة، محلّ المراكب العائمة، التي كانت تسيِّرها المجاذيف. إنّ البواخر اليوم، لم تعُد تسير بقوة عضلات العبيد، الذين كانوا يسيِّرون السفن القديمة، بل بقوة الرقيق الفني. وعندما يحلّ الظلام، فإن الرجل الثري، الذي يستطيع الإفادة من خدمات الرقيق، ما عاد يضرب كفيه، آمراً عبيده بالمجيء، حاملين المشاعل، كما كان يفعل سلفه، في روما وأثينا، بل إنه يدير زراً، فيقوم الرقيق الفني بإنارة غرفته. إن الرقيق الفني، يشعل النار التي تدفئ المساكن، أو مياه الغسيل، ويفتح النوافذ مُحدِثاً تيارات هوائية. إنه يفوق زميله البشري، بأنه أكثر دقة، وأكثر خضوعاً، وتغاضياً. إن الرقيق الفني، لا يظهر إلّا

Twitter: @ketab_n

عندما يُستدعى، فهو يحمل إليك الرسالة الغرامية بلحظة، وينقل إليك صوت محبوبتك، مهما بعدت المسافة. إن العبيد الفنيين، خدم ممتازون كاملون. إنهم يفلحون الأرض، ويخوضون الحرب، ويخدمون رجال الشرطة والإدارة. لقد تعلموا كلّ النشاط البشري، وراحوا ينفّذونه بدقة. إنهم يجرون الحسابات الدقيقة في المكاتب، ويساعدونك في زينتك، ويغنون ويرقصون، ويطيرون في الفضاء، ويهبطون تحت الماء. لقد غدا الرقيق الفني جلاداً، يقضي على المحكومين بالإعدام، كما يبرئ المرضى في المستشفيات، بجانب الأطباء، ويشارك الكاهن عندما يقوم بالصلاة.

صمت تريان كوروغا لحظة، ريثما يرفع قدحه إلى شفتيه. كان المطر يهطل في الخارج غزيراً متلاحقاً. استرسل يقول:

- سأنتهي فوراً من هذا الاستطراد، فأقول: إنني شخصياً، أعترف بأنني أحسّ بنفسي دائماً في المجتمع، حتى ولو كنت وحيداً. وأرى أولئك العبيد الفنيين، يحومون حولي، مستعدين لخدمتي ومساعدتي، فيشعلون لفافتي، ويحدِّثونني عمّا يقع في العالم، وينيرون سبيلي في الظلام. إنّ حياتي تتوقف عليهم، لأنهم يشاركونني في الحياة، أكثر من أيّ كائن حي، وأشعر بأنني مَدين بتضحيات لهم، ومن أجل ذلك، لا أستطيع البقاء طويلاً في فانتانا، كما بيّنت أمي منذ حين. لأن عبيدي الفنيين، ينتظرونني في بوخارست. إننا الآن أوسع ثراء من أسلافنا، الذين سبقونا بألفي عام. لأنهم ما كانوا يمتلكون إلّا عشرات من العبيد. نحن نمتلك اليوم مئات، بل ألوفاً. والآن سأطرح عليك سؤالاً: كم تقدِّر عدد العبيد الفنيين العاملين اليوم، على سطح الأرض؟؟ إن عددهم ليفوق عشرات المليارات. فما هو عدد البشر؟

أجاب وكيل النيابة:

Twitter: @ketab_n

- ملياران من الناس!

هذا صحيح. إن تفوقَّ العبيد الفنيين، الذين يعمرون الأرض اليوم، تفوُّق عدديّ ساحق. فإذا نظرنا بعين الاعتبار، إلى أنّ العبيد الفنيين، يسيطرون اليوم على النقاط الحيوية في المجتمع العصري، أدركنا أن الخطر بيّن، وبعبارة عسكرية فنية، نقول إن الرقيق الفني، يقبض بين يديه، على النقاط الاستراتيجية في مجتمعنا، من جيش، وخطوط مواصلات، وتموين، وصناعة، وعدد آخر أكثر أهمية. إنّ العبيد الفنيين، يشكلون اليوم، لوناً من «البروليتاريا» إذا كنا نعني بهذه الكلمة، جماعة في مجتمع في أثناء فترة تاريخية، جماعة لم تدخل بعد في صميم المجتمع. وعلى ذلك، فإنّ مصير هؤلاء العبيد الفنيين، منُوط بأيدي البشر. ولن أكتب رواية خيالية، أو أصف الأسلوب الذي سوف يثور بموجبه أولئك العبيد الفنيون يوماً، فيسجنون الجنس البشري في معسكرات اعتقال، ويبيدونه على منصات الإعدام، أو الكرسي الكهربائي. إن مثل هذه الثورات، لا يمكن أن يقوم بها، إلا الرقيق البشري. إنني لن أصف إلا وقائع حقيقية. وفي الحقيقة فإن هذا «البروليتاريا» الفني، سيثور يوماً دون أن يستعمل الحواجز والسدود، كما كان يستعمل من قبل، الرقيق البشري. إن العبيد الفنيين، يشكّلون اليوم، أكثرية عددية ساحقة، في المجتمع الحاضر. تلك حقيقة ملموسة. إنهم يتصرفون في هذا المجتمع، وفق قوانين خاصة، مختلفة عن قوانين البشر. ولن أذكُر من هذه القوانين الخاصة بالعبيد الفنيين إلا : الآلية، والمماثلة، وإغفال الذات.

إن مجتمعاً فيه عشرات المليارات من العبيد الفنيين، وحوالي مليارين من البشر، حتى ولو كان هؤلاء يسيِّرونه، فإنه ستسوده أكثرية بروليتارية. لقد كان العبيد من بني البشر في عهد الرومان، يتعلمون

Twitter: @ketab_n

ويصلون ويعيشون، وفق التقاليد والعادات التي اكتسبوها من اليونان، وتراس[1] والمدن الأخرى المحتلة. والعبيد الفنيون في مجتمعنا الحاضر، يحتفظون أيضاً بمزاياهم الخاصة، ويعيشون حسب شرائع أمتهم. إنّ هذه الطبيعة، أو هذه الحقيقة إذا شئت، موجودة في حدود مجتمعنا. إن تأثيرها يتزايد يوماً بعد يوم. والإنسان مرغم على معرفة عاداتهم وقوانينهم. وتقليدها. ليستطيع استخدامهم، والإفادة منهم. وكلّ سيد، مرغم على معرفة لغة مستخدميه، وعاداتهم، ليصدر إليهم أوامره، وليستخدمهم. وقد جرت العادة أبداً، على أنه، إذا كان المحتل أقل عدداً من الأمة التي يحتلها، فإنه يرغم على اعتناق عادات تلك الأمة، وتعلّم لغتها، بسبب المنفعة والمصلحة، وسهولة التفاهم. إنه يرغم على ذلك، رغم أنه محتل، وسيد شديد البأس.

إن مثل هذه النظرية، تتابع تضخّمها وانتشارها، ضمن محيط مجتمعنا، رغم أننا نأبى الاعتراف بها. إننا نتعلم القوانين وأساليب المخاطبة، التي تمكّننا من تسيير خدمنا، والإفادة منهم، فائدة أكبر، وهكذا، فإننا سنتخلى يوماً ما، عن صفاتنا الإنسانية، وقوانيننا الخاصة، تدريجياً. أي أننا سنتخلى عن إنسانيتنا، ونعتنق أسلوب الحياة المطبق على عبيدنا، الفنيين، وستكون دلالة هذا التخلي عن الإنسانية، احتقار الكائن البشري. إنّ الرجل العصري، يعرف أنه وزملاءه من بني الإنسان، ليسوا إلا عبارة عن عناصر يمكن استبدالها والمجتمع الحديث الذي يحوي على رجل واحد، مقابل كل ثلاثين عبداً فنياً، ينبغي أن ينظم. وأن يعمل، حسب النّظم الفنية. لأنه

---

(1) Thrace : مقاطعة تقع شمال اليونان القديمة تمثل اليوم جزءاً من بلغاريا. [المترجم]

Twitter: @ketab_n

مجتمع خلق وبُني على احتياجات ميكانيكية، وليست إنسانية. وهنا تبدأ الفاجعة.

إن المخلوقات البشرية، مرغمة على الحياة والتصرُّف، وفق قوانين فنية غريبة عن القوانين الإنسانية، إنّ أولئك الذين لا يحترمون قوانين الآلة، التي تتساوى مع القوانين الاجتماعية، يعاقبون، والكائن البشري الذي يعيش في أقلية، يصبح مع الوقت أقلية «بروليتاريا» فيحذف اسمه من المجتمع الذي ينتمي إليه، والذي لا يمكن أن يعود إليه إلّا بعد التخلي عن طبيعته الإنسانية، فينجم لديه بذلك، شعور بالدونية ورغبة في تقليد الآلة، والتخلي عن مزاياه الإنسانية، التي تجعله بعيداً عن أوساط النشاط الاجتماعي.

إن هذا التحوّل البطيء، سيقلب الكائن الحي، وسيجعله متخلياً عن إحساساته، وعلاقاته الاجتماعية، ويجعلها محصورة في حدود ضيقة، واضحة، آلية تماماً، كتلك العلاقات التي تجمع بين قطعة آلة وأخرى. وسوف يقلِّد البشر في علاقاتهم الاجتماعية، وفي الإدارة، وفنون النقش والرسم، والأدب وفي الرقص، الأسلوب واللغة الخاصين بالرقيق الفني وستصبح المخلوقات البشرية ببغاوات، تنقل رغبات العبيد الفنيين. غير أنّ كل هذا، ليس إلّا بداية الفاجعة. من هذه البداية تبدأ كذلك روايتي، وأقصد حياة أبي وأمي. وحياتك يا جورج وحياتي، وحياة الآخرين.

سأل وكيل النيابة وهو محتفظ بلهجته المداعبة:

- معنى ذلك، أننا سنتحول إلى «رجال آلات»؟

- تماماً، وهنا تنفجر المأساة. لأننا لن نستطيع أن نتحوّل إلى آلات، غير أنّ الاصطدام بين الحقيقتين، الحقيقة الآلية، والحقيقة البشرية، قد وقع ولسوف يربح الرقيق الفني الحرب، سوف يستبدّ، ويصبح مواطناً آلياً في مجتمعنا. أمّا نحن، الكائنات البشرية،

Twitter: @ketab_n

فسنصبح «بروليتاريا» مجتمع منظّم، حسب حاجات وعادات الأكثرية الساحقة من المواطنين، وأقصد المواطنين الآليين.

سأل وكيل النيابة.

- ومن الناحية العملية، كيف سيحدث ذلك الاصطدام أو الاحتكاك؟

- إنني شخصياً أتحرقّ لرؤية ذلك. غير أنني بالوقت نفسه، أشعر بالخوف. إنني أفضّل أن أموت، بدلاً من أن أشهد بنفسي، قتلي وقتل أمثالي من بني البشر.

- هل تفكّر في وقائع معيّنة؟

- إنّ كل الأحداث التي تدور الآن على الكرة الأرضية، والتي ستقع في خلال السنوات المقبلة، ليست إلا تباشير تلك الثورة ومراحلها، ثورة «العبيد الآليين». إنّ الرجال لن يستطيعوا بعد ذلك، أن يحيوا في مجتمع يحتفظون فيه بطابعهم البشري. سوف يعتبرون متساوين ومتفقين ومتشابهين مع الرقيق الآلي، وسيعاملون وفق القوانين المطبَّقة عليه، دون مراعاة طبيعتهم الإنسانية. ستحدث توقيفات آلية، وأحكام آلية، وتسليات آلية، وقتل آلي، لن يكون للمرء حق في الحياة، بل سيعامل، وكأنه مكبس، أو قطعة آلة، حتى إذا شاء أن يعيش عيشة إنسانية، تعرض لسخرية العالم بمجموعه. هل رأيت في حياتك مكبساً يعيش حياة شخصية؟ إنّ هذه الثورة، ستحدث على سطح الأرض كلها، ولن نستطيع الاختفاء، لا في الغابات، ولا في الجزر، ولا في أي مكان. لن تستطيع أمة في العالم أن تحمينا. سوف تتشكل جيوش العالم كله من مأجورين، يناضلون ويكافحون من أجل تدعيم المجتمع الآلي، الذي لن نعيش فيه الفردية. لقد كان دأب الجيوش حتى اليوم، العمل على اكتساح واكتساب أراضٍ جديدة، وثروات جديدة، بدافع الإباء القومي، أو

Twitter: @ketab_n

وفق مصالح الملوك والأباطرة الشخصية، الرامية إلى السلب والنهب، أو العظمة والاتِّساع. وكانت كل هذه الغايات بشرية صميمة، أما الآن، فإنّ الجيوش تحارب لمصلحة مجتمع، لا تكاد تجد على هامشه متسعاً لبقائها كأقلية بروليتارية. ولعلّ هذا العصر، هو الفترة الأكثر ظلمة في تاريخ البشرية. إذ لم يحدث حتى الآن، أن احتقر الإنسان إلى هذا الحدّ. لقد كان الإنسان في المجتمعات البربرية مثلاً، أقل قيمة من حصان. وهذا يحدث في عصرنا عند بعض الشعوب، أو بعض الأشخاص، لقد رويت لي منذ حين، قصة ذلك القروي، الذي قتل زوجته غير آسف عليها، ولكنه حاول الانتحار، عندما فكَّر في أنه لن يكون لخيوله، مَن يعني بسقايتها وإطعامها في خلال فترة سجنه. كان هذا هو أسلوب انتقاص قيمة الفرد، في المجتمعات الغابرة، لأن التضحية الإنسانية شيء مألوف. أما في المجتمع العصري، فإنّ التضحية الإنسانية، لم تعُد جديرة بالذكر، أو التنويه بها، بل أصبحت مبتذلة. والحياة البشرية، لم تعُد لها من قيمة، إلا بوصفها مصدر حركة، والقياسات أضحت علمية محضة. وهذا هو قانون بربريتنا الآلية المظلمة. ولسوف نصبح بعد النصر الكلي، عبيداً آليين.

سأل وكيل النيابة:

- ومتى ستحدث الثورة التي تتنبأ بها؟

فأجابه تريان:

- لقد بدأت بالفعل! ونحن نساهم في نشرها. سوف لا يعيش الكثيرون منا حتى يبلغوا نهايتها. إنني أشعر بخوف جارف، أن لا أستطيع إنهاء كتابي، لأنني سأختفي بالمثل.

فقال المحقق:

- إنّ تشاؤمك عنيف جداً.

Twitter: @ketab_n

- إنني شاعر يا جورج. أملك شعوراً يسمح لي بالتنبؤ للمستقبل، لا يملك الآخرون مثله. إن الشاعر نبي. إنني آسف إذ أتنبأ بأشياء مفجعة كهذه، لكن مهمتي كشاعر، ترغمني على ذلك. ينبغي أن أصرخ، وأن أحمِّل الأصداء قولي، حتى ولو كان قولاً ممجوجاً.

- أتعتقد جدياً بما تقول؟

- بل إنني وللأسف شديد الاقتناع.

- ظننتُ أنك تنمِّق جملاً بأسلوب أدبي:

- كلا. إنه ليس من الأدب. إنني أتوقع كلّ ليلة، أن يحدث لي شيء.

- وماذا يمكن أن يحدث لك؟

- أي شيء. طالما أن الرجل قد تحوّل إلى مقياس، ذي قيمة آلية - اجتماعية، فإنه يتعرض للإصابة بأي شيء. يمكن أن يوقف، وأن يرسل للقيام بالأعمال الشاقة، أو أن يستأصل عرقه؛ أو أن يرغم على مزاولة أعمال معينة، سواء لواحد من مشاريع السنين الخمس، أو لتحسين العنصر، أو لأهداف أخرى ضرورية للمجتمع الآلي، دون أن ينظر إلى شخص بعين الاعتبار، إنّ المجتمع الآلي يعمل فقط بناءً على نُظم آلية؛ تهدف إلى مشاريع معيّنة، وتعمل بوحي واحد: وهو الإنتاج:

- وهل يُعقل أن نوقف؟

زايلت اللهجة المستهزئة، صوت وكيل النيابة، وحلّ محلها لون من الخوف. فكان وهو يسأل تريان، كأنه يطلب إلى عرافة، أن تتنبأ له بالمستقبل دون أن يؤمن بأقوالها كمبدأ.

- لن يبقى رجل واحد على سطح الكرة الأرضية حراً مستقلاً.

- هل نفنى إذن في السجون، دون أن نكون مذنبين؟

Twitter: @ketab_n

- كلا. إن الرجل سيصبح مغلولاً في خلال سنين طويلة في المجتمع الآلي لكنه، لن يموت في الأغلال. إن المجتمع الآلي، يستطيع ابتداع رفاهية. لكنه لا يستطيع خلق الفكر. وبدون الفكر، لا توجد العبقرية. وإن مجتمعاً محروماً من رجال عباقرة، مقضيٌّ عليه بالفناء. إن المجتمع الآلي الذي يحتلّ محل المجتمع الغربي، والذي سيكتسح سطح الأرض كله، سيفنى هو الآخر «إن ألبير إينشتاين الشهير، يؤكد أنه، يكفي استمرار جيلين متتابعين فقط، في خط العقول المتفوقة، الميالة بصورة خاصة إلى العلوم الطبيعية، لكي تشيّد وتقام، كل الأبنية القائمة على هذا العلم»[1].

إن هذا الانهيار في المجتمع الآلي، سيعقبه اعتراف بالموهبات الإنسانية والعقلية، وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك، من آسيا. ولكن ليس من روسيا. إنّ الروس قد انحنوا خاضعين؛ أمام نور الغرب الكهربائي؛ فلن يبلغوا تلك المرحلة؛ ولن يعيشوا ليروا الإشراق؛ سيكتسح رجل الشرق، المجتمع الآلي، وسيستعمل النور الكهربائي؛ لإنارة الشوارع والبيوت؛ ولكن لن يبلغ به مرتبة الرقيق؛ ولن يرفع له معابد وصوامع؛ كما هو الحال اليوم؛ في بربرية المجتمع الآلي الغربي. إنه لن يضيء بنور «النيون» خطوط الفكر والقلب. إن رجل الشرق، سيجعل من نفسه سيداً للآلات وللمجتمع الآلي، مستعيناً بعقله؛ كما يستعين رئيس الفرقة الموسيقية، بعبقريته المستمدّة من الجرس الموسيقي. لكنك لن تصل إلى تلك المرحلة، لأننا سنحيا في الزمن الذي يخشع فيه الرجل، أمام الشمس الكهربائية، كالبربري المتوحش.

قال وكيل النيابة:

---

(1) من أقوال هرمان فون كيسرلنغ.

Twitter: @ketab_n

- إننا سنموت إذن مغلولين مكبلين؟

- في رأيي أننا سنموت في أغلال العبيد الآليين. وستكون روايتي، كتاب هذه الخاتمة.

- ما هو عنوانها؟

قال تريان:

- الساعة الخامسة والعشرون. اللحظة التي تكون فيها كلّ محاولة للإنقاذ، عديمة الجدوى، بل إنّ قيام مسيح لن يُجدي فتيلاً. إنها ليست الساعة الأخيرة، بل هي ساعة بعد الساعة الأخيرة. ساعة المجتمع الغربي، إنها الساعة الحاضرة.. الساعة الدقيقة المضبوطة.

- 16 -

كان الكاهن صامتاً، ورأسه مدفوناً بين يديه. فقال وكيل النيابة موجِّهاً حديثه إليه:

- يا أبانا، إذا تحققت نبوءات تريان، وكان الإنسان مقضياً عليه أن يعامَل كالرقيق، فهل تستطيع الكنيسة، عمل شيء في مصلحة المجتمع الحاضر؟ إذا كانت الكنيسة، تعجز عن إنقاذ المخلوق البشري، في هذه الساعات الحرجة، فماذا ستكون مهمتها عندئذٍ؟

فكّر الكاهن ألكسندرو كوروغا فترة ثم قال:

- إنّ الكنيسة لا تستطيع حماية المجتمعات، بل إنها تضمن سلام الأشخاص، الذين تتألف منهم تلك المجتمعات.

- وهل تعتقد أنّ نبوءات تريان ستتحقق؟

فأجاب الكاهن:

- إنّ من عادتي تصديق الشعراء. إنني أؤمن بأن تريان شاعر كبير.

Twitter: @ketab_n

قال تريان وقد احمرَّ وجهه فرحاً، شأن الطفل الذي يطريه أبوه:

- أشكرك يا أبتاه.

ساد السكون فترة. وفجأة قال تريان:

- يخيّل إليَّ أن بعضهم قد مرّ تحت الشرفة.

فأصغى الرجال الثلاثة، غير أن نأمة الريح وصوت المطر، كانا وحدهما، يبلغان مسامعهما. قال الكاهن:

- لو كان هناك أحد في الباحة، لنَبَحت الكلاب. إن إيوهان موريتز - وهو موضع سري - وحده الذي يمكن أن يكون في البستان، دون أن تثور الكلاب وتنبح. لكنه في هذه الساعة لا شك، نائم على سطح الباخرة التي تقلّه إلى أميركا.

قال تريان:

- إنني واثق رغم ذلك من أنني سمعتُ صوت أقدام ترتقي السلم. إن حواسي مرهفة جداً أستطيع أن أميّز الأصوات بسهولة.

قال وكيل النيابة باسماً:

- لعلَّه عبد آلي أفلت من عربتك! لعلّ ثورة الرقيق الآلي قد انفجرت، بالفعل، فجاؤوا يأسروننا في هذه الليلة بالذات. ترى كم من العبيد الآليين، يؤمنون سير سيارتك يا تريان؟

- تستطيع إجراء الحساب بسهولة. إنّ قوتها «55» حصاناً بخارياً، والحصان الواحد، يعادل سبعة رجال.

فقال وكيل النيابة معقباً:

- أي أن عددهم، يوازي موجودات عدة فصائل من الجيش، بينما عددنا، لا يتجاوز الثلاثة! لو أنهم هاجمونا، لاضطررنا إلى الاستسلام، دون قيد ولا شرط!

- إن العبيد الآليين، لا يستطيعون مهاجمة مخلوق حي، دون مساعدة رجل. أما إذا كان شريكهم «مواطن» من غير البشر، فإنّ

Twitter: @ketab_n

العبيد الآليين يصبحون أشبه بوحوش رؤيا القديس يوحنا الإنجيلي[1].

قال وكيل النيابة مستوضحاً:

- ماذا أردتَ بكلمة مواطن؟ إننا جميعاً مواطنون!

- إن المواطن، هو الكائن البشري، الذي لا يعيش إلا في الحدود الاجتماعية من الحياة، كمكبس الآلة. الذي لا يقوم إلا بحركة واحدة، يكررها مدى الحياة، لكن الكائن البشري، خلافاً لما هو عليه حال المكبس، يحاول بناء نشاطه، على شكل رمز. ونشرُ ذلك مثلاً يُحتذى به في العالم أجمع. إن المواطن، هو أفتك الوحوش التي ظهرت على وجه الأرض، وأشدّها خطراً، منذ تلاقي الرجل مع الرقيق الآلي. فهو يملك قسوة الإنسان والوحش، وبرودة الآلة ولا مبالاتها. إن الروس قد خلقوا المثال الأكمل في هذا المضمار، وأعني؛ القوميسير.

وهنا، سمع الثلاثة نقرتين خفيفتين على زجاج النافذة. فهتف تريان.

- ألم أقُل لكم إنني سمعت صوت خطى؟ إن إحساس الشاعر لا يخونه أبداً.

---

(1) أبوكاليبيس (Apocalypse): الجزء الأخير من **العهد الجديد** وهو رمزي وغامض جداً وقد كتبه القديس يوحنا الإنجيلي في جزيرة باتموس. وهو يتألف من سبع رؤى عن مستقبل الدين المسيحي كما تصوره القديس يوحنا ووحش الأبوكاليبيس يرمز إلى وحش رمزي يلعب دوراً هاماً في كتاب القديس يوحنا. وقد أراد المؤلف استعارة هذه الفكرة للدلالة على استحالة تصرف العبيد الآليين تصرفاً يُسيء إلى البشرية إذا لم تسيِّرهم يد الإنسان. [المترجم]

Twitter: @ketab_n

خرج الكاهن إلى الشرفة مستطلعاً، تاركاً الباب مفتوحاً. ولم يلبث أن عاد إلى الغرفة، يصحبُه شاب. كان القادم الجديد، مرتدياً قميصاً فقط، وسروالاً خفيفاً، فكان عاري الرأس، غارقاً في مياه المطر.

قال الكاهن:

- هذا إيوهان موريتز!

ومدّ إليه قدحاً من الخمر ودعاه إلى الجلوس.

رفض الفتى الجلوس، ولبثَ قرب الباب. متحاشياً الوقوف فوق السجادة، أو الجلوس على مقعد، خشية إفسادهما بالماء الذي ينثال عن ثيابه. كان الماء يتساقط من شعره، وكأنه يجري من خلال ميزاب، فكان من الواضح أنه سار زمناً طويلاً تحت المطر.

سأله الكاهن:

- أتريد التحدث إليّ على انفراد؟

فأجاب موريتز:

- بل أستطيع التحدث إليك هنا أيضاً!

قال الكاهن:

- لقد أسفتُ لأنك لم تمرّ بمنزلي هذا الصباح، لتحمل الرزمة التي أعددتُها لك.

فقال موريتز مفسّراً:

- قد عدلتُ عن السفر إلى أميركا.

ثم نظر إلى الشابين الجالسين في المكتبة وقال معقباً:

- لقد سمحتَ لي البارحة بأن أنام في الغرفة القريبة من المطبخ.

Twitter: @ketab_n

أدرك الكاهن في تلك اللحظة، السبب الذي حدا بموريتز، أن يقرع بابه في مثل تلك الساعة من الليل فقال:

- إن الغرفة لك، تستطيع احتلالها متى شئت.

سأل موريتز:

- هل يستطيع إنسان آخر، أن ينام فيها هذه الليلة؟

فأجابه الكاهن مؤكداً:

- طبعاً، طبعاً. إذا كان هناك مَن هو في حاجة، وأردت مساعدته، فإن ذلك يُعتبر جميلاً منك.

- إنها سوزانا ابنة إيورغو إيوردان. لقد فرَّت من منزلها لأنّ أباها كان يريد قتلها!

تذكَّر موريتز أنّ كل القرويين الذين طلب إليهم مساعدته، رفضوا إيواءه لمّا أطلعهم على اسم الفتاة. لذلك فقد راح يحدج الكاهن بثبات. فقال هذا:

- إذا كانت الغرفة باردة، فإنك تستطيع أن توقد النار في موقدها. إنك تعرف مكان الحطب.

لبث إيوهان موريتز واقفاً في مكانه بجانب الباب. ما كان يريد مبارحة المكان، قبل أن يروي على الكاهن، اعترافاً كاملاً بكلّ ما وقع. فلمّا فرغ من حكايته، وذكر أنّ الفتاة كانت في تلك اللحظة بين الحقول، في منتصف الطريق بين فانتانا والمدينة، نهض تريان كوروغا واقفاً وراح يرتدي معطفه. اصطحب إيوهان موريتز في سيارته، فلم تمضِ نصف ساعة، حتى كان عائداً بالفتاة.

أوقف السيارة في مكانها السابق، أمام الشرفة، فحمل موريتز سوزانا بين ذراعيه، بينما كان وكيل النيابة يراقب هذا المشهد من الشرفة. كانت زوجة الكاهن، تسير بجانب موريتز إلى يساره،

Twitter: @ketab_n

والكاهن إلى اليمين. أما سوزانا، فكانت مستسلمة بين ذراعيه، كالطفل المذعور النائم. فرأى وكيل النيابة، ثوبها الأزرق المبتل، الملتصق على وركيها. ودخل تريان إلى غرفة الاستقبال، فتبعه وكيل النيابة. قال هذا:

- إنك مبتلّ الثياب!

احمرّ وجه تريان، وراح ينظر إلى حذائه الملطخ بالوحل، وألبسته التي كان ماء المطر يقطر منها على الأرض، لقد تعرض للبلل دون جدوى، إذ إن موريتز، حمل الفتاة دون حاجة إلى مساعدته، ووضعها في السيارة. وعلى الرغم من أنه لم يكن في حاجة إليه فإن تريان، آثر أن يبقى طول الوقت إلى جانبه تحت المطر. كان يحلّل تصرفه في سره ويؤكد أنه سيتصرف على هذا النحو، في حالة مماثلة، إذا عرضت في المستقبل، «لأنه كان يتصرَّف بوحي مشاركة الرجل الواقف إلى جانبه آلامه، حتى ولو كانت مساعدته غير ذات قيمة عملية له، أو كانت مجانية».

دخل الكاهن الغرفة، والماء يسيل على جبهته وخدّيه ولحيته ويقطر من ثيابه. لقد رافق موريتز تحت المطر كابنه، دون أن يكون لذلك أي نفع ظاهر!

فكّر تريان في سره: «لقد صدرت عن اللّه نفسه تصرفات غير ذات نفع كبير عند بدء الخليقة. لقد أوجد أشياء غير ذات نفع عملي لكنها أجمل ما أوجد وخُلِق. إن وجود الإنسان وخَلْقه عديم الجدوى. إنه غريب غرابة تصرفي وأبي في هذه اللحظة. غير أنه - رغم عقم فائدته - تصرّف لا يمكن أن يضاهى في روعته».

قال الكاهن لابنه:

- حاذر أن تُصاب بالبرد يا تريان!

فأجاب هذا:

Twitter: @ketab_n

- لن أُصاب به! كيف حال المريضة؟

- إنها مصابة بالحمى. لقد هيأت لها أمك قدحاً من الشاي، وهي تُعنى بها الآن. لسوف تكافأ يا تريان، لأنك أتيت بها في سيارتك. إنّ الشابين البائسين، كانا في مسيس الحاجة إلى المساعدة.

وأعلنت الساعة منتصف الليل.

- 18 -

طرق إيوهان موريتز الباب، لأنه لم يكن يستطيع الانتظار إلى الغد، ليعرب للقسيس وابنه، عن امتنانه وشكره. لم يكن يرى بين كل المصائب التي انهالت عليه، في أثناء الأربع والعشرين ساعة الماضية، أو يذكر منها، إلا جميل الكاهن كوروغا وفضله، فكان شديد الامتنان. لقد سرَّه أن تجد سوزانا مأوى لها، ولولا ذلك، لكان الأمر أسوأ ممّا كان. كان تريان كوروغا يحدج إيوهان موريتز بنظرة حانية، من عينيه الكبيرين، فقاطعه فجأة وقال:

- أبتاه، عندما أعود إلى فانتانا من جديد، سأنام عندك. أما المال الذي أودعته لديك، فأرجو أن تعطيه إلى موريتز، ليبني لنفسه منزلاً في فانتانا. إنه أكثر حاجة مني إلى المسكن!

أخذ الكاهن المغلف، وأعطاه إلى موريتز بحركة عادية، ككلّ الحركات الطبيعية. لقد مد إليه يده بالمال، دون أن يوجِّه إليه نصيحة ما، أو يخاطبه بكلمة. فأخذ إيوهان موريتز الغلاف وفتحه. بدا كأنه لم يفهم الغرض من هذه الحركة. فلمّا وقعت عيناه على رزمة الأوراق النقدية، جحظتا واتسعتا اتساعاً كبيراً، كما يحدث لعيون الرجال، الذين يشاهدون المعجزات. أراد أن ينطق بكلمة ما، وأن

Twitter: @ketab_n

يقول شيئاً، لكن قلبه ما كان يتّسع لهمسة أو كلمة. فضغط على الغلاف بيده وصمت.

قال الكاهن بعد فترة صمت:

- اشكُر تريان يا بني، واذهَب إلى فراشك. أعطِ المال لسوزانا. إن النساء أقدر من الرجال على حفظه.

فقال وكيل النيابة:

- لعل موريتز يفضّل أن يشرب كأساً، بعد أن أصبح الآن، في عداد الملاكين في فانتانا.

دخلت زوجة الكاهن في تلك اللحظة، فوضع موريتز القدح على المائدة، ونظر إليها محدقاً. قالت: إن حال سوزانا غير خطرة. ثم جذبت الكاهن إلى إحدى الزوايا، وهمست في أذنه شيئاً. فقطب الكاهن حاجبيه ثم ابتسم. كان موريتز يتابع حركاته بأنظاره، فقال الكاهن:

- اطمئن، إنها ليست أخباراً مزعجة. إن زوجتي تنبئني بأنك ستصبح أباً. فينبغي أن تتزوجا قبل ذلك.

ضغط موريتز على يد تريان كوروغا، ثم على يد وكيل النيابة، وخرج... كان المطر منهمراً باستمرار. وقبل أن يهبط السلم، أخفى المال تحت قميصه، خوف ابتلاله. كان الغلاف دافئاً لطيف الملمس، فكان موريتز، وهو يضمه إلى صدره، يرى بعين الخيال، البيت وسياجه، والبئر والبستان، كما كان يتصورها ويحلم بها. فلمّا دخل الغرفة، كانت سوزانا مستغرقة في النوم. وضع المال تحت وسادتها، ومضى ينام على القشّ.

وفي اللحظة التي كان يمرّ فيها تحت النافذة وهو يصفر، كان الكاهن في المكتبة يحدِّث تريان بقوله:

- ما كان ينبغي أن أتحدث إليه عن الزواج، لأن أم سوزانا قد

Twitter: @ketab_n

ماتت، وما زالت جثتها في المشرحة. أما أبوها، فإنه رهين السجن! في الحقيقة. إن الوقت لم يكن مناسباً.

قال تريان:

- لكنهما لا يعرفان عن الأمر شيئاً. إنهما يُقيمان خطط مستقبلهما. لقد حصلا على المال الذي يلزمهما، ولديهما حبهما، إنهما سعيدان!

- إنهما سعيدان، ولكن لو عرفا الحقيقة، لوجب أن يبكيا.

فأجاب وكيل النيابة مؤيداً:

- صحيح! إن سرورهما بالنسبة إلينا نحن الذين نعلم كلّ الحقيقة، يبدو لوناً من التدنيس والرجس.

وقرعت الساعة الواحدة. كان الثلاثة الجالسون في مكتبة الكاهن كوروغا تلك الليلة، يصغون إلى صوت المطر، وقرع منبه الساعة.

Twitter: @ketab_n

الكتاب الأوّل

- 19 -

بعد عامين من هذه الحوادث، أطلق سراح إيورغو إيوردان، ليعود إلى البلد الذي نزح عنه منذ سبعة وعشرين عاماً.

أراد قبل مغادرته المنطقة، أن يمر للمرة الأخيرة بفانتانا، ليبيع منزله. وبينما كان رئيس مخفر رجال الدرك في القرية، يعبُر الطريق، لاحظ أن نوافذ المنزل ذي القرميد الأحمر، التي كانت حتى ذلك اليوم مغلقة بإحكام، مفتوحة على مصراعيها. فدخل باحة المنزل مستطلعاً. كان إيورغو إيوردان وراء المنزل يحزم بعض الطرود.

قال رئيس المخفر:

- إن الظواهر كلها تدلّ على أنك كثير الغنى يا سيد إيوردان. إن إخراجك من السجن بهذه السرعة، لا شك اقتضاك ثمناً فاحشاً.

رفع العملاق رأسه وألقى على المتكلم نظرة وقال:

- لستُ أفهم.

كان صوته خشناً قاسياً. فقال الدركي:

- إنني أسألك عمّا إذا كنت دفعت غالياً ثمن خروجك من السجن! إنني أذكر أنك كنت محكوماً بالسجن عشر سنين.

ألقى إيورغو إيوردان من يده المطرقة التي كان ممسكاً بها،

Twitter: @ketab_n

وأجرج من جيب سترته الخضراء، ورقة ألقى بها إلى الدركي، ثم عاد يستعمل المطرقة وهو يقول ضاغطاً على كل كلمة، ليزيد من إبرازها:

- إنني أعطيك هذا، لتعلم مع مَن تتحدث. لن تمضي أيام قليلة، حتى أكون في كسوة وكيل ضابط، في فِرق الهجوم. إنني مواطن ألماني، ولسوف أقوم بواجبي حيال وطني. لعلك الآن، قد عرفت السبب الذي من أجله أخرجت من السجن. إنه ليس كما كنت تظن.

أخذ الدركي أمر التعبئة الخاص بإيورغو إيوردان، وراح يقرؤه. كان يعرف أنّ كل المواطنين الألمان، الذين كانوا مسجونين، قد أُخلي سراحهم، شريطة أن يعودوا إلى وطنهم، وينخرطوا في الجندية. فطوى الورقة، وأعادها إلى العملاق، وهو يبتسم. قال هذا وهو يخرج ورقة أخرى من جيبه:

- اقرأ هذه أيضاً.

كانت تلك الورقة، رسالة شكر. لأنّ العملاق قدّم كل ثروته، هدية للجيش الألماني، ليستطيع الألمان، شراء مدرعات. وقد أرسل سفير الرايخ الأكبر الألماني في بوخارست، رسالة شكر إليه في سجنه. فضّ الدركي الورقة، لكنه لم يستطِع قراءتها، لأنها كانت مكتوبة بالألمانية. فاكتفى بأن راح يتأمّل بإعجاب، النسر والصليب المعقوف، والأختام التي كانت تزيّنها.

سأله:

- هل تبيع البيت أم ستحتفظ به؟

قال إيورغو إيوردان متجاهلاً سؤال الدركي:

- إنّ المصفحة التي اشتريت بمالي، قد بوركت فعلاً بالنيران

Twitter: @ketab_n

الحامية، ولسوف ألحق بها عمّا قريب. إنني لم أعد شاباً كما كنت من قبل، غير أن الرايخ الألماني الكبير، يَقبَلني كما أنا!

طوى إيورغو إيوردان الأوراق، وأعادها إلى جيبه. ثم عاد إلى المطرقة، يسمِّر بها الصناديق التي كان يعدّها للسفر، وقد أدار للدركي ظهره. فلمّا ودّعه هذا، غمغم إيورغو إيوردان ببضع كلمات في لغته، رداً على تحيته، دون أن يرفع عينيه إليه.

- 20 -

اتجه رئيس مخفر الدرك، بعد خروجه من دار إيورغو إيوردان، إلى الخان. كان ذلك في بدء شهر مايو. راح رئيس المخفر يمشي في منتصف الشارع، محاذراً غبار الطريق. كان يحب أن يرى حذاءيه لامعين كالمرآة، كما كان يحب النساء والخمر؛ وكان اليهودي، صاحب الخان، يقدم له الخمر مجاناً. راح يفكِّر في نفسه وهو يسير: «لولا أن الحكومة تُصدر بين الحين والآخر قانوناً جديداً، لنفق رجال الدرك من العطش». والحقيقة أن الدولة، كانت قد كفلت ذلك على خير وجه: ففي يناير من ذلك العام، تلقى رئيس المخفر أمراً، يقضي بإرسال كل يهود القرية، إلى معسكرات العمل. ولم يكن في فانتانا كلها، إلا يهودي واحد، هو «غولدنبرغ» صاحب الخان. فأطلعه على الأمر. وكان ذلك الأمر سرياً جداً، حتى إنه أسف بعد قليل، لإطلاعه اليهودي عليه. لكنه بعد فترة تفكير، قرر أنه تصرَّف تصرفاً حميداً. وراح منذ ذلك الحين، يرسل كلّ ثلاثة أشهر، شهادة طبية، تثبت أنّ اليهودي غولدنبرغ، مريض لا يمكن إرساله للعمل. وكان يتلقى منه كل شهر لقاء ذلك، ثلاثة آلاف «لي»، ممّا ضاعف راتبه. أصبح بذلك المال قادراً على العيش

Twitter: @ketab_n

بترف، إلى جانب شعوره بقيامه بعمل طيب. بينما لبث غولدنبرغ العجوز في خانه، يتعاطى التجارة، بدلاً من أن يئن تحت وطأة العمل، في أحد المعسكرات.

بعد أن تناول الدركي قدحه الأول، أزاح الستائر عن النافذة المطلة على غرفة اليهودي، وألقى نظرة من خلال زجاجها. كان يريد رؤية «روزا» ابنة صاحب الخان، ليلقي عليها التحية كعادته. كانت روزا بيضاء البشرة ناعمة، وكان الدركي، كلما غمز في ذراعها، يشعر بأنه يلمس قطعة من القطيفة، لأن بشرة روزا، لم تكن كبشرة القرويات. وكانت هذه تجلس عادة قرب النافذة، تقرأ قصصاً، أما ذلك اليوم، فقد رأى الدرك بجانبها شاباً يحدِّثها.

سأل الدركي بصوت خشن:

- من هو هذا الرجل؟

تردَّد غولدنبرغ العجوز، لأنه ما كان يجدر به أن يَصدقه القول، وأخيراً قال مصمماً:

- إنه ابني ماركو. لقد وصل من باريس أخيراً.

فقال الدركي:

- قدّمه إليّ!

لم يكن الدركي قد تعرَّف قبل ذلك اليوم إلى شاب عائد من باريس. كان يعتقد،أن المرء يستطيع دائماً، أن يتعلم شيئاً ما، من أولئك العائدين من باريس. غير أن ماركو غولدنبرغ، كان فظاً مشاكساً لا تخرج الكلمات من فمه بسهولة. وكان الدركي يعتقد، أن الشباب الذين تلقوا علومهم في باريس، ينبغي أن يكونوا خلاف ذلك؛ لذا فقد شعر بمرارة الخيبة. كان ابن اليهودي فظاً بفطرته، لقد رفض أن يشرب كأس العرق التي قدّمها له الدركي: لقد كان شاباً مكروهاً بغيضاً، مع ذلك، فإن الدركي قال له قبل مغادرته:

Twitter: @ketab_n

- تعال هذا المساء إلى القسم. لسوف نتسلى بلعب الورق!

ولمّا خرج من الخان، أكّد لنفسه، أنّ غولدنبرغ العجوز، بإرساله ابنه إلى باريس، ألقى بدراهمه من النوافذ.

- 21 -

بلغ الدركي منزل إيوهان موريتز فتوقّف ينظر إلى سوزانا وهي تجبل طيناً في باحة المنزل، لتصنع منه قرميداً. كان إيوهان موريتز، قد بنى منزله منذ عامين. لقد اشتغل وزوجه ليلاً نهاراً، فكان منزلاً جميلاً. له شرفة.

سألها الدركي:

- لماذا تصنعين قرميداً؟ لقد اكتمل بناء المنزل.

كان يريد الدخول إلى الباحة، لولا أن بابها كان مغلقاً بالمفتاح. قالت المرأة:

- إننا نبني زريبة للبقر.

واستمرت تجبل الطين بأقدامها، بينما راح الدركي، يتأمّل فخديها العاريين الأبيضين. سألها:

- هل رجلك هنا؟

فأجابت ضاحكة:

- إن إياني في الطاحون.

كان في صدر الباحة، ولدا إيوهان موريتز الصغيران، يرتعان في حرارة الشمس، الأول في سريره، والثاني يلهو بالتراب. وكانت سوزانا تنظر إلى ولديها بين الحين والحين، وتصب الماء على الصلصال، وتستمر في عملية الجبل. كانت ترتدي ثوباً ضيقاً، يبرز

Twitter: @ketab_n

استدارة وركيها. راح الدركي يحاول من جديد فتح الباب. فلمّا أخفق سألها:

- ألا تفتحين لي؟

- إنّ مكانك مناسب.

- إنني لا أراك وحيدة أبداً، والآن يتغيّب زوجك، فترفضين أن تفتحي لي الباب!

قالت:

- هذا ما ينبغي أن أعمله! بل إنني أنبّهك، إلى أن وقوفك بالباب قد طال. سِرْ في طريقك، ودعني بأمان!

- افتحي قليلاً! لا تكوني خبيثة!

- سوف يعود إياني بين حين وآخر، فإذا وجدك هنا، فإنه سيشجّ رأسك بفأسه.

سأل الدركي:

- وهل تأسفين إذا وقع ذلك؟

فقالت سوزانا:

- أليست لديك أسئلة أكثر ذكاء من هذه؟ من الخير لك أن تصمت، وأن تتابع طريقك! سوف يصل إياني بين حين وآخر.

- إنني سأسألك شيئاً آخر ثم أذهب!

- هيا اسأل!

توقفت سوزانا عن عملها، ووضعت يدها على وركيها.

- هل كنت ستفتحين لي الباب، لو لم تكوني بانتظار زوجك؟

قالت سوزانا وهي تعود إلى مهمتها:

- إنك تشتطّ في السؤال!

لم تفكر سوزانا مرة حتى تلك اللحظة، فيما كانت تعمل لو أن

Twitter: @ketab_n

موريتز تغيّب يوماً، أو ذهب إلى مكان ناء، وجاء الدركي يحاول زيارتها.

قال هذا:

- إنك الآن امرأة متزوجة، فما الذي يخيفك؟

هتفت غاضبة:

- دعني بأمان وارحل.

فقال الدركي:

- أجيبيني وسأذهب.

أجابته بخفاء:

- لستُ أدري.

- قولي: نعم أو لا. وإذا لم تجيبيني فسأبقى!

قالت تسأله:

- لمَ تسأل ذلك؟ إنّ إياني لن يترك البيت أبداً.

- لكن هبي أنه تركه!

قالت:

- حاول وسترى! لكن إياني لا يذهب أبداً. إذ ينبغي أن نبني المزرب، وبعدئذٍ سنحفر البئر. فلماذا يرتحل، وعندنا كل هذا العمل؟

التمعت عينا الدركي، وابتعد عن الباب وهو يتمتم:

- كنت أعرف تماماً أنك فتاة باسلة.

ابتعد رئيس المخفر، وسمعت سوزانا صفيره يتخافت، توقفت عن العمل، وأحسَّت بذعر في نفسها، فانتزعت قدميها من الوحل، وهرعت نحو طفليها. حملت ولدها البكر بين ذراعيها، وضمته إلى صدرها، شعرت بأنها ارتكبت خطيئة، أمراً إدّاً، سيجلب الشقاء على

Twitter: @ketab_n

موريتز وأولاده. ولم تلبث أن تساءلت: «ولكن هل ارتكبتُ خطأ في الحقيقة؟ إنني أذعر بسبب لا شيء».

خففت الضغط عن الطفل، وأنزلته إلى الأرض، ثم عادت إلى صلصالها تجبله، وهي حاسرة الثوب.

- 22 -

بعد أسبوع من هذه الحادثة قرع دركي باب إيوهان موريتز.

كان موريتز جالساً إلى مائدة الطعام، فنظر من خلال النافذة، ولمّا رأى خوذة الجندي قال:

- سأذهب لأرى ماذا يريد.

وخرج إلى باحة المنزل.

ولما عاد، كان يحمل في يده ورقة. عاد إلى المائدة، يتناول طعامه. بينما سألته سوزانا:

- ماذا في هذه الورقة؟

ابتلع إيوهان موريتز اللقمة التي كانت في فمه، ثم أجاب:

- إنه أمر تسخير. سأرى بعد تناول الطعام، ماذا تطلب منّا الدولة من جديد.

كان يبدو شديد الهدوء، لأنه كان واثقاً من أنّ كل القرويين، يتلقون أوامر تسخير مماثلة، تتعلق بخيولهم، وعرباتهم، ومواشيهم. لكنه لم يكن يمتلك خيولاً ولا عربة. شعر الآن، أنه لم يكن محقاً في أسفه، لعدم شرائه عربة، لأن الدولة كانت ستصادرها منه، فيعود إلى السير على قدميه. كان يفكر: «بأن الدولة قد تطلب إليه زكيبة من الحنطة أو الذرة» لأنه كان يعرف أن الحنطة باتت تدخل في عداد المسخرات.

Twitter: @ketab_n

وبعد أن فرغ من طعامه، مسح إيوهان موريتز يديه. كي لا تتسخ الورقة التي حملها الدركي إليه، ثم فضها وراح يقرأ.

راحت سوزانا تتابع ببصرها، انطباعات وجهه الذي بدا شديد الاحمرار، ثم شحب، ثم امتقع. سألت:

- ماذا يقولون؟

كان الطفلان صامتين ينظران إلى أبيهما:

تمدَّد موريتز على السرير، واضعاً يديه تحت رأسه. فكررت سوزانا سؤالها.

- ألا تريد أن تقول لي ما هو مكتوب فيها؟

كان سكوت موريتز لا ينبىء بخبر. قال:

- إنني إذا قلت لكِ ما فيها، لن تفهمي شيئاً. لأنني شخصياً لست أفهم.

- أهو خبر سيئ يا إياني؟

- لا شك أن ضابط المؤن قد أخطأ. إن هؤلاء الضباط في القطعات، يفكرون دائماً في أشياء أخرى، لمّا يكتبون!

ومدّ الورقة إلى سوزانا وهو يقول:

- ما قولك؟ إنه أمر تسخير. لقد تلقينا اثنين من قبل. الأول كان يتعلق بالقمح، والثاني عندما صادروا الأكياس التي اشتريتها من بورفيري. أما الآن فإنّ الأمر لا يتعلق بالقمح أو بالأكياس، بل يتعلق بي. فكيف يمكنهم تسخير رجل ومصادرته؟ هل تفهمين أنتِ هذا؟

كانت سوزانا تقرأ بصعوبة، فنفد صبر موريتز، وأخذ الورقة من يديها، وراح يقرؤها بصوت مرتفع، ثم قال:

- كيف يستطيعون تسخيري أنا؟ إنني رجل. إنهم يستطيعون

Twitter: @ketab_n

مصادرة الخيول، والبيوت، والأبقار، والأكياس. ولكن ليس الرجال. انظري هنا، إن اسمي مسجَّل فيه. لا شك أن وكيل الضابط مجنون تماماً!

سألت سوزانا:

- وماذا ستفعل الآن؟

- ينبغي أن أكون في مخبر الدرك، في الساعة السابعة من صباح غد.

قالت سوزانا:

- لا شك أنك على صواب! إن ضباط الإعاشة مخطئون.

فأجاب موريتز:

- لا شك أنهم مخطئون.

لكنه شعر بشكٍّ في نفسه. إذْ ماذا يكون حاله، لو أن ضباط الإعاشة ما كانوا مخطئين؟ راح يعدّ العدة للسفر كما لو كان سينخرط في الجيش، لأنّ الأمر إذ لم يكن خاطئاً، فإنهم سيستبقونه شهراً أو شهرين.

- 23 -

أمضى موريتز بعد ظهر ذلك اليوم وهو في أسوأ مزاج، لكن سوزانا لم تغضب منه، لأنها كانت ترى بوضوح، أن سبب غضبه، راجعٌ إلى ذلك الأمر الذي تلقاه.

ولما حلّ المساء، أخذ موريتز الورقة، ولفها في قطعة من صحيفة قديمة كي لا تتسخ، ووضعها في جيبه وهو يقول:

- سأطلِع القسّ على هذا الأمر.

وغادر المنزل.

Twitter: @ketab_n

كانت زوجة القس وحدها في باحة المنزل. أما الكاهن ألكنسدرو كوروغا، فقد كان في المدينة متغيباً منذ الصباح.

هَمَّ موريتز بأن يقص على زوجة القسّ كل ما وقع له. لكنه عدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة. واكتفى بأن قبّل يدها وخرج.

وفي الشارع، كانت بعض الكلاب تنبح، والليل يرخي سدوله تدريجياً. تعثر موريتز بحجر، فسبّ وشتم، وراح يحثّ الخطى، عائداً إلى مسكنه.

- 24 -

كانت ليلة طافحة بالقلق والعذاب. لم يكد إيوهان موريتز يستلقي على فراشه، حتى اجتاحت مخيلته آراء قاتمة. اقتربت سوزانا منه، وطوَّقت عنقه بذراعيها، محاولة الترفيه عنه. لكنه نزع ذراعيها وأبعَد سرها عنه، وأدار لها ظهره. إنه لم يكن يفكر في شيء من ذلك في ذلك الحين. كانت مئات من الأمور تتمثل في خاطره. ففي البيت عملٌ كثير لا ينتهي، ولو عكف عليه المرء ليل نهار. لكنما المرء إذ اضطر فجأة إلى الرحيل، دون معرفة مدة غيابه، وأرغم على ترك كل شيء، فإنه يشعر بالخوف. كذلك فقد كان موريتز يائساً، وكأنه على وشك الموت. إن لديه كثيراً من الأمور التي ينبغي تسويتها قبل ذهابه. كانت هذه الأفكار تعذّب روح إيوهان موريتز. كان قد اشترى مؤخراً عشرة أحمال من الخشب، قطع أغصانها وشذّبها، بعد أن دفع ثمنها، وسواها رزماً صغيرة، تركها في الغابة؛ وكان يأمل في أن ينقلها إلى منزله. وها أنه الآن مرغم على تركها. كانت تلك الأخشاب من خشب البلوط، وقد دفع ثمنها غالياً، لأنها تصلح وحدها للبناء. كان ينتظر جمعها في باحة منزله بفارغ صبر،

Twitter: @ketab_n

بل إنه كان قد فكّر بالضبط في المكان الذي سيصفّها فيه قرب السياج، لأنها كانت جذوعاً ضخمة. وها أنه الآن مرغم على الرحيل. استدار إيوهان موريتز نحو سوزانا التي لم تكن على علمٍ بصفقة الخشب ولا بمكانه، فإذا بها نائمة. لم يكن موريتز يستصوب ترك الخشب في الغابة، لذلك فقد لمس كتفها وهو يحدِّث نفسه:

«ينبغي أن أقول لها، أن الخشب موضوع على بعد بضع مئات من الأمتار من الجدول، ولكن هناك أخشاباً لبعض من القرويين كذلك. فإذا لم أوضح لها الأمر بدقة، فإنها لن تعثر عليه».

شعرت سوزانا بيد موريتز تلمس كتفها، فابتسمت وهي نائمة. كان القمر بدراً، يغمر بنوره الغرفة فيضيئها، وكأن الشمس لم تغب. كان إيوهان موريتز يعرف جيداً، أن سوزانا لن تستطيع نقل الخشب وحدها، وأن هذا النوع من العمل، لم يكن في مقدور المرأة.

فكّر في نفسه: لا، لسوف يصحبها العجوز آرتيمي، وسوف يجد الخشب. ولكن ينبغي أن أعلِمَها بأنني اشتريته، وأن عليها أن تذهب إلى هناك لتأتي به. نعم ينبغي أن أعلِمَها بذلك».

شدَّد موريتز ضغطه على كتف زوجته، فعادت هذه تبتسم وهي مستغرقة في النوم. كان يرى وجهها بوضوح تحت ضياء القمر. لقد كانت تبتسم، وتمرّ بلسانها على شفتيها، فأشفق موريتز عليها، ولم يجرؤ على إيقاظها لأنها كانت نائمة نوماً عميقاً، كالطفل البريء. قرر أن يوقظها في الصباح الباكر، ليطلعها على مكان الخشب. لذلك أبعد ذراعه عن كتفها. واستلقى على ظهره. لقد كان من عادته أن ينام بسرعة كلما استلقى على ظهره، ولكنه في تلك الليلة، لم يكن يستطيع الاهتداء إلى الراحة. تذكر الأمر الذي تلقاه، والذي جعله تفكيره في الخشب ينساه، فشعر بغضب مفاجئ يتملّكه. لقد أمضى إيوهان موريتز من قبل، خدمته العسكرية، في فرقة خفر

Twitter: @ketab_n

الحدود؛ وقد تعلم اللغة «الصربية» في أثناء خدمته، لكنه كان إلى جانب ذلك، قد ألمَّ بالقواعد والقوانين العسكرية. ولا يمكن أن تكون تلك القوانين، قد تبدَّلت بين عشية وضحاها، إن الرجال لا يمكن أن يصادروا، كما تصادر العربات والأبقار، والمحاريث وسيارات النقل.

راح إيوهان موريتز يدلِّك صدغيه، مقرِّراً الكفّ عن التفكير في هذه الأمور التي سيعرف دوافعها وأسبابها في الصباح. لأنّ من الجائز أن يكون ضباط التموين في الجيش قد أخطأوا، فيكون قلقه وعذابه، غير مجديين، بل يجوز أن يكون واحد من هؤلاء الضباط، قد أراد أن يسخر به، فأرسل إليه أمراً بالمصادرة، بدلاً من الأمر بالتعبئة، الذي يرسل في مثل هذه الحالات.

لم يكد يهدأ قليلاً ويأمل في نيل قسط من النوم، حتى تذكَّر فجأة أن «آنتيم باليا» مدينٌ له بمبلغ خمسمائة لي، وتذكَّر كذلك، أن سوزانا، يمكن أن تحتاج إلى بعض المال في أثناء غيبته. فاستدار نحوها من جديد. كانت سوزانا نائمة على جنبها الأيسر ضامّة وسادة بين ذراعيها.

تردَّد موريتز من جديد: «من يدري فيم تحلم!» سوف يحدِّثها بأمر المال صباحاً أيضاً. وهكذا لم يجرؤ على إيقاظها أيضاً...

لم يكفّ موريتز لحظة عن التفكير: لسوف يحلّ موسم الأمطار قريباً، فتنهار جدران البئر، إذا لم يتمّ حفرها قبل ذلك. «لكنني قد أعود قبل موسم الأمطار»، وعندئذٍ كفّ عن التفكير في مشكلة البئر، لكن معضلة أخرى، قفزت من زاويتها تعرض نفسها. تلك هي قضية الآجر، الذي هيأه لبناء الزريبة. لقد قطع ثمانمائة «لبنة» من الصلصال، صفّها الواحدة فوق الأخرى، قرب المنزل، لتجفيفها، ومن ثم شيّها في النار. وكان يعرف أنه إذا تركها حتى تجف، دون

Twitter: @ketab_n

أن يُدخلها الفرن، تفتتت وتلفت، فتذهب مجهوداته هباءً. لذلك فقد راح يتعذب من جديد، ويتقلب على سريره. دون أن يجد سبيلاً إلى النوم. عاد ينظر إلى وجه سوزانا، وهو يشعر بحاجته إلى التشاور معها. حتى كانت قد كشفت عن نفسها الغطاء في نومها ودفنت وجهها في الوسادة. أدرك موريتز عقم محاولته، لأنها لن تكون ذات فائدة في هذه الظرف بالذات. لذلك فإنه إذا أيقظها، أزعجها دون مبرر، لأن تلك الأمور كانت من عمل الرجال. راح يبحث في ذاكرته عمَّن يمكن أن ينوب عنه في شيّ قرميداته قبل أن تجف، فلم يجد بين أصدقائه، مَن يقوم بمثل هذه المهمة. لأن كلاً منهم، كان في شاغل عنه بشؤون بيته الخاصة. مع ذلك، فلو أن الوقت كان نهاراً لتحدّث في هذا الشأن مع بعضهم، أما الآن، فإنهم لا شك نيام كلهم، ولا يمكن أن يوقظهم، ليتحدث إليهم عن القرميد. قال في نفسه: «لسوف أغطي اللَّبِنات بأوراق الذرة، والقش، فتؤخر جفافها، وبذلك تبقى صالحة لبعضة أسابيع وعندئذٍ سأكون قد عدت إلى مسكني». نهض واقفاً وخرج من باب الشرفة الذي كان مفتوحاً. كان عارياً تماماً، لكنه لم يشأ العودة إلى الغرفة، لارتداء سرواله وقميصه، خشية إيقاظ المرأة، أو الأطفال.

أخذ لبنة وراح يعاينها على ضوء القمر، فوجد أنه يجب إدخالها إلى الفرن، في غضون يومين أو ثلاثة، على أبعد حدّ!

عاد نحو البئر ثم راحَ يفحص الباحة كلها، منقباً متأملاً، وقد نسي تماماً أنه عارٍ من الملابس. نسي موريتز كذلك أنه سيذهب صباح اليوم الباكر، فراح ينظم في ذهنه تصاميم بناء الزريبة. راح ينظر إلى جدران البيت وسقفه. لقد كانت واضحة تحت ضوء القمر، وكأنها كانت تسبح في نور النهار.

خيل لموريتز أن ضياء القمر في تلك الليلة، تجاوز ضياؤه كلّ

Twitter: @ketab_n

حد سابق فراح يفكّر في العربة التي يريد شراءها، والخيل التي ستجرها. وانتقل بتفكيره، إلى البقرة التي سيشتريها كذلك. كان قد بلغ في تجواله كومة التبن التي كانت في الفناء، فحمل غمراً منها، ونثره على اللَّبِن. لا شك أن سوزانا كانت تستطيع عمل ذلك صباحاً، ولكنه أراد أن يوفر عليها العمل، طالما أنه قريب من التبن في تلك اللحظة.

وبعد أن نثر التبن، حمل أوراق الذرة للغرض نفسه، وغطى بها قطع اللبن. كان يشتغل بسرعة كبيرة، تبعث الدفء في أطرافه. وفجأة صاح ديك قريب، فانتفض موريتز، كان قد نسي كل شيء عن ذهابه القسري، وقد ذكَّره صياح الديك بذلك الأمر المكدر. شعر بالخجل لوقوفه هكذا في الفناء عارياً من الملابس، فعاد إلى غرفة نومه، ووقف في وسطها برهة. كانت زوجته - وهي الأخرى عارية تماماً - مستغرقة في نومها، وقد شغلت السرير من زاويته القصوى إلى الزاوية المقابلة، فتمدد بهدوء بجانبها، دون أن يوقظها، فلم تشعر بدنوه منها. لكنها رفعت ساقها، ووضعتها على ساق موريتز، وسرعان ما نام هذا، نوماً عميقاً. غير أنه لم يستغرق في نومه طويلاً إذ لم تمضِ فترة، حتى استفاق مذعوراً، وراح ينظر حوله. كانت سوزانا لا تزال نائمة، والقمر يبدو معلقاً إلى طرق النافذة، كخوذة الدركي فحدق إيوهان موريتز فيه، ولم يغمض له جفن حتى بزوغ الشمس.

- 25 -

مضى إيوهان موريتز صباحاً إلى مخفر الدرك. وكان في طريقه إليه، يمرّ به عدد من القرويين، بين ذاهب إلى الطاحون، أو الغابة،

Twitter: @ketab_n

فكان يشيح بوجهه عنهم، متحاشياً رؤيتهم. إنه هو الآخر، كان سيمضي إلى المطحنة وإلى الغابة. لكنه مضطر الآن، إلى إغفال كل هذه الأشياء، والذهاب إلى حيث لا يدري... لقد كان مصادراً! راودته فكرة الفرار. وقدر أنه إذا اختفى في الغابة، فإن رجال الدرك، لن يستطيعوا العثور عليه، وتسخيره، لكنه تصلب في مكانه، ولبث دون حراك أمام باب مخفر الدرك. لقد كان متزوجاً، وله أولاد، فكان يتعذّر عليه الفرار، دخل موريتز فناء المخفر. كان رئيس المخفر يحلق لحيته في مكتبه، فانتظر موريتز أن يفرغ هذا من زينته، ليسأله عمّا إذا كان لا يوجد خطأ في الأمر الموجّه إليه، فبلغت أنفه رائحة حليب محترق كانت تفوح في الباحة. شعر موريتز بيد توضَع على كتفه، فاستدار على عجل، وإذا به أمام الجنود. لم يكن هو الذي حمل إليه «الأمر» إلى داره، بل كان جندياً آخر. كان إلى يمين الجندي، ماركو غولدنبرغ، ابن يهودي فانتانا. وعجب موريتز كيف لم يرهما عندما اقتربا منه، لقد رآهما في مكانهما، وكأن الأرض قد انشقت عنهما فجأة، وكان في نظرتهما حقد ومقت. قبض الجندي على ياقة موريتز، وأوقفه وكأنه يرفع زكيبة. فخضع موريتز لحركته. لكنه شاهد فجأة، أن يدي ماركو غولدنبرغ، كانتا موثقتين. قال الجندي آمراً:

- قِفا الواحد بجانب الآخر!

فكّر موريتز: «إنه إذا كانت يدا ماركو مغلولتين، فإن الأمر ليس مجرد دعابة إذن!» فاقترب بمرفقه من مرفق اليهودي وهو مذعور. كان يشعر بخوف كلما شاهد رجالاً موثقي الأيدي والأذرع. أحسّ موريتز بالحارس وراءه، يعبىء سلاحه، أحسّ به دون أن يراه، لأنه كان جندياً هو الآخر، يعرف هذه المهمات. وفي الحقيقة أن الدركي، كان قد وضع حربته على فوهة بندقيته، فأدرك إيوهان

Twitter: @ketab_n

موريتز معنى هذه الحركة، وأغمض عينيه. ولما خرج من الفناء مخفوراً، ألقى نظرة أخيرة على نافذة مكتب رئيس المخفر. كان هذا قد أسند مرآة إلى الزجاج، وراح ينهي حلاقة لحيته، أخذ القرويون يتوقفون في الطريق، لينظروا إلى هذا الموكب، وراحت النساء يطلعن من دُورهن لرؤيته.

لما بلغ الموكب منزل نيكولاي بورفيري، وضع جمع النساء العائدات من النبع، دلاءهن في منتصف الطريق، ورحن يرسمن إشارة الصليب على صدورهن عند رؤيتهن موريتز ورفيقه مشدودي الوثاق. فأغمض موريتز عينيه من جديد. شعر بشيء يتحطّم في صدره. كان يعرف أنّ من عادة النساء رسم إشارة الصليب على صدورهن، كلما شاهدن رجالاً موثقي الأيدي، يخفرهمَ حرس شاكي السلاح. وكان وقع خطى الجندي وراءه، يرتفع وحده، أما كل شيء حوله، فقد لزم الصمت. لقد تحوّل كل شيء إلى سكون، يمزِّقه وقع الخطى الرتيب. كان موريتز يسير وفق خطوات ماركو غولدنبرغ. شعر أنّ ساقيه لا تمتّان إليه بسبب، بل إنهما تسيران لوحدهما، وأن جلد جسمه لم يعُد ملكه، بل غريباً عنه، وكذلك الجسد. ولم يقتصر الأمر على الجسد وأطرافه، بل تعداه إلى الأفكار، كل الأفكار، كل الأفكار. شعر أنه بات الآن لا يملك شيئاً خاصاً به!

- 26 -

أنهى رئيس مخفر الدرك حلاقة لحيته، فخرج إلى الفناء يصفر لحناً، كان الصبح بديعاً جميلاً. هرع جندي يصبّ الماء على يديه ليغسل وجهه. كان ذلك الجندي يراقب رئيسه ذلك الصباح، فرآه يحلق لحيته بعناية، ويعود بالموس عليها مرتين. سأله ضاحكاً:

Twitter: @ketab_n

- أهي واحدة جديدة يا رئيس؟

كان الجندي قد خمن أنّ وكيل الضابط ماضٍ إلى لقاء امرأة. وقد صدق تخمينه، إذ إن رئيسه غمز له بعينيه، دون أن يجيب. ولمّا جفَّف وجهه ويديه، ارتدى وكيل الضابط بذّته الجديدة، وجلس وراء مكتبه. أخذ من أحد المصنفات، النسخة الثانية من التقرير الذي أرسله ذلك الصباح إلى الثكنة مع الجندي الذي رافق السجينين، وراح يقرأه:

«نتشرف بإرسال الشخصين ماركو غولدنبرغ، الدكتور في الحقوق، وله من العمر ثلاثون عاماً، وموريتز إيون، مزارع وعمره خمسة وعشرون عاماً، اللذين يشملهما القانون، وفقاً لأوامركم السابقة، المتعلقة بمصادرة كلّ اليهود، والأشخاص المشبوهين في منطقتنا، وإرسالهم مخفورين إلى معسكرات العمل.

التوقيع: وكيل ضابط أول؛ نيكولاي دوبريسكو، رئيس مخفر درك فانتانا».

أعاد وكيل الضابط التقرير إلى الإضبارة، وهو راضٍ عن نفسه، ثم ألقى نظرة على مرآته الصغيرة، التي يحتفظ بها في جيبه، وراح يفتل شاربيه، وأخيراً نهض من مكانه، وتنكب بندقية، واتجه نحو منزل إيوهان موريتز. لقد أصبحت سوزانا الآن وحدها، وقد ظلّ ينتظر هذه اللحظة طيلة عامين كاملين.

راح ضابط الدرك يصفُر بسرور!

- 27 -

لم تمضِ ساعة حتى عاد رئيس المخفر إلى مكتبه، رغم أنه أعلن عند خروجه، أنه سيتغيب طيلة النهار. عاد إلى مكتبه رغم

Twitter: @ketab_n

ذلك، وهو نهب للغضب الشديد. كان يبحث عمّا يستطيع تحطيمه، ليفثأ غضبه، فوقع بصره على إضبارة التقارير، فأخذها، وعاد يقرأ التقرير الذي أرسله إلى الثكنة، ذلك الصباح، رفق السجينين. ازداد غضبه لدى قراءته، وودَّ لو مزّقه شر ممزق، لأنه لم يؤدِ الغاية المرجوة منه، لقد رفضت سوزانا، رغم أنها أصبحت وحيدة، أن تستقبله كما كان يأمل. فلما حاول اغتصاب الباب، حملَت فأساً، ورفعته فوق رأسه، مهدِّدة بتحطيم رأسه، إذا اجتاز العتبة. ولم يكن تهديدها من باب الدعاية. كان رئيس المخفر خبيراً بشؤون النساء، فلو أنه تجاوز العتبة إلى الفناء، لنفَّذت تهديدها، وشجَّت رأسه، لذلك فقد تراجع مدحوراً، وعاد من حيث أتى، والغضب ينهش فؤاده. أدرك أخيراً أن المحاولة التي قام بها، والتي نجم عنها توقيف موريتز للحصول على زوجته، لم تبلغ غايتها المنشودة. لقد أمضى كل ليلته ساهراً، يدبج التقرير، سعياً وراء هذه الغاية.

لذلك فقد هتف: «لقد استهلكت الحبر والورق دون جدوى!» وعاد يفكّر في موريتز؟ فراح يسبّ وشتم، مستعملاً كلّ الكلمات التي في قاموسه.

- 28 -

وقفت صفوف المساجين في ساحة الثكنة، بانتظار السوق، فراح موريتز يتأمّل الرجال في ثيابهم الجميلة، وهم يحملون حقائب من الجلد. كان يشعر بالتعب وبألم في قدميه. لم يتفوّه زميله غولدنبرغ، بكلمة طوال الطريق إلى الثكنة، لكنه هو الآخر، غدا شرساً من التعب فأراد الجلوس فترة ليستريح. كان الباب من ورائهم قد بقي مفتوحاً بعد دخولهم. راحت الصفوف تنتظم وتتحرك،

Twitter: @ketab_n

مغادِرَة من الساحة. وجاء ضابط يحمل رزمة من الأوراق في يده، فألقى نظرة على وجه غولدنبرغ الشاحب، ثم حدج موريتز بنظرة وقال للجندي:

- كلاهما يهودي أليس كذلك؟

وانتزع الغلاف الأصفر من يد الدركي دون أن ينتظر جوابه، وأشار بإصبعه إلى الصف الذي كان يخرج من باب الثكنة، وقال موريتز:

- انتظم في الصف رباعاً.

راح موريتز ينظر إلى الضابط دون أن يفهم قصده. فقبض هذا على كتفه، وأداره على عجل، ودفعه نحو الصف، بعد أن ركله بحذائه ركلة قوية، فجرى موريتز، وخرج من الباب، مع بقية المساجين.

ولمّا أدار رأسه، رأى ماركو غولدنبرغ يتبعه.

- 29 -

لبث يمشي حتى المساء، فلما توقفت الصفوف لنيل قسط من الراحة، كان المساجين قد بلغوا مشارف المدينة. اقترب ماركو غولدنبرغ من إيوهان موريتز وقال:

- حلّ وثاق يدي.

وأدار له ظهره. كانت يدا غولدنبرغ بيضاء دقيقة، وكان رسغاه يحملان علامة حمراء كالدم. فلمّا حلّ موريتز وثاقه، غمغم هذا:

- شكراً.

لكنه لم ينظر إلى موريتز ولم يبسم له، بل جلس على الحشائش، يحدِّق في الأفق بنظرة باردة كالزجاج. جلس إيوهان

Twitter: @ketab_n

موريتز بجانبه، كان يريد الدخول في حديث معه. فمدّ له قطعة الحبل التي كانت معقودة حول رسغيه وقال:

- هل أنت في حاجة إلى هذا الحبل؟ هل تريد إعطاءه لي؟

فأجاب غولدنبرغ:

تستطيع الاحتفاظ به!

كان صوته خافتاً شديد القسوة. فكوّر موريتز قطعة الحبل، ووضعها بعناية في جيب سرواله وهو يقول:

- من المستحسن أن يحتفظ المرء بقطعة حبل معه، إذ لا يدري فيمَ يمكن أن ينفعه!

ابتسم ماركو غولدنبرغ، كانت تلك أول مرة يراه موريتز فيها يبتسم!

- 30 -

بلغت فرقة المساجين اليهود، نهر توبوليتزا، في ذلك المساء بالذات. وكان قاع ذلك النهر قد جفّ، وعلى جانبيه كانت تقوم أشجار الصفصاف، وأدغال من الشجيرات التي لم يتمّ نموها.

كان على اليهود أن يحفروا قناة هناك! كانت المنازل تُشاهد عن بعد، إذ لم تكن حول المكان قرى قريبة. وكان هناك زريبتان مهجورتان، قائمتان كالحارسين، على تلك الأرض الشاسعة القفراء. كانت الزريبتان قد بنيتا، أيام كانت الأرض ملكاً لأحد الأديرة، فكان الرهبان يضعون فيها خيول الجر والحراثة. وكانتا قريبتين من حدود الغابة. وبالقرب منهما، كانت إحدى سيارات النقل العسكرية الضخمة، محمَّلة بالمجارف والمحافر والمعاول، وإلى جانبها مرجل

Twitter: @ketab_n

كبير لطهي طعام المساجين. راح المساجين يتأملون السيارة الكبيرة، لأنهم لم يجدوا حولهم ما بلغت الأنظار.

نام المساجين تلك الليلة في الحظيرتين، أما موريتز، فقد تمدَّد على العشب خارجهما. كانت الحشائش لينة، فنام لفوره. استيقظ مرّات في أثناء الليل، كان القمر منيراً يغمر السكون، فخيِّل لموريتز، أنه في داره، لولا أنْ وقعت أبصاره على تلك الأجساد الملتفة بالمعاطف، المنتظمة بترتيب عجيب على جانبيه، أحسّ بأنه بعيد عن فانتانا، وعندئذٍ أغمض عينيه.

وفي صبيحة اليوم التالي، أوقف اليهود في صفين طويلين، وأحصي عددهم من جديد. كان إيوهان موريتز وماركو غولدنبرغ إلى جانب بعضهما في ذلك اليوم أيضاً. فلما ألقى موريتز تحية الصباح على اليهود، ردّ عليه هذا، بل إنه خيِّل لموريتز، أن اليهودي قد ابتسم.

جاء وكيل ضابط، فوقف على رأس الفرقة، ووزع على المساجين المعاول والرفوش، دون أن يستثني منهم أحداً. وأمر عشرة من الرجال بإنزال المرجل من السيارة، ووضعه تحت شجرة جوز، أمام الحظائر. ثم راح يلقي عليهم محاضرته الأولى. كان وكيل الضابط ذو أسنان فضية. وشاربين أسودين. قال لهم: إن على اليهود أن يحفروا هذه القناة لمصلحة الدفاع الوطني، وأضاف: إنه - الضابط - رب اليهود، وإنه إذا أكد شيئاً، فإن موسى نفسه في السماء، لا يستطيع إلّا أن يؤيده في تأكيده، ثم أطلعهم على أنّ اسمه كان: أيوستول كونستانتان، وأن له ولدين، أحدهما محامٍ والآخر ضابط.

زاح الهيود يصغون إلى خطابه بانتباه، فابتسم بعضهم، لكنهم جميعاً كانوا خائفين.

Twitter: @ketab_n

قال وكيل الضابط:

- لن يقدَّم لكم اليوم ما تأكلون، لأن المطبخ لم يُعَد بعد. لكنكم ستتناولون اعتباراً من الغد، شاياً وحساء الفاصولياء، مرتين كلّ يوم، إلى جانب نصف رغيف من الخبز.

وابتدأ العمل. كان على كلّ رجل أن يحفر مساحة محدودة من الأرض، فإذا انتهى منها، غدا حراً بقية النهار حتى المساء. أما إذا لم ينهِ حصته من العمل، فإنه يُتَّهم بالتخريب، فيكبل بالأغلال، ويحاكم أمام مجلس عسكري، بوصفه عدواً للوطن. لقد أفهم وكيل الضابط هذا الأمر تماماً، وكان المساجين من جانبهم قد فهموه تماماً، وصدّقوه.

خرج إيوهان موريتز من الصف وقال لوكيل الضابط إنه ليس يهودياً. فأجابه هذا بأنه لن يعنى بأية شكاية قبل أن يقيم مكتبه. فعاد إيوهان موريتز إلى مكانه، بجانب ماركو غولدنبرغ وانتظر. كان يعرف أن المرء في الجيش، عليه أن يتذرَّع بالصبر.

نُصِبَ مكتب الضابط بعد عشرة أيام. كان عبارة عن كوخ من الخشب، حوى بعض الطاولات والمقاعد، إلى جانب عدد من الأسرَّة للحراس.

ولما عاد إيوهان موريتز إلى المكتب يعاود الشكوى، استمهله الضابط أسبوعاً آخر، لأنه لم يكن على استعداد حتى تلك اللحظة، لتقبُّل الشكايات ودراستها.

- 31 -

بينما كان إيوهان موريتز يحفر في الفناء، وينزح التراب بالرفش، سأل زميله الذي إلى يمينه عن اسمه. كان يحب أن يتحدث

Twitter: @ketab_n

إلى من حوله في ذلك المكان المقفر، لأن الرجال الذين لا يتحدثون، يضمرون في نفوسهم الحقد ويغذونه.

سأله زميله:

- هل تخجل من التحدث بلغة ييدّيش[1]؟

فأجاب موريتز:

- إنني لا أتقن الـ: ييدّيش!

- إن هذا مخجل!

بصق اليهودي على الأرض وأعرَضَ عنه.

التفت موريتز نحو الزميل الذي إلى يساره، يحاول تفسير موقفه، غير أنّ هذا أجابه:

- تحدَّث معي بلغة الـ: ييدّيش!

فقال موريتز:

وهذا هو ما أردت أن أشرحه لك. إنني لا أعرف هذه الرطانة.

راح اليهود ينظرون إليه بحقد. فتوقف عن عمله محاولاً شرح موقفه لهم. غير أنهم أعرضوا عنه، ورفضوا الإصغاء إليه.

«لقد اتفقوا فيما بينهم على التكلُّم برطانتهم. إنّ هذا شأنهم وحدهم، فهم يهود، ولهم الحق في التخاطب والتحدث بلغتهم. ولكن لِمَ أتحدث أنا برطانة الـ: ييدّيش؟».

سأل أحدهم:

- لعلك تتكلم العبرية إذا كنت قد نسيت رطانة الييدّيش؟

فرفع موريتز رأسه يحاول الردّ على المتكلم. وجد أنهم جميعاً قد توقفوا عن العمل، وراحوا ينظرون إليه وفجأة انفجروا ضاحكين.

---

(1) ييديش: رطانة خاصة يستعملها اليهود في أوروبا الشرقية. [المترجم]

Twitter: @ketab_n

غضب إيوهان موريتز واحمرَّ وجهه من الغيظ، حتى إنه لم يطق الاحتمال. قال يحدِّث زميله الذي إلى اليمين:

- إذا كانت المسألة مسألة لغات أجنبية، فإنني أعرف منها أربعاً، أتكلمها بكل سهولة، وهذا يبيح لي أن أسخَرَ منكم، قبل أن تسخروا مني. كم لغة تعرف أنت؟

فأجاب هذا على الفور:

- إنني أعرف البيدّيش!

ضرب موريتز بمعوله الأرض. تأكد لديه أنّ اليهود يريدون السخرية منه. كانوا كلهم يعرفون اللغة الرومانية، لكنهم كانوا ممتنعينِ عن التحدث بها.

وعندما انتهى العمل، جاء إيزاك لانجييل، رئيس الفرقة العجوز، فانتحى بموريتز جانباً، وقال له:

- إننا نحن اليهود، نمرّ اليوم في فترة عصيبة. ولما كنا مجتمعين مع بعضنا، ولا غريب بيننا، فإن من الواجب أن نتحدث بلغتنا: البيدّيش.

قال موريتز:

- لكنني لست يهودياً أنا!

فأجابه إيزاك لانجييل:

- وما فائدة النكران بعد أن وصلت إلى هنا؟ كان يمكنك أن تختفي قبل أن تصل إلى هنا. ولو فعلت ذلك، لأحسنت صنعاً. أمّا هنا، فإن إنكارك لا معنى له. فإذا لبثت مصمِّماً على الإنكار أمامنا، فإنك عندئذٍ تكون مرتداً عاصياً.

- لكنني يا سيد لانجييل لست يهودياً!

كان صوت موريتز مضطرباً متهدجاً، فأجابه اليهودي العجوز:

- ذلك شأنك! إذا كنت تفضِّل أن نعتبرك مرتداً عن الإيمان!

Twitter: @ketab_n

لبث إيوهان موريتز وحيداً. لم يشأ أحد أن يصدق أنه ليس يهودياً، بل كانوا جميعاً، يدعون بأنه يكذب، وأنه ليس رومانياً، بل إنه يعمد إلى هذه الأباطيل ليغادر المعسكر.

كان اسمه مسجلاً في سجل المعسكر، الذي كان يمسكه العجوز إيزاك لانجييل، على اعتباره يهودياً. وكان الاسم: موريتز جاكوب. قال لانجييل حينما سجل الاسم.

- ليس هناك يهودي يسمى إيوهان! إن الاسم اليهودي هو جاكوب. كذلك هو اسمك. إن إيون ليس اسمك كذلك. إنه ليس ترجمة جاكوب باللغة الرومانية.

كان زملاؤه في المعسكر يسمونه يانكل، فلم يكُن يعترض. لكنه كان يجد صعوبة كبيرة في تقبل هذه التسمية. وذات مرة قال لهم:

- لكم أن تسموني «جاكوب» و«يانكل»، لكنني شديد الأسف، لأنكم لا تصدقونني!

- 32 -

علم إيوهان موريتز أنّ كل اليهود الذين يعملون معه في ذلك المعسكر، قد جيء بهم بناءً على أوامر تسخير رسمية. فاقتنع عندئذٍ بأن الدولة «تصادر» اليهود، كما تصادر الخيول العربات وزكائب الحنطة. لكنه لم يكن يهودياً. وهذا ما كان يريد قوله لوكيل الضابط. لم يكن هناك أحد غير هذا الوكيل، يستطيع موريتز أن يتحدث معه، حول هذه القضية، لكن وكيل الضابط، لم يكن أبداً خالي الوقت، ليستمع إلى شكواه، وذات يوم توصَّل إلى مخاطبته. كان وكيل الضابط غاضباً محنقاً.

Twitter: @ketab_n

- منذ أربعة أشهر وأنت لا تنفك تلاحقني وتزعجني! إنني أرى أنك عنصر من عناصر الفوضى هنا. كلما فتحت الباب، أراك منتصباً على العتبة. إنّ في فمك دائماً شكاية تودّ إبلاغها إليّ. ماذا بك؟ ألا تأكل كفايتك؟ ألا تستطيع العمل؟ ألا يمكنك العيش بغير زوجتك؟

كان إيوهان موريتز، قد أعدّ خطبته التي سيلقيها أمام وكيل الضابط. وكان يردّد تلك الخطبة كل يوم، خشية نسيانها. كان يريد أن يقصّ على وكيل الضابط كلّ القضية. قال وكيل الضابط:

- تحدث واختصر!

قال موريتز:

- أريد الخروج من هنا لأنني لست يهودياً.

- ألست يهودياً؟

راح وكيل الضابط يحدج موريتز بنظرة. ثم أخذ سجلّ المساجين الذي كان على طاولته ففتحه على حرف (م) وراح يقرأ:

- موريتز جاكوب، ثمانية وعشرون عاماً، متزوج وله ولدان، قاطن في قرية فانتانا. اسم الزوجة سوزانا، أليست هذه خلاصة أحوالك المدنية؟

فأجاب موريتز:

- بلى!

- إذن، كيف تدَّعي بأنك لست يهودياً؟

- ذلك لأنني لست يهودياً.

قال وكيل الضابط:

- إن ما تؤكِّده هنا شديد الخطورة! فهل تدرك ما تعمل؟؟ إن كذبة واحدة، معناها السجن. إنك تؤكِّد أنّ كل ما جاء هنا - في هذه المستندات العسكرية - خاطئ غير صحيح. إنك تعرف تماماً ماذا ينتظرك. مع ذلك، فإنك تدَّعي بأنك لست يهودياً؟

Twitter: @ketab_n

أجاب موريتز جازماً:

- إنني لست يهودياً!

- ماذا تعمل هنا إذن؟

- لستُ أدري من الأمر شيئاً!

سأل وكيل الضابط:

- لِمَ جئت تحدثني بذلك الآن فقط؟ لقد سجَّلت في كلّ الأوراق الرسمية، أن المائتين والخمسين سجيناً، الذين يشتغلون هنا في حفر القناة، تحت إمرتي، هم كلهم من اليهود. لقد كتبت هذا ووقعتُ بتوقيعي عليه، وأنت الآن تزعم بأنك غير يهودي. ومعنى ذلك، أنني وقعت توقيعاً خاطئاً. إن السجن ينتظرني بسبب ذلك!

كان وكيل الضابط أحمر الوجه من الغضب. أردف بعد قليل:

- إنك تستحق أن أصفعكَ مرتين، صفعات تجعل آذانك تدوي طيلة خمسة أيام متتالية. مع ذلك فإنني سآخذ مذكّرة بأقوالك، لكن ما تقوله شديد الخطورة. لذلك أجعلك تكتب شكواك هذه بخطّ يدك، وتوقِّع عليها بنفسك. إنّ مَن أرسلك إلى هنا، سيُودَع في السجن، إذا ثبت أنك لست يهودياً. لكنك إذا كنت يهودياً، فإنك ستغادر المعسكر، إلى سجن الأشغال الشاقة. هل فهمت؟

لبث موريتز واقفاً أمام الباب، بينما راح وكيل الضابط يحرِّر إفادته. ولما انتهى، أخذ توقعيه في ذيلها. لقد جاء في شكواه أنّ موريتز ليس يهودياً، وأنه بناءً على ذلك، يطلب إخلاء سبيله، فلما وقَّع عليها قال الضابط:

- تستطيع الآن أن تذهب إلى عملك. سأرسل هذه الورقة التي وقَّعت عليها، صباح غد إلى الجهات المختصَّة، ثم سننتظر الجواب.

ابتسم إيوهان موريتز، ولمّا غادر وكيل الضابط، أحسّ كأنه

Twitter: @ketab_n

يعود إلى منزله. غير أن الحارس «سترول» راح يناديه وهو يجري وراءه. قال له إنّ وكيل الضابط يودّ سؤاله عن شيء آخر. فلمّا عاد، قال هذا.

- اسمع يا موريتز. إنّ لي خمسة وعشرين عاماً في خدمة الجيش، وأنا أب لأسرة كبيرة، لا أريد التخلي عن مركزي، وخسارة مستقبلي، بسبب شكواك. إنّ قضيتك ليست من السهولة كما تبدو لك. إنّ اسمك موريتز، فإذا لم تكن يهودياً، لماذا إذن تُدعى موريتز؟ ثم إنك تتحدث لغة ييدّيش، فهل رأيت رومانياً واحداً يتكلم هذه اللغة؟ هل أتكلم بهذه اللغة أنا؟

أجاب موريتز:

- لقد تعلّمت هذه اللغة في المعسكر! عندما يعرف المرء اللغة الألمانية، ويسمع مَن حوله يتحدثون كل ساعات اليوم بلغة ييدّيش، فإنه سيتعلمها أخيراً بسهولة. إنها ليست لغة صعبة.

فقال وكيل الضابط:

- إصغِ إليَّ، أولاً إن اسمك من الأسماء اليهودية، ثانياً، إنك تتكلم الييدّيش، وثالثاً، إنك مسجل في هذه الأوراق بوصفك يهودياً، وبعد كل هذا، تحاول أن تقنعني بأنك روماني؟

كان وكيل الضابط ممسكاً بيده الشكوى التي وقّع عليها موريتز، فوضعها على الطاولة، وكأنه يلقي بها إلى سلة المهملات.

لم يبارح إيوهان موريتز الغرفة، كان الغضب يكتم صوته في حنجرته. قال بجهد:

- أقسم بكلّ القديسين على أنني لست يهودياً يا سيدي الضابط.

فأجابه وكيل الضابط:

- هذا ما سنتأكد منه فيما بعد. أما الآن، فقد أخذتُ علماً

Twitter: @ketab_n

بشكايتك ولسوف أرفع إلى الجهات المختصة مشاهداتي الشخصية. إنني رجلٌ عادل، ولقد كنت كذلك طوال حياتي. لقد أخذت علماً إلى جانب شكايتك الخطية. بأنّ لك اسماً يهودياً لا تدري مصدره، وأنك تتكلم لغة البيدّيش. لكنك تفيد بأنك تعلمتها في المعسكر، وأن عدداً من الشهود يؤيّدون أقوالك. إنك لم تكُن تعرف هذه اللغة حين مجيئك إلى هنا، أليس كذلك؟

أجاب موريتز:

- كلا.

- حسناً، لننتقل إلى نقطة أخرى. ما هو مذهبك؟

- أرثوذوكسي.

نظر إليه وكيل الضابط بارتياب:

- ألا تعرف الطريقة التي يُعمَّد بها اليهود؟

- بلى أعرفها.

- وهل تعلن بأنك لست معمداً مثلهم؟

- إنني لست معمداً مثلهم.

- هل أنت متأكد؟

- كل التأكد، يا حضرة الضابط.

قال وكيل الضابط آمراً:

- حسناً، امضِ إلى النافذة، وقِفْ بالقرب منها، وأثبت لي عملياً. أنك لست معمداً كاليهود!

اقترب إيوهان موريتز من النافذة، وفكَّ أزرار سرواله، وتركها تسقط بين قدميه، ولبث عارياً وهو ينظر إلى وكيل الضابط. قال هذا:

- إن هذا لا يستوجب أن يحمرّ وجهك كالنساء، ليس في الأمر

Twitter: @ketab_n

ما يُخجل. قف أمام النور ودعني أرى. أريد أن أرى بأم عيني، لأتأكد ممّا ينبغي أن أكتبه في تقريري.

خرج وكيل الضابط من وراء مكتبه، وركع أمام موريتز، وراح يفحص المكان المعين، بعناية ودقة. كان يقارن ما يراه بما سمعه، لكنه لم يكُن يعرف الفرق الحقيقي، بين حالة المسيحيين وحالة اليهود من ناحية العماد. وكان عليه أن يتحرى الدقة في تقريره. وأخيراً نهض واقفاً، وأشعل لفافة، وهو شديد احمرار الوجه. قال:

- إنك تسبِّب لي كثيراً من المتاعب يا موريتز. أتظن بأنّ الوطن أرسلني إلى هنا لأتمتع بالنظر إلى . . .ك؟ إنني عسكري يا فتى، وهذه المسألة لا تدخل ضمن اختصاصي. وإذا كنت قد قمتُ بذلك، فإنما رغبة مني في تحرّي العدل. يجوز أن لا تكون يهودياً، وعندئذٍ لا يجوز لي أن أستبقيك هنا.

فتح وكيل الضابط باباً مؤدياً إلى غرفة جانبية، واستدعى الحارس «سترول» وقال له آمراً:

- افحص موريتز، وقل لي إذا كانوا قد «قطعوها» له مثلك تماماً.

فركع سترول أمام موريتز. لقد كان موظفاً في أحد البنوك، فكان يقوم بكلّ شيء بدقة حسابية، وبكثير من التمحيص، تماماً كما يستدعي الحال مع الأرقام. أخذ يفحص المكان بعناية، من كلّ النواحي ثم وقف وقفة «الاستعداد» العسكرية وقال:

- إذا كان مختوناً، فإنه ولا شك ختان سطحي.

فقال وكيل الضابط:

- ما معنى «سطحي» هذه؟ أجبني بوضوح: هل ختن أم لم يختن.

أجاب سترول:

Twitter: @ketab_n

- لا أستطيع الجزم. يخيّل إليّ أن هناك قَطْعاً جزئياً. لكنني لا أستطيع الجزم، إذا كان ذلك قد وقع، من قبل أحد الربانيين، أم حدث لأسباب أخرى.

- هل رأيت يا موريتز كيف أنّ قضيتك شديدة التعقيد؟ لكنني مع ذلك، سوف أرسل هذه الأوراق. والآن يمكنك الذهاب، أما أنت يا سترول، فابقَ هنا لتساعدني في كتابة التقرير!

خرج موريتز من المكتب، وهو يزرر سرواله ساهماً.

- 33 -

بعد توقيف إيوهان موريتز، قصد الكاهن كوروغا إلى مخفر الدرك، إثر عودته من المدينة. كانت الساعة تشرف على التاسعة صباحاً. كان رئيس المخفر قد وصل لتوه عائداً من القرية، والغضب يعصف بين جبينه. قال رئيس المخفر:

- إنني شخصياً، تلقيت أمر التسخير فنفذته. هذا كل ما في الأمر! لا أستطيع إعطاءك معلومات أخرى، لأنني لا أعرف عن هذا الموضوع أكثر ممّا تعرف، فالجأ إلى قيادة الدرك في المدينة، لتعطيك المعلومات اللازمة.

سأل القس:

- هل موريتز في قيادة درك المدينة؟

- لا أعرف هذا الأمر كذلك. حتى ولو كنت أعرف، لما جاز لي أن أخبرك به، إنها أسرار عسكرية. إنّ الرجال المصادرين، يعملون في التحصينات. ولا يجوز إشاعة أسماء الأمكنة، التي يعملون فيها.

نهض الكاهن، وشكر رئيس المخفر للمعلومات التي قدّمها

Twitter: @ketab_n

إليه، وقصد المدينة بعد ظهر ذلك اليوم، حيث قيادة الدرك، ولكن إيوهان موريتز لم يكن هناك، لأن أحداً لم يسمع شيئاً عنه.

سأله ضابط شاب:

- هل كان ذلك الفتى يهودياً؟

فأجابه القس!

- بل مسيحياً أرثوذوكسياً. لقد كان تابعاً لكنيستي.

فقال الضابط:

- إنه إذن لم يرسل إلينا! اذهب إلى مخفر درك القرية، واطلب إليهم أن يزوّدوك بالرقم الذي أرسل بموجبه. إننا لم نتلقِ البارحة واليوم، إلا قوافل اليهود. ولما كنت تقول بأنّ الرجل موضوع البحث، لم يكن يهودياً، فإنه لا يمكن أن يكون في عدادهم.

فقال الكاهن جازماً:

- إنه ليس يهودياً.

عاد الكاهن صباح اليوم التالي. ومعه رقم التقرير المرسل، فراح الضابط الشاب يبحث في سجل هناك ثم قال:

- نعتذر عن عدم إمكاننا إعطاءك أيّ علم، لأن الإضبارة سرية. ينبغي لك من أجل ذلك، أن تحصل على ترخيص من وزارة الحربية.

قال الكاهن:

- أريد أن أعرف فقط، إذا كان موريتز إيون، موقوفاً في المكان الذي هو فيه الآن. إن المعلومات التي أطلبها، لا يمكن أن تكون ذات صبغة سرية.

فأجاب الضابط:

- إنه موقوف حيث هو. لكننا لا نستطيع ذكر اسم المكان الذي

Twitter: @ketab_n

هو فيه، بل إننا لا نعرف المكان إطلاقاً، لقد أودع إلى الأركان. وأركان حرب الجيش، لا تطلعنا على الأمكنة التي يرسل إليها الرجال الذين تستلمهم من لَدُنّا، ولا على ما يُعمَل بهم.

كان صوت الضابط قاسياً، لأنه وجد اسم جوهان موريتز، في سجل اليهود. لذلك فقد راح ينظر إلى القس باحتقار.

فلمّا نهض الكاهن ليغادر الغرفة، هتف الضابط بصوت مرتفع، متعمِّداً إسماعه ما يقول.

- إنه كاهن، ولكنه يكذب كخالعي الأسنان! إنه يعلن بأنّ الشخص موضوع البحث، مسيحي أرثوذكسي، بينما اسمه مسجَّل في سجل اليهود. إذا عاد مرة أخرى إلى هنا، فاطردوه!

- 34 -

كتب الكاهن كوروغا، إلى ابنه تريان، يُطلعه على أمر توقيف إيوهان موريتز، ويرجوه أن يتوسَّط لمصلحته، لدى وزارة الحربية، والأركان العامة. فتلقى من ابنه رداً جاء فيه: إنه تدخَّل في كل مكان أمكنه الوصول إليه، وحصل على وعد بإطلاق سراح موريتز.

مضى على وصول ردّ تريان إلى أبيه أسبوعان، ثم ثلاثة فأربعة أسابيع! ومضى بعد ذلك شهر آخر، وكان الصيف قد أشرف على نهايته. وأقبل فصل الخريف، وإيوهان موريتز لم يعُد بعد إلى منزله. فمضى الكاهن ألكسندرو كوروغا إلى محافظ المنطقة، ليبسط له الأمر. وبينما هو في طريقه إلى المدينة، صادف العجوز غولدنبرغ، والد ماركو، فدعاه إلى الركوب في عربته. كان اليهودي العجوز، قد أصبح هزيلاً. قال شاكياً:

Twitter: @ketab_n

- منذ اليوم الذي أوقف فيه ماركو، وأنا لم أتلقَّ خبراً عنه.

ثم تنهَّد متحسِّراً وأردف:

- لقد صرفت ثروة طائلة، على تثقيفه في جامعتي بوخارست وباريس، فلمّا حصل على شهادة الدكتوراة عاد إلى البيت، فأوقفوه، وأرسلوه، ليحفر الخنادق، وكأنه قد حصل على الدكتوراة في الحقوق ليحفر الخنادق!

أخرج الكاهن رغيفاً حاراً من حافظته، شطَرَه إلى قسمين، قدم أحدهما إلى العجوز غولدنبرغ.

راحا يأكلان بصمت. كان الطريق قد بدأ في الصعود، والحصان يجري الهوينا. فلمّا بلغا قمة التل، قال اليهودي:

- لقد أخذوا بيتي، لقد صادروه! لسوف أضطر إلى إخلائه في خلال أيام قليلة، وإلّا، فإن رجال الدرك سينفونني. إنه البيت الذي بنيته بعرق الجبين. لقد صودر ماركو أولاً، والآن يصادر البيت. فما هي جريمتي يا أبي؟

سكت اليهودي وتوقّف الحصان. وبعد فترة صمت، أردف اليهودي:

- لسوف أشنق نفسي آخر الأمر. لن أستطيع الصبر أكثر من ذلك!

عاد الحصان يسير، فلما بلغت العربة مشارف المدينة، ترجَّل غولدنبرغ منها، ورآه الكاهن يختفي في أزقة «غيتو»[1] الضيقة.

---

(1) «غيتو»: اسم يطلق على أحياء اليهود. وقد بنيت هذه الأحياء الخاصة بهم في القرن السادس عشر. [المترجم]

Twitter: @ketab_n

مضى الكاهن كوروغا إلى المحافظة، بعد أن افترق عن غولدنبرغ. لقد ترك للحصان حرية المشي على هواه، وراح ينظر حوله إلى البيوت، مئات من البيوت المنضَّدة طبقات فوق بعضها، لا تني تتسامى وتتصاعد إلى الأعلى، دائماً إلى الأعلى!

توقف الحصان أمام دار المحافظة، من تلقاء نفسه، لأنّ الكاهن في الآونة الأخيرة، كان يتردَّد على المكان مرة كل أسبوع على الأقل، ليتسقَّط أخبار موريتز، وكان الحصان يعرف إلى أين يقصد الكاهن، كلما جاء إلى المدينة. لذلك فقد وقف أمام البناء بهدوء، كان المحافظ دائم التغيب عن مكتبه، وكان في الحالات القليلة التي يكون فيها موجوداً، جم الأعمال والمشاغل، لذلك فإنّ القس ألكسندرو كوروغا، لم يتوصل أبداً إلى التحدّث معه. وكان أمناء السر والحجاب قد عرفوه، فكانوا يبسمون له بإشفاق كلما رأوه، لكن ابتسامة اليوم، حتى ارتسمت على وجه أمين السر، لم تكن كالابتسامات التي درج الكاهن على رؤيتها منطبعة على وجهه. قال أمين السر:

- إنّ عطوفة المحافظ مستعدّ لاستقبالك. سوف يحين دورك في خلال نصف ساعة.

انتظر الكاهن ساعة، وبعدها أدخل إلى مكتب المحافظ فقال له:

- إن شاباً تابعاً لبيعتي، أوقف منذ ستة أشهر، وأريد معرفة مكان وجوده، وأسباب توقيفه. لقد سمعت أنه في واحد من معسكرات اليهود. لكنه مسيحي وروماني. وأنا الذي عمَّدته بنفسي، لذلك فقد أردتُ التوسّط لإطلاق سراحه.

Twitter: @ketab_n

قال المحافظ:

- إنني كمبدأ، أرفض كلّ وساطة!

- لكن الرجل الذي أحدِّثك عنه، ليس مُداناً بأي جرم.

فأجاب المحافظ:

- لكن الرجل الذي جئتَ تحدثني عنه، موجود في معسكر لليهود، كما ذكرتَ بنفسك!

- صحيح ولكنه ليس يهودياً.

- إن الأمر سواء. فهو - باعتباره في واحد من معسكرات اليهود، يقع تحت سلطة قوانين وأنظمة مرعية خاصة، لا تدخل في نطاق سلطتي. هذا جواب المسألة الأولى. وهناك مسألة ثانية، وإنني أعتبرها رئيسة وهامة، ومن أجلها منحتك هذه المقابلة. إليك المسألة الثانية: إنني لا أحبّ أن يتدخَّل قساوسة محافظتي، مع السلطات، بشتى وسائل التدخل، بدلاً من أن يصرفوا عنايتهم إلى كنائسهم، إننا الآن في حالة «حرب»، وينبغي أن يكون كلّ إنسان في مكانه المحدّد له. اعتبر انذاري هذا رسمياً، إنني لا لا أحب أن أرغم على اتّخاذ خطوات شديدة حيالك شخصياً. لكنني سأُكْره على ذلك، إذا تكرَّر منك الأمر.

أجاب الكاهن بهدوء:

- إنّ العمل لخير الإنسان والعدالة الإنسانية، هو بالوقت نفسه العمل من أجل الكنيسة، ومن أجل اللّه، إنني إذا كنت أتدخّل لصالح إيوهان موريتز، فإنني أتدخّل لصالح الكنيسة واللّه، وهذه هي مهمتي ككقس، إن ما وقع لإيوهان موريتز غير عادل.

قال المحافظ بصوت حازم شديد اللهجة:

- لا وجود للعسف والظلم إلا في مخيلتك. إننا في حالة حرب، ونحن نحارب من أجل الوطن والكنيسة، ضد الدجال. فهل

Twitter: @ketab_n

تعتقد بأن إرسال شخص ما ليعمل في الحصون، ويخدم بذلك غايتنا المقدّسة، عمل جائر؟

أجاب الكاهن:

- إنّ هذا الشخص إنسان. وهذا الكائن البشري، قد أوقف وأرسل إلى الأشغال الشاقة، دون أن يكون مذنباً، أو أن يمثل أمام محكمة.

- إن هذه ترهات يا أبي. لو أننا عنينا بأمر كلّ شخص على حدة، لاكتسحتنا الموجة البلشفية، ولأصبحنا الآن معلقين إلى الطرف الثاني من حبل متين، بل إنك ستكون أوّل من يرد هذا المصير. إننا متأكدون من أننا نحارِب من أجل الدين!

قال الكاهن معلقاً:

إنّ مَن لا يهتم بشأن الإنسان كرجل، لا يمكنه الادِّعاء بأنه يناضل من أجل الصليب. لا يمكن أن يكون إنسان مدافعاً عن الدين، وبالوقت ذاته عدواً له.

- لعلك تريد إذن أن نخلي سبيل موريتز (ك)، وأن نترك البلاشفة يدخلون بلادنا، فيحرقون كنائسنا، ويستحيون نساءنا، ويغلوننا في الحديد. أهكذا تفهم معنى النضال من أجل الكنيسة؟

- إن أنبل المُثُل القومية الاجتماعية، أو الدينية، لا يمكن أن تعذر حيفاً يلحق برجل واحد. إن تحويل الرجال إلى رقيق باسم المسيح، ليس إلا جريمة ضد المسيح.

سأل المحافظ:

- هل أنت واثق بأن الشخص موضوع البحث ليس يهودياً؟

- كل الثقة.

- إذن، لقد ارتُكِبَ عار مريع! ينبغي أن يعاقب المذنب. مَن الذي أعطى أمر المصادرة؟

Twitter: @ketab_n

فأجاب الكاهن:

- لست أدري. إنني منذ ستة أشهر، لا عمل لي إلّا سؤال السلطات: الشرطة، الدرك، الجيش وفي كل مكان. ولكن لا من يجيب. إنهم كلما سألت، أجابوني بأن الأمر سرٌّ.

قال المحافظ:

- إنّ سلوكهم طبيعي لا غبار عليه. إن هذه الأعمال شديدة السرية. إنني أنا الآخر، لا أستطيع أن أعلمكَ بشيء. ينبغي أن تمرّ شكواك بالأركان العامة قبل كلّ شيء. وعندما تتلقى تصريحاً من هناك، فإننا سنستطيع عندئذٍ، أن ننظر في الإضبارات، لنعلم مَن الذي وقَّع أمر المصادرة. وإذا كان في الأمر سوء تصرف، فلكَ أن تتأكَّد، من أن المسبِّب، سيعاقَب عقاباً رادعاً صارماً، يكون فيه عبرة لسواه. لكننا لا نستطيع إعطاءك المعلومات التي تريدها، دون أن تكون في يدك ورقة رسمية، تصرِّح لك بمتابعة هذه المسألة.

نهض المحافظ إيذاناً بانتهاء المقابلة، لكن الراهب كوروغا لم يتحرك من مكانه. قال:

- أيجوز يا سيدي المحافظ، أن يكون الإنسان، قد انحدر في عدم الإحساس، لدرجة صار معها كالآلة الصماء، فيصمّ أذنه عن نداء آخرته؟ إنني لا أستطيع الاعتقاد بأنك لم تفهم شكواي. إنك إنسان. والإنسان ذو شعور، وأحاسيس، وروح. إن الإنسان ليس آلة. فهَلّا تحقِّق بنفسك الظلامة التي لحقت بإيون موريتز في واقع الحال؟

فقال المحافظ:

- لكي أكون شديد الإخلاص معك يا أبي، ينبغي أن أعترف لك، بأنني شديد الأسف، لأنني لا أستطيع خدمتك. إنني أعتقد بأنك على صواب إنني أقول لك ذلك، لأنني أنا الآخر، ابن كاهن.

Twitter: @ketab_n

لكنني في واقع الحال لا أهتم لا باليهود، ولا بالماسونيين، أو الحرس الحديدي. إن هذه الأمور شديدة الخطورة، يمكن أن تجلب النحس والضرر، على كلّ مَن يتعرَّض لها، إنني موظف، ولا أريد أن أقضي على مركزي ومستقبلي، بالتدخل في هذه الأمور. هذا كل شيء.

نهض الكاهن كوروغا، فضغط المحافظ على يده قبل خروجه، وقال:

- إنني آسف إذ لا أستطيع نفعاً لرجلك... ماذا كان اسمه؟ أظنه موريتز! زرني في مناسبات أخرى، وستراني في خدمتك.

- 36 -

توقف الكاهن أمام كنيسة قائمة عند مدخل المدينة. كان يفكر في رئيس مخفر درك فانتانا، وفي المحافظ، وفي ذلك الضابط الشاب الذي قابله في مركز قيادة الدرك، وفي كل رجال الشرطة والموظفين الذين تركوه ينتظر على أبواب مكاتبهم، وهم يحتفظون بإيوهان موريتز سجيناً بين أيديهم فرفع قبعته، وراح يبتهل بالصلاة التالية:

«لنصلِّ الآن، من أجل أولئك الذين يمتلكون جزءاً حقيراً من السلطة، لنصلِّ من أجل كل أولئك، الذين علينا أن نحتمل بينهم، ظلم الدولة وعذابها، من أجل أولئك الذين يحققون، ثم يعيدون التحقيق، للتأكد من صحته، من أجل أولئك الذين يعطون الصلاحيات، ويشرِّعون الممنوعات، لنبتهل أن لا يؤمنوا بالحرف والرقم، فيعتبروهما أكثر حقيقة، وأشدّ حياة من اللحم والدم... واعمل يا مولانا، اعمَل على أن لا نخلط نحن الآخرين، نحن

Twitter: @ketab_n

المواطنين البسيطين، على هذه الأرض، بين الرجل، والوظيفة التي يشغلها. اعملْ على أن يمثُل في ذهننا دائماً، أن تلك الحالة التي نخضع لها، ونمرّ بها، لم تخلق إلّا بسبب نفاد صبرنا، أو كسلنا أو سوء تصرفنا، أو خوفنا من الحرية، أو أخيراً بسبب طغياننا الشخصي، وأننا بذلك نتحلل من خطايانا».

فرغ الكاهن من صلاته، فغطى شعره الأبيض بقبعته، ومضى في طريق الأوبة إلى فانتانا. التقى عند الساحة بالعجوز غولدنبرغ، الذي كان هو الآخر قد عاد من المدينة. فلمّا وصل الحصان أمام اليهودي، توقف. كان الحصان يعرف التاجر اليهودي، ويعرف أن الكاهن، كان يحمله معه في عربته كلما التقى به.

- 37 -

تلقى رئيس مخفر فانتانا، أمراً بتنظيم جدول، يحوي على كلّ ممتلكات اليهود في قريته. فأحصى كلّ ما يمتلكه العجوز غولدنبرغ في جدول لكنه لم يرسله. كان يعرف أن موريتز، يقيم هو الآخر في معسكر لليهود. صحيح أن رئيس المخفر، عندما أرسل موريتز مع أمر المصادرة إلى المدينة، لم يدَّعِ، بأنه يهودي، لأنه لو فعل ذلك، لارتكب خطأً فاحشاً، لأن موريتز كان رومانياً عريقاً. لكنه سخَّره حينذاك، بوصفه شخصاً غير مرغوب فيه. لأنّ التعليمات الصادرة بشأن مصادرة الأيدي العاملة، كانت تبيح ذلك بالنسبة إلى اليهود وحدهم، والأشخاص غير المرغوب فيهم. فكان ما عمله رئيس المخفر إذن، قانوني. لأنّ أيّ دركي، كان يستطيع اعتبار أياً كان شخصاً غير مرغوب فيه، لأنه لم تكن هناك أوامر دقيقة، تحدِّد الخطوط التي يجب أن يسير رجال الدرك على هديها، لكن موريتز،

Twitter: @ketab_n

سُجِّل في قيادة درك المدينة في سجلات اليهود. وكان ذلك خطأ قيادة الدرك، أو بالأخرى خطأ موريتز نفسه، لأنه كان يحمل اسماً يهودياً. كان رئيس مخفر فانتانا، قد بدأ يشعر بأسف لِما وقع منه. لقد ظنّ بادئ الأمر، أن موريتز سيُحتجز لبضعة أسابيع. ولكن ستة شهور قد انقضت، دون أن يعود. وها هو الآن، يتلقى أمراً، بإعداد جداول، تحصي ممتلكات اليهود في قريته. فإذا تحرى الحقيقة، كان منزل موريتز، لا ينبغي أن يصادر، لكن السجلات في قيادة الدرك، كانت تتضمن اسمين يهوديين في فانتانا: العجوز غولدنبرغ وموريتز!

فلو أنه كتب إلى قيادة الدرك بأن موريتز ليس يهودياً لقام تحقيق فوري لمعرفة أسباب توقيف إيوهان موريتز، وما كان رئيس المخفر يرتضي بمثل هذه الخاتمة لأنّ سوزانا تستطيع أن تشهد ضده. كذلك كان لا يستطيع أن يدرج بيته وما يملك في قائمة ممتلكات اليهود.

لذلك فقد راح يستشير اليهودي العجوز غولدنبرغ.

- إذا طلَّقَت سوزانا زوجها، فإنه يصبح من حقها الاحتفاظ بالبيت، لأنها ليست يهودية. ولا يمكن إثبات انتسابها إلى هذا العرق. على كلّ حال، فإن كل اليهود في المدينة، الذين تزوجوا بمسيحيات، قد تصرفوا على هذا النحو.

كان رئيس المخفر يحدِّث نفسه، بأن سوزانا لن توافق أبداً على الطلاق. لأنها تعرف بأن موريتز ليس يهودياً، لذلك فإنّ القضية ستنتهي بفضيحة، خصوصاً إذا خطر لها أن تستعين بأحد المحامين، فعندئذٍ سيُفتح تحقيق سريع بهذا الصدد!

قال غولدنبرغ العجوز:

- إن الطلاق يسهل الحصول عليه. إذ يكفي أن تسجِّل المرأة إقراراً خطياً، تقول فيه: إنها تريد ترك زوجها «لأسباب تتعلق بالنظام القومي». وعندئذٍ يُمنح الطلاق، بمجرد إبراز الورقة، بل إنّ ذلك يتمّ

Twitter: @ketab_n

دون محاكمة ولا مقابلة. إنّ كل شيء يُسوى بطريقة إدارية. إنها القوانين الجديدة!

- 38 -

كتب رئيس المخفر طلب الطلاق بنفسه، وكأنه سجل بناءً على رغبة سوزانا، ومضى إليها ليحصل على توقيعها على الطلب. قال لها:

- إن زوجك في أحد معسكرات اليهود، ولقد تلقيت الآن أمراً بمصادرة بيتكم. لأن زوجك مسجل في الإضبارات، بوصفه يهودياً. لكنني أعرف بأنه ليس يهودياً. بَيْد أنّ اسمه، يحمل له الشقاء. فلِمَ بحق الشيطان سمِّي موريتز؟

كانت سوزانا تصغي إليه، وقد اعتمدت بذقنها على الباب. كانت تحدِّق في وجهه، وفجأة طفرت الدموع من عينيها الكبيرتين الذاهلتين. قالت:

لقد أخذت مني زوجي، والآن تريد أخذ داري. من الخير لي أن أقتلك، ولو كنت دركياً! لن تحصل على بيتي!

انحنَت سوزانا، فأخذت حجراً كبيراً، قذفته به من فوق الباب فارتمى رئيس المخفر جانباً، ليتفادى الحجر وصاح:

- لست أريد أخذ بيتك. لقد أتيتكِ بهذه الورقة لتوقيعها، وعندئذٍ تستطيعين الاحتفاظ بالبيت.

ومدّ إليها يده بطلب الطلاق وبقلم الحبر. أخذت الطلب، لكنها لم تستطع قراءته، لأن عينيها كانتا ممتلئتين بالدموع، سألت:

- ماذا في هذه الورقة؟

فأجابها رئيس المخفر:

Twitter: @ketab_n

- إنه طلب طلاق. إنه مجرد شكليات، لكي تستطيعي المحافظة على البيت.

صرخت محنقة:

- أتريد أن تطلِّقني من زوجي؟

كانت هائجة كالنمرة الثائرة، تريد تمزيقه إرباً. لكنه قبض على إحدى يديها من فوق الباب، وراح يحاول تهدئتها:

- إنها مجرد شكليات، إنه ليس طلاقاً حقيقياً. إذا لم توقعي على هذا الطلب فسأضطر في خلال أيام قليلة مقبلة أن أخرجك من البيت. فأين تذهبين ونحن على أبواب الشتاء؟ فكري في ولديك.

صمَّت سوزانا أذنها. ما كانت تريد سماع شيء ممّا يقول. قالت بعناد:

- إنّ إياني زوجي، وإنني أفضل الموت، على الافتراق عنه..

لبث رئيس المخفر أمام الباب قرابة ساعة كاملة، فأحسَّت سوزانا بالإنهاك. لقد بكت كثيراً في خلال تلك الساعة. دخلت إلى المنزل، لكنها عادت من جديد إلى الباب، تقذف رئيس المخفر بالحجارة، بل إنها أخذت فأساً وهددته بها. لكنها فكرت أخيراً، أن من الخير لها أن توقِّع على ورقة تافهة، بدلاً من أن تشرَّد مع ولديها في ذلك الشتاء. سوف يفهم موريتز عند عودته، وسيصفح عنها، لأنها وقَّعت على تلك الورقة. سوف يتأكد من أنها لبثت مخلصة له، ووفية على عهده. وأنها اشتغلت بدأب ونشاط، فاحتفظت ببيتها، وعنيت بأولادها، وأنها لبثت زوجته وحده، وحده فقط. لذلك فقد وقعت على الورقة. فوضع رئيس المخفر، طلب طلاق سوزانا، في جيب بزّته الداخلي ومضى. كان مطمئناً، يستطيع النوم تلك الليلة، دون وجل. لأنه تأكَّد من أنه، بعد أن حصل على توقيعها، قد أبعد نهائياً، إمكانية قيام تحقيق جديد!

Twitter: @ketab_n

ولو أن الرئيس جاء يحقق في الأمر، لأودع في السجن يومين أو ثلاثة أيام. أما الآن فقد زال الخطر، فابتسم وراح يصفُر.

- 39 -

كان السجناء في معسكر موريتز، يستطيعون الفرار بكلّ سهولة، لأنه لم يكن هناك أكثر من خمسة جنود لحراستهم. لكنهم كانوا يعرفون أنهم لن يستطيعوا الإفلات، وأنهم إذا قبض عليهم من جديد، ساءت عاقبتهم. لذلك فإنهم لم يحاولوا الفرار.

وقد فر ماركو غولدنبرغ. لكنه لم يكن يبتعد، حتى صادف وكيل الضابط على الطريق، فأعيد من جديد إلى المعسكر.

جمع وكيل الضابط السجناء قبل ساعة العمل وقال لهم:

- ماذا ينبغي أن أصنع؟ هل أكبِّل ماركو غولدنبرغ بالحديد، وأرسله إلى المحكمة العسكرية، أم أتركه هنا؟ هل ستتعهدون بحراسته، لمنعه من القيام بأية حماقة من هذا النوع؟

تعهد المساجين بحراسته، واحتمال تبعة فراره. كان ماركو غولدنبرغ، حتى ذلك اليوم، بعيداً عن أعمال الحفر. لقد كان مريضاً بعض الوقت، فاستخدم كناظر إعاشة في المكتب. لكنه بعد تلك المحاولة، أعيد إلى أعمال الحفر، فجاء العجوز لانجييل، وحدد له المساحة التي عليه إنجاز حفرها يومياً، وسلمه رفشاً ومحفاراً.

رفض ماركو غولدنبرغ. كان يفضِّل أن تقطع يديه، على أن يحفر أخدوداً واحداً في الأرض. قال محتجاً:

- إن هذا العمل، يتنافى ومعتقداتي السياسية.

التفّ المساجين حوله. لم يكن أحد منهم يحفر القناة، استناداً

Twitter: @ketab_n

إلى معتقدات سياسية. لذلك فقد سَرَّهم جميعاً، إرضاء فضولهم بالإصغاء إلى ما يقول.

قال ماركو غولدنبرغ:

- إنّ حفر القناة، سيعرقل زحف الجيش الأحمر، وأنا شيوعي، لذلك فإنني لا أريد بأي شكل من الأشكال، أن أضع العراقيل، في طريق رفاقي!

قدَّر المساجين موقف ماركو وشجاعته، وكانوا كلهم على اتفاق حول ذلك. لكنهم لما عرفوا أنّ حصة ماركو من الحفر، ستُضاف إلى حصصهم في حالة رفض هذا العمل فيها، خَفَتَ حماسهم بسرعة فائقة. أعطى العجوز لانجييل إشارة البدء بالعمل، ووعد بتسوية الأمر.

فلمّا بدأ السجناء بالعمل، قصد لانجييل إلى حيث كان ماركو واقفاً على حافة القناة، ويده في جيبه.

- إننا معشر اليهود، نمتاز بخاصة لا يُجارينا فيها أي شعب من شعوب الغرب. إننا نعرف كيف نبرم العهود، ونعمل المصالحات. إن شعبنا حكيم، يقدِّر التراضي، ويحتقر المواقف المغيظة. إنها فضيلة احتفظنا بها من الشرق. إنك تفهمني ولا شك. إنّ من يستطيع توفير العنزة والملفوف معاً، رجل عاقل. لكنك احتقرت الحكمة وتجبَّرت، متناسياً أن هذا الموقف الذي اتخذته، خاص بالشعوب البربرية، الشعوب العسكرية. إن الأمم الراقية المهذبة، تستطيع نيل مشتهاها، باتخاذ مواقف متعددة معاً، فتنتقي من بينها دائماً، الموقف الذي ينطبق على الحالة الراهنة، إذا كنت لن تبالي بهذه الحكمة، فذلك شأنك، لقد فهمنا أنك لا تريد حفر القناة معنا.

أجاب ماركو:

- لن أحفر مهما كان الثمن!

Twitter: @ketab_n

- لكن حصتك من الحفر، ينبغي أن تُحفر كل يوم، طيلة مدّة بقائك هنا. ينبغي أن يقوم أحد بحفرها. لقد كنت حتى اليوم في المستشفى، ولكن اعتباراً من اليوم. . .

أجاب غولدنبرغ:

- إنني أعرف ما تقول، لكنني لن أحفر!

فقال لانجييل:

- إذا لم تشتغل، وجب أن نشتغل بدلاً منك. لقد قمنا بذلك اليوم. ولكن ليس من المعقول أن تظلّ هكذا، دون عمل، ويداك في جيوبك، بينما نشتغل من أجلك نحن!

قال ماركو غولدنبرغ باحتقار:

- إنني لم أسألكم ذلك! إذا شئتم القيام بهذا العمل، فهو شأنكم. إذا كنتم تجدون فيه متعة. . .

- إننا لا نجد فيه أية متعة، وأنت تعرف ذلك. لكننا مع ذلك لا نستطيع إطلاعَ، وكيل الضابط على موقفك، ليرسلك إلى المحكمة العسكرية، والأغلال في يديك.

- قولوا له إنني مخرب! لِمَ لا تذهبون إليه وتقولون له ذلك على الفور؟

قال لانجييل:

- إصغِ إليّ يا ماركو، إنك دكتور في الحقوق، وينبغي أن تُدرك حقيقة الموقف. إننا لا نستطيع أن نطلب توقيفك، وأن نراك خارجاً من المعسكر، تحت حراسة الحراب، إننا لا نستطيع عمل ذلك. إنّ الفاشيست اليوم، يطاردون اليهود في كلّ أوروبا، كالوحوش الضارية، لكن الفاشيين أعداؤنا يا غولدنبرغ. أما نحن اليهود، فإننا لا نستطيع أن نطلب سجن يهودي وسوقه إلى المحكمة العسكرية.

Twitter: @ketab_n

لكننا كذلك لا نستطيع أن نحفر ونشتغل بدلاً عنك. إننا لا نكاد ننهي كل يوم، نصيبنا المقرَّر من العمل.

سأل ماركو هازئاً:

- ما فائدة هذه الموعظة؟ أتأمل أن تأخذني بالعواطف؟ إذا ظننت أنك تستطيع إقناعي، فثِقْ بأنك تضيّع وقتك!

قال لانجييل:

- لن تبلغ بي السذاجة هذا الحدّ. إنك متعصّب. وكلّ متعصّب ليس إلا وحشاً ثائراً، يجدُر الابتعاد عنه. غير أنّ لك أباً وأماً. أوه! إنني أعرف أنك لا تفكر فيهما. لكننا نحن نفكر فيهما بدلاً منك. إنهما ينتظرانك في البيت. إنك يهودي، ولا يمكننا أن ننسى ذلك. إنك أخونا، إنّ دماً واحداً يجري في عروقنا. إن الأمر كذلك، ولو أنك نسيته، ولهذا السبب ترانا نبحث عن حلٍّ بالتراضي لتعصُّبِك، ولصالح طائفتنا وعواطفنا التي تهزأ منها.

كان السجناء الآخرون، ملتفين حولهما، يصغون إلى حديثهما.

قال لانجييل:

- إنك لا تريد أن تشتغل في القناة لأنها تمثل عائقاً في طريق رفاقك، في الجيش الأحمر. لا يمكننا أن نُرغمك على العمل، لكنه يجب أن تقوم بعمل ما، لا يحمل صبغة سياسية أو عسكرية، فهل تفضّل مثلاً أن تنظف المراحيض؟ إننا نقوم بهذا العمل دورياً، فإذا كنت توافق على القيام به كلّ يوم، فإن الذي سيحلّ دوره في تنظيفها، سيحلّ محلك في العمل في القناة. لكنني أخطرك بأنه عمل تتقزّز له النفس، إلى جانب المشقّة التي فيه.

كان لانجييل العجوز، واثقاً من أن غولدنبرغ، عندما يجد نفسه مرغماً على الانتقاء، لن يتردّد في قبول العمل في القناة. كان يعرف أنّ أي سجين، لا يستطيع مقاومة اشمئزازه من العمل الآخر،

Twitter: @ketab_n

والصمود فيه، أكثر من يومين متعاقبين. فكيف الحال إذن بالنسبة إلى رجل فكر!

- فكّر في أمرك جيداً. إنني أمهلك حتى مساء هذا اليوم.

فقال ماركو:

- لا جدوى من الانتظار. لقد اتخذت قراري.

- إذن؟ ماذا؟

فأجاب غولدنبرغ:

- سأنظّف المراحيض. إنه نشاط إنشائي على الأقل. إن العمل في القنال إجرامي، فاشي، ومُعارض. إنني أفضل أن أقوم بتنظيف المراحيض كلّ يوم، على أن أساهم في إقامة عارض في وجه رفاقي من الجيش الأحمر.

امتقع وجه لانجييل العجوز، بعد أن فشلت خطته. فقال آملاً أن يبدِّل ماركو رأيه:

- لعلَّه من الأفضل لك أن تفكِّر مرة أخرى، قبل اتخاذ مثل هذا القرار.

فأجابه غولدنبرغ:

- لا حاجة مطلقاً إلى إعادة التفكير.

وأدار له ظهره.

لم يجرؤ أحدٌ من المساجين على الدنو من غولدنبرغ، والتحدُّث إليه، غير أن إيوهان موريتز وحده، وجد تلك الجرأة. قال له:

- إنك مجنون يا ماركو! كيف تستطيع تفضيل تنظيف المراحيض كل يوم؟ إنه أسوأ من سجن الأشغال الشاقة!

فصرخ ماركو:

- اغرُب عن وجهي! إنني أعرف وحدي ماذا يجب أن أعمل!

فأجاب موريتز:

Twitter: @ketab_n

- لا يبدو عليك ذلك!

شعر إيوهان موريتز بأن نظرات ماركو غولدنبرغ، كانت مشابهة كلّ الشبه، لنظرات إيورغو إيوردان.

فابتعد إيوهان موريتز عنه.

- 40 -

شعر العجوز لانجييل، غداة اليوم التالي، بتبكيت في ضميره. لقد تأكّد من أنه أساء التصرف حيال غولدنبرغ. كان العجوز شديد الحساسية. فمضى ذلك المساء إلى ماركو، يحاول حمله على تبديل قراره. كان يريد انتشاله من ورطته بأي ثمن. كان يشعر بأنه حكم عليه بنفسه بذلك العمل.

لم يكن ماركو قد انتهى من عمله. كان قد نقل طيلة يومه، الدلاء الملأى بالنفايات القذرة من الحفر، ليلقيها خارج حدود المعسكر، في الحقول.

كان المطر قد هطل باستمرار، فكانت الحفرة تمتلئ دائماً بالماء. وأصبحت مهمته شديدة الصعوبة. كان ماركو منهوكاً من التعب. لقد كان هزيلاً ضعيف الرئتين. قال له لانجييل:

- أظن أنك ستعدل الآن عن رأيك. إنه ليس بالعمل الذي يلائمك.

انحدر ماركو إلى الحفرة فملأ الدلو، ثم جمع الأقذار بالمجرفة. أردف لانجييل:

- لو كنت مكانك، لما استطعت البقاء طوال اليوم في كلّ هذه القذارة، وسط هذه الرائحة الكريهة.

لم يجب ماركو. كان لا يستطيع الانتصاب، مع ذلك فقد كان

Twitter: @ketab_n

مستمراً على عمله. حمل الدلوين، ومرّ أمام العجوز. فلمّا عاد قال له لانجييل:

- لسوف تمتلئ بشرتك وثيابك بهذه الرائحة. إنك لن تستطيع نيل قسطك من الراحة الليلية، بسبب هذه الرائحة الكريهة.

كان العجوز يريد أن يقول له، إنه يستطيع أن يعود إلى العمل في المكتب، اعتباراً من صباح الغد، لكن ماركو لم يكن قادراً على الاستماع إلى كلامه. لقد كان على آخر رمق. وكان يحمل في يده مجرفة، فرفعها بين يديه، وأغمض عينيه، وضرب بها بكلّ قواه. أصاب حد المجرفة لانجييل في جمجمته فترنح. غير أن ماركو ما كان يراه في تلك اللحظة. كانت يداه متقلصتين على مقبض المجرفة، فأهوى بها مرة ثانية فثالثة، لكن الضربات كانت في تلك اللحظة، تصيب الفضاء، لأن العجوز كان قد سقط على الأرض، إثر الضربة الأولى. لبث ماركو في مكانه والمجرفة في يده. فلما فتح عينيه، شاهد العجوز لانجييل، ملقى على الأرض، تحت قدميه، مشطور الرأس. لم يكن يريد قتله؛ فقد عمل بوحي يأسه. لكنه لم يأسف على ما عمل.

- 41 -

انقضت أربعة أشهر على هذه الحادثة. كان إيوهان موريتز يرى بعين الخيال، رأس العجوز، وقد شطرته الأداة الجانية إلى شطرين، وماركو، وهو يخرج من المعسكر، بين حراب الجنود، لكن تلك الصورة، كانت تبدو قديمة باهتة، لفّها الماضي في أردانه. كان يتساءل أحياناً، عمّا إذا لم يكن قد مضى على هذه الفاجعة دهر كامل. إنّ الأموات، سرعان ما ينسون. صحيح أن ماركو لم يكن قد

Twitter: @ketab_n

مات، لكن أولئك المحكومين بالأشغال الشاقة ينسون أيضاً بسرعة، كما ينسى الأموات.

كان الثلج يتساقط ذلك اليوم، فأعلن وكيل الضابط، مجيء أحد الجنرالات في دورة تفتيشية. قال لهم:

- إننا ننتظر كذلك زيارة الملك. سيأتي الملك لمشاهدة القناة التي حفرناها. إن الملك هو الذي وضع مخطط هذه القناة بالذات لذلك فإنه يودّ رؤيتها.

راح موريتز يفكِّر في ماركو الذي يجب أن يكون في تلك اللحظة في أحد المناجم، يكدّ ويكدح، في ظروف شديدة الصعوبة. ثم فكّر في الملك الذي وضع بنفسه تصميم القناة. كان يراه إلى مكتبه، يرسم والقلم في يده، كما لا يرى المرء مثل ذلك إلّا في الصور. كانت القناة طويلة، يبلغ طولها مائة كيلومتر أو تزيد، لكن كلّ واحد من السجناء لم يكن يعرف منها، إلّا الجزء الذي كان يحفره بنفسه، لأنه لم يكن يستطيع تصوّر مسافة أكبر من التي ينجزها. كان عمق القناة ثلاثة أمتار، وحافتاها مائلتين بانحدار شديد وكانت ستُملأ بالماء. أخذ موريتز، يحاول أن يتخيل الماء يجري في القناة، في ذلك المكان الذي كان يحفر فيه في تلك اللحظة. نما إليه أنه بعد الحرب، ستسير البواخر في تلك القناة! أما الآن فإنها تُحفر لعرقلة الزحف الروسي. لذلك فإن العمل فيها سري، والملك وحده وعدد من جنرالاته، هم الذين يعرفون مكان تلك القناة وسرها. لقد أطلعهم وكيل الضابط على ذلك. كان موريتز يحلم غالباً بالملك، وإلى جانبه بعض الجنرالات، يتهامسون، وينحني بعضهم على آذان بعض يتحدثون. كانوا يتناقشون بشأن القناة التي اشتغل في حفرها، هو، موريتز! لقد أدرك السبب الذي من أجله، كان السجناء ممنوعين من الكتابة إلى ذويهم، إلى زوجاتهم وأطفالهم. كان ينبغي أن يظلّ

Twitter: @ketab_n

سرّ القناة مكتوماً، يجهله الروس. لقد أنبأهم وكيل الضابط، بأن للروس جواسيسهم، وأن هؤلاء، منتشرون في كل مكان، يحاولون أخذ رسوم القناة التي يشتغل فيها، هو، موريتز، لكن رجال الشرطة، كانوا أبداً يعتقلون أولئك الجواسيس، لذلك فإنّ المساجين، لا يمكن أن يخلى سبيلهم، لأنهم إذا عادوا إلى بيوتهم، فإنّ سر القناة لا شكّ سينتشر ويذيع.

كان إيوهان موريتز، يودّ من صميم قلبه، أن يعود ذات يوم بعد الحرب، إلى هذه القناة، برفقة سوزانا زوجته، وولديه، ليُريها الأمكنة التي اشتغل فيها. ستكون القناة عندئذٍ مملوءة بالماء، لكنه هو، موريتز، كان يعرف المواضع التي حفرها. كان قد حدَّدها في ذاكرته، ليرجع إليها بعد الحرب. سوف يذهل ولداه. لن يصدِّقا أنه كان في ذلك المكان بالذات، قبل القناة، حقل شاسع تمرّ فيه الماشية. سوف يرويان الخبر لزملائهما في المدرسة، ويقصان عليهم عمل أبيهما المجيد... سوف يفخَران بأب مثله! لأن الأولاد الآخرين، لن يكون لهم آباء أتموا مثل هذا المشروع الجبار. لقد كان موريتز فخوراً بعمله. حقيقة أنه كان شديد القلق في بداية الأمر، لا يني يفكِّر في البيت: علّ اللبنات قد جفّت أكثر ممّا ينبغي فتلفت، لعلّ سوزانا لم تستطِع نقل الأخشاب من الغابة، لعلها لم تتمكن من قطف الذرة كلها... إلخ. كانت تلك الأفكار تحرمه نوم الليالي، لكن ذلك العذاب، لم يدُم إلّا ريثما أمضى فترة في المعسكر. وبعدئذٍ، تبدَّلت آراؤه رويداً رويداً، حتى بات يقول في نفسه: لا شك أن سوزانا رتَّبت الأمور كما يجب، إن كلّ ما تعجز عن عمله بجهودها كامرأة، سيعود هو لينجزه بعد قليل. كان منذ ذلك اليوم الذي خلع فيه سرواله متعرِّضاً لفحص وكيل الضابط، الذي اقتنع أخيراً بأن موريتز ليس يهودياً، لا ينفك يأمل في إطلاق سراحه. كان

Twitter: @ketab_n

يعتقد بأن أمر إخلاء سبيله قد وصل منذ زمن طويل إلى المعسكر، لكن إطلاق سراحه، كان متعذراً قبل أن ينتهي من حفر القناة. وسيحضر الملك وجنرالاته لرؤية القناة التي ساهم في حفرها، وسيصدرون حكمهم، وبعدئذٍ، سيُطلقون سراحه. لم يعُد موريتز حاقداً على الدولة لأنها أرسلته إلى هنا. كان بادئ الأمر، حاقداً على الجندي الذي رافقه من فانتانا إلى المدينة، ناقماً على رئيس مخفر فانتانا، الذي كان يعتقد بأنه هو الذي «صادره»، بل إنه ما زال ذلك الاعتقاد راسخاً في نفسه حتى اليوم، لكن نقمته قد خبت. عندما سيعود إلى القرية، سيرفع قبعته، محيياً رئيس المخفر دوبريسكو إذا صادفه، تماماً كما كان شأنه معه في الماضي، لكنهم لو أطلقوا سراحه قبل سبعة أشهر مثلاً، وقابل رئيس المخفر، لأدار له ظهره، بل لَأَهانه أيضاً، لأنه تعرض لسخريته اللاذعة، لما أبلغ أمر المصادرة. غير أن غضبه قد تبخّر الآن، بعد هذا الوقت الطويل. إنّ كل شيء يزول بفعل الزمن. كان يعرف أنه عمّا قليل، سيعود إلى داره. كان يذوي حنيناً لزوجه، وأولاده، وقريته. لا شك أن الأولاد قد نموا في خلال هذا الوقت. سيركض «بيترو» بخطواته المتعثرة، لاستقباله أمام الباب، سوف يرفعه بين ذراعيه، وسيضمّ ولده الثاني، نيكولاي، إلى صدره!! كان موريتز يهدهد هذه الأحلام في خياله. كان يرى نفسه واقفاً أمام منزله، والصورة التي تمثّلها عن ولديه، تخرج إلى حيّز التنفيذ والحقيقة. سوف يقصّ على سوزانا كيف اشتغل، وأين كان يشتغل. لكنه لن يحدّثها عن الضربات التي نالها واحتملها، وسوف يكتم عنها، أنه كاد أن ينفق من الجوع. إذاً ما فائدة التحدث به إليها؟ سوف يقول لها فقط: إنه تعلم اليديش، وإن أحداً من المعسكر، حتى من اليهود أنفسهم، ما كان يصدق أنه روماني. لم يصدّقوه، إلّا بعد أن أمره وكيل الضابط بخلع سرواله،

Twitter: @ketab_n

ليتأكد بالنظر إلى. . . لَسوف تضحك سوزانا، وسوف تغرق في الضحك، لمّا يُعلمها بأن وكيل الضابط، أمر سترول، المولج بشؤون الإعاشة في المعسكر، بفحصه كذلك. سيُحدثها بأنّ وكيل الضابط وسترول، وقفا ذاهلين وقالا له:

- ينبغي لنا أن نخرجك من هنا، لأنك لست يهودياً، ولأن الملك أمر أن يحفر اليهود وحدهم هذه القناة.

سوف تسعَد سوزانا، عندما ترى أنّ كل المضايقات والمصاعب، قد انتهت، وأنه عاد إلى مسكنه. سوف تقترب منه مدلَّهة في حبه، وستقول له وهي تلتصق به:

- إنك زوجي، إنك أغلى عندي من الشمس التي تلتمع في كبد السماء!

تلك كانت أحلام موريتز، وهو ينتظر زيارة ذلك الجنرال. لكنه أنبىء ذلك اليوم بالذات، بأن الجنرال لن يحضر إلّا في الغد. فتفرَّق المساجين، بعد أن كانوا منتظمين صفوفاً مرتبة، وبيدِ كلٍّ منهم محفرته.

استُدعي موريتز إلى المكتب. قال له سترول:

- إنّ وكيل الضابط يريد أن يحدثك.

شعر موريتز بوجيب قلبه يشتدّ ويتعالى. حدَّث نفسه بأن أمر الإفراج عنه قد وصل. لذلك فقد استدعاه وكيل الضابط إلى مكتبه. لكنه لم يسأل سترول عن ذلك. كان يجهد في إخفاء سروره، لأنّ ظلاً من الريب كان يمتدّ على الحرية المنتظرة. كان يعرف أنه سيُطلَق سراحه بعد الانتهاء من حفر القناة، لكن القناة لم تنتهِ بعد. لذلك فإنّ هذا الخبر السارّ قد سقط عليه من السماء. كان وكيل الضابط يرتدي كسوة جديدة. وكانت أرض المكتب مغسولة بالماء، استعداداً لزيارة الجنرال. وطاولة المكتب، مغطاة بالورق الأزرق النظيف،

Twitter: @ketab_n

والإضبارات مرتبة بعناية، في رزمة صغيرة. توقف موريتز أمام الباب وحيّا، كان شديد اللهفة لمعرفة الخبر السار، لكنه كان يتصنّع الجهل بكل شيء، لأنه ما كان يريد أن يبدو في فرحته، كالأطفال الصغار. كان هناك إلى جانب وكيل الضابط، الطبيب صاموئيل أبراموفيسي. لقد كان هذا الطبيب، في عداد المساجين، لكنه توصل إلى توثيق عرى الصداقة مع وكيل الضابط، فكان لا يبرح مكتبه. جلس سترول في زاويته، أمام منضدته الصغيرة، المغطاة - هي الأخرى - بالورق الأزرق. كانوا كلهم يحدِّقون في وجهه بعيون متَّسعة! كانوا عابسين. وأخيراً بدأ وكيل الضابط الحديث:

موريتز، يا فتى، إن زوجتك قد طلقتك! إنها لم تعُد زوجتك.

واستمرّ يفتل شاربيه بهدوء وأردف:

- لقد أرسلوا إلينا إعلام الطلاق، الذي ينبغي أن توقِّعه، لتُثبت بأنك اطَّلَعت عليه.

وضع وكيل الضابط الورقة على حافة المكتب ومدّ إلى موريتز يده بالقلم، لكن موريتز لم يتحرك من مكانه، استرسل الضابط:

- إنّ الطلاق قد طُلب، بناءً على أسباب قومية دينية. إنها لا تريد أن تكون زوجة يهودي! واسترسل وكيل الضابط بلهجة عاتبة:

- مع ذلك، فقد قصصت عليّ سلسلة من الأكاذيب، تؤكد أنك مسيحي وروماني! لقد كنت تريد خداعي، هه؟ إنك ما كنت تعتقد أنك تتعامل مع ثعلب عجوز أشدّ مكراً منك! إنني لم أرسل شكواك، وأراني قد أحسنت صنعاً! إن زوجتك تطلب الطلاق منك لأنك يهودي. إنها تعرف أكثر من أيّ آخر، لون رجلها الديني، أليس كذلك؟

راح وكيل الضابط يبتسم. لكنه لمّا نظر إلى وجه موريتز، ورآه يشحب ويمتقع، اختفت ابتسامته. قال:

Twitter: @ketab_n

- إنّ كلّ النساء كذلك! لا شكّ أنها منذ أن ذهبتَ، فتّشت عن رجل آخر! إن النساء كلهن ساقطات! باه! لا يجب أن تحزن. . .

ودَّ موريتز لو يمزِّق وكيل الضابط إرباً. ما كان يستطيع تقبُّل القول، بأن زوجته ساقطة. راح يصرف على أسنانه، والغضب يعصف في كيانه. حاول بما أوتي من جهد، أن يتمالك نفسه، لكنه شعرَ بجفاف في حلقه. كان على وشك الانفجار.

قبض أصابعه وبسطها، ليمتنع عن ضرب وكيل الضابط، كان يريد أن يضرب كلّ مَن كان حوله. قال:

- إن زوجتي ليست ساقطة.

فأجابه وكيل الضابط:

- إنك صادق في قولك. إنك رجل ذو زوجة غير ساقطة، لأنك لم تعُد زوجاً لأحد. لقد كنت زوجاً حتى. . .

وأخذ وكيل الضابط الورقة التي كانت على حافة المكتب، وعاد يقرؤها، ثم استرسل مردفاً:

- حتى اليوم الثلاثين من يناير. إنّ هذا هو تاريخ منحها الطلاق. لقد أصبحتَ منذ هذا التاريخ عزباً.

عاد وكيل الضابط يبتسم، وكذلك الطبيب أبراموفيسي، لكن ابتسامة هذا الأخير كانت باهتة. قال موريتز:

- إنّ زوجتي لم تطلب الطلاق! إنني أعرف سوزانا.

فقال وكيل الضابط:

- إذا كنت لا تريد التصديق، فذلك شأنك، لكن ينبغي أن توقِّع على هذا العقد إشعاراً بإطلاعك على الطلاق، وعودتك إلى حياة الشباب!

قال موريتز بعناد:

- إنني لست عزباً.

Twitter: @ketab_n

- حسناً! إنك لست عزباً، لكن ينبغي أن توقِّع على هذا العقد رغم ذلك!

حدق موريتز في قلم الحبر الذي كان وكيل الضابط يقدِّمه إليه وهتف:

- لن أوقِّع على شيء!

غضب وكيل الضابط، واحمرَّت وجنتاه. تذكَّر أنه عسكري، وأن جواب موريتز كان لوناً من العصيان. فصاح آمراً:

- وقِّع! أتنسَ مركزك؟ هل فقدتَ صوابك؟

أخذ إيوهان موريتز القلم. كان في تلك اللحظة، قد تلقى أمراً، وجب عليه طاعته.

كتب اسمه على الورقة، في المكان الذي وضع وكيل الضابط إصبعه عليه بأسفلها، ووضع القلم على المكتب، ثم استدار ليغادر الغرفة. كانت عيناه مملوءتين بالدموع، ورأسه يدور. فقال وكيل الضابط:

- اقرأ! ينبغي أن تعرف ما وقَّعت عليه.

فأجاب موريتز:

- لا حاجة لي إلى القراءة! إنني أعرف أنّ الأمر ليس صحيحاً.

هَمَّ بفتح الباب للخروج، لكن يده كانت تتلمس في الظلام، فلم يوفَّق في العثور على أكرة الباب.

قال الطبيب أبراموفيسي، وهو يمدّ يده إليه حاملة علبة «السجائر»:

- ابقَ ريثما تدخِّن «سيجارة».

عاد موريتز على أعقابه، وأخذ اللفافة وراح يدخن. لم يذكُر الزمن الذي قدَّم له الطبيب اليهودي النار ليشعل لفافته. كان يبذل

Twitter: @ketab_n

جهداً كبيراً لتحديد الزمن. غير أنه لم يكن يرى حتى تلك اللحظة، إلا لهب الزناد، اللهب الأصفر، يتراقص أمام عينيه، ويتسع بإفراط.

سأل الطبيب:

- هل لديك أطفال؟

انتبه موريتز من استغراقه، وأجاب عن السؤال. لكنه شعر أنّ الجواب لم يصدر من فمه هو. أحسّ كأن شفاهاً أخرى كانت تتحرك. فخرج من المكتب، دون أن يدري كيف خرج، ولبث بقية النهار مستلقياً على الأرض المكسوّة بالثلوج، على حافة القناة. لم يكن يشعر بالبرد. كانت ألوف الأفكار، تدوي في رأسه وتموج. وكانت الورقة التي وقَّع عليها، تثير غضبه كلّما عاد في تفكيره إليها.

في صباح اليوم التالي، مضى إلى وكيل الضابط، فطلب رؤية الورقة وقرأها. كان حتى تلك اللحظة، لا يصدق ما سمع. أما الآن، فقد رأى أن الأمر كان حقيقة. لقد طلبت سوزانا الطلاق منه، لأنها اعتقدت هي الأخرى بأنه يهودي! ولا شك أنها وجدت رجلاً آخر.

لم يعاوده الغضب لمّا كرر وكيل الضابط قوله، بأنه أضحى عزباً. صحيح أن يداً خفية كانت تعتصر قلبه، لكنه لم يغضب، لأنه أدرك صدق قول الضابط وتحقق منه، لقد قرأ الحقيقة بأم عينيه!

- 42 -

بدا وكيل الضابط صباح اليوم التالي، مرتدياً كسوته الجديدة أيضاً، وانتظر السجناء حتى الظهر، وهم في صفوفهم على طول القناة. غير أنّ الجنرال لم يحضُر.

Twitter: @ketab_n

وفي اليوم الثالث، عاد وكيل الضابط إلى ثوبه القديم. أعلن أن الجنرال ساخط، لذلك، فإنه لن يحضر لرؤية القناة.

لبث المساجين أسبوعاً كاملاً لا يشتغلون. ثم انتقل المعسكر إلى الشمال.

كان السجناء حتى ذلك اليوم، يحفرون في أرض رخوة صفراء، أمّا الآن، فقد وجب حفر القناة، في أرض صخرية.

أخذ وكيل الضابط السيارة الكبيرة، ومضى ليحضر أدوات جديدة، لأن الأدوات القديمة، ما كانت تصلُح للحفر في المناطق الصخرية. لبث متغيباً ثلاثة أيام، عاد بعدها بحمولة سيارتين كبيرتين من الأدوات الجديدة، الصالحة لتحطيم الصخور، والحفر في الأراضي الصعبة المتينة. أصبح العمل شاقاً صعباً، والطقس شديد البرودة. ظلّ موريتز يكدح طوال ذلك الشتاء. كان الغذاء رديئاً، والرجال يتساقطون كالذباب، بين مريض وميت، لكن موريتز لم يمرض. لقد أصيب بألم إلى حلقه، دام أسبوعاً، ثم تماثل للشفاء. كان العمل يسير ببطء شديد. لقد كانوا في شهر نيسان، في المكان الذي بدأوا منه، قبل أربعة أشهر. لم يحفروا أكثر من عشرات الأمتار. كان يُقال إن خمسمائة ألف رجل، قد حفروا القناة ذلك الشتاء. مع ذلك، فإن العمل كان سيستمر كلّ ذلك الصيف، ولن ينتهي إلى خريف العام التالي. وفي أكتوبر. ستملأ «القناة» بالماء، لكن السجناء، تلقوا أمراً بعد بضعة شهور بالكفّ عن العمل. أبلغهم وكيل الضابط، أنّ أركان حرب الجيش قد عدل عن حفر القناة، وأن الملك شارل الثاني قد خلع عن العرش، ولاذ بالفرار، وأن كل «الجنرالات» الذين ساعدوه في وضع مخطط القناة، قد عُزلوا وفروا معه، وأن عدداً من «الجنرالات» الآخرين، قد احتلوا القصر في تلك اللحظة، وأن هؤلاء «الجنرالات»، يؤكّدون أن تصميم حفر القناة،

Twitter: @ketab_n

غير نافع ولا مُجدٍ، فأصدروا الأمر بالتوقّف عن العمل. حمل اليهود في قطارات، ونقلوا إلى الحدود الغربية من رومانيا، لإقامة حصون هناك ضد هنغاريا.

ولمّا غادر إيوهان موريتز المعسكر إلى الحدود، كان شديد الأسف، لأن الملك لم يحسن وضع مخطط القنال، ولأن العمل الذي قام به هو وزملاؤه، أصبح عديم النفع.

- 43 -

كان المعسكر الجديد، قد أقيم في غابة، على الحدود الرومانية الهنغارية. لبث السجناء ثلاثة أيام كاملة، (72 ساعة)، في القطار. لقد حملوا معهم أدواتهم التي استعملوها في حفر القناة. أما وكيل الضابط، فقد حمل معه مكتبه الكامل، ذلك الكوخ الخشبي، ونقله بواسطة القطار، بينما نقل سترول مصنفاته وإضباراته. أما المساجين، فقد نقلوا القمل الذي وجد في أجسادهم مرتعاً خصباً، فكان كلّ منهم يحتفظ بعدد كبير منه! غير أن الأدوات القديمة، لم تكن ذات فائدة في المعسكر الجديد. كان عملهم الجديد، مقتصراً على قطْع الأشجار، لإقامة التحصينات. ولم يكن إيوهان موريتز قد رأى طيلة حياته تحصينات عسكرية، بل إنه لم يكن يعرف كيف تُشاد وتُقام. مع ذلك فقد كان يقطع مع زملائه المساجين غابات كاملة، وينقلون جذوعها إلى الحدود.

كان هناك ألوف مؤلفة من الرجال، دأبهم قطع الأشجار، ونقل الجذوع عبر الوادي وإليه.

كان إيوهان موريتز يتوق إلى رؤية التحصينات، لكنه لم يفلح قط في رؤيتها. كان يعتقد بأنهم سيقيمون من تلك الأخشاب سوراً

Twitter: @ketab_n

هائلاً مرتفعاً، بين الهنغاريين والرومانيين. لعل ذلك هو رأي أركان حرب الجيش، إنه لا يدري من الأمر شيئاً. لكنه كان ينتظر بفارغ صبر، أن يرتفع السور الهائل الذي سيفصل بين البلدين. ولما ينتهي بناء السور، سيستطيع هو، موريتز، أن يراه من مكانه، في أعالي الغابة. لقد سمع بأن الهنغاريين يقيمون تحصينات مماثلة على حدودهم، فكان موريتز، يتحرَّق شوقاً لمعرفة أي سور سيكون أعلى من الآخر وأكثر ارتفاعاً. كان يسرّه سماع وكيل الضابط يقول: إن التحصينات الهنغارية، لا تساوي شروى نقير، وإن الرومانيين، يستطيعون تخطيها في ليلة واحدة لو شاؤوا. بَيْد أنّ الرومانيين ما كانوا يريدون ذلك. كان إيوهان موريتز، يتخيّل مرور الجنود الرومانيين إلى هنغاريا، بل إنه كان يتوق إلى رؤية ذلك الخيال يتحقق. ولو أنه كان هناك عند نشوب القتال، لأمكنه رؤيتهم وهو في مكانه من الغابة. كان وكيل الضابط يؤكِّد لهم أن التحصينات الرومانية، ستبلغ مبلغاً في الارتفاع، لن يستطيع معه أي عصفور، أن يحلق فوقها. وكان موريتز يتصور، أن تلك التحصينات، ستكون مرتفعة «جداً جداً» لأنه كان يعرف أن هناك بعض الطيور، تبلغ في تحليقها مبلغاً تكاد العين أن تعجز عن رؤيتها، بسبب شدة ارتفاعها. فإذا كانت تلك الطيور، لن تستطيع تخطي التحصينات الرومانية والتحليق فوقها، وقد أكد وكيل الضابط ذلك فإنها - أي التحصينات -، ستكون عجيبة، حتى إن من يكون أسفل السور، لن يستطيع رؤية من يكون في أعلاه، لأنه سيكون عندئذٍ مرتقياً قمم الغمام والسحب، متسامياً إلى السماء. كان إيوهان موريتز يتساءل عن المكان الذي ستحتله الجذوع التي يقطعها بنفسه. كان يودّ لو يؤشر عليها بعلامة فارغة، ليستطيع تمييزها في مكانها من السور. لعلّ تلك الجذوع، ستكون في القمة المرتفعة السامية. كان إيوهان

Twitter: @ketab_n

موريتز يفكّر كلّ يوم في مثل هذه الأمور وهو منهمك في قطع الأشجار. لذلك فقد مرّ الوقت بسرعة، وهو مستغرق في تلك الأحلام، التي كان يمكن أن تكون حماقات سخيفة! والحقيقة أنه لو أتيح لأحد اكتشاف أفكاره وتخيلاته ومعرفة تفاصيلها، لضحك حتى يستلقي على قفاه. مع ذلك، فقد كان معجباً بآرائه. لم يكن يريد التفكير في بيته وقريته. كان مجرد التنويه بهذه الأشياء، يدفع الدم إلى رأسه!

وذات يوم جميل، جاء سترول يبحث عنه في الغابة ويدعوه للمثول في المكتب. لم يكن موريتز، منذ أن وقّع على تلك الورقة المشؤومة، قد استدعي إلى المكتب قط، ولم تطأ قدماه عتبته. كان لا يستطيع نسيان تلك الكارثة كلما دخل المكان، ورأى المناضد والإضبارات، ووكيل الضابط. كان الركن الذي وضع وكيل الضابط الورقة عليه، ودعاه إلى التوقيع عليها، ماثلاً أمام عينيه، وكان يذكر أبداً، كيف أسند مرفقه إلى المنضدة، وهو يكتب اسمه على المعاملة. لذلك فإنه ما كان يودّ العودة إلى المكتب أبداً. لكنه بعد أن استدعي رسمياً، لا يسعه إلا أن يطيع. لم يكن وكيل الضابط في المكتب، بل كان هناك الطبيب أبراموفيسي، وسترول والطاهي، واسمه هورتيج حياهم موريتز، فردوا له تحيته بتودّد، وقدموا إليه مقعداً.

قال الطبيب أبراموفيسي:

- إن وكيل الضابط ليس هنا، لذلك نستطيع أن نتحدث بحرية وهدوء.

قدّم اليهودي «سيجارة» إلى موريتز. كان ذلك الطبيب يحصل دائماً على لفافاته، وكانت أبداً من النوع الثمين. إستطرد الطبيب:

- يانكل، لقد هجرتك زوجتك.

فامتقع وجه موريتز وزمجر قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- إنّ هذا ليس من شأنك. إنه أمرٌ يخصني وحدي، وليس لسواي أي علاقة به!

فقال الطبيب أبراموفيسي ملاطفاً:

- أردتُ أن أقول لك فقط، أنّ أحداً لا ينتظر أوبتك إلى البيت إذا غادرتَ المعسكر. إنني أعتقد شخصياً، بأنه لن يستطيع أحد أن يغادر المعسكر قبل انتهاء الحرب. والحرب قد تدوم عشر سنوات!

زفر إيوهان موريتز متوجعاً. إنه إذا لبث في المعسكر عشر سنين أخرى، فلن يخرج منه إلا وقد غدا شعره أبيض.

سأل الطبيب:

- هل تودّ الذهاب إلى بلد آخر؟

تذكَّر موريتز، أنه أراد مرة الذهاب إلى أميركا، مع غيتزا إيون. وراح يحدث نفسه بأنه «لو أمطرت المساء ذلك اليوم، لكان الآن في أميركا، لو لم يقابل سوزانا تلك الليلة». نعم لو أنه لم يقابل سوزانا، تلك الليلة، لكان اليوم في مكان بعيد، ما كان يمكن أن يكون في معسكر اليهود.

قال بمرح:

- إنني أودّ من كل نفسي أن أذهب! لقد اعتزمتُ الذهاب إلى أميركا ذات يوم، لكن ذلك لم يتم...

فأجابه الطبيب أبراموفيسي:

- لكن ذلك سيتمّ هذه المرة. إذا كنتَ تريد الذهاب، فإنك في خلال بضعة أشهر ستكون في أميركا.

نقل موريتز بصره بين أبراموفيسي وسترول وهورتيج. كانوا يحدقون في وجهه بدورهم. كان يرى بوضوح، أنهم لا يهزأون منه. ولو أنّ الأمر كان للدعابة والمزاح، لما استدعوه من الغابة. قال:

- إنني أتلهّف إلى ذلك.

Twitter: @ketab_n

فقال الطبيب:

- لا توجد قوانين ضد اليهود في هنغاريا. ولي أخت متزوجة في بودابست، تقطن هناك، وهي تنتظرني. وللسيد هورتيج أيضاً أقرباء في هنغاريا. لكننا في حاجة إلى من يساعدنا في نقل أمتعتنا. إنّ لدي أمتعة كثيرة: ستّ حقائب.. لقد نقلت معي كلّ ما هو ثمين. فإذا بلغنا حدود هنغاريا، فلن يكون أمامنا إلا بضعة كيلومترات، نجتازها مشياً على الأقدام، لذلك فإنني لن أستطيع حمل حقائبي وحدي. وقد فكَّرنا فيك.

سأل موريتز:

- لكن كيف يمكننا الخروج من هنا؟

فأجابه الطبيب:

- سوف ينقلنا وكيل الضابط في السيارة حتى الحدود. لولا ذلك، لما استطعنا مغادرة المعسكر، لأن الجنود يحرسون كلّ الطرق، لكننا سنكون في سيارة عسكرية.

- هل يعرف وكيل الضابط أننا سنلوذ بالفرار؟

قال هورتيج:

- طبعاً! إنه رب عائلة عديدة الأفراد، وهو في حاجة إلى المال. لو أنك كنت مكانه أما كنت تعمل مثل ما عمل؟

لم يُجِب موريتز عن هذا السؤال. فقال الطبيب أبراموفيسي:

- خُذ هذه «السيجارة» واذهب وهيئ ما يلزمك! لكن انتبه. لا ينبغي أن يكون حملك ثقيلاً، ولا يجب أن يَعرف بأمرنا أحد من المساجين.

سأل موريتز:

- هل أذهب على الفور؟

Twitter: @ketab_n

- بأسرع ما يمكن! إن وكيل الضابط ينتظرنا في تمام الساعة التاسعة أمام الباب في السيارة. فاحمل الخفيف من أمتعتك، لأنك ستحمل حقائبي.

مضى إيوهان موريتز، وعاد بعد قليل، وقد أودَعَ قميصه وسراويله القديمة في رزمة صغيرة، إلى جانب نصف رغيف من الخبز.

خرج الهاربون من المعسكر في الساعة التاسعة، وكان وكيل الضابط في مكانه ينتظرهم، فنقلهم إلى الحدود في السيارة العسكرية.

لم تبلغ الساعة الثالثة صباحاً، حتى كان إيوهان موريتز، ينقل حقائب الطبيب أبراموفيسي، إلى الأراضي الهنغارية. ولما بزغ الفجر، بلغوا إحدى المحطات. فأعطى الطبيب بعض المال إلى موريتز، ليشتري أربع تذاكر إلى بودابست، في الدرجة الثانية.

- 44 -

في إحدى الحفلات التي أقامتها مفوضية فنلندا في بوخارست، تعرف تريان كوروغا «بالجنرال» توتو Tautou، وزير الحربية الروماني. وبعد أيام، زاره تريان في وزارة الحربية، وبسط أمامه مسألة إيوهان موريتز. فأصغى الجنرال إلى أقواله بانتباه، وأخذ مذكّرة باسم موريتز ومهنته، وتاريخ ولادته، وتاريخ توقيفه وقال:

- لن ينقضي أسبوع على أبعد حدّ، حتى يكون رجلك مطلق السراح، سأعطي الأوامر حالاً، لإعادة النظر في هذه القضية، ولتوضع أوراق إطلاق سراحه. إننا اليوم في...

ونظر «الجنرال» إلى النتيجة التي على مكتبه وأردف:

Twitter: @ketab_n

- الواحد والعشرين من أغسطس. حسناً، يمكنك أن تعود إليّ في الثامن والعشرين منه. وسأعطيك أمر إطلاق سراح الرجل.

وبعد فترة صمتٍ سأل:

- هل هذا الـ: موريتز خادم أبيك؟

فأجابه تريان:

- بل هو موضع سرّه. إنه ليس خادماً بمعنى هذه الكلمة.

قال الجنرال دون أن يصغي إلى تريان:

- إن في الريف أزمة في الأيدي العاملة. إنني أفهم سبب اهتمامك الكبير بهذا الأخرق المسكين. إن زيادة رجل أمر هام في البيت، خصوصاً وأننا الآن في موسم الحصاد.

واستمرت المحادثة على هذا النحو.

أراد تريان كوروغا أن يفسّر للجنرال، بأنه إذا كان يتوسّط في قضية موريتز، فإن سبب ذلك لا يرجع إلى كونه خادم أبيه، أو أنه في حاجة إليه في الحقل، بل لأنه أوقف دون سبب ولا مبرر. قال:

- إن تدخلي في الموضوع، ليس إلا عملاً إنسانياً، إنه عمل مجاني!

فقال الوزير:

- إنني أنا الآخر، مرغم على التصرّف مثلك. إنني أتردّد غالباً على الريف، لأبارك أشخاصاً أو أزوجهم. إننا اليوم مرغمون على سلوك كلّ السُّبل الممكنة مع هؤلاء القرويين، لنجعلهم يشتغلون بحماس. ينبغي أن نجعلهم أبداً يتخيلون أننا أصدقاؤهم، حتى ولو اقتضى هذا الأمر، الجلوس معهم إلى مائدة طعام واحدة، إنني أفهم تماماً ما تريد قوله. إن أباك اليوم، في مثل هذا الموقف الذي أشرحه لك.

Twitter: @ketab_n

وفتح الجنرال درجاً في مكتبه، أخرج منه نسخة من رواية تريان الأخيرة ووضعها على المكتب. كانت النسخة جديدة لم تقطَّع أوراقها بعد. قال مشيراً إليها:

- لقد أرسلت تابعي إلى المكتبة لشرائها، فهل تتلطف بكتابة إهداء إلى ابنتي؟ إن اسمها إليزابيث، ولها من العمر ثمانية عشر عاماً. إنها تلتهم الروايات التهاماً، وأنت أحد كتابها المفضَّلين. سوف تطرح عليّ عدداً من الأسئلة ظهر اليوم، حينما أقصّ عليها على المائدة، نبأ زيارتك لي. سوف تسألني عن ثوبك، وربطة عنقك، ونوع اللفافات التي تدخنها. إن هذه هي عادات الشباب، فماذا نستطيع حيالهم؟

هبط تريان سلّم وزارة الحربية، متأكداً من أنه في هذه المرة، سيحصل تأكيداً، على أمر إطلاق سراح موريتز. مضى في طريقه إلى بائع الزهور، فأخذ باقة الورد الأبيض التي كان أوصى عليها ذلك اليوم بالذات، ثم قصد إلى مكتب البريد، حيث بعث بالبرقية التالية لأبيه: «سأكون في فانتانا 29 أغسطس مع خطيبتي وأمر إطلاق سراح إيوهان موريتز».

- 45 -

سألت إليونورا ويست:

- سنكون في التاسع والعشرين من أغسطس في فانتانا، في منزل أبيك؟

كانت مسرورة منشرحة الصدر. أردفت:

- في خلال أسبوع أليس لذلك؟ وددتُ لو كنت الآن هناك!

أخذت باقة الورد الأبيض من يد تريان كوروغا، ووضعتها في

Twitter: @ketab_n

الزهرية. بينما راح تريان يتأمل صامتاً، خصلات شعرها الأحمر، الذي كان يصل إلى كتفيها، ويمتزج بلون ثوبها الحريري الأسود، وينظر بإعجاب إلى قامتها وساقيها الدقيقتين.

- نورا، أتدرين ما أتساءل به كلما نظرتُ إليك؟

أدارت وجهها نحوه وهي باسمة فأردف:

- إنني أطرح على نفسي السؤال الذي طرحه على نفسه الشاعر تودور آرغيزي: «هل كانت أمك جنية أم غزالة أم شجرة ورد؟ أي نبت أنضجت بين حناياها؟ إنكِ قطعة من الفكر أو الروح ولا شك، إذ لا يمكن أن تكوني من سلالة الأحياء الفانين. . .» إنك باهرة الجمال، إن سلالتك ونسبك، شيئاً من الوعول، وفي عينيك، نظرات السنجاب الشرود. لقد أخذت مرونتك هذين. ولعلّ بين أسلافك طحالب الماء، لأنّ جسدك، يحتفظ بنعومة هذه النباتات المائية وبنوعها. إنك أنيقة ناعمة، كفروة قط أنجورا. . .

لبثت إلينورا ويست واقفة وظهرها إلى ناحيته، وخداها مدفونان وسط ورود الباقة.

سأل تريان:

- هل أزعجتك؟

فأجابت:

- كلا.

- لقد اكتأبت. إنني وإن كنت لا أرى عينيك الآن، غير أنني أخمن سحابة القلق التي تعلوهما. هل أزعجك ما قلته منذ حين؟

فقالت وقد أشرقت ابتسامة على ثغرها:

- كلا، إنني لست حزينة! كنت أفكّر فقط في شجرة نسبي، حيث من الصعب جداً وجود الغزلان والأمراء، والجنيات ونباتات الماء والسنجاب فيها. . .

Twitter: @ketab_n

جلسا إلى المائدة وكانا وحيدين في غرفة الطعام الفسيحة الكبيرة، المؤثثة بقطع جميلة، مصنوعة من خشب البلوط القديم.

كان منزل اليونورا ويست واحداً من مشاهير البيوت في بوخارست. لقد وضعت تصميمه بيدها. أما الآثاث وقطع السجاد وغيرها، فقد صنعت ونظِّمت حسب تعليماتها.

كانت إليونورا في التاسعة والعشرين من عمرها، تشغل مركز مديرة أكبر جريدة في رومانيا: «الغرب - أوكسيدان -». كانت قد تلقَّت علومها في أشهر جامعات أوروبا، وكانت تكتب المقالات الرئيسة التوجيهية في صحيفتها، وتدير داراً للنشر، ومجلة أدبية وفنية، إلى جانب اشتراكها في الحياة السياسية، والثقافية، والاجتماعية. وكان تريان يعرفها منذ سنوات مضت، مع ذلك فقد ظلَّ غرامهما عنيفاً كما بدأ. ولعله أصبح أشد عنفاً وقوة عن ذي قبل. لكنهما لم يتزوجا. كان تريان كلما طلب إليها الزواج، أجابته إليونورا ويست:

«لن أكون أبداً زوجة صالحة. إنني أحب مهنتي حباً جماً، فلا أستطيع التخلي عنها، دون أن أشعر بأنني، حطمت ركناً ثميناً من أركان حياتي، وأنني أخفقت في كل شيء».

قال تريان كوروغا:

- أعتقد أن إيوهان موريتز سيُخلى سراحه! لقد وعدني وزير الحربية بإطلاق سراحه، في خلال مدة أقصاها التاسع والعشرين من أغسطس. لقد أبرقت إلى أبي بأنني سأصل إلى فانتانا مع خطيبتي وأمر بإطلاق سراح موريتز. لسوف يكون مزدوج السعادة.

سألت إليونورا:

- أتتمسك بشدة بتقديمي إلى والديك باعتباري خطيبتك؟

- نعم، إنني شديد التمسك بهذا. لكنك إذا كنت لا تريدين،

Twitter: @ketab_n

فسأعدل عن خطتي. صحيح أن أبي سيشعر بالانزعاج، لكنه شديد الحدب عليّ، يعرف كيف يغفر لي.

سألت إليونورا:

- لماذا تقدّم له خطيبتك وليس زوجتك؟ إذا تزوّجنا بعد غد، فإننا سنصل إلى فانتانا كزوج وزوجته!

ظنّ تريان كوروغا أنها تمزح. لقد أمضى عامين متتاليين يحاول إقناعها عبثاً. كانت تحبه، لكنها لم تكن تريد أن تصبح زوجة. ما كانت تريد أن تصبح زوجة أحد. وها هي الآن، تعرض عليه فجأة الزواج به!

سألها:

- هل أنت جادة فيما تقولين؟

نهض وقبّل يدها، وقال:

- ماذا حدث؟ لم تخبريني بشيء صباح هذا اليوم لمّا اتصلت بك هاتفياً. كيف توصّلت إلى هذا القرار؟

أجابت:

- لم يحدث شيء أبداً! عندما نصل إلى فانتانا في 29 - الجاري، سنكون زوجين. لقد طلبت إليَّ ذلك مراراً. فهل غيّرت رأيك في خلال هذا الوقت؟ كان يجب أن تخبرني بأنك عدلت عن رأيك!

تأكد تريان كوروغا من أن حدثاً ما قد وقع، حدثاً جعل إليونورا ويست تصبح زوجته. لكن ما هو ذلك الحدث؟ لم يكن يستطيع تخمينه.

استرسلت تقول:

- لنتزوج الآن مدنياً. ولسوف نقيم الزواج الديني في فانتانا في المستقبل. كنت تحلم دائماً بزواج في كنيسة أبيك. كنت تتخيلني

Twitter: @ketab_n

مرتدية ثوباً أبيض، تحيط بي فتيات القرية، يتقدّمنني ببطء إلى المذبح... سوف أحصل على إذن الزواج المدني. سأتصل بالنائب العام بنفسي.

سأل تريان:

- نورا، قولي ماذا حدث؟ لقد وقع لك أمر جلل!

فأجابت:

- مطلقاً. لم يحدث أي شيء! كل ما في الأمر، أنني قررت أن أصبح زوجتك. لقد اتخذت هذا القرار فجأة، وأودّ تحقيقه بأسرع ما يمكن، كي لا يعترض سبيلي شيء، فيعرقل اتجاه الأمور. إن السعادة التي أمنحها لنفسي بهذا القرار، شديدة الأهمية بالنسبة إليّ، حتى إنني أودّ أن أبلغها بالسرعة القصوى، وأن أطبِقَ عليها بيديَّ كلتيهما. إنني أخاف أن أفقد سعادتي، إذا انتظرت أكثر من ذلك. هذا كل ما في الأمر. ألا تصدّقني؟

- 46 -

بعد أن تناولا طعام الغداء، انتقل تريان كوروغا وإليونورا ويست إلى المكتبة، وراحا يتطلعان إلى الكتب واللوحات.

اقتنع تريان، أن إليونورا قالت له كل الحقيقة، لكنهما لم يتحدّثا بعد الطعام عن الزواج. كان كلٌّ منهما يريد الإفلات من الأفكار المشوّشة المزعجة، التي لا شك ستتلاحق في رأسه. توقّفا أمام لوحة لـ: بيكاسو.

راحت إليونورا ويست تنظر إلى اللوحة، التي كانت تمثل امرأة شوَّهها الألم الشديد، لدرجة لم يعُد وجهها يحتفظ بشيء إنساني على قسماته. كانت تمثل الجب الممزق، لوحة، تظهر الإنسان الذي

Twitter: @ketab_n

سحقه الألم، وقطعه أشلاء كقطع آلة. لم يكن في اللوحة إلا العوامل الجوهرية: العينان والأنف، والفم والأذنان. كانت كل قطعة من هذه القطع، تعيش منفردة مستقلة لوحدها، فقد تنافرت بينها، بسبب الألم. لقد تنصَّل الجسد البشري عن وحدته بسبب ذلك!

التفت تريان كوروغا نحو نورا. خُيِّل إليه في خلال لحظة خاطفة، أنها تشبه هذه الصور. ما كان يمكن لأية آلة لاقطة، أن تسجِّل إمارات وجهها في تلك اللحظة. كان الألم العميق مرتسماً عليها. كان وجه إليونورا ويست، شديد الشَّبَه بوجه اللوحة المدمر، وجه امرأة بيكاسو. كان يبدو، وكأن تيارات شديدة التوتر تخترقه، لكنها لا يمكن أن تتفاعل، بسبب القوة الهائلة التي تحملها.

سأل:

- فيمَ تفكرين يا نورا؟

أجابت:

- في لا شيء! هيا نحتسي قدحاً من القهوة. ألا تريد؟

ودون أن تنتظر جوابه، أدارت له ظهرها كما فعلَت منذ حين، لمّا حدثها عن نسبها، وصِلَتها بالغزال، والأعشاب المائية.

- 47 -

تزوج تريان كوروغا وإليونورا ويست في دار البلدية زواجاً مدنياً. كانا في ثيابهما العادية. وقد شهد صديقان لتريان على ذلك الزواج. فلما عادا من دار البلدية، قصدا مطعم «بينيازا» حيث تناولا الطعام.

قال تريان:

Twitter: @ketab_n

- سنقيم حفلاً كبيراً بمناسبة الزواج الديني.

وراح يصف لها عادات الزواج الروماني في الريف قال:

- سيتقدم الفلاحون على خيولهم موكب العروسين، حتى باب الكنيسة. وسيكون عددهم خمسين شاباً، في ثيابهم الوطنية، ممتطين صهوات جياد بيضاء. وستتبعهم عربة، يجرها أربعة ثيران، وقد جرت العادة على أن تعرض الهدايا المقدّمة إلى العروس، وبائنتها، على تلك العربة. أما عربتنا نحن، فستكون غارقة في الزهور، وسيكون لنا إثنا عشر «عراباً» وعندما يمسك الزوجات بأيدي أشابينهم، ويرقصون معهم في الكنيسة أثناء الاحتفال الديني، سيتساقط عليهم مطر من «الملبس»، فيتهافت الأطفال لالتقاطه، حتى ولو حشروا أنفسهم بين أقدام العروسين. سوف نلقي أكياساً من السكاكر، حتى يُتاح لكلّ أبناء فانتانا، تناول حاجتهم منها. إنني عندما كنت صبياً، كنت أجمع السكاكر من كلّ حفلات الزواج التي كانت تُقام في البلدة، لكنني ما كنت أستطيع مرة، أن أحصل على أكثر من أربع قطع. أريد أن يملأ الأطفال كلّ جيوبهم في حفلة زفافنا. وسنستقدم اثنتي عشرة فرقة موسيقية بوهيمية، مع الأبواق والقيثارات «غيتار» وسيجري النبيذ في كلّ القرية ملء الأدنان والبراميل، وسيشمل كلّ السكان. سنقيم الاحتفالات في بقعة خلوية، فندعو ألوفاً من المدعويين، وستدوم الحفلات أسبوعاً كاملاً.

نظرت نورا إلى ساعتها، كانت على موعد مع المحامي ليوبولد ستاين، بأزف بعد ربع ساعة قالت له:

- هيا بنا، إنّ لدي أعمالاً هامة. تدعوني إلى مكتبي.

فتوقف تريان، وقطع حديثه عن زفافهما في فانتانا، ونهض كلاهما وذهبا.

Twitter: @ketab_n

- 48 -

قاد تريان كوروغا، نورا، إلى مكتب التحرير. كان قصر جريدة «الغرب»، بناءً حديثاً جداً، ذا واجهة من الرخام الأبيض، كانت إليونورا ويست، قد شيّدته على أنقاض مطبعة قديمة. فنظر إلى الطبقات الست التي كانت تلتمع تحت أشعة الشمس، وابتسم وهو يفكِّر «إنه عمل نورا».

قال لها:

- سأنتظرك في السيارة.

كان يعرف أن نورا، اعتادت على قيادة سيارتها وحدها كلما ذهبت إلى مكتبها. لكنه ظن أنها ستستثني ذلك اليوم من عادتها. لقد كان يوم زفافهما. لكنها قالت:

- سأعود وحدي بعد أن أنتهي من عملي هنا.

وانتظرت ذهابه، وهي واقفة على الدرجات الأولى، ثم دخلت البناء، مرتقية السلم الرخامي، واختفت وراء باب الحديد الضخم، الذي فتحه لها بواب في ثيابه الرسمية المزينة بأشرطة ذهبية، وهو يحيِّها باحترام.

- 49 -

دخلت إليونورا ويست إلى مكتبها بلا مبالاة وشمم، وهي تتظاهر بأنها لم ترَ ذلك العجوز، الذي كان مرتدياً ثوباً أسود، والذي نهض واقفاً عند قدومها. وضعت حقيبتها وقفازاتها على المكتب، ثم دعت العجوز إلى الجلوس بنظرة من عينيها، وجلست بدورها، فأخذت لفافة وأشعلتها، جاهدة أن تمتلك أعصابها، لتتغلب على

Twitter: @ketab_n

ارتعاد يديها. جلست في مقعدها الوثير، وحدجت العجوز بنظرة وقالت:

- إنني مصغية إليك يا سيد ستاين.

فتح المحامي العجوز محفظته التي كانت على ركبتيه، وأخرج منها حزمة من الأوراق، وضعها على حافة المكتب. كانت نورا تتابع حركاته باهتمام بالغ.

قال المحامي وهو يُخرج ورقتين كبيرتين من إضبارته، يقدِّمهما لها:

- يا آنسة ويست، لقد سويت المسألة، وها هي الوثائق.

سألت نورا:

- أهما كل ما تبقى في محفوظات «بلوئسني» «Ploesti» من صكوك؟

فأجاب العجوز:

- كل ما في تلك المحفوظات حتى صباح اليوم. إن المستندات على مكتبك الآن. أما في المحفوظات، فلم يعُد فيها شيء.

ألقت إليونورا ويست نظرة احتقار على المستندين، ثم طوتهما، وأودعتهما درج مكتبها. فقال العجوز:

- إنّ من دواعي الحكمة أن تتلفيهما فوراً.

نظرت نورا إلى العجوز تتأمله. كانت نظاراته ذات إطار مذهب، وياقته من النوع القاسي، أما ثيابه، فكانت قديمة العهد. قالت تُجيبه على ملاحظته:

- ليس هناك ما يخشى منه، طالما أنّ الأوراق في مكتبي يا سيد ستاين.

- إنني شخصياً لا أخاف شيئاً. أما أنت، فإنه من الخير لك أن تحرقيها الآن، على الفور.

Twitter: @ketab_n

سألت نورا:

- كم كلّفتك هذه العملية الصغيرة؟

كانت تريد تغيير موضوع الحديث، لأنها شعرت أن العجوز خائف. كانت ستحرق تلك الوثائق، لكنها كانت تودّ أن تطّلع عليها، قبل كل شيء.

أجابها العجوز:

- مائة ألف «لي» تماماً.

- وأتعابك؟

- بما فيها أتعابي.

أخرجت إليونورا ويست، من أحد أدراج مكتبها، رزمتين من الأوراق النقدية، قدمتها للعجوز. فوضعها هذا في حافظته، بعد أن عدل عن الحركة التي بدرت منه بحكم العادة الطويلة، وهي: عد الأوراق المالية للوثوق من مجموعها. قالت نورا:

- هذا كلّ ما أردته منك يا سيد ستاين.

كانت تريد أن تخلو إلى نفسها لتقرأ الوثائق، لكن العجوز لم يتحرك.

سألته:

- هل هناك ما تريده؟

- كلا، لم يعُد هناك شيء. لقد سويت المسألة على قدر المستطاع.

- أليس كل شيء على ما يرام؟

- طبعاً، لكن القضية لا يمكن أن تنتهي بهذا الشكل، إلّا بصورة مؤقتة، وذلك بإتلاف هذه الوثائق. هذا ما أردتُ أن أقوله لك. إنني أسمح لنفسي بلفت انتباهك إلى ذلك، لأنني كنت مساعداً لأبيك، صديقاً له، ولأنني كنت أجلسك على ركبتي، لما كنتِ

Twitter: @ketab_n

طفلة. إنني أصرّ على إعلامك، بأن اختفاء هذه الوثائق من المحفوظات، لا يسوي القضية إلا جزئياً.

قالت إليونورا ويست:

- أرجو أن تشرح قولك.

- إنه واضح تماماً يا آنسة ويست، لقد أردتُ امتلاك الوثائق التي تثبت أصل ذويك اليهودي. وها هي ذي أمامك، لقد انتزعتها من المحفوظات الرسمية.

- إنّ القضية إذن قد انتهت!

فأجابها ليوبولد ستاين:

- تستطيعين أن تخفي المستندات، وليس الوقائع نفسها. إنك رغم كل شيء، تبقين يهودية. وإذا أراد بعضهم أن يثبت ذلك...

- إذا أراد بعضهم إثبات ذلك، فلن يستطيعه.

- بل إنهم سيطلبون أوراقك.

- سأحصل على أوراق أخرى. إنني أستطيع الحصول على ما أريد بواسطة المال.

فأجاب المحامي:

- هذا صحيح. لكنك في هذه الحالة، ستتعرضين لقانون الجزاء. إنّ التلاعب بقانون العقوبات، يوازي في خطورته اللعب بالنار.

قالت إليونورا ويست بلهجة هازئة:

- لكنك سرقت هذه الوثائق من محفوظات بلوئستي صباح هذا اليوم بنفسك، فلِمَ إذن هذا الدرس الأخلاقي الذي تلقيه عليّ؟

أجابها العجوز:

- إنها ليست دروساً في الأخلاق. إنني أحذرك فقط من أن اللعبة خطيرة، وأنه لا يمكن الاستمرار في اللعب إلى ما لا نهاية.

Twitter: @ketab_n

قالت نورا وهي تشعل لفافة ثانية:

- إنك متأكد من أن هذا هو الأسلوب الأوحد؟ إنني لن أقوى على تبديل شيء. طالما أن المجتمع يحرِّم عليّ أن أحيا حياتي، وأن أحتفظ ببيتي ومهنتي وزوجي، فإنني على استعداد للنضال، نضالاً مستميتاً، مستعملة كلّ الأسلحة التي أجدها في حوزتي. إنني أناضل كالحيوان الجريح. إنّ كل غرائز البقاء في كياني، تدخل الميدان.

- المهم يا آنسة ويست، ليس أن يقاتل المرء، بل أن يربح المعركة.

- لسوف أربحها.

ثم سحقت لفافتها في المنفضة. فقال المحامي الكهل:

- هل تعتقدين حقاً، بأنك ستمكثين طويلاً صاحبة هذه الصحيفة ومديرتها؟ لقد رفضت حتى الآن التصريح عن منشئك اليهودي، وذلك ليس إلا عملاً جريئاً من أعمال الشباب. لكنك كنت سعيدة الحظ، لأن أحداً لم يجرؤ على فتح تحقيق عن أصل منشأك. قد يكون ذلك بسبب الخوف، أو بدواعي النذالة والخور. لقد وقعت بعض الوشايات والمطالبات بمصادرة المطبعة والصحيفة، طبقاً للقوانين القومية الجديدة، قوانين المنشأ. فاستطعت شراء من كانوا مولجين بالتحقيق، وربحت مرة أخرى. وها أنك الآن، تمتلكين الوثائق التي تثبت منبتك اليهودي، ونسبك، وبذلك تكسبين بعض الوقت كذلك، لكن قوانين المنشأ، تزداد شدّة في تطبيقها، يوماً عن يوم، ولن يستطيع يهودي واحد، أن ينجو منها، إننا لسنا إلا في بداية المرحلة. ولهذا السبب يمكنك في خلال وقت ما، أن تستمري بإدارة صحيفة كبيرة، وامتلاكها، رغم أنك يهودية، وأن القانون المختص، يحرم عليك نشر كلمة واحدة، ولكن ينبغي التفكير في المستقبل.

Twitter: @ketab_n

فأجابت نورا:

- سألبث في المستقبل مديرة جريدة الغرب وصاحبتها.

كان ليوبولد ستاين، يعرف منطق هذه المرأة الواقفة أمامه، ويعرف أنها قلما تخطىء في أقوالها، لكن جوابها اليوم، كان فيه تعنُّت وتعصب. والمتعصبون لا يحترمون قوانين المنطق، لذلك، فإنه لم يجرؤ على مغالطتها. لأنّ الكائن البشري، عندما يكون في حالة تنكب الوضوح، والمنطق السديد، لا يجب أن يُعارض. وكلّ محاولة لإعادته إلى جادة الصواب، تبوء سلفاً بالفشل.

قالت إليونورا ويست:

- لقد تزوّجت ظهر اليوم رجلاً مسيحياً. سوف أنقل ملكية الجريدة إلى اسمه، وبذلك لن يستطيع أحد مصادرة الصحيفة، حتى ولو أصبحت رومانياً أكثر عداء لليهود، من ألمانيا بالذات.

سأل ليوبولد ستاين بفضول:

- هل تزوجتِ حقيقة؟

- إنني اعتباراً من اليوم، أدعى السيدة إليونورا ويست كوروغا. إن زوجي هو تريان كوروغا، الروائي المعروف، وسوف يصبح في خلال أيام قليلة، مدير هذه الصحيفة. إنه هو الآخر ملكي!

كانت نورا ويست تضحك راضية مطمئنة... راح ليوبولد ستاين يتشاغل بالبحث في جيوبه عن أي شيء اكتساباً لبعض الوقت وامتلاكاً لأعصابه، التي هزتها هذه المفاجأة، متحاشياً النظر في عيني نورا، أو الاندفاع في حديث لا يريده. كان في حاجة إلى بضع دقائق، ليقنع نفسه بصحة هذه الحكاية.

قال وهو يسعل وراء منديله:

- بعبارة أصح، يمكن القول، أنك تنسحبين من إدارة الجريدة، وتتنازلين عن الصحيفة.

Twitter: @ketab_n

- كلا، إنني لا أحافظ على ملكية الصحيفة وإدارتها فحسب، بل إنني أدخل فيها كذلك، عناصر جديدة قوية، فأعيد تنظيم شؤونها. لقد استخدمتُ مديراً جديداً.

قال المحامي العجوز:

- إن الفكرة رائعة: إنها بديعة. وهل قَبِلَ كل هذه الشروط؟

فأجابته نورا بجفاء:

- لستُ أفهم قصدك.

- أقصد: هل قبل زوجك، السيد تريان كوروغا، هذا الحل؟ إن هذا الأمر يبدو مزعجاً بالنسبة إلى رجل. لأن ذلك معناه: أنه اشتُرِيَ من قبل امرأة، تنفيذاً لخطّة معيّنة.

قالت نورا ويست بانفعال:

- لكنني لم أشترِ أحداً! لقد تزوجته زواجاً غرامياً.

نهض ليوبولد ستاين، وهنأها. فلم تمدّ له يدها. كانت تتصفَّح وثائق منشأ ذويها، والدموع تملأ عينيها. قالت:

- إن الأحياء لا حقَّ لهم في تقبُّل التهاني، إلا عند موتهم. إنك بقليل من الروية والتدقيق، ستُقرّني على نظريتي هذه، لكن الأحياء عندما يموتون، لا يستطيعون وللأسف، تقبُّل التهاني. إنهم يخسرون وللأسف، المناسبة الوحيدة، التي يستحقون فيها التهاني الحقيقية.

عاد العجوز يجلس في مقعده قال:

- أظن أنك قلتِ: إنكما تزوجتما زواجاً عاطفياً!

سألته شاردة:

- ألا تصدق أنني عاشقة؟ ألا تستطيع فهم ذلك، رغم ذكائك؟

- لِمَ تتألمين إذن إلى هذا الحد! إنني أشعر بأنك تبكين.

Twitter: @ketab_n

- أعتقد بأنكَ متعب جداً يا سيد ستاين. لست أدري ما بك. إنك تكاد لا تفقَه شيئاً، حتى ليُقال أنك لست يهودياً. إنني أحب تريان كوروغا، بل إنه الرجل الأول الذي أحببته. إنني أحبه منذ سنوات، أحبه حباً عنيفاً جارفاً. لكنني أعتقد بأنّ الحب، ليس سبباً في الزواج. لقد تزوجت بسبب قوانين المنشأ، لأنقذ الصحيفة، وأنقذ حياتي. فهل تفهمني الآن؟

لم يكن بادياً على ليوبولد ستاين أنه فهم، انحنى يقبِّل يد إليونورا ويست، ومضى نحو الباب. فاستدعته وقالت:

- سأذهب في نهاية هذا الأسبوع إلى الريف، لزيارة ذوي زوجي. إنّ والد تريان، كاهن أرثوذكسي. سأمكث هناك بضعة أيام، وأريد أن تكون أوراق منح كلّ أملاكي ومقتنياتي لزوجي تريان كوروغا، جاهزة عند أوبتي، بما في ذلك الصحيفة. وإذا صادفتك عقبات ومصاعب، فحرِّر عقوداً بالبيع. المهم أن تجد خير الحلول، وأكثرها براءة قانونية. ينبغي أن تتم العملية بالسرعة الكلية.

قال العجوز:

- إنك ذكية جداً.

فأجابت:

- إنني لست ذكية. إنني امرأة تناضل بكل قواها وغرائزها، وبكلّ إشراق عقلها، لتدافع عن حقها في الحياة. وداعاً يا سيد ستاين.

- 50 -

بعد ذهاب المحامي العجوز جلست إليونورا وراء مكتبها، واعتمدت رأسها بين يديها، وراحت تبكي. بكت كما لا يستطيع

Twitter: @ketab_n

أحد أن يبكي مثل ذلك غير النساء. بكت ليس بعينيها فقط، بل بكل كيانها ثم أخذت بوق الهاتف، واتصلت بتريان. قالت:

- أرجو أن تتلطف بالحضور لنقلي إلى البيت.

- هل حدث لك شيء ما؟

- لم يحدث شيء على الإطلاق، لكن تعال اصطحبني. أقسم لكَ أنه لم يقع شيء أبداً، لكن تعال بسرعة.

نهض تريان كوروغا ليلبي رغبتها. ولما غادر المكتبة، وقعت أنظاره على «امرأة» بيكاسو. كانت تضحك بنصف عينها، وتبكي بالنصف الآخر. ومن أجل هذا، شطر الفنان عينها إلى شطرين، لتستطيع، العين الواحدة أن تبكي وأن تضحك معاً وبقوة متعادلة.

- 51 -

بانتظار وصول تريان كوروغا، اتصلت إليونورا ويست بالمحامي ليوبولد ستاين. كان هذا يقطن بالقرب من دار الصحيفة فكان قد وصل لتوّه إلى مسكنه.

قالت نورا:

- يا سيد ستاين، قل لي بكلّ إخلاص: هل تعتقد أنني تزوجت زواجاً عاطفياً أم زواجاً مصلحياً؟ أرجو أن لا تراعي عواطفي في جوابك. أعطني رأيك بكلّ إخلاص.

سألها ستاين:

- ماذا تعتقدين أنت؟

أجابت:

- لست أدري. إنهم لو أطاحوا برأسي، لما أمكنني أن أعطي الجواب الدقيق الحقيقي. هناك فترات يخيل إليَّ خلالها، أنني

Twitter: @ketab_n

تصرفت بوحي عواطفي، وحالات أخرى، أعتقد أنني كنت مدفوعة بالسببين معاً. غير أن هذين التفسيرين، لا يمتازان بأية قيمة حقيقية. إنني واثقة من أمر واحد: وهو أنني ما كنت أستطيع الانتظار، وأن ذلك كان يجب أن يتمّ. لكنني أريد أن أعرف السبب الحقيقي.

- إنه لا هذا ولا ذاك.

- إنني لم أتزوج إذن زواجاً مصلحياً كامرأة...

- كلا يا سيدة ويست. إنك شديدة الاعتداد، حتى تتزوجي إنساناً، زواجاً مصلحياً، حتى ولو كنت بذلك، تصونين ثروتك وصحيفتك من الخطر.

- هل أنت واثق من ذلك؟

- كل الثقة!

- إذن، لقد تزوّجت بدافع الحب؟

- لكي يحب الإنسان، ينبغي أن يستطيع الإيمان بالمستقبل. ينبغي الإيمان بالسعادة، بل وأكثر من ذلك، ينبغي الإيمان بأنّ هذه السعادة أبدية، وأنها لا يمكن أن تمنح لنا، إلا من قِبل مَن نحبه ويحبنا. إنك شديدة التمعّن، لا يمكنك الإيمان بهذا. ولهذا السبب - واعذريني إذا قلت - إنك لست متزوجة بسبب أي من هذين الدافعين.

- إذن؟

فأجابها ليوبولد ستاين: - إنك لم تتزوجي بسبب الحب، ولا بدافع المصلحة، بل بدافع الخوف. إن سرعة تصرّفك الخارقة، تحمل طابع اليأس.

- أليس للحب مكان في حسباني؟

- لعلّه على شيء في الموضوع، لكن غرامك، يشبه ذلك الذي كانت النساء تشعر به، لما أن كنَّ في الغابات، عرضة في كل لحظة

Twitter: @ketab_n

من لحظات الليل أو النهار، لتهديد الوحوش الضارية، فكنَّ لهذا السبب، يتعلقن بيأس وتفانٍ، بركبتَي الرجل، طالبات الحماية والحب والحياة، وهن يهدفن إلى هذه المنح الثلاث، بشغف ولهفة متعادلة. إن النساء لا يشعرن بمثل هذا الحب، إلا في حالات الزلازل العنيفة، والطوفان والمصائب الفظيعة، أي أنهن يشعرن هذا الشعور، كلما بدأ العالم على وشك الانهيار!

- لِمَ لم تحدِّثني بكل ذلك، لمّا كنت أمامي في مكتبي؟

- لم أشأ أن أجعل الشك في قوتك ونفوذك، يتسرب إلى نفسك. كنت أراك ترتعدين من الخوف، كنت أرى أنك تصرَّفت بدافع الذعر، فأشفقتُ عليك. لا تنسي إنني كنت أرفعك على ركبتي، لما كنت طفلة صغيرة.

دخل تريان كوروغا المكتب في تلك اللحظة، فأعادت نورا البوق إلى مكانه، وخطَت نحوه لتستقبله، وهي تلتصق به بعنف. كانت تضحك. فقبَّلها تريان وقال:

- إنني سعيد إذ أراك في حالة حسنة. لقد خيّل إليّ أنك كنتِ تبكين من خلال البوق.

- 52 -

في الثامن والعشرين من أغسطس، قبل ارتحال تريان كوروغا إلى فانتانا بيوم واحد، كان يرتقي سلم وزارة الحربية، ليأخذ أمر إطلاق سراح موريتز: كان سعيداً، وكأن أمر حرية موريتز، قد بات في جيبه.

صعد السلم جرياً. وكان تابع «الجنرال» يعرفه ويعرف العلاقات الطيبة التي بينه وبين الوزير، لذلك، فقد أدخله إلى مكتب «الجنرال»

Twitter: @ketab_n

على الفور. دخل تريان كوروغا مكتب الوزير. كان يحمل معه نسخة أنيقة مصوَّرة، من روايته الأولى، وكان قد كتب على الصفحة الأولى منها، إهداء شيقاً. غير أن الجنرال لم يتقدَّم لاستقباله ولم ينهض من مكانه إسوة بالمرة الأولى، بل ظلَّ في مكانه يتشاغل بالقراءة.

قال تريان:

- هل أزعجك يا سيدي الوزير؟

فأجابه الجنرال ببرود:

- كلا، إنك لا تزعجني. اجلسْ إذا أردت.

لاحظ تريان، أن «الجنرال» لم يمدّ إليه يده. قال الوزير طارقاً صميم الموضوع مباشرة:

- يؤسفني أن أنهي إليك خبراً سيئاً. إن الشخص الذي تحدثت معي عنه في الأسبوع الفائت، والذي جئت اليوم ولا شك من أجله، لا يمكن أن يطلق سراحه. أو على الأصح، إنه لن يطلق سراحه في الوقت الحاضر. ينبغي قبل كل شيء، أن نقوم بتحقيق للتثبّت ممّا إذا كان تأكيدك حول منشئه صحيحاً.

هَمّ تريان كوروغا بمغادرة مكتب الوزير لفوره. لكنه تذكر موريتز فتريث قليلاً بينما أردف الوزير:

- حسناً يا سيد كوروغا، لم يبقَ لك إلّا أن تنتظر النتيجة التي تسفر عنها تحقيقات اللجنة.

كانت تلك الجملة تنهي المقابلة، وكان الوزير يدعو تريان للخروج من مكتبه بكلّ صراحة. لم يغب معناها عن تريان، لكنه لم يتحرك من مقعده. كان عليه أن يذهب غداة اليوم التالي إلى فانتانا. وكان أبوه، ينتظر أمر إخلاء سبيل موريتز. لذلك قال:

- سيدي الوزير، إنك منذ أسبوع، على الضبط، وعدتني بإعطائي أمر إخلاء سبيل موريتز. لقد قلت لي بالحرف الواحد: إن

Twitter: @ketab_n

تأكيدي يُعتبر لديك ضمانة كافية، وإنه لذلك لا حاجة إلى فتح تحقيق.

- كان ذلك قبل أسبوع. لقد تبدَّل الموقف الآن.

- لست أرى تبديلاً في الموقف. إن إيوهان موريتز سجين في معسكر لليهود، رغم أنه روماني صميم.

- هذا ما ستتثبت منه لجنة التحقيق.

- لكن أعمال اللجنة قد تستغرق أشهراً طويلة، بينما الرجل المسكين قد أمضى حتى الآن، قرابة عام ونصف.

فقال الجنرال:

- إنني أعرف ذلك. إن أعمال اللجنة قد تستغرق عاماً أو عامين. ليس لدينا اليوم وقتاً نضيعه في التحقيقات، كما كان الحال في أيام السلم. نحن الآن في حالة حرب.

- ولكن يا سيدي الجنرال، ألا يكفي تأكيدي لإطلاق سراح موريتز والقيام بالتحقيق بعد إخلاء سبيله؟

فأجاب الجنرال بحزم:

- كلا!

قال تريان وهو ينهض واقفاً:

- يؤسفني أن أراك قد أبدلتَ رأيك، من أسبوع إلى آخر.

- إنني آسف كذلك. ولكن لا يدَ لي في الموضوع!

- أهو تعريض يتعلق بي يا سيدي الجنرال؟

- إنه ليس تعريضاً، بل إنني أستند إلى وقائع ثابتة.

فقال تريان كوروغا ممتقع الوجه:

- أعتقد أنَّ من حقي هذه المرة، أن أسألك تفسيراً.

- تفسيراً يا سيد كوروغا؟ في الساعة التي يحارب كلّ يهود

Twitter: @ketab_n

العالم في صفوف البلاشفة ضدّ وطننا، لإذلالنا واستعباد بلدنا، تتزوج أنت، الروماني الأصيل، أشهر كتَّاب بلادنا، امرأة يهودية!

كان الجنرال يتكلم بانفعال، وقد غدا وجهه شديد الاحمرار. أردف معقِّباً:

- إنني كعسكري، أعتبر عملك هذا خيانة. هل تسمعني؟ خيانة! فهل بعد هذا العمل، أستطيع الاعتماد على قولك؟ إنّ تدخلك يجعلني أعتقد الآن، بأن موريتز يهودي، ولن أكون شديد الدهشة، إذا تأيد ظني وتأكّد. هل أستطيع بعد هذا أن أحلّ كلمتك محل الاعتبار؟

فقال تريان:

- بالطبع كلا...

وانسحب من الغرفة. وبينما هو يهبط السلم، شعر بالكتاب تحت ذراعه، ففتحه، ومزّق ورقة الإهداء، ثم صعد إلى سيارته.

- 53 -

قال يُحدِّث نفسه: «إن إليونورا يهودية! مع ذلك فلم تحدِّثني بكلمة واحدة عن ذلك».

شعر بأنه تعرَّض لإهانة وخدع في حبه...

وعند نهاية المدينة، أوقف سيارته، وفتح بابها، وراح يتأمل الحقول.

«إنها لم تتحدث إليَّ مطلقاً عن ذلك. لكنني أنا الآخر لم أسألها عن ذلك. إن من السخف، طرح مثل هذا السؤال. إنّ أيّ رجل، لا يمكن أن يسأل المرأة التي يحبها، عن منشئها».

تذكر أنه حدّثها مرّات عديدة عن شجرة نسبها، وصلتها السلالية

Twitter: @ketab_n

بالوعول، والسنجاب، وأعشاب الماء، والجان، وأنها في كل مرة، كانت تكتئب، وتعلو وجهها سحابة من الغم. لقد أدرك تريان في تلك اللحظة، سبب ذلك الحزن، وشعر بأنه مذنب.

«لعلها ظنت أنني أعرض بمنشئها اليهودي، إنها ولا شك، قد تألمت ألماً فظيعاً!».

أغلق باب سيارته، وعاد في طريق المدينة. كان يفكّر في المرأة على لوحة بيكاسو. قال يُحدِّث نفسه:

«إنني شديد الأسف الآن، لأنني لم أعرف هذا الأمر من قبل. لو أنني عرفته، لوفرت عليها عناء آلام عنيفة. مسكينة نورا!».

أوقف تريان سيارته أمام أول بائع زهور، وابتاع باقة من الورد الأبيض، ليقدِّمها إلى نورا. فحزمت البائعة الورد وهي تبتسم له.

- 54 -

قالت نورا:

- حدّثني عمّا تكتب يا تريان!

كان تريان كوروغا، قد بدأ في تأليف روايته الجديدة. وكانت إليونورا تسمعه، وهو يغادر السرير في الساعة الرابعة صباحاً، فيرتدي معطفه المنزلي، ويخرج من غرفة النوم، ليذهب إلى مكتبه، حيث كان يمكث فيه حتى ساعة الإفطار، فيتناولانه معاً. كان قد مضى على زواجهما شهران. وكان على مكتب تريان، إناء فيه زهور.

سألت نورا:

- ألا تريد أن تحدِّثني؟

كانت متلهِّفة، لأن تريان كان يتحاشى دائماً التحدّث إليها عن

Twitter: @ketab_n

روايته. وكان كل مرة يتحاشى الإجابة عن سؤالها، أما الآن، فإنه لم يستطع رفض طلبها قال:

- لقد قمتُ مرة بجولة بحرية في جوف غواصة، ومكثت تحت الماء حوالى ألف ساعة. إنّ في الغواصات جهازاً خاصاً، ينبئ بالوقت المعين اللازم لتجديد الهواء. أما من قبل، فإن الغواصات لم تكن تعرف ذلك الجهاز بعد. لذلك فقد كان البحارة، يصحبون معهم عدداً من الأرانب البيضاء، إلى جوف الغواصة. فإذا تسمَّم الهواء، ماتت الأرانب، فيعرف البحارة أن لديهم خمس ساعات يحيون خلالها، قبل أن يسقطوا بدورهم، فريسة للاختناق. فكان على قائد الغواصة في تلك اللحظة، أن يتخذ القرار الحاسم، إما بالصعود إلى سطح الماء ويبذل جهد اليائسين، وإما بالبقاء في الأعماق، والموت مع البحارة كلهم. وقد جرت العادة، إثر اتخاذ القرار الثاني، على أن يقتل البحارة بعضهم بعضاً، بطلقات المسدسات.

«في الغواصة التي كنت مبحراً فيها لم يكن هناك أرانب بيضاء، بل أجهزة تقوم مقامها. وقد لاحظ القبطان، أنني أتحسس نقص مولّد الحموضة، فكان يسخر من حساسيتي، لكنه لم يعُد يركن إلى أجهزة الغواصة، لأنني كنت دائماً أدله على الوقت الذي ينقص فيه الهواء، وكان يكفيه أن يلقي عليّ نظرة واحدة ثم يستشير آلته وأجهزته، فيجد أن دقتي مدهشة.

«إنها موهبة نملكها نحن: الأرانب البيضاء وأنا، نشعر بدنوّ الخطر قبل أن يشعر به البشر بست ساعات، ونحسّ أن الجو بات لا يصلح للتنفس. إنني أشعر منذ زمن ما، بمثل ذلك الشعور الذي كنت أعلن عنه، عندما كنت على ظهر الغواصة. إنّ الجو قد بات خانقاً!

سألته نوراً:

Twitter: @ketab_n

- أي جوّ تقصد؟

- الجو الذي يعيش فيه المجتمع الحاضر. إنّ الكائن البشري لن يستطيع احتماله. إن «البيروقراطية» والجيش والحكومة والتنظيم الحكومي والإدارة، كل هذه الأشياء، تساهم في تسميم الجو، ليختنق الإنسان. إنّ المجتمع الحاضر يستخدم الآلات والرقيق العنصري. لقد خلق من أجلها. ولكن الإنسان محكوم عليه بالاختناق. غير أن بني الإنسان لا يشعرون بذلك. إنهم يصرّون على أنّ كل شيء طبيعي، كما كان في السابق. إنّ رجال الغواصة التي كنت بينهم كانوا هم أيضاً، يناضلون ويقاومون الجوّ المسموم. إنهم كانوا يعيشون ست ساعات بعد موت الأرانب البيضاء. لكنني أنا، أعرف أنّ كل شيء قد انتهى.

- أهذا هو موضوع روايتك؟

- لقد وضعت في روايتي، الطريقة التي يموت بها رجال هذه الأرض الذين يحيون في عذاب مريع وقلق قاتل، تخنقهم الأجواء غير الصالحة للحياة. ولما كنت لا أستطيع أخذ كل الكائنات الحية أبطالاً لقصتي، فقد انتخبت عشرة أشخاص، أعرفهم أكثر من أيّ أحدٍ سواهم.

- وهل سيموت هؤلاء الأشخاص العشرة؟

- بعد موت الأرانب البيضاء. لن يستطيع بنو الإنسان الحياة أكثر من ست ساعات على الأكثر. إن روايتي تصف هذه الساعات الست، في حياة أفضل أصدقائي.

- وماذا كتبتَ حتى الآن؟

- الفصل الأول فحسب. إن واحداً من الأشخاص العشرة قد انتُزِع من بيننا و. . .

- ماذا حدث له؟

Twitter: @ketab_n

- لقد سلبوا منه حريته وزوجته وأولاده وبيته في الوقت الحاضر. . . لقد أهين وضرب وعذِّب. لقد بدأوا يخلعون أسنانه وأضراسه. سوف يفقأون عيونه قريباً، ويسلخون الجلد الذي التصق بعظامه. ولسوف تتحطّم تلك العظام: إنّ الآلام والأوجاع الأخيرة، ستنزل به بطريقة آلية أو كهربائية.

سألت نورا بذعر:

- هل وقع كلّ هذا؟

فأجاب تريان:

- إنّ كله صحيح. لقد سجلت في روايتي، اسم الشارع والمدينة والبلد الذي يقطن فيه أشخاصي. لقد أعلنت أرقام هواتفهم. إنكِ أنت كذلك، تعرفين الشخص الأول في روايتي. إنك تستطيعين بحث الحوادث التي سردتُها لك للتو، ومقارنتها مع الحقائق لتتأكدي من صحتها.

- مَن هو هذا الشخص الذي تتحدث عنه؟

- إنه إيوهان موريتز!

اكتأب وجه نورا لدى سماعها هذا الاسم. إن كل ما رواه تريان كوروغا حول إيوهان موريتز، كان مطابقاً للحقيقة. قالت:

- إنني أشفق على هذا الفتى إشفاقاً عميقاً. إنه هو إذن، بطل الفصل الأول من قصتك. مَن ترى سيكون البطل الثاني؟

أجابها تريان:

- لست أدري بعد. لعله أبي أم لعلها أمي. أنا، أم أنتِ نفسك. على كل حال، سيكون أحدنا البطل الثاني.

سألت نورا بقلق:

- وهل ستتشابه كلّ الفصول وتتفق في نهايتها، مع الفصل

Twitter: @ketab_n

الأول؟ مع مصير إيوهان موريتز؟ أليس في كلّ قصتك موقف مفرح واحد؟ نهاية سعيدة؟

أجابها تريان مقطباً:

- كلا، ليس فيها نهايات سعيدة. بعد موت الأرانب البيضاء، لا يمكن أن تكون النهايات السعيدة، قابلة للوقوع. إنّ موتها يدل على أنه ما تبقى للآخرين من بقاء على قيد الحياة، لا يتجاوز الساعات المعدودة!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكتاب الثاني

- 55 -

وجد إيوهان موريتز نفسه منذ ساعتين في هنغاريا. انتظر اليهود الثلاثة وهو إلى جانبهم، أمام المحطة لأنهم لم يجرؤوا على الدخول إلى غرفة الانتظار. وأخيراً وصل القطار الذي سيستقلونه.

صعد الطبيب أبراموفيسي وفسترول ثم هورتيج إلى إحدى عربات الدرجة الثانية، بينما ظلّ إيوهان موريتز على رصيف المحطة ينقل إليهم الحقائب فيتناولونها منه من خلال نافذة العربة. لذلك فإنه لم يستطِع الركوب إلّا في الدقيقة الأخيرة، فقفز إلى مرقاة العربة، وتشبث في الحواجز الخارجية فأمسك هوريتج بذراعه يساعده على الصعود، ثم أغلق الباب وراءه. كان موريتز شاحباً، لقد تصور أنه سيبقى على رصيف المحطة وحيداً بعد ذهاب القطار، فكان ذلك سبب خوفه الذي بدا على وجهه. وترى ماذا كان سيحصل له، لو لبث هناك وحيداً؟ كيف كان سيتصرف لو تخلى عنه الطبيب أبراموفيسي والآخرون؟ شكر اللّه على أنه وفِّق في الصعود في آخر لحظة.

وجد الطبيب أبراموفيسي وهورتيج أمكنة لجلوسهما. أما سترول وإيوهان موريتز فقد ظلا واقفين في الممشى جالسين على الحقائب.

Twitter: @ketab_n

لقد فتشا في كلّ العربات فلم يجدا أمكنة لجلوسهما. كانت الأنوار كلها مطفأة، والمسافرون نيام. وبعد فترة غير طويلة، غادرت إحدى النساء مكانها فأخذ سترول مكانها في العربة ولبث موريتز وحيداً في الممشى. أوصاه الطبيب أبراموفيسي أن لا ينام بقوله:

- لا تنم، لأنهم قد يسرقون منك الحقائب.

فأجابه موريتز:

- لن أنام.

لكنه منذ أن اختفى رأس الطبيب وراء باب المقصورة، نام ملء جفنيه. كان يشعر بحاجة فظيعة إلى النوم وهو واقف على قدميه! فأغمض عينيه ولم يفتحهما إلّا في بودابست.

لما بارح القطار، كان الصبح قد طلع. كان موريتز شديد العطش، غير أن هورتيج، لم يسمح له بتناول كأس من الليمون في أحد المطاعم. كان يخشى أن يجده أحد رجال الشرطة في المطعم، فيكتشف أنه فرّ من رومانيا، فيوقفه والآخرين معه.

قال له الطبيب أبراموفيسي:

- ستعطيك أختي قدحاً كبيراً من الماء!

ومضوا مبتعدين. توقفوا قليلاً أمام رتل العربات والسيارات الواقعة أمام المحطة. غير أن هورتيج قال:

- إن من الحكمة قطع المسافة سيراً على الأقدام. إن سائق العربة يصبح دليلاً علينا، إن من الحماقة أن تسبِّب بتوقيفنا في بودابست بعد أن قطعنا كلّ هذه المشقات للوصول إليها!

وراحوا يقطعون المسافة سيراً على أقدامهم وموريتز ينوء تحت ثقل الحقائب التي كانت مكدَّسة على كتفيه وفي يديه. كانت الحقائب ثقيلة جداً، لكنه شعر بصعوبة في حملها أقلّ منها لمّا كان ينقلها عبر الحدود، في الليلة الفائتة.

Twitter: @ketab_n

فكّر وهو يطبع قدمه العارية على الإسفلت البارد: «لعلني ظننتُ أنّ هذه الحقائب أقل ثقلاً الآن منها عن ذي قبل لأنني أسير بها الآن على طريق معبدة، على الإسفلت». لم تكن القاطرات الكهربائية، تطفأ من تلقاء نفسها في الشوارع، فسأل هورتيج عمَّن يطفئها. فصاح هذا غاضباً:

- لا تتكلم باللغة الرومانية أيها الحمار! إذا سمعنا أحدهم نتحدث بالرومانية، تعرَّضنا جميعاً للذهاب إلى السجن!

- هل التحدث باللغة الرومانية ممنوع؟

فأجابه هورتيج:

- إنه ليس ممنوعاً. غير أن الرومانيين هنا، يُرسَلون إلى معسكرات الاعتقال. إن هنغاريا عدوة رومانيا. هل فهمت الآن؟

- وكيف نتفاهم إذن؟

فأجاب الطبيب أبراموفيسي:

- تحدَّث باليديش. إن اليهود في هنغاريا، ليسوا ملاحقين كما هو الحال في رومانيا. ليس هناك - حتى الآن على الأقل - أي قانون ضد اليهودية في هنغاريا.

امتنع إيوهان موريتز عن النطق بكلمة واحدة باللغة الرومانية. غير أنه لم يتكلَّم كذلك بلغة اليديش. لقد كان شديد التعب. فلما وصل الأربعة إلى منزل أخت الطبيب في شارع بيتوفي، كان موريتز يترنح تحت ثقل الحقائب. وضعها أمام الباب، فجاءت الخادمة، وساعدته على نقلها إلى الداخل فرافقها موريتز إلى المطبخ. كانت الخادمة ترتدي ثوباً أزرق خيِّل لموريتز أنه رأى ذلك الثوب من قبل، في مكان ما لم يعُد يذكره. وفجأة تذكر أن سوزانا، كانت ترتدي في تلك الليلة، ثوباً مماثلاً.

Twitter: @ketab_n

- 56 -

كانت أخت الطبيب أبراموفيسي على شيء من البدانة. كانت ترتدي معطفاً منزلياً مزيناً بوردات حمراء كبيرة وكانت تتحدّث بسرعة فائقة. استدعت إيوهان موريتز إلى الحجرة التي كان فيها الطبيب ورفيقيه الآخرين، وإيزاك ناجي، زوجها، وقدَّمت لهم جميعاً أقداحاً من العرق. لبث موريتز واقفاً لأنه لم يكن في الغرفة عدد كافٍ من المقاعد. وجاءت أخت الطبيب بآنية الشاي فوضعتها على المائدة ونظرت إلى موريتز ثم قالت:

- ليس لك مكان هنا. امضِ إلى المطبخ وتناول الشاي هناك.

وأعقب زوجها «ناجي» بالهنغارية:

- لا شك أن ذلك أفضل لأنّ لدينا من الأمور الجدية ما يجب أن نبحث فيها بيننا.

فَهِمَ موريتز أنّ أولئك السادة ما كانوا يميلون إلى الجلوس معه حول مائدة واحدة. لكنه لم يتألم ولم ينزعج. كانت إيوليسكا، خادمة البيت، شديدة الاغتباط عندما وجدته عائداً إلى المطبخ. صبَّت له ثلاثة أقداح من الشاي وسخت بالسكر وعصير الليمون. ثم قدَّمت إليه ثلاث قطع كبيرة من الخبز، دفنت في كلّ منها جانباً من الزبد ولحم الخنزير. أكل موريتز بسرعة، لأنه كان جائعاً كالذئب ولمّا فرغ من طعامه، أراد أن يغسل يديه وعنقه، غير أن إيوليسكا قالت له:

- رافقني أولاً إلى السوق! سوف نغتسل عندما نعود.

حمل موريتز السلة، ورافق إيوليسكا. إلى السوق، لشراء ما تريد، وهكذا كان كلّ صباح يرافقها إلى السوق ويحمل لها السلة.

ولما عاد من السوق، قطع بعض الأخشاب وحملها إلى

Twitter: @ketab_n

المطبخ، وبعد الإفطار غسل الأطباق مع إيوليسكا. لقد كانت هذه وديعة، تحبّ الثرثرة والمزاح. لذلك فقد شعر موريتز في ذلك البيت بالمتعة.

- 57 -

انهمك موريتز في المطبخ، والإصغاء إلى مزاح إيوليسكا فلم ينتبه إلى أنَّ النهار قد انقضى دون أن يظهر الطبيب أبراموفيسي والآخرون. فسأل عن أخبارهم حوالى الظهر فأجابته أخت الطبيب بأنهم نيام. وعاد إلى أعماله وكفَّ عن التفكير فيهم. ولمّا حلَّ المساء وأوى موريتز إلى فراشه، تذكَّر أنه لم يوجه إلى أحد من رفاقه الثلاثة أية كلمة في أثناء النهار كله مع ذلك، فقد تناولوا جميعهم الطعام في البيت. كان موريتز واثقاً من هذه الناحية، لأنه غسل الصحاف بنفسه بعد طعام الغداء. ولقد كانوا في المنزل كذلك في الساعة الخامسة لأنه تذكر أنه غسل خمسة فناجين. لكنه لم يتذكر عدد الصحاف التي غسلها بعد طعام العشاء. لقد جاءت إيوليسكا بمجموعة كبيرة منها فلم يحصِ موريتز عددها وهو ينظفها. كانت هذه الأفكار توجعه وتؤلمه، لذلك لم يستطع النوم رغم حاجته الملحَّة إليه. خيل إليه أنّ الصحون كانت أقل عدداً بعد العشاء منها بعد الغداء.

فكّر في نفسه «لعل هورتيج مضى لرؤية أقربائه». كان آسفاً إذ خرج هورتيج دون أن يراه. لكن، ألا يجوز أن يكون قد تناول طعام العشاء في المنزل وأن يكون هو - موريتز - قد خدع نفسه فتخيّل النقص الموهوم في عدد الصحاف؟ غير أن موريتز استطاع أن يتأكد من صدق تخمينه صباح اليوم التالي. لقد مضى هورتيج مساء أمس ولم يتناول طعام العشاء في منزل إيزاك ناجي. غير أن الطبيب

Twitter: @ketab_n

وسترول، كانا لا يزالان في المنزل. جاءت إيوليسكا بأحذيتهما حوالى الساعة العاشرة لينظفها موريتز. فقام بعمله بعناية فائقة وأراد أن يحمل الأحذية إلى داخل البيت غير أن إيوليسكا استوقفته على العتبة وأخذت الأحذية من يده فأدخلتها بنفسها إلى الدار. ولمّا عادت قالت لموريتز:

- إنّ السيدة قد منعتني من السماح لك بدخول البيت. ماذا تريد؟ إنها دائماً هكذا، إنها تخاف دائماً أن تُسرق.

- 58 -

استدعى الطبيب أبراموفيسي، إيوهان موريتز بعد الغداء إلى غرفة الطعام وقال له بلهجة آمرة:

- احمل حقائبي وتعالَ معي:

كان موريتز سعيداً. كان متأكداً من أن الطبيب سيناديه، وأنه لم ينسه.

ولما خرجا إلى الشارع، سأله الطبيب غاضباً:

- لِمَ تسير حافي القدمين؟

خجل موريتز من نفسه لكنه لم يكن يملك أحذية. نظر حوله في الشارع فلم يجد مخلوقاً واحداً يسير حافي القدمين. فتابع طريقه مُنحني الرأس. كان ينظر بعناية في الطريق إلى أقدام الناس الذين كانوا يمرون حوله. كانوا جميعاً منتعلين أحذية قصيرة أو عالية الساق، نظيفة ملمعة. فخجل موريتز من نفسه ووَدَّ لو انشقت الأرض وابتلعته. حاول أن يطلب الصفح من الطبيب، لكن هذا كان يسير أمامه ويديه في جيوبه وكأنه لا يعرفه.

Twitter: @ketab_n

توقف أمام باب منزل قديم حوله حديقة صغيرة. أخذ الطبيب الحقائب ودخل وحده فبقي موريتز ينتظره على العتبة. قرأ اللوحة المعلقة على الجدار. كان عليها كلمة «قنصلية». فعاد ينظر إلى المارة الذين كانوا يخترقون الشارع.

لم يتأخر الطبيب أبراموفيسي في المنزل. لكنه لما خرج منه، لم يكن يحمل حقائبه. كان يهبط السلم ضاحكاً. لكنه لما رأى موريتز ينتظره مستنداً إلى الجدار جمدت ضحكته على شفتيه. وقف برهة في مكانه، ووضع يديه في جيوبه، وكأنه كان يفكِّر. لقد رآه موريتز يقطب حاجبه، فلما عادا معاً، كان الطبيب مطبقاً فكه، فلم ينطق بكلمة. وكان إيوهان موريتز، يسير وراءه على مسافة كبيرة، حتى لا يعرف الناس أن «السيد» الطبيب، يمشي مصطحباً شخصاً حافي القدمين. كان موريتز لا يريد أبداً، أن يسبب للطبيب أبراموفيسي ذلك الخجل، مهما كلفه ذلك من جهد.

توقف الطبيب أمام باب منزل إيزاك ناجي وانتظر أن يلحق به موريتز.

ثم قال له:

- يانكل، إن مسألتك شديدة التعقيد. إن الجمعية اليهودية في بودابست، التي تهيئ لنا أوراق السفر إلى أميركا، لا تريد الاهتمام بقضيتك. لقد قلتُ إنك جئت معنا، وتوسلت إليهم أن يساعدوك، ولكن عبثاً. لقد أجابوني بأنهم لا يستطيعون مدَّ يد المساعدة للمسيحيين. إنّ المجلس اليهودي، يجب أن يهتم باليهود وحدهم، لذلك فإنهم يطلقون عليه اسم: «المجمع الإسرائيلي». وأنت لست يهودياً، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- إني لست يهودياً يا سيدي الطبيب.

فأردف الطبيب أبراموفيسي:

- إنهم على حق. لكنني آسف إذا بلغَت النتيجة هذا الحدّ. كنت أريد أن أصحبك معي إلى أميركا. غير أنني رغم ذلك، لن أهملك أو أسقطك من حسابي.

فتح الطبيب أبراموفيسي حافظة نقوده، وراح يعدّ بعض الأوراق المالية، بينما راح إيوهان موريتز يحدِّق بتلك الأوراق الهنغارية. كان شديد الدهشة، إذ رآها صغيرة الحجم.

قال الطبيب أبراموفيسي:

- هاك عشرين «بانجوس» أجراً لأتعابك. إنه مبلغ كبير. ينبغي أن يشتغل المرء هنا في هنغاريا أسبوعاً كاملاً قبل أن يحصل على هذا المبلغ، بينما ربحته أنت، لمجرد أن نقلت حقائبي في خلال بضع ساعات.

ما كان إيوهان موريتز يفكّر قط في المطالبة بنقود أجراً على نقله الحقائب. إنه لم ينقلها من أجل المال، لكن الطبيب أبراموفيسي لبث ماداً يده إليه بالمال. فأخذ موريتز المبلغ ودسَّه في جيبه.

أردف الطبيب أبراموفيسي:

- إن المهم في الموضوع، كان خروجك من المعسكر. ولقد أخرجتكَ منه، وجئتُ بك إلى هنا. لو أننا لم نساعدك على الفرار، للبثتَ دهراً تتحلَّل هناك. لكنني لا أسألك شيئاً لقاء هذا العمل. إنني لستُ من طراز الرجال الذين يطالبون بالبدل عن الخدمات التي يقدمونها لكائن مَن كان.

Twitter: @ketab_n

منذ أسبوع، وإيوهان موريتز في هنغاريا، يقوم بعمله الذي بدأ يعمله، حينما وطئت قدماه أرض بيت إيزاك ناجي: يرافق إيوليسكا إلى السوق، ويقطع الخشب، وينقل دلاء النفايات إلى الشارع، ويغسل الأطباق. فإذا حلّ المساء، نظّف المطبخ، وغسل الأرض والسلم.

وفي صباح يوم الأحد، صادف إيزاك ناجي إيوهان موريتز في الممشى، فقال له بصوت قاس:

- ألم تجد لنفسك عملاً بعد؟ منذ أسبوع وأنت هنا. فهل تظنّ بأنني سأستمر على التصدق عليك طيلة عمري؟

تركه إيزاك ناجي ومضى دون أن يعقّب بكلمة. فأسف إيوهان موريتز على الوقت الذي أضاعه، دون أن يبحث لنفسه عن عمل. إنه لم يفكِّر في إيجاد عمل لنفسه، لأنه ظنَّ أن إيزاك ناجي، قد أدخله في خدمته.

مضى يحدث نفسه: «كيف بلغ بي السخف أن امتنعت عن البحث عن عمل؟ إن هؤلاء الناس على حق. إنهم لا يستطيعون إطعامي مدى حياتهم».

تحدث موريتز مساء ذلك اليوم إلى إيوليسكا، فوعدته هذه بإيجاد عمل له. كانت تعرف بعضهم في معمل من معامل «الشوكولاتة». قالت له مداعِبَة:

- لعلك تأتيني بقطع من «الشوكولاتة». أم تراك تعطيها إلى أخرى!

فقال موريتز، وقد أزعجه أن تفكر إيوليسكا في مثل هذا الاتجاه:

Twitter: @ketab_n

- كيف أعطيها لسواك؟ لسوف آتيكِ بكلّ ما يعطونيه. لن أقضم منه قطعة واحدة.

حلم إيوهان موريتز ذلك المساء، بأنه يشتغل في معمل «الشوكولاتة».

في صباح اليوم التالي، ودّع الطبيب أبراموفيسي أخته وصهره وذهب. حمل له موريتز حقائبه حتى المحطة، وهناك نقلها إلى عربة النوم. سأله:

- أتذهب بعيداً؟

فأجابه الطبيب:

- إلى سويسرا. سأستريح هناك بضعة أسابيع قبل رحيلي إلى الولايات المتحدة.

ولمّا أزفت ساعة الرحيل، مدّ الطبيب أبراموفيسي يده إلى موريتز مصافحاً.

شعر إيوهان موريتز بالدم يتصاعد إلى وجنتيه. كان كل «الأسياد» على الرصيف، ينظرون إلى حركة الطبيب الذي يصافح يد رجل لا ينعل أحذية في قدميه، يده هو، إيوهان موريتز.

لمّا تحرك القطار هتف الطبيب من النافذة:

- إلى اللقاء يا عزيزي يانكل، لن أنساك. سأحاول عمل شيء ما، لإخراجك من هنا.

فأجابه موريتز محيياً:

- إلى اللقاء.

غاب القطار عن عيني إيوهان موريتز، فانخرط في البكاء. شعر بأنه أصبح وحيداً في هذا العالم. لقد ذهب سترول وهورتيج، دون أن يوجّها إليه كلمة واحدة. وها أن الطبيب أبراموفيسي قد ارتحل الآن... لبث موريتز زمناً على الرصيف القاحل. لم يشعر في حياته

Twitter: @ketab_n

بمثل هذا الإحساس بالاغتراب. وفجأة تذكر معمل الشوكولاتة، فخفَّت أحزانه، وعاد على أعقابه. فكّر وهو يصعد شارع بيتوفي:
«لمّا أبدأ بالعمل، سأشتري لإيوليسكا قلادة من اللؤلؤ المزيف».

- 61 -

مضى إيوهان موريتز وإيوليسكا إلى السوق في وقت مبكر، خلافاً لجري العادة. اشتريا اللحم والخضار، وكل ما يلزم البيت من حاجات بسرعة عجيبة، ثم مضيا بخطى حثيثة، في شارع ذي بيوت منخفضة.

كان موريتز يحمل السلة بيده اليمنى، ويمسك بذراع إيوليسكا بيسراه. كانا يمشيان بخطى مسرعة.

قالت إيوليسكا:

- إن المعمل في الجانب الآخر من المدينة، لذلك ينبغي أن نسرع في مشيتنا.

كانا قلقين. لأنهما إذا تأخرا عن الوقت المعتاد، لن تجد إيوليسكا الوقت الكافي لإعداد طعام الصباح. كانت قد تحدثت إلى فتى من قريتها، يعمل في ذلك المعمل، فطلب إليها أن تصطحب موريتز ذات صباح، ليقابل رئيس العمال وقال:

- إذا جاء، فلسوف يُقبل فوراً، لأن المعمل يشكو قلة الأيدي العاملة.

قال موريتز وهو يشق لنفسه طريقاً وسط ازدحام عدد من الناس في إحدى الساحات:

- علهم يقبلونني على الفور! إذا استخدموني، فلسوف أقبض

Twitter: @ketab_n

أجري يوم الاثنين المقبل، ولعلهم يعطوني كذلك بعض قطع الشوكولاتة لك.

ضغط على ذراعها بعنف. فنظر كلّ منهما إلى الآخر وراحا يضحكان.

أردف موريتز:

- سأجد لنفسي غرفة آوي إليها، لأنني لا يمكن أن أبقى عالة على مخدوميك. سوف أبحث عن غرفة قريبة من المعمل.

سألته إيوليسكا:

- هل تسمح لي بالمجيء إلى غرفتك؟

غير أنه لم يسمع كلماتها. لقد اجتذب الازدحام الشديد انتباهه. كان يتساءل عن سبب وجود كل هذا الحشد من الناس، في تلك الساعة. كان مئات من الناس يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب. توقفت إيوليسكا وحاولت هي الأخرى أن تستطلع سرّ هذا الازدحام. لكنها تذكرت أن عليها أن تُسرع ما استطاعت. قالت:

- لنذهب من شارع آخر، وإلا فإنني لن أستطيع العودة في الوقت المناسب.

عادا على أعقابهما، وهما يسيران بسرعة أكثر، محاولين تلافي الوقت الذي أضاعاه، لكن منفَذَ الشارع كان مغلقاً برجال البوليس.

نظرت إيوليسكا إلى رجال الشرطة من زاوية عينها، وحثّت خطاها تضاعف من سرعتها. قالت:

- إن رجال الشرطة والدرك، أسوأ الرجال في العالم. إنني لن أتزوج دركياً أبداً.

التفتت إيوليسكا لتتأكد من أن موريتز قد سمع قولها، لكن موريتز لم يكن يسير وراءها. راحت إيوليسكا تبحث عنه بأبصارها، فشاهدته قرب بعض الدركيين، يشير إليها بيده.

Twitter: @ketab_n

اتجهت إيوليسكا نحوه. فهمت في تلك اللحظة سرّ ذلك الازدحام. لقد أطبق عليهما كمين أعدَّه رجال الشرطة للتحري عن المشبوهين. وقف رجال الدرك، بعد أن أقاموا شبه حاجز على الطريق، وراحوا يتصفحون أوراق المارة، قبل أن يسمحوا لهم بالمرور. النساء فما كانوا ليسألوهن أوراقاً، ولهذا السبب، استطاعت إيوليسكا المرور من دون موريتز.

تذكرت إيوليسكا أن موريتز ما كان يحمل معه أية أوراق تثبت شخصيته. فذعرت واعتراها الخوف، عادت تمرّ من خلال حاجز رجال الدرك، فأراد أحدهم أن يضغط على ساعدها، لكنها تحاشته، وهرعت إلى حيث وقف موريتز. شاهدت موريتز في تلك الأثناء واقفاً مع نفر من الناس، يخفرهم دركي شاكي السلاح، ويسوقهم إلى سيارة عسكرية قريبة. كان موريتز قد رفع السلة فوق رأسه ليتيح لإيوليسكا أن تهتدي بها إلى مكانه، فتبلغ إليه، وتستعيد السلة. ورأت إيوليسكا السلة، لكنها لم تستطع التقدم إلى حيث كان حاملها. كان رجال الدرك يمنعونها عن التقدم إلى أكثر من الحدّ الذي بلغت إليه. شرحت لهم بأنها تريد أخذ سلة الخضار من يد الشاب الموقوف، لكنهم لم يصغوا إليها، أم لعلهم لم يفهموا قولها. صخبت وصاحت وشتمت. ولكن عبثاً.

كان إيوهان موريتز قد صعد إلى السيارة العسكرية، وترك السلة تتدلى إلى جانبها، على أمل أن تصل إيوليسكا، فتتلقفها من يده.

وتحركت السيارة، فوضع السلة على ركبته. فكّر أن «السيدة ناجي ستضرب المسكينة، إذا عادت إلى المنزل دون سلة» كان يهم بالقفز من السيارة، ليعيد إلى الخادمة المسكينة سلتها. لكنه أفلت تلك الفرصة كذلك إذ إن جنديين شاكيَي السلاح، وقفا إلى جانبي السيارة، لمنع كل محاولة من هذا النوع. ولما وقعت عينا إيوهان

Twitter: @ketab_n

موريتز عليهما نسي سلة الخضار. لقد تجلت له الحقيقة المرعبة: لقد كان سجيناً.

- 62 -

مضت أربعة أسابيع على توقيف إيوهان موريتز. غير أنه في خلال هذه المدة، لم يطّلع على أي شيء خارج حدود زنزانته. لقد حُرِمَ حتى من رؤية الشمس. كانت نافذة زنزانته تطلّ على باحة داخلية، تحيطها أسوار عالية، تحجب الأفق كله عن ناظريه، وجزءاً كبيراً من السماء. منذ أربعة أسابيع، لم يستنشق نفحة واحدة من الهواء المنعش. كان هناك موقوفون آخرون. لكنهم كانوا يخرجون إلى الباحة ساعة كلّ يوم. فكان يسمع صوت خطواتهم وهم يغادرون زنزاناتهم، ويُعادون إليها. كان موريتز يعرف أنهم أُخرجوا للنزهة اليومية. كان يخمّن ذلك من صوت الخطى.

كان الممشى في تلك اللحظة ساكناً هادئاً، والصبح لم يشرق بعد. فتح موريتز عينيه. كان جفناه يفتحان بألم وجهد. لقد كانت عيناه تؤلمانه، وجفناه متورّمان مقرحان وقد تجمّد فيهما الدم. ترى متى أعادوه إلى زنزانته؟ لم يكن يذكر شيئاً من ذلك. قال في نفسه «لقد أكثروا من ضربي في المرة الأخيرة، حتى فقدت وعيي». كان يتحدث عن نفسه حديثه عن إنسان غريب، عن شخص ثالث. رفع يده إلى وجهه، كانت لحيته كثيفة قاسية والدم قد تجمّد داخل شاربيه وشعره وأهدابه. مرّر إيوهان موريتز لسانه على شفتيه المنتفختين. كانتا كالدملة المتفسخة، لا تلبث أن تفقأ. وكانت أسنانه تؤلمه كذلك. لقد فقد أربعة منها حتى الآن. لقد بصقها ذات يوم مع الدم، إثر لكمات عنيفة تلقاها على فكيه. أما هذا اليوم، فقد كان الألم

Twitter: @ketab_n

يشبه في حدَّته آلام ذلك اليوم. تساءل: «إذا حطموا لي أسناناً جديدة هذه المرة، فسوف أفقد القدرة على مضغ خبزي بعد الآن». لم يعنَ بلمس مواضع الألم، أو بتحسس فكيه من الداخل بطرف لسانه ليتأكد من عدد الأسنان المفقودة، لأن أية حركة كانت تؤلمه، فأغمض عينيه واستسلم لمصيره، ومرّ الوقت، فسمع صوت خطى تقترب من الممشى. لكنه لم يرهف السمع كعادته ليخمن نوع تلك الخطى ويحدس من أين كانت تأتي وإلى أين كانت تمضي. كان جسده مثخناً وأفكاره متبلدة، فلما جاءوا يسوقونه إلى الاستنطاق، غادر فراشه وهو يئن متوجعاً. كان باطن قدميه متورماً أشبه بالرغيف الساخن. وقد أدهشه أن لا يذكر أنه تلقى ضربات على قدميه. دفعه الحارس بقسوة، فاجتاز موريتز عتبة زنزانته. شعر بألم هائل في ظهره، في المكان الذي ركله الحارس فيه وهو يسوقه، ثم زال الألم وعاد يتوجّع بسبب قدميه. كان كلما خطا خطوة يشعر كأن بعضهم ينتزع قطعة من لحمه.

كان على بُعد مائة خطوة من مكتب المفتش «فارجا»، الذي كان يتولى التحقيق معه. كان عليه أن يقطع هذه الخطوات المائة، فكان مجرد التفكير فيما سيلقاه، يكفي لكي تخونه قواه، ويتهاوى على الأرض. هرع الدركي ورفعه من تحت إبطيه. كان إيوهان موريتز قد غدا خفيفاً كالطفل. كانت العظام المكسوة بالجلد هي كل ما تبقى له، أما اللحم والشحم، فلم يعودا موضوع بحث.

- 63 -

عندما أوقف إيوهان موريتز أول الأمر، أدلى بمعلوماته، فقصَّ بكلّ أمانة، كيفية وصوله إلى هنغاريا. غير أن رجال الدرك لم

Twitter: @ketab_n

يصدِّقوه. ضربوه لينتزعوا منه الحقيقة وأخضعوه لتعذيب مريع. ولما أعادوا سؤاله وكرّر عليهم أقواله الأولى بكل دقة، عادوا فضربوه من جديد.

كان في تلك اللحظة في سجن دائرة الجاسوسية الهنغارية وكان كل يوم يتعرض لاستجواب وضرب. كان المفتش يسأله:

- لماذا أرسلوك إلى هنغاريا؟

فيجيب موريتز:

- لم يرسلني أحد إلى هنغاريا.

- لقد أفدتنا بأنك بلغت الحدود في سيارة عسكرية يقودها وكيل ضابط!

- صحيح. إن وكيل الضابط كان اسمه «آبوستول كونستانتان»، لقد كان قائد المعسكر وصديق الطبيب «أبراموفيسي». لقد رافقنا ليَحُول دون توقيفنا من قِبل العسس على الطريق.

قال المفتش:

- إنه القائد «تناز إيون» من قلم الاستخبارات الروماني. إننا نعرف أنه ينشط الآن في هذه المنطقة. إنه يرسل إلينا جواسيسه كل شهر. وهو الذي أرسلك. لكننا نريد أن نعرف لِمَ أرسلك وما هي مهمتك؟

أطرق موريتز برأسه إلى الأرض وأجاب:

- لقد ذكرتُ لكم كل الحقيقة.

كان يعرف أنه سيُقاد بعد لحظات إلى غرفة التعذيب في القبو، فشعر بوخز في أطراف جسده، واعترته رعدة عندما تمثَّل له هذا الخاطر.

قال المفتش:

- ألا ترى أنّ كل هذه المهزلة التي تتذرع بها لا تفيدك في

Twitter: @ketab_n

شيء؟ إنّ من السُّخف الاستمرار بالمقاومة. لقد أعلنتَ لنا أنك سجنت في معسكر لليهود في رومانيا طيلة عام ونصف.

فأجاب موريتز:

- نعم لقد سُجنت كذلك.

- كاذب. إنك لم تطأ بقدمك أرض المعسكر. إنك روماني.

أجاب موريتز:

- إنني روماني.

استرسل المفتش قائلاً:

- وفي هنغاريا أردتَ الظهور بمظهر اليهودي وادّعيت أنك أرسلت في رومانيا إلى معسكر من معسكرات اليهود لترغمنا على تصديق أقوالك، ثم أعلنت أنك اجتزت الحدود برفقة ثلاثة من اليهود.

- إن هذا صحيح أيضاً.

- إنه ليس صحيحاً. لقد جئتَ لوحدك. إنك لم تقطن لدى إيزاك ناجي. إن أسرة ناجي لم تتلقَ ضيوفاً منذ ستة أشهر. هل ظننتَ أننا سنصدق أقوالك دون أن نحقق فيها؟ لقد أخذنا إفادات السيد ناجي وزوجته وهي مسجَّلة ومحفوظة في هذه الإضبارة. إنهما لم يسمعا باسمك من قبل والسيدة روزا ناجي ليس لها أخ طبيب.

سأل إيوهان موريتز:

- هل قالوا إنهم لا يعرفونني؟ إنّ السيدة لا يمكن أن تقول ذلك. لقد اشتغلتُ في منزلها ورافقت الخادمة «إيوليسكا» إلى السوق وغسلت الصحاف والأطباق...

راح إيوهان موريتز يبكي، بينما صاح المفتش:

- وهذه أيضاً كذبة وقحة. إن السيدة روزا ناجي لم تستخدم

Twitter: @ketab_n

خادمة باسم إيوليسكا. كان يجدر بك قبل أن تعمد إلى الكذب، أن تتأكد من اسم الخادمة!

ضحك المفتش مسروراً من نباهته وأردف:

- لقد سألت خادمة السيدة ناجي. إنها في خدمتها منذ ثمانية أعوام. إن كلمة إيوليسكا من اختراعك وحدك. لقد كنت تريد خداعنا، أليس كذلك؟

أغمض إيوهان موريتز عينيه. كان ينتظر أن يدعو المفتش الحارس ليقوده إلى الغرفة السفلى. لقد كان يتعذب كلما تصوّر أن السيدة ناجي أنكرت معرفتها به. كان لا يستطيع تصديق هذا القول.

سمع إيوهان موريتز صوت الباب يُفتح وصوت خطى تقترب منه. لكنها لم تكن خطوات الحارس الذي كان سيقوده إلى غرفة التعذيب. فتح عينيه فرأى إيزاك ناجي واقفاً أمامه. كان يرتدي ثوباً جديداً كستنائي اللون، لكنه ما كان ينظر إليه أبداً.

سأله المفتش:

- هل تعرف هذا الشخص؟

حدَج إيزاك ناجي موريتز بنظرة ملتهبة وقال:

- إنني أراه اليوم للمرة الأولى.

سأله المفتش:

- هل التجأ ثلاثة من اليهود الفارين من رومانيا إلى منزلك؟

- إن أحداً لم ينزل عندي منذ سنوات طويلة باستثناء زوجتي والخادمة.

قال المفتش:

- إنني أشكرك!

غادر إيزاك ناجي المكتب، فدخلت زوجته بعد خروجه مباشرة وأعلنت أنها لا تعرف موريتز وأنها لم ترَ وجهه قبل اليوم.

Twitter: @ketab_n

سألها المفتش:

- هل لكِ أخ طبيب في رومانيا؟

فأجابت روزا ناجي:

- إنني وحيدة أبوي.

ألقى المفتش نظرة قاسية على إيوهان موريتز ثم سأل روزا ناجي:

- هل استخدمتم في منزلكم خادمة باسم إيوليسكا؟

فأجابت:

- أبداً! إنني في بودابست منذ ثمانية أعوام ولم تدخل في خدمتي إلا خادمة واحدة اسمها جوزيفينا.

خرجت مدام ناجي من المكتب باسمة وبعد ذلك، دخلت امرأة عجوز أعلنت أن اسمها جوزيفينا وأنها أمضت في خدمة آل ناجي ثمانية أعوام دون انقطاع وأخيراً خرجت وبقي المفتش وحيداً مع إيوهان موريتز؛ فقال:

- هل تعترف الآن على الأقل بأنك كنت تكذب؟ قل الحقيقة! لماذا أرسلوك إلى هنغاريا؟

فكان جواب إيوهان موريتز أن انخرط في بكاء مرير...

- 64 -

اقتيد إيوهان موريتز من مكتب المفتش فارجا إلى غرفة التعذيب مباشرة على جري العادة، لكنه لم يشعر قط من قبل بمثل الخوف الذي انتابه في ذلك اليوم. ولما دخل غرفة التعذيب، كانت مضاءة بنور عنيف، نور أبيض كالحكك. كانت المصابيح كبيرة شديدة الضوء.

Twitter: @ketab_n

أغمض إيوهان موريتز عينيه، غير أن الضوء العنيف كان يحرق صدغيه كالنار المشبوبة.

صرخ به أحد الحارسين ضاحكاً:

- اخلع ملابسك.

كان المتكلم واحداً من اثنين من الرجال، ضخم الجثة كزميله، ذا شاربين كثيفين، كان موريتز يراه كلما أدخل الغرفة، متلهياً بلعب الورق مع زميله. أخذ موريتز يحلّ ياقته. كان يعرف أنه إذا أبطأ في خلع ملابسه فإن واحداً من الحارسين سيهرع إليه، فيضربه بالسوط بعنف على وجهه. كان يعرف هذه الحقيقة.

لكن أصابعه كانت متورمة، فكان يجد مشقّة كبيرة في تخليص أزرار القميص الدقيقة من عراها. كان موريتز يشعر برعب هائل من ذينك الرجلين. لم يخشَ كل حياته وقع السياط كما بات يخشاها اليوم. ألقى نظرة إلى حيث كان الحارسان جالسين يلعبان. كانا منهمكين في اللعب، حتى إنهما لم يلاحظا تباطؤ موريتز. وأخيراً، استطاع موريتز أن يخلع قميصه وترك سرواله، فلم يخلعه لأنهم ما كانوا يطلبون إليه ذلك. لبث واقفاً ينتظر. كان أمامه. رفّ مدرج، صفّت عليه قضبان من الحديد، كالتي يستعملها الجنود في ثكناتهم لتنظيف بنادقهم. كانت تلك القضبان مرتبة بحسب أحجامها، فكان إلى يسار الرفّ عدد منها بقُطر إبهام اليد، وكانت الأحكام تهبط بالتدريج. وكان هناك قضيبان من كل حجم، فأخذ موريتز يعدها للمرة الأولى. كانت القضبان الدقيقة مصفوفة إلى يمين الرف، تشبه في حجمها عيدان القش. وكان موريتز يعرف الألم العنيف المضني، الذي تخلّفه هذه العيدان في الجسد.

هتف أحد الحارسين وهو ينتصب واقفاً:

- إلى العمل يا بني!

Twitter: @ketab_n

ظلت أوراق اللعب مبعثرة على المائدة. أردف الحارس يقول:

- مَن لا يشتغل لا يأكل.

رآه موريتز يتمطى. كان يرتدي قميصاً أزرق تظهر خلاله تقاطيع جسمه الضخم. وكان يبدو عليه النعاس.

أطفأ الحارس الآخر لفافته وألقى نظرة على إيوهان موريتز وقال:

- إذن؟ هل ستقول لنا اليوم لماذا أرسلوك إلى هنا؟

كان صوت الحارس رقيقاً وكأنه يدعوه إلى إشعال لفافته مثلاً.

تثاءب الحارس وتمطى كما فعل زميله منذ قليل، فأجابه موريتز:

- لقد قلت لكم: إن أحداً لم يرسلني إلى هنا!

استدار الحارسان بعنف نحوه وانتفضا كأنهما لمسا حديداً محمى. التمعت أعينهما بالغضب، فأخذ إيوهان موريتز يرتعد. اقترب أحد الحارسين منه ولكمه لكمة على وجهه أعقبها بثانية ثم بثالثة. ففقد موريتز الشعور بالألم من منطقة وجهه على الأقل.

قبض عليه الآخر، ومدَّده على صدره فوق المقعد الخشبي الذي كان قرب الرف، ثم اعتلى ظهره كما يمتطي الفارس حصانه. كان موريتز يشعر كلما جلس الحارس على ظهره بأنه سيموت خنقاً. لكنه اليوم كان يتمنى لو يموت. كان يشعر بعظام صدره تتحطم على المقعد وبرئتيه يضغطهما ثقل الحارث كما لو كان يرزح تحت حجر الرحى، فكانتا لا تستطيعان استنشاق الهواء. سأله الحارس الذي لكمه على وجهه:

- ماذا قلت؟

شعر موريتز بالضربة الأولى على قدميه، فتشنَّجت عضلات ساقيه وراح يحاول تفادي الضربات غير أن الحارس الجاثم فوقه

Twitter: @ketab_n

ضم ساقيه بيديه ومنعهما من الحركة وهبطت الضربة الثانية. كانا ولا شك يستعملان القضيب الضخم في تلك اللحظة لذلك فإن موريتز بعد الضربة الثانية فقد الإحساس بالألم. كان دماغه وحده هو الذي يتألم. ولما انهالت الضربات تباعاً على قدميه كان يشعر بوقعها في دماغه وصدره ثم في كتفه، ثم أغمي عليه. تصلب جسمه فغدا كقطعة من الخشب غير أن ذلك لم يطُل. شعر في تلك اللحظة بأنه يتلقى ضربات سكين تمزِّق باطن قدميه وبالنار تشويهما وخمن أنهما يضربانه بالعصي الرفيعة الدقيقة. انهالت الضربات وراحت ترتفع حتى بلغت ركبتيه ثم فخذيه ففقد السلطة على مثانته وبطنه بينما تتابعت الضربات بوحشية وعنف. أحسّ موريتز بضوء أصفر يتراقص أمام عينه وبدأت الأطعمة التي ابتلعها قبل مجيئه تهجرِ معدته وتخرج مِن فِيه. كان سرواله المبلل قد التصق بجلده فلا الماء ولا الخبز كان يقبل البقاء في معدته.

شعر إيوهان موريتز بأنه غارق في ذلك الضوء الأصفر الذي يحيط به، كان فمه مملوءاً بسائل مرّ أخضر. كانت السوائل تغادر جسمه عن طريق الأنف والفم وكل المنافذ الأخرى. كانت ممتزجة بزبد أخضر أشبه بلعاب الضفدع السام. كان إيوهان موريتز يشعر بأن حياته تنسل من كلّ مكان. ظلَّ عقله وحده متيقظاً. فكان يخمِّن أنّ الحارس يضربه بالقضبان الدقيقة لكنه ما كان يحسّ بوقعها على جسمه. وأخيراً لم يستطع الدم كذلك أن يتحمل الضربات فحاول بدوره الإفلات من ذلك الغلاف الجلدي الممزق المثخن بالجراح فتفجر من كل المسامات التي كان يستطيع الخروج خلالها. كان الدم يغادر جسم إيوهان موريتز من أنفه وأذنيه ويختلط مع البول ويتفجر من كل مكان. كان الدم عازفاً عن ذلك الجسد الممزق فكان يفرّ ما استطاع إلى الفرار سبيلاً.

Twitter: @ketab_n

- 65 -

استيقظ إيوهان موريتز فتذكر مقابلة البارحة التي جرت بينه وبين إيزاك وروزا ناجي. قدر: «أنهما لو ذكرا الحقيقة لأخلى المفتش سراحي ولما تعرَّضت لكل ذلك الضرب والعذاب». إنه منذ توقيفه لم يضرب ولم يعذب كأمس. كان جسمه كله عبارة عن جرح عميق واحد، جرح كبير دامٍ يمتد من قدميه حتى يبلغ قمة رأسه.

«لقد قال إيزاك ناجي إنه لا يعرفني وكذلك قالت زوجه» مع ذلك فقد كان موريتز يرى نفسه بعين الخيال وهو يلمِّع أحذية إيزاك ناجي ويقطع الأخشاب ويغسل الأرض وينظِّف المطبخ بناءً على أمر روزا ناجي. «كيف استطاعا إنكار معرفتهما بي؟ لقد ادعيا بأنهما لم يريا إيوليسكا وأنهما لم يستخدما قط خادمة بهذا الاسم».

كان إيوهان موريتز خائر القوى. كان يعرف أن جسمه وعقله قد دبّ فيهما الهزال والضعف وأنه أعيد إلى زنزانة أمس وأمس الأول دون أن يذكر كيف وفي أية لحظة أعيد إليها. كان يعتقد أنّ ذلك الضعف الشامل سببه الضرب والتعذيب. لكنه كان واثقاً من أنه أوى إلى بيت إيزاك ناجي، واثقاً أن خادمة البيت كان اسمها إيوليسكا. مع ذلك فإن إيزاك ناجي قال كلا وقالت زوجه كذلك كلا. لقد سمعهما بأذنيه يقولان كلا.

أغمض إيوهان موريتز عينيه مستسلماً.

- 66 -

بعد فترة قصيرة من الزمن استُدعي موريتز من جديد. فراح يرتعد ويضطرب. عزم للمرة الأولى في حياته على قتل نفسه. لم يعُد

Twitter: @ketab_n

يستطيع احتمال المزيد من الألم. ترك الحارس الباب مفتوحاً ووقف على عتبته. فرآه موريتز من خلال أهدابه يضحك.

قال الحارس:

- هيا انهض!

تذكَّر موريتز المفتش فارجا وخُيِّل إليه أنه يسمع صوته وأنه أُعيد إلى غرفة التعذيب حيث القضبان الحديد من مختلف الأحجام والمقاييس. وشعر بثقل الحارس يهبط على ظهره فغمغم متوسلاً:

- كلا ليس اليوم: غداً وبعد غد وكل ما تبقى لي من أيام. كل يوم خُذني إلى التحقيق والتعذيب ولكن ليس اليوم...

قال الدركي:

- إننا اليوم نطلق سراحك!

لم يصدِّقه إيوهان موريتز، بل إنه ما كان يستطيع أن يصدق. مع ذلك فقد أطلق سراحه ذلك اليوم.

لكنهم لم يعيدوا إليه حريته. لقد كان من الرعايا الرومانيين لذلك وجب سوقه إلى معسكر من معسكرات العمل.

- 67 -

قبل أن يغادر السجن تلقى إيوهان موريتز رسالة من إيوليسكا، كان حارس مكتب المفتش فارجا هو الذي جاءه بها في اللحظة التي كان موريتز يهمّ بمغادرة زنزانته. أخذ موريتز الرسالة فطالعته كتابة إيوليسكا.

«عزيزي إيانوس: إنني منذ أربعة أيام طُردت من خدمة السيدة ناجي. وقد كتبتُ لك هذه الرسالة لأحيطك علماً بالأمر، حتى لا

Twitter: @ketab_n

تبحث عني في شارع «بيتوفي» حين يطلقون سراحك. إنني عائدة إلى الريف، حيث تقطن أمي في إقليم «بالانون» التابع لناحية «تيزا» حيث أنتظرك بشوق. يمكنك أن تحضر إلى هناك حال مغادرتك السجن».

«إيوليسكا»

وجاء في الزاوية اليمنى من الرسالة ما يلي:

«لقد كنت البارحة لدى آل ناجي لأستعيد أشيائي. إنّ السيد ناجي وزوجته يطلبان إليك أن لا تغضب عليهما لأنهما أعلنا أمام رجال الشرطة أنهما لا يعرفانك. إن اليهود أصبحوا اليوم يوقَفون ويسجَنون في المدينة لذلك فقد كانا يرهبان الاعتراف بأنهما أويا غرباء في بيتهما. إنهما يرسلان إليك تحياتهما. لقد أعطاني السيد إيزاك ثوباً جديداً تقريباً هدية منه إليك. ستجد الثوب عندي عند عودتك. إنّ السيد ناجي والسيدة روزا باسلان. لكنهما خافا أن يُسجنا لذلك فقد أنكرا معرفتهما بك. إن الأوقات عصيبة والخوف يجعل المرء يقتل أمه وأبيه. أقبلك - إيوليسكا».

- 68 -

كان أعضاء الحكومة الهنغارية مجتمعين اجتماعاً سرياً في قصر الوصاية منذ ثلاث ساعات.

كان الاجتماع قد انتهى تقريباً، مع ذلك فقد وقف وزير الخارجية يقول:

- إنّ مشكلة الخمسين ألف عامل لم تحلّ. إنها مشكلة شديدة الأهمية.

فقال رئيس الحكومة بصوت قاسٍ:

Twitter: @ketab_n

- لقد حلّت القضية. إن القرار اتُّخذ وقبل بالإجماع.

كان الوزراء على وشك مغادرة قاعة الاجتماع وكلّ منهم يتأبط محفظته غير أن وزير الخارجية لم يلق بالاً إلى حركتهم، بل أردف:

- ينبغي أن نجد شيئاً نعطيه. ينبغي أن نحافظ على توازن علاقاتنا مع الرايخ الثالث. إنها ليست علاقات الند بالند. ينبغي أن نعترف بذلك مهما كلفنا الأمر. إن موقف هنغاريا من ألمانيا ليس موقف الحليف من حليفه، بل المرؤوس من رئيسه، لكن هذا الموقف لا يمكن أن يتبدل إلّا إذا حلّ محله احتلال عسكري. وهو أسوأ ممّا نحن عليه. لقد طلبوا منا بادىء الأمر أن نقدم ثلاثمائة ألف عامل ثم عُدِّل هذا الرقم إلى خمسين ألفاً، لكن لا يمكن إلا أن نقدِّم هذا العدد.

قال رئيس الوزارة وقد غدا وجهه أحمر من الغضب:

- إن حكومتي لن تسلم مواطناً هنغارياً واحداً كالعبد إلى ألمانيا. إن المسألة إذن منتهية.

فأجاب وزير الخارجية:

- إن ألمانيا تتمسك كثيراً بهذا الطلب. لقد وجّه إلينا على شكل إنذار نهائي. إن صناعتهم بحاجة إلى الأيدي العاملة. فإذا لم نقدِّم إليهم خمسين ألفاً من الرجال ورفضنا سيُقضى علينا. لقد أُبلِغت أنه في حال رفضنا هذا الطلب فإنّ أمر احتلال هنغاريا عسكرياً، سيُعتبر ضرورة ملحة. إن واجبي أن أبلغكم ذلك. إنكم ستتحملون المسؤولية التي ستنجم عن هذا الرفض.

سأل أحد الوزراء:

- ألا يمكن أن نجد حلاً وسطاً؟

فأعقب رئيس الوزراء:

Twitter: @ketab_n

- إذا أرسلنا هنغارياً واحداً إلى ألمانيا فإن الموقف لا يكون أقل سوءاً. إن التاريخ لن يصفح عن مثل هذا التصرف. لذلك فإن جوابنا لا يمكن أن يكون إلّا الرفض الحازم. ليس في هذه المسألة أي حلّ وسط.

قال وزير الداخلية:

- ماذا لو أرسلنا إلى ألمانيا خمسين ألف عامل من غير الهنغاريين؟ إن لدينا في معسكرات الاعتقال أكثر من ثلاثمائة ألف أجنبي. فلماذا لا نقدِّمهم إلى ألمانيا؟

قال وزير الخارجية:

- إنني أعترض على هذا الحلّ لأنه سيعقِّد الأمور. إنه منافٍ للقوانين الدولية المتعلقة بالسجناء والمعتقلين السياسيين. إننا في حاجة إلى عطف الدولة الأجنبية فإذا اتخذنا هذا الحل سبيلاً فإنّ شرف تاج «سان إيتين» سيكون معرَّضاً للامتهان. إن النتيجة الوحيدة لمثل هذا التصرف هي خلق أعداء لبلادنا.

دام النقاش نصف ساعة حتى وجد الوزراء الحلّ المناسب. قرروا إرسال خمسين ألفاً من العمال غير الهنغاريين شريطة أن ينتخبوا من بين الموقوفين الذين تكون جنسياتهم غير واضحة. وتعهَّد وزير الداخلية أن يتصرف بشكل يجعل العمال المرسلين عاجزين عن إثبات جنسياتهم الأخرى وأعقب وزير الداخلية يقول:

- وبذلك ننقذ الدم الهنغاري، ولن يستطيع التاريخ أن يتهمنا بإرسال هنغاريين إلى العبودية. إن هدفنا نبيل حتى إن التاريخ سيعذر الأساليب التي استعملناها.

Twitter: @ketab_n

- 69 -

دخل الكونت «بارثولي» رئيس الصحافة الهنغارية مكتبه واستدعى أمينة سره. كان يريد أن يملي عليها البلاغ الرسمي المتضمّن القرارات التي اتخذتها الحكومة في جلستها السرية.

كان الكونت يحدِّث نفسه قائلاً «إن الرجل الذي لا يحترم شرفه ولا كرامته ليس إلا عبداً رقيقاً. إن من يريد أن يحيا اليوم موفور الكرامة عليه أن يحكم على نفسه بالانتحار. إن مجتمعنا ينكر الكرامة والشرف الشخصيين أي أنه ينكر كل حياة الرجل الحر. إنه لا يسمح إلا بحياة العبودية، لكن هذا لا يمكن أن يدوم. إن مجتمعاً يتكون أفراده من وزيرهم إلى أحط الخدم من عبيدٍ أرقاء لا يمكن إلا أن ينهار. وكلما انهار بسرعة كلما كان أجدى».

سألت أمينة السر وهي تدخل مكتب الكونت:

- هل قلت شيئاً يا سيدي الوزير؟

فأجابها:

- كلا. اكتبي من فضلك: بلاغ رسمي: «إن مجلس الوزراء في جلسته السرية الأخيرة قد اتخذ قراراً بتسهيل إعطاء السمات وشروط السفر للعمال الهنغاريين الراغبين في السفر إلى ألمانيا للتخصُّص في مختلف فروع الصناعة الفنية الآلية. إن عدد العمال الذين ستمنحهم الدولة التسهيلات قد حدّد في الوقت الحاضر بخمسين ألفاً». هذا كل شيء. أرجو أن تبلغي الصحف ذلك وأن تطلبي إلى إداراتها نشره على صفحاتها الأولى.

Twitter: @ketab_n

تناول الكونت بارثولي عشاءه مساء ذلك اليوم في مطعم مع ابنه الذي كان بالوقت نفسه رئيس ديوانه.

وبينما كانا يحتسيان القهوة سأل الكونت ابنه:

- ما رأيك في قضية إرسال العامل إلى ألمانيا؟

فأجاب لوسيان:

- الحقيقة أنها ضربة قاضية على المسرح السياسي! إن المشروع جبار وفني. نحن نرسل إلى الألمان أجانب نجمعهم من السجون ومعسكرات الاعتقال بدلاً من أن نقدِّم إليهم هنغاريين. إن التجبّر الألماني يستحق مثل هذا الدرس. إنها فكرة عبقرية.

سأل الكونت:

- أتدري أننا سنحصل لقاء ذلك على امتيازات من ألمانيا أو بعبارة أوضح أتدري أننا قد قبضنا ثمن إرسال الخمسين ألف عامل إليهم؟

فأجاب لوسيان:

- إن هذا واضح. إننا لن نعطي الألمان أيدٍ دون أن نأخذ منهم لقاء ذلك شيئاً.

- ألا تشعر يا ولدي بامتهان عندما تعرف أن أباك قد ساهم اليوم في عقد صفقة بيع أحياء آدميين؟ إن هذا النوع من التجارة هو آخر مرحلة على سلم الانحطاط الأخلاقي.

قال لوسيان:

- إنك تدهشني. هذا هو السبب إذن في اكتئابك هذا المساء؟...

قال الكونت بإصرار:

Twitter: @ketab_n

- لا تحاول المخاتلة! هل تعترف بأنني ساهمت في تجارة الرقيق أم لا؟

فأجابه لوسيان باسماً:

- إذا كنت تصرّ على طرح السؤال بهذا الشكل فإنني أقول: إنك ساهمت حقيقة في تجارة رقيق.

- أوَلا يزعجك ذلك؟

- إنّ من السخف أن أفكّر في ذلك. إنني أعتقد بأن سبب انزعاجك هذا المساء لا يمكن أن يكون مبعثه هذا الأمر. إن هذه القضية لا يجب أن تكون موضوع قلق ولو عابر. لقد أرغمنا على إرسال عمال إلى ألمانيا ولو أننا لم نتوصل إلى هذا الحل لاضطررنا إلى إرسال مواطنين هنغاريين ولأصبح الأمر شديد الخطورة!

قال الكونت:

- شديد الخطورة من وجهة النظر الهنغارية صحيح، لكن من وجهة النظر الإنسانية إن الأمر لا يختلف في شيء. لقد بعنا مخلوقات بشرية إلى الألمان.

- لكنها ضرورات تمليها الظروف الحاضرة لا نستطيع تحاشيها والفكاك منها.

- لقد تحرّرت أوروبا منذ مئات الأعوام من تجارة الرقيق وكان آخر ما بِيْع من البشر زنوج في أميركا. والآن فإن تجارة الرقيق قد حرِّمت في الدنيا بأسرها. إن شجب الرقيق ومنعه من أهم التنظيمات والترتيبات في حضارتنا. غير أننا الآن نعود القهقرى فننكص على أعقابنا إلى الزمن الغابر فنبعث تجارة الرقيق من لحدها. لقد عدنا من القرن العشرين إلى ما بعد نشوء المسيحية قافزين قفزة هائلة فوق عصر النهضة والقرون الوسطى.

قال لوسيان:

Twitter: @ketab_n

- لا ينبغي أن تنظر إلى الأمور من هذه الزاوية المؤسية. إن العمال الموفدين إلى ألمانيا لن يكونوا مغلولي الأيدي. إنهم يذهبون إلى هناك كعمال.

- لن يغلوا في الحديد لأنهم لن يستطيعوا فراراً. إن المجتمع المعاصر يملك من الوسائل للاحتفاظ بالرقيق ما لم يملكه اليونان من قبل. إنني لا أفكر فقط في الرشاشات وحواجز الأسلاك الشائكة التي يمرّ فيها تيار كهربائي صاعق، بل أفكر كذلك في الأساليب التعسفية الآلية التي سوف يعمَد إليها النظام «البيروقراطي» للرقابة على الكائن الحي. وأقصد: بطاقات الإعاشة وأذون رجال الشرطة للحصول على سرير في الفندق أو ركوب الحافلة والتنزه في الشارع أو إبدال المسكن. إن اليونانيين والمصريين ما كانوا ليكبِّلوا أيدي عبيدهم وأرجلهم بالحديد لو كانت لديهم الوسائل التي لمجتمعنا المتمدن. غير أن الرقيق لم يتبدل.

- يجب أن لا نفكر في كل هذا يا أبي. إننا لا نستطيع تبديل شيء وليس لنا أن نختار. إننا لسنا البلد الأول الذي باع رقيقاً إلى ألمانيا. هناك رومانيا والكروات وفرنسا وإيطاليا والنروج، بل وكل بلاد أوروبا تقريباً. ماذا نستطيع أن نعمل إلّا التخلي عن الحكم ومقاومة ألمانيا لأنها تشتري رقيقاً ولأن الدولة الأخرى تبيعه لها؟! لو فعلنا ذلك لجاءت حكومة أخرى إلى الحكم حكومة تبيع وترسل العمال إلى ألمانيا، بل إننا لو توصّلنا إلى سحق الرايخ الألماني فإن المسألة لن تكون قد بلغت الحلّ المناسب لأن الروس سيحلون محلّ الألمان. إن الروس أكبر تجار الرقيق في العالم. إن كلّ رجل في روسيا ملك للدولة. . .

- أَوَلا يرعبك مجمل هذه الأمور؟

- كلا.

Twitter: @ketab_n

فقال الكونت.

- إن هذا أشدّ خطورة لأن معناه أنك لا تملك ذرة من الاحترام للكائن البشري. ولما كنت بشراً كذلك فإن معناه أنك فقدت كل احترام لنفسك.

قال لوسيان:

- إنني أحترم كل إنسان بحسب قيمته. إنني أعتقد بأنك لن تأخذ علي أي مأخذ بسبب ذلك.

- إنك تحترم الرجل كما قد تحترم سيارتك لأنها تشكل بالنسبة إليك قيمة معينة.

- وماذا في ذلك؟

- ولكن هل تحترم الرجل لقيمته الجوهرية، قيمته الإنسانية؟

- طبعاً إنني لا أستطيع إيلام أحد دون أن أشفق عليه أو أشعر بتبكيت الضمير.

- ولكنك لا يمكن أن تسيء إلى كلب دون أن تشفق عليه لأنك تعرف أنه تألم لما ضربته بسوطك. إنك تشفق على الإنسان كما يمكن أن تشفق على أي كائن حي. غير أنني أردت أن أعرف ما إذا كنت تحترم الإنسان لأنه إنسان ولأن قيمته فريدة لا تعوّض حتى ولو كان ذلك الإنسان عديم القيمة الاجتماعية أم أنه عندئذٍ لا يوحي إليك بالشفقة أو الحنان كالحيوان؟

قال لوسيان:

- إنني لم أطرح على نفسي مثل هذا السؤال. كل ما أعرفه هو أنني أحترم الرجل على ضوء قيمته الاجتماعية وعلى اعتباره حيواناً حياً. إن الناس كلهم يفكرون ويشعرون مثلي...

سأل الكونت:

Twitter: @ketab_n

- هل أنت واثق يا لوسيان من أن كل الناس يفكرون ويشعرون مثلك اليوم؟

- كل الثقة. إنّ أدق تمحيص منطقي يفرض علينا مثل هذا الرأي. إنّ الرجل ليس إلّا قيمة اجتماعية وما تبقى فهو افتراضات واعتبارات.

- إنّ هذا شديد الخطورة.

- ماذا ترى من خطورته؟

- لقد اختفت حضارتنا يا لوسيان. لقد كانت تحوي على ثلاث ميزات: كانت تحب وتحترم الجمال وهي عادة أخذت عن اليونان. وتحب وتحترم الحق وهي عادة أخذت عن الرومان. وتحب وتحترم الإنسان وهي عادة اتخذت بعد صعوبات جمة عن المسيحيين. إن حضاراتنا الغربية لم تبلغ الشأو الذي بلغته إلّا باحترامها هذه الرموز الثلاثة، هذه الأقانيم: الرجل، الجمال والحق. والآن فإن حضارتنا تخسر أثمن جزء في ميراثها وأعني حبّ الرجل واحترامه. إن الحضارة الغربية لا وجود لها إذا ذهب منها ذلك الحب وذلك الاحترام للرجل. إنها تموت.

قال لوسيان:

- إن الإنسان قد اجتاز في خلال حقبات التاريخ مراحل أشدّ ظلمة وحلكة من التي نجتازها اليوم. كان الإنسان يُحرق في الساحات العامة، يُحرق على المذابح ويُسحق على دواليب التعذيب. وكان يُباع ويُعامل كالمتاع. لذلك فإنني أعتقد أن التفوّه بمثل هذه الأحكام القاسية على عهدنا هذا فيه شيء من الظلم.

فأجاب الكونت:

- هذا صحيح تماماً. في هذه اللحظات الحالكة كان الإنسان يصبح مجهولاً والتضحية بالإنسان تنفذ لأسباب بربرية. لكننا كنا قد

Twitter: @ketab_n

انتصرنا على البربرية وبدأنا نحترم ونقدِّر المخلوق البشري. لقد كنّا في بداية المرحلة وكان يجب علينا أن نتكلم أكثر فأكثر. غير أن ظهور العصر الآلي حطَّم كل ما ربحناه وأقمناه في خلال قرون من الحضارة. إن المجتمع الآلي قد أدخل من جديد احتقار الكائن الإنساني. لقد تحول الإنسان اليوم إلى مقياسه الاجتماعي فحسب... يجب علينا أن نذهب الآن. ألسنا متأخرين؟

نظر لوسيان إلى ساعة يده وقال:

- إن ساعتي متعطلة. كم الساعة الآن يا أبي؟

- إنها الساعة الخامسة والعشرون!

قال لوسيان:

- لم أفهم ماذا تعني.

- إنني أصدقك. إن أحداً لا يريد أن يفهم. إنها الساعة الخامسة والعشرون ساعة الحضارة الأوروبية.

- 71 -

قال رئيس الفريق موجهاً حديثه إلى إيوهان موريتز:

- لقد باعوك للألمان يا عزيزي موريتز. إنني أتساءل كم يمكن أن يدفع الألمان للهنغاريين ثمناً لرأسك. إنك لا تساوي شيئاً كثيراً مع ذلك، صندوق من الرصاص على أبعد حدّ لأنني سمعتُ أنّ الألمان لا يستطيعون دفع مال، بل يقايضون الرجال بالأسلحة والعتاد. إنني لا أعتقد أن يكون الألمان قد دفعوا ثمناً لك أكثر من صندوق للرصاص. صندوق واحد ثمن جلدك وعظامك!

كان رئيس الفرقة يضحك مسروراً وهو يربت على كتف موريتز.

استرسل يقول:

Twitter: @ketab_n

- إن الثمن كبير مع ذلك! ما كان الروس ليدفعوا مثله. إن الرجال عند هؤلاء أقل ثمناً.

لم ترُق الدعابة لإيوهان موريتز لكنه لزم الصمت. كان رئيس فرقته طالباً من بوخارست سجنه الهنغاريون. وكان قد مضى على موريتز ثمانية أشهر في معسكرات العمل في هنغاريا كان يشتغل خلالها مع هذا الطالب في إقامة الحصون. وكان إيوهان موريتز يعرف أن رئيس فرقته مولع بالدعابة ولكنه طيب القلب.

سأل الطالب:

- ألا تصدق أنهم باعوك؟

أجاب إيوهان موريتز:

- كلا إنني لا أصدق. إنهم يستطيعون سجن الناس في المعسكرات وفي السجون ويقدرون على تسخيرهم وتعذيبهم أو قتلهم لكنهم لا يستطيعون بيعهم!

قال الطالب:

- مع ذلك لقد باعوك يا عزيزي موريتز. أقسم لك بآبائي ومعتقداتي على أنهم فعلوا ذلك. لقد باعونا أنت وأنا وكلّ الرومانيين والصربيين والروتانيين الموجودين في هذا المعسكر إلى الألمان، بل إنهم وقَّعوا صكوكاً بينهم على بيع خمسين ألف رأس منا.

ابتعد الطالب عن إيوهان موريتز فراح هذا يفكِّر فيما سمعه. قال يحدث نفسه: «لقد أراد أن يسخر بي إنّ ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً».

لكن كلمات الطالب لم تفارق ذاكرته طيلة ذلك النهار. كان موريتز يفكِّر دائماً بأولئك الألمان الذين اشتروه لقاء صندوق من العتاد وانتهى به التفكير إلى أنه من الحماقة تصديق مثل هذا القول.

Twitter: @ketab_n

كان معسكرهم يقع على الحدود الرومانية الهنغارية. وكانوا يحفرون الخنادق وقد انتهوا من شطر كبير من العمل. كان الطالب «آنتيم» يدّعي أن الهنغاريين لن ينتهوا من حفر خنادقهم قبل عشرة أشهر أخرى فكانوا يرسلون كلّ يوم أفواجاً جديدة من العمال المساجين إلى ذلك المعسكر. ولاحظ موريتز أنّ بين الوافدين بعض المحكومين بالأشغال الشاقة المؤبّدة الموسومين بالنار. فاستدلّ على أنّ الرجال لم يكونوا على عدد وافر. مع ذلك فقد صدر إليهم الأمر ذات يوم بالرحيل. نقل كل الرومانيين والصربيين الذين كانوا في معسكر موريتز بواسطة القطار. ترامى إلى موريتز أن الهنغاريين كانوا غير راضين عن عمل الرومانيين والصربيين لذلك فإنهم أخرجوهم من هناك ليأتوا بعمال آخرين يحلوا محلهم.

أكد آنتيم أنهم يُنقلون إلى ألمانيا لأنهم بيعوا كما يُباع المتاع.

وكان هناك عدد آخر من الرومانيين يؤكدون صحة قول آنتيم، لكن السواد الأعظم من الموجودين كانوا يصدّقون. وكان موريتز من هؤلاء.

نزل موريتز ذات صباح من مقصورة القطار إلى الأرض لقضاء حاجة له لأنّ العربات لم تكن تحتوي على دورات للمياه فكان المساجين ينتظرون نهاية الرحلة لقضاء حاجاتهم دورياً يحرسهم الجنود.

توقف القطار ذلك الصباح وسط حقول مترامية. كانت السماء غائمة ممطرة. قضى موريتز وقتاً طويلاً على الأرض ولمّا عاد إلى العربة رأى على كلّ مقصورة من الخارج كتابة بالحكك الأبيض. فلما اقترب موريتز وأمعن النظر وجد أن الكتابة تحمل العبارة التالية: «إن العمال الهنغاريين يحيّون زملاءهم عمال الرايخ الأكبر الألماني!» وقرأ على جدار المقصورة الثانية العبارة التالية: «إن

Twitter: @ketab_n

العمال الهنغاريين يشتغلون لنصرة المحور». فاستدعى إيوهان موريتز الطالب آنتيم وأطلعه على تلك العبارات. فقال هذا:

- هل صدقت الآن أن الهنغاريين قد باعونا إلى الألمان؟

فأجابه موريتز:

- لا أصدق. لأن مثل هذا الشيء لا يمكن تصديقه!

- انتظِر ولسوف تقتنع!

وانتظر موريتز.

لبث القطار في الحقول حتى المساء. وعند مغيب الشمس انتشر الحراس في الحقول وراحوا يقطفون زهوراً. لم يرَ موريتز من قبل جنوداً شاكي السلاح يقطفون زهوراً تحت إمرة ضابط والضابط نفسه يشاركهم في مهمتهم. فلما فرغوا عادوا وفي يد كلّ منهم باقة جميلة ثم زينوا العربات بالأوراق الخضراء والحشائش وأكاليل الزهور والأغصان وكأنهم يقيمون حفلة زفاف. ولما انتصر الظلام تحرَّك القطار. عزم موريتز على البقاء ساهراً ليراقب الأحداث. لكنه أغفى. ولمّا استفاق كان النهار قد طلع. كانت أبواب العربات مغلقة غير أن ضجيجاً كان يصل إلى آذان المساجين. كان القطار واقفاً في محطة مع أنه لم يسبق في خلال الرحلة كلها أن وقف إلا في الحقول أو على مشارف المدن. تناهت إلى أسماع المساجين أصوات مختلفة بين وقع خطى وضجيج قاطرات وصيحات الجنود. فأصاخ موريتز السمع. وفي تلك اللحظة مرّ رجل قرب النافذة وهو يتحدث بصوت مرتفع.

قال موريتز لرفاقه:

- إنه يتكلم الألمانية. إن آنتيم لم يكذب في دعواه لقد باعونا إلى الألمان.

فكّر في نفسه: «لعل الألمان دفعوا حقيقة صندوق عتاد ثمناً لعظامي ولحمي وجلدي. وبكلمة موجزة ثمناً لي».

Twitter: @ketab_n

قال الطالب آنتيم:

- لقد باعونا كالرقيق مدى حياتنا.

عرف آنتيم في تلك اللحظة أنهم قد بلغوا الأراضي الألمانية فراح يتحدث إلى زملائه وهم منصتين إليه بانتباه شديد. أما إيوهان موريتز فلم يكن يصغي. كان تفكيره عالقاً في عبارة «رقيق مدى الحياة». كان يتصور نفسه وهو يمضي حياته في معسكرات الاعتقال يحفر الأقنية والخنادق ويُهان ويضرب ويرتع القمل في ثيابه ورأسه.

خُيِّل إليه أنه سيموت في واحد من هذه المعتقلات. فلما بلغ به التفكير هذه المرحلة إغرورقت عيناه بالدموع. كان قد رأى بأم عينه عديداً من المساجين يموتون، بل إنه حفر بنفسه قبوراً لبعضهم. كان يعرف أنهم بعد موتهم تُنزع عنهم ثيابهم ويدفنون غراة كالكلاب. لأن الكلاب تسلخ جلودها بعد موتها لتصنع منها قفازات. أما المساجين فتنزع عنهم ثيابهم. فكر موريتز. «لعلهم حين أموت يكونوا قد بدأوا بسلخ جلود الرجال قبل دفنهم». وقف موريتز فجأة وقال يخاطب نفسه: «لهم أن يحتفظوا بي مدى الحياة في المعسكرات ولكن ينبغي أن يطلق سراحي قبل موتي بساعة واحدة. ساعة واحدة قبل موتي على الأقل حتى أموت حراً. إن الموت في السجن خطيئة كبرى. لكنهم إذا باعوني للألمان فلن يخلوا سبيلي حتى ولا قبل موتي بساعة».

- 72 -

قالت «إيليونورا ويست»:

- ينبغي أن أكون بعيدة عن هنا في خلال عشرة أيام على أقصى حدّ. فإذا لم أغادر البلاد خلالها، فإن أمر التوقيف سيجدني هنا. إن

Twitter: @ketab_n

عشرة أيام هي أقصى مهلة أستطيع منحها لنفسي ولعلّها أطول ممّا ينبغي.

كانت «إليونورا ويست» تنظر إلى ليوبولد ستاين الذي كان جالساً أمامها في مقعده المعتاد. كانت تريد إقناع نفسها والتدليل على أنها لم تبالغ في قولها. فراحت تستعرض الموقف.

إن المهلة التي أعطيت للمواطنين اليهود لتسجيل أسمائهم في وزارة الداخلية قد انتهت. وكان كلّ مَن يتخلف عن التقيُّد بهذا الأمر، محكوم عليه بموجب مرسوم تشريعي بالسجن عشر سنوات. كانت إليونورا في عداد الذين لم يسجلوا أسماءهم وكان في إضبارات النيابة مستندات ما كانت تعرف عنها شيئاً. لكنها كانت مستندات تؤكِّد بما لا يدعو مجالاً للشك أصلها اليهودي. وما كان يمكن إخفاء هذه الإضبارة أو الحصول عليها. وقد أخفقت كل المحاولات التي بُذلت لشراء المحققين المولجين بهذا الأمر.

استرسلت إليونورا ويست قائلة:

- لقد هزمنا هذه المرة يا سيد «ستاين» فينبغي أن أتخلى عن المعركة وأن أفر. إن هذا هو كلّ ما أستطيع صنعه في الوقت الحاضر. لقد لبثت عامين ونصف العام أقاوم وأُجابه كل الهجمات. لقد كان ذلك شديد الصعوبة مع ذلك فإنني ناضلت وقاومت. إن القدر لا يساعد المخاطرين حتى الأبد.

قال ليوبولد ستاين:

- إن المعركة لم تُخسر نهائياً لكنه تعبير شائع. إننا نستطيع أن نبيع المطبعة والصحيفة والبيت وأن نحصل على أثمان جيدة. وكذلك الأمر فيما يتعلق بالأثاث واللوحات الفنية والمكتبة. إنها أمور يمكن تسويتها ويمكن إيداع المبلغ الحاصل في مصرف سويسري. غير أننا

Twitter: @ketab_n

لن نستطيع في خلال عشرة أيام أن نحصل على تولية السيد «كوروغا» وعلى جوازات السفر.

قالت نورا:

- لا يمكن لأحد أن يخرج الآن من رومانيا إلا إذا كان موفداً بمهمة رسمية. لذلك يجب أن يعيَّن زوجي مهما كلف الأمر مديراً للمؤسسة الثقافية الرومانية في «راغوز». إنني استناداً إلى هذه التسمية سأحصل بصفتي زوجته على جواز السفر والسمات الضرورية، لكن ذلك ينبغي أن يحدث بأسرع ما يمكن. لقد أكَّد لي النائب العام أنّ كلّ ما يستطيع عمله من أجلي هو إرجاء التحقيق مدة عشرة أيام. وأنه بعد ذلك لا يحتمل أية مسؤولية لأنه سيضطر إلى إصدار مذكرة قبض.

تصور ليوبولد ستاين لحظة أن إليونورا ويست قد أصبحت في السجن لكنه أبعد تلك الفكرة عن رأسه بجزع وسأل:

- ألم تحدِّثي زوجك بشيء بعد؟ إنه تصرُّف خاطئ لأنه لم يلبث حتى يطّلع على الأمر. إنني أعتقد أنه لو أنهى إليه الأمر بسرعة لاستطاع مساعدتنا على الخروج من هذه الورطة. ترى ماذا سيقول عندما يرى تعيينه لذلك المنصب وجوازات السفر دون أن يكون على علم بشيء؟

قالت إليونورا ويست:

- لا أستطيع إطلاعه على هذا الأمر. إنني لا أجد مبرراً لإنفاء هذه المسألة عنه خصوصاً وأنها ستصبح بعد أسبوعين حديث العامة والخاصة في هذا البلد. سوف يعرف أنني يهودية. لكنني لا أريد التصريح له بذلك. إنني متعبة منهكة لا أجد قوة في نفسي ولا جرأة ولا أستطيع أن أطلعه على السرّ الوحيد الذي احتفظت به طيلة عامين إلا إذا استجمعتُ قدراً كبيراً من الشجاعة. وأنا الآن على آخر رمق.

Twitter: @ketab_n

لقد ظلّت إرادتي متوفرة زمناً طويلاً غير أنني الآن تعبة منهوكة خائرة القوى.

أخذت إليونورا ويست رأسها بين يديها وهي متكئة على مكتبها بمرفقيها فأخذ ليوبولد ستاين يحدّق بها ببصره.

كانت تبدو تعبة حقيقة. شعر بإشفاق نحوها. غير أنه كان عاجزاً عن مدّ يد العون إليها. فتح حافظته ليتشاغل عن النظر إليها في وضعها اليائس المتهدِّم المحطم. وفي تلك الحافظة بين عقود بيع البيت والأرض والمطبعة والصحيفة واللوحات العائدة إلى إليونورا ويست كانت هناك كذلك، حافظة نقود صغيرة، تحمل شعار «تريان كوروغا» مصنوعاً من الذهب.

أخذ ليوبولد ستاين الحافظة ووضعها على المكتب أمام إليونورا. فنظرت هذه إليها ثم أخذتها بينما قال العجوز:

- إن غداً عيد زواجكما الثاني. إنني أعرف أنك شديدة الانشغال ممّا جعلك تنسين شراء شيء تقدمينه لزوجك فجئتُك بهذه الحافظة الصغيرة لتقدِّميها له هدية. إنها جميلة وستُدخِل السرور على قلبه.

قالت إليونورا:

- هل عيد زواجنا الثاني يصادف يوم غد؟ لقد نسيت ذلك كلياً. إنني أشكرك يا سيد ستاين على حُسن تدبيرك. لسوف يُسرّ تريان أن أقدم له هذه المحفظة.

راحت تحدق في حافظة النقود الصغيرة وتلمسها بيدها برفق كأنها تلاطف صاحبها وأردفت:

- لست أدري لماذا أصرّ على الاحتفاظ بهذا السر. لعلَّ ذلك راجع إلى شدّة تعلقي به. إنني واثقة من أنه لو اطَّلع على الأمر لبذل كلّ ما في وسعه في سبيل مساعدتي لكنني لن أقول له. إنني أخاف أن أفقده. إنني أعرف أن هذا الخوف غير منطقي لكنني كنت كلما

Twitter: @ketab_n

قرَّرت إطلاعه على ما في نفسي انتابني ذعر مفاجئ فألزم الصمت وأدفن السرّ الرهيب في نفسي. إن تريان هو الوحيد الذي يجعلني أتمسَّك بالحياة فإذا أضعته أضعتُ نفسي.

وفجأة وضعت إليونورا ويست المحفظة على المكتب وقالت:

- أتدري ماذا قال لي النائب العام؟ لقد ادَّعى أنني لست متزوجة.

كان صوت إليونورا متهدِّجاً. استرسلت:

- وهو على حقّ. لقد تزوجت بعد أن صدر قانون تحريم زواج الرومانيين باليهود وأصبح نافذ المفعول. لقد صدر ذلك القانون وأعلن رسمياً في أبريل بينما لم أتزوج تريان إلا بعد شهرين من صدوره. فزواجي إذن لاغٍ من الوجهة القانونية. إنّ كل عقود الزواج التي وقِّعت بعد صدور ذلك القانون تُعتبر لاغية بصورة آلية حتى ولو كان صاحب العلاقة يجهل وجود ذلك القانون.

صمتت إليونورا ويست. كان صوت النائب العام ما زال يدوي في أذنيها قائلاً: «إن السيد تريان كوروغا ليس زوجك. إنه بحكم القانون غير متزوج لأن زواجكما يُعتبر لاغياً ويستطيع السيد تريان كوروغا أن يتزوج امرأة أخرى متى شاء دون أن يُعتبر مع ذلك مزواجاً. وإذا كان لديكما ولد فإنه سيكون ولداً طبيعياً فيسجَّل تحت اسم ويست وليس اسم كوروغا. إنكِ أنت نفسك يا سيدتي ترتكبين مخالفة الإدلاء بمعلومات خاطئة كلما وقَّعت باسم إليونورا كوروغا». لذلك قالت:

- يا سيد ستاين ادفع أيّ مبلغ كان ولكن ينبغي أن نحصل بأيّ ثمن على جوازات السفر والسمات. ينبغي أن تكون الجوازات باسم السيد والسيدة كوروغا.

Twitter: @ketab_n

- 73 -

بعد خمسة أيام عاد ليوبولد ستاين ومعه أمر تولية تريان كوروغا مديراً للمؤسسة الثقافية الرومانية في راغوز وجوزات السفر السياسية المجلَّدة بجلد أزرق. قال وهو شديد الانشراح:

- لقد ربحنا يا سيدة كوروغا! لقد حجزتُ لكما أمكنة في عربات النوم إلى فيينا. ستسافران يوم الاثنين، إنني شديد السرور لذهابكما.

راح ليوبولد ستاين ينظف زجاج نظاراته. بينما استغرقت إليونورا ويست في فحص جوازات السفر والتحديق في وجه العجوز. رأت أنّ الهزال قد نال منه كلّ مَنال فأرادت أن تطلب إليه السفر معهما غير أنه قال:

- لست أدري إذا كنا سنلتقي بعد اليوم. إن عدداً كبيراً من اليهود سينقل اليوم إلى «ترانس دنيستري» إنني سعيد لذهابكما. إنكما إذا عدتما يوماً، فلن تجدا يهودياً واحداً في بوخارست، حتى ولا أنا، لأن رجلاً كهلاً مثلي يجدُ كذلك مكاناً في معسكرات الاعتقال في ما وراء الأسلاك.

- 74 -

كان تريان كوروغا في مكتبه عندما دخلت عليه نورا خلافاً لعادتها. حتى كانت تتحاشى إزعاجه أثناء العمل لكنها اليوم دخلت وجواز السفر في يدها. كان تريان كوروغا جالساً وراء مكتبه ورأسه بين يديه.

Twitter: @ketab_n

- لدي هدية لك بمناسبة عيد زواجنا الثاني. لقد سعيتُ لتسميتك مديراً للمؤسسة الثقافية الرومانية في راغوز.

ومدّت إليه يدها بمرسوم التعيين وأضافت:

- إن دلماسيا تملك أجمل شاطئ في العالم وهناك تستطيع أن تنهي روايتك بهدوء.

قال تريان كوروغا وهو يعانقها:

- كيف نجحتِ في ذلك وحدك؟ بل كيف استطعتِ إخفاء هذا السر الرهيب حتى الآن؟

تأمَّلها برهة ثم أردف قائلاً:

- إنك عبقرية يا نورا! ليتك تعرفين مبلغ سروري. إنني شديد الحاجة إلى تبديل المناخ. إن ذلك سيساعدني على إنهاء روايتي. كنت لا أستطيع الاستمرار في كتابة الفصل الثاني، لأنني شعرتُ بإلهام يحدِّثني بأنني يجب أن أكتب ذلك الفصل في مكان آخر. كنت أشعر بذلك شعوراً مسبقاً. لعلّ هذا الفصل سيكون أقوى فصول الكتاب...

اقتربت إليونورا ويست منه فقبَّلت شفتيه كي تمنعه من إطلاعها على الفصل الثاني. كانت تشعر بخوف رهيب.

Twitter: @ketab_n

الكتاب الثالث

- 75 -

قال الموظف المشرف في المعمل وهو ينظر إلى إيوهان موريتز بحقد:

- لقد أوصونا أن نعطيك عملاً سهلاً لأنك ما زلت مريضاً. إنهم لا يرسلون إلينا إلّا المرضى.

ثم ألقى نظرة على الورقة التي يحملها في يده وعاد ينظر إلى موريتز نظرة ملؤها الريبة. كان موريتز في خلال العامين اللذين قضاهما في ألمانيا يتعرض دائماً لمثل تلك النظرة. كانوا أبداً يشتبهون في أمره ويعتبرونه مرتكباً بعض الجرائم التي لم يكن قد ارتكبها أو عرف عنها شيئاً. لكنه كان واثقاً من أنه سيرتكبها يوماً.

سأله الموظف:

- هنغاري؟ لقد أُرسل إليّ من قَبل عدد من الهنغاريين لكنني لم أكن مسروراً. فلعل الأمر يختلف بالنسبة إليك!

ضحك الموظف ضحكة صغيرة وراح يقرأ بصوت مرتفع:

- موريتز إيانوس، هنغاري، اثنان وثلاثون عاماً، عامل غير مختص، وصل إلى ألمانيا في الواحد والعشرين من يونيو 1941.

كان إيوهان موريتز الذي اتّخذ كمواطن هنغاري نظراً لما جاء

Twitter: @ketab_n

في سجله منذ عامين يراقب بنظره الموظف وهو يقرأ قائمة المعامل والمصانع ومعسكرات العمل في الرايخ الأكبر التي اشتغل فيها في أثناء مدة وجوده في ألمانيا. كانت القائمة طويلة جداً وقد جاء فيها كلّ أنواع الصناعات. شعر موريتز بشيء من الاعتداد عندما تلا عليه ما قام به من عمل في خلال فترة اغترابه. كان في بعض الفترات يتخيّل رؤية عشرات المعسكرات المُحاطة بالأسلاك الشائكة، عشرات المعسكرات التي اشتغل فيها والمصانع والمدن التي انتقل إليها والآلام والأوصاب التي نالته في خلال تلك المدة. كان يعتقد أنّ الموظف المختصّ سيذهل للشجاعة التي قابل فيها موريتز كل هذه المحن حتى وصل أخيراً إليه. غير أن الموظف ألقى نظرة صغار على كلّ أسماء الأمكنة التي احتمل موريتز كثيراً من العناء والمرارة أثناء عمله فيها وتوقف عند المقطع الأخير: «خرج من مستشفى العمال الغرباء رقم 707 في 8/ 3/ 1943».

استغرب موريتز حينما رأى الرجل يمرّ بعينيه على قائمة مصائبه وآلامه دون أن يشفق عليه أو أن يبدو الحنان في نبرات صوته، لكن الحقيقة لم تكن مكتومة. أخذ الموظف المختصّ القلم وكتب في أسفل الورقة في الزاوية التي وجدها ما زالت خالية من الكتابة «تقدّم للعمل في مصنع الأزرار «كنوف إندسون في 10/ 3/ 1943» ثم وضع البطاقة في قمطر مع عديد مثلها وعاد ينظر إلى موريتز.

- «تهذيب، طاعة، عمل، نظام»! تلك هي الرموز التي ينبغي أن يتقيَّد بها العمال الأجانب. إن في هذا المصنع عاملات ألمانيات لذلك فإنني ألفت انتباهك إلى أمر عظيم الأهمية: كلّ اتصال مع امرأة ألمانية يعاقَب عليه بالسجن لمدة أدناها خمسة أعوام. إنّ مدير المصنع لا يغتفر خطيئة من هذا النوع. إنّ كل امرأة ألمانية تمتلك في حدّ ذاتها، حق إرسالك إلى السجن لمدة خمسة أعوام. فإذا وضعت

Twitter: @ketab_n

يدك حيث لا ينبغي أن توضع فإنك بذلك تعرف مصيرك. فلا تتصور أنك تستطيع نيل شيء آخر منها. إن الهنغاري الذي أرسل إلينا قبلك نزيل السجن الآن، لقد أنذرته عند وصوله كما أنذرك الآن، لكن لم يعبأ بإنذاراتي. لقد ظنّ ولا شك أن أحداً لن يستطيع اكتشاف أمره طالما أن الظلام كثيف وأنه يغطي نفسه بالدثار مع المرأة. غير أنه في رايخنا الألماني الكبير لا يمكنك أن تقوم بأيّ عمل مهما كان تافهاً دون أن يُعرف بعد قليل حتى ولو كان ذلك العمل تحت الأغطية. إنك لن تستطيع الإتيان بأية حركة دون أن نعرف ذلك على الفور. إننا نخمِّن كلّ ما يمر في رأسك من خطرات وأفكار. إننا نلتقط صور آرائك وأفكارك عشر مرات في اليوم! والآن لننقل إلى النقطة الثانية: إنّ مصنعنا يشتغل من أجل الحرب لذلك فإنّ كل ما تراه وكلّ ما تسمعه إن هو إلّا سر عسكري. إن العامل الأجنبي لا ينبغي له أن يعرف ما ينتجه المعمل وكيف وكم ينتج، فإذا حاولت معرفة ذلك عرَّضت حياتك للخطر. لقد أعدم في يناير الماضي إيطالي. والآن يقدّم أحد التشيكيين للمحاكمة لأنه حاول استطلاع سرّ مصنع «كنون أندسن».

نهض الموظف واقفاً واتجه نحو الباب يتبعه إيوهان موريتز. قال الموظف متمماً:

- إنني لم أكن مسروراً من الهنغاريين الذين مروا بهذا المصنع حتى اليوم إنهم جميعاً في السجن الآن، بل إن أحدهم قد حُكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة عشرين عاماً بتهمة التخريب. فآمل أن تشذّ أنت ولو أنني لا أؤمن بالمستثنيات!

توقف الموظف أمام آلة كانت تأتي بصناديق تسير على قضبان الحديد. وكان على طرف قضيبِ الحديد، يقف عامل ليلتقط الصناديق واحداً تلو الآخر ليضعها على عربة قريبة منه. فلمّا بلغ

Twitter: @ketab_n

الموظف إلى حيث كان العامل، كانت العربة قد امتلأت بالصناديق ومضت من تلقاء نفسها، لتترك محلاً لعربة أخرى فارغة، جاءت بشكل آلي، تقف قرب العامل. بدا على العامل أنه لم يلاحظ التبديل الذي وقع في العربات، إذ إنه ما زال يرفع الصناديق ويضعها على العربة الفارغة، كما كان يعمل منذ حين. وكان يبدو عليه الإعياء بسبب ثقل الصناديق.

قال الموظف:

- سيكون هذا عملك اعتباراً من الغد. إنه عمل سهل. ليس عليك إلا أن تنقل الصناديق الممتلئة التي تخرج من المصنع فتضعها على العربة الفارغة التي ستنقلها بدورها إلى المستودع. ينبغي أن يكون النظام شديد الاحترام والمراعاة. هذا هو المبدأ الأهم. هل اشتغلت من قبل في مصنع؟

راح إيوهان موريتز ينظر إلى العامل الذي كان ينحني آلياً ويصلب عضلاته آلياً أيضاً فيتناول صندوق الأزرار ويضعه في العربة دون أن يفكِّر فيما يعمل أو أن يفكر في أي شيء آخر. إنه لم يكن يلقي بالاً إلى مَن هم بجانبه، بل ولعله لم يكُن يراهم.

استرسل الموظف قائلاً:

- إن الآلات لا تتقبّل الفوضى والإهمال. إنها لا تحتمل الكسل الإنساني والتواني!

ألقى إيوهان موريتز نظرة على الموظف بينما تابع هذا قوله:

- لا يُسمح لك التفكير بأيّ شيء آخر وإلا فإنّ الآلات تعاقبك على الفور. إنّ كل انتباهك ينبغي أن يكون موجَّهاً نحو زميلك الآلي. ذلك العامل المُجِدّ الذي يأتيك بالصندوق ويمدّه إليك. وعليك أنت أن تنحني وتأخذ الصندوق من يديه ثم تضعه على العربة!

Twitter: @ketab_n

راح الموظف يبتسم بينما حاول إيوهان موريتز رؤية ذراعي زميله الآلي ولكنه أخفق في محاولته. فعاد ينظر إلى الموظف الذي كان لا يزال يبتسم.

قال هذا:

- إن الإنسان الآلي لا يمكنه أن ينطبع برغبة الإنسان. فعليك إذن أن تساير رغباته وتوازن حركاتك مع حركاته. إن هذا طبيعي جداً! لأنه هو العامل الكامل. أما أنت فإنك لست كاملاً. لا يستطيع الإنسان، أي إنسان أن يكون عاملاً كاملاً. أما الآلات فإنها وحدها تستطيع أن تكون كذلك، ينبغي أن تُمعن النظر فيها لتتعلم كيفية العمل. هل فهمت؟ إن الآلات تعلِّمك الترتيب والنظام والكمال. فإذا حاكيتها غدوتَ عاملاً من الدرجة الأولى. لكنك لن تستطيع أن تكون عاملاً من الدرجة الأولى لأنك هنغاري والهنغاريون في المعامل ينظرون إلى النساء وليس إلى الآلات.

ودّ إيوهان موريتز لو قال إنه روماني وليس هنغاري. كان يريد أن يُعيد تلاوة قصته وأن يتحدث عن السجون التي دخل إليها والضرب والتعذيب اللذين تعرَّض لهما في بودابست غير أنّ الموظف كان ينظر بإعجاب إلى الآلات وهي تحمل الصناديق البيضاء بسكوت في خلال فترات منظّمة ثم ينقل أبصاره منها إلى إيوهان موريتز. بدت في عينيه نظرة احتقار، فشعر موريتز أن ذلك الاشمئزاز قد شمله كلّه فعدل عن سرد قصته والتحدّث عن سجون بودابست والمفتش فارجا.

قال الموظف:

- إن الإنسان ليس إلّا عاملاً أدنى وخصوصاً الإنسان الشرقي. إنكم معشر الشرقيين أدنى مستوى من الآلات. وكأنه لم يكفِكَ أن

Twitter: @ketab_n

تكون رجلاً، بل كنت كذلك شرقياً وهنغارياً. وإلى جانب كل ذلك خرجت من المستشفى. أي أنك مريض هذا هو «أنت»!

شعر إيوهان موريتز بأنّ الموظف كان يتألم فرغبَ في أن يؤكِّد له أنه سيبذل كلّ ما في العالم من مجهود ليُتقن العمل.

استرسل الموظف:

- كيف يمكن أن تضاهى بالآلة؟ ينبغي أن تُلقي نظرة على نفسك!

وراح يمرِّر نظره من قدميه إلى قمة رأسه واسترسل:

- إنها إهانة نوجهها للآلة إذا قارناك بها، بل إنه كفر. إن الآلات كاملة أما أنت... ثِقْ أنه لا يجوز أن نقدِّم للآلات خدماً مثلك. والآن اتبَعني سأعطيك ثياب العمل. إنك لن تستطيع الدخول إلى المصنع إلا إذا كنت مرتدياً زي العمل. إن زي العمال يشبه تماماً كسوة الراهب. لكنك لن تستطيع فَهم ذلك. إنكم معشر الهنغاريين لا تنظرون إلّا إلى النساء. إنكم برابرة.

- 76 -

في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي دخل إيوهان موريتز وحده القاعة الكبرى المشيدة بالإسمنت واقترب من العربة التي عيِّنت له أمس. كان قد تبقى لبدء العمل خمس دقائق. شعر باضطراب غريب. كان مرتدياً ثوب عمل أزرق يغطي كل جسمه ومنتعلاً أحذية من الخشب يدوي صدى وقعها على الأرض في ذلك الفراغ الهائل أشبه بقرع المطارق. حاول بادئ الأمر أن يسير على رؤوس أصابعه ليتحاشى إصدار تلك الجلبة الفظيعة، لكن الأحذية الخشبية لم تشأ أن تخفِّف من وقعها. ولمّا بلغ وسط القاعة أحسّ كأن بعضهم

Twitter: @ketab_n

يناديه. إنه لم يسمع اسمه لكنه مع ذلك كان يشعر بأنّ هناك مَن يناديه. كان واثقاً من ذلك فأدار رأسه. وفي تلك اللحظة سمع الصوت بوضوح يقول للمرة الثانية:

- «سالف سكلاف» أي مرحباً أيها العبد!

شاهد كتلة من الشعر الأسود ووجهاً ذا عينين كبيرتين وشارب وأسنان بيضاء كالمينا تطل عليه من خلال نافذة صغيرة مشبكة بقضبان من الحديد. كان الرجل فتياً هزيلاً كهيكل عظمي وكان يحدج موريتز بعينيه السوداوين الكبيرتين بنظرات ملتهبة. غير أن جسمه لم يكن ظاهراً. فلمّا تقابلت نظراتهما عاد الرجل المجهود يقول وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد:

- مرحباً أيها العبد.

قال إيوهان موريتز وهو يعتقد أنّ الشاب قد خلط بينه وبين آخر اسمه سالف سكلاف:

- إن اسمي «إيانوس موريتز».

دوّت صفارة المعمل وبدأت الآلات تتحرك. كان موريتز في مكانه المحدَّد على الحاجز لبث الشاب ذو الشعر الأسود لحظة واقفاً وراء النافذة يبتسم له ابتسامة ودية. كان قد سمع جواب موريتز غير أنه قبل أن يختفي من وراء النافذة هتف مرة أخرى وهو يحدجه بعينيه السوداوين:

- سالف سكلاف!

أمسك إيوهان موريتز بالصناديق الأولى التي ظهرت على الخط الحديد ووضعها في العربة الفارغة. لو أن تلك الصناديق لم تكن بذلك الوزن لأمكن لطفل في السابعة من عمره أن يقوم بهذا العمل. كان موريتز يعرف أن تلك الصناديق تحوي على أزرار كان يود لو يلقي نظرة عليها، لكن تلك الصناديق كانت كلها مغلقة، بل إنها لو

Twitter: @ketab_n

كانت مفتوحة لما وجد من نفسه الشجاعة على رفع غطائها وإلقاء نظرة على ما فيها. «لقد أعدم إيطالي في يناير الماضي واليوم سيقدَّم تشيكي للمحاكمة».

تذكر موريتز أن التشيكي أراد الاطِّلاع على أسرار معمل كنوف أندسن. كان يفكر في ذلك التشيكي الذي كان في تلك اللحظة أمام قضاته ولا شك يطلب إليهم الصفح عنه لاطِّلاعه على أسرار مصنع الأزرار. ثم انتقل تفكيره إلى الإيطالي الذي ضربت عنقه. كان قد رأى كثيراً من الإيطاليين فكانوا جميعاً وديعين. لذلك فقد راح يتصور ذلك الذي حُكم عليه بالإعدام وأعدم، مخلوقاً وديعاً ككل مواطنيه. كان يرى بعين خياله رأس الإيطالي ذي الشارب الأسود الدقيق يتدحرج مبتسماً تحت أقدام الجلاد.

عاهد إيوهان موريتز نفسه على أن لا ينظر أبداً إلى الأزرار حتى ولو عثر صدفة على صندوق فُتِح صدفة من تلقاء نفسه أمام عينيه. كان ذلك لا يساوي عناء فقد الحياة لمجرد النظر إلى أزرار من أيّ نوع كانت. وأخيراً أقنع نفسه بأن تلك الأزرار كانت تُرسل إلى الجيش. تساءل وهو يحمل الصندوق بين ذراعيه ويضعه في العربة الفارغة التي توقفت أمامه بعد ذهاب العربة المحملة، تساءل عن نوع تلك الأزرار وشكلها. لقد كانت هناك أزرار خاصة بأثواب رجال البحرية والمدفعية والطيران. كان هناك الأسود والمذهب والأصفر. كان موريتز يفضل أن يكون الصندوق الذي يحمله بين ذراعيه مملوءاً بالأزرار المذهَّبة. إنها أكثر جمالاً حتى ليقال إنها قطع صغيرة من الذهب. إن البحارة كانوا يزينون ثيابهم بأزرار مذهبة. «لعل هذا الصندوق يحوي أزراراً لثياب البحارة...».

تذكر إيوهان موريتز فجأة أقوال الموظف: «إننا نعلم كلّ ما يجول في رأسك. إننا نلتقط صور أفكارك».

Twitter: @ketab_n

راح يبذل جهده ليكفّ عن التفكير في أزرار الصندوق. كان ذلك سرّ ولم يكن موريتز ليريد معرفة أسرار المصنع.

وجد نفسه بعد فترة من الزمن يتساءل عمّا يمكن أن يصنع الجيش الألماني بكلّ تلك الكمية من الأزرار. كان كلّ الجنود والضباط الألمان الذين شاهدهم، يلبسون كسواتهم العسكرية كاملة الأزرار ولم تكن هذه تنقص معاطفهم. وإذن فإن الأزرار التي تُصنع حالياً مخصصة لتزيين أثواب جيدة.

راح إيوهان موريتز ينظر مجموعة الصناديق الهائلة التي كانت تتعاقب بعضها إثر بعض كالنهر المتدفق الهادئ فتساءل «ينبغي أن تكون حاوية على ملايين من الأزرار. إن فيها ما يكفي لكلّ ألبسة الجيوش الألمانية. لعلّ الألمان قد أصدروا الأمر بأن يكون لكل جندي ثوباً جديداً. ولهذا السبب يصنعون الآن كل هذه الأزرار».

تساءل إيوهان موريتز عمّا إذا كانت تلك الألبسة الجديدة مخصّصة لأولئك الذين سيشتركون في الاستعراضات العسكرية التي ستجري عند نهاية الحرب فيخترقون شارع المدينة الكبير والأعلام ترفرف فوق طلائعهم والموسيقى العسكرية تصدح مدوية. إنّ كل الجنود سيزيّنون ثيابهم عندئذٍ بأزرار مذهّبة لماعة كالشمس.

أخذ إيوهان موريتز يبتسم. تصوّر نفسه واقفاً بين الحشد المجتَمِع ليتمتع بالنظر إلى الجنود وهو شديد الفخر والكبرياء لأنّ أزرار الضباط كلهم والجنود كلهم، بل وأزرار «الجنرالات» أيضاً قد مرّت بين يديه. «إن التي أحملها الآن بين يدي ستثبت على ثوب «جنرال» سوف تزين معاطف «الجنرال» وأثوابه كلها بأزرار سيستخرجونها عامدين من هذا الصندوق. لعلهم سيحتاجون إلى كلّ موجودات الصندوق لثياب الجنرال وحده».

استرسل إيوهان موريتز مع أفكاره فنسي أخذ الصندوق الذي

Twitter: @ketab_n

كان أمامه. فاندفع الصندوق خارجاً عن خط الحديد وسقط على الأرض وارتطم بها مُحدِثاً دوياً كبيراً. هرع موريتز ليلتقطه وفي تلك اللحظة وصلت صناديق أخرى إلى مكانها المحدود ولما لم يرفعها سقطت هي الأخرى خارج القضبان وأحدثت ضجيجاً أشد من الأول. كان الصندوق الثاني قد سقط على الإسمنت فحاول موريتز رفعه. استطاع حمل الصندوق الأول تحت ذراعه لكنه فوجئ بصندوق ثالث في ظهره فترك الصندوقين الآخرين يسقطان وقد انتابه ذعر قاتل، ذعرٌ لم يشعر به طيلة حياته. وسقط الصندوق الرابع ثم أعقبه خامس.

عاد موريتز إلى مكانه فوق البسطة وترك الصناديق في مكانها وراح يرفع عن خط الحديد الصناديق التي كانت تصل تباعاً، ويضعها في العربة. كان ينظر إلى الآلة وكأنه يتوسَّل إليها أو يحاول إقناعها بتحطيم السلسلة والتوقف برهة حتى يجمع الصناديق الساقطة على الأرض. غير أن الصناديق كانت تصل تباعاً والآلة لا تتوقف. ألقى موريتز نظرة وجِلَة حوله. كان خائفاً من العقاب لكنه لم يجد أحداً يوجِّه إليه كلمة.

توقفت الآلة ظهر ذلك اليوم. كان موريتز حتى تلك اللحظة يرتعد خشية أن يُضبط خطأه. نزل من مكانه وأخذ الصناديق عن الأرض فوضعها في العربة وعندئذٍ شعر بسرور عميق لأن أحداً لن يعرف الخطأ الذي ارتكبه.

غير أن العربة التي كانت تسير آلياً توقفت هي الأخرى مع بقية الآلات على خط الحديد وليس عليها إلا خمسة صناديق.

فكر إيوهان موريتز أن يدفع العربة بيده غير أنها لبثت في مكانها ترفض المسير إلا بشكل آلي.

أراد موريتز أن يحمل الصناديق بين ذراعيه وأن ينقلها إلى

Twitter: @ketab_n

المخزن غير أنه ما كان يستطيع أن ينفُذ من خلال فتحة الجدار المشيدة بحجم العربة.

لبث واقفاً والصندوقين تحت ذراعيه وهو حائر في أمره. وفجأة دوى صوت وراءه. فوضع موريتز الصندوقين، بوجل في العربة واستدار.

رأى وراء النافذة ذي القضبان الحديد ذلك الوجه الهزيل ذا العينين السوداوين يبدو من جديد. كان هو نفسه ذلك الذي ناداه صباح ذلك اليوم ونظر إليه بتودّد وهتف مرتين:

- سالف سكلاف!

نسي موريتز على الفور الصناديق والخطأ الذي ارتكبه وابتسم للشاب بدوره وقال:

- إنني لا أدعى هكذا. إنّ اسمي إيانوس موريتز. لعلَّك تظنني شخصاً آخر.

افترّ ثغر الشاب عن ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه البيضاء الناصعة. كان يبتسم ابتسامة رفيقة مخلصة. ثم اختفى من وراء النافذة وهو يهتف للمرة الثالثة.

- سالف سكلاف!

مضى موريتز لتناول الطعام وهو يفكِّر في أنّ الشبه بينه وبين المدعو سالف سكلاف ينبغي أن يكون شديداً كاملاً حتى إن ذلك الشاب ذا العينين السوداوين ظلّ يناديه بذلك الاسم رغم أنه أفهمه أنه لم يكُن يدعى كذلك.

وبمضيّ الزمن عرف موريتز أن ذلك الشاب كان ينادي كلّ الغرباء الذين يشتغلون في ذلك المصنع بهذا النداء وأنه كان فرنسياً وعرف موريتز فيما بعد أن اسمه كان جوزيف رغم ادّعائه بأنه هو الآخر كان يدعى سالف سكلاف.

Twitter: @ketab_n

أمضى إيوهان موريتز خمسة أشهر في معمل الأزرار لم يترك خلالها صندوقاً واحداً يسقط بعد حادثة يومه الأول. كان حال وصولها أمامه ينقلها إلى العربة الواقفة. كان يأخذها دون أن ينظر إليها أو أن يفكر في نوع الأزرار التي يمكن أن تحويه أو في «الجنرالات» الذين سيحلون أثوابهم بها ولا في الجنود الذين سيسيرون في صفوف الاستعراض المنتظر بعد انتهاء الحرب وهم يرفلون في أثوابهم الجديدة وأزرارهم اللامعة التي يحملها الآن بين يديه في تلك الصناديق.

كفّ إيوهان موريتز عن التفكير وانقطع عن الأحلام. لم يعُد يفكِّر في شيء حتى ولا في رأس الإيطالي الذي تدحرج تحت أقدام الجلاد.

كان أحياناً يتوق إلى معرفة مصير التشيكي الذي كان ماثلاً أمام قضاته غداة دخوله إلى المصنع وهل حكم بالإعدام أم غفرت المحكمة له.

كانت هذه الأشياء قد وقعت له في بداية عهده. أما الآن فقد فَقَدْ موريتز حب الاستطلاع والتطفّل. فكان كلما دخل قاعة الآلات ظهر رأس الفرنسي وراء النافذة، نافذة المصهر، وصاح به.

- سالف سكلاف!

وكان موريتز يجيب على ندائه بنداء مماثل دون أن يفكِّر فيما يقول. كان يبسم له دون أن يلاحظ أنه يبتسم. ثم كان يقف جامداً على البسطة منتظراً وصول الصناديق. فكّر مرة واحدة في تسهيل عمله بحمل صندوقين معاً يضعهما في العربة، لكن خط الحديد لم

Twitter: @ketab_n

يسمح له بذلك إذ إن السلسلة لامست طرف الصندوق الأول وهي تصرّ صريراً عالياً وكأنها تتأهب للافتراس. فاضطربت كلّ ألياف جسم موريتز وكأن بعضهم قد انتزع له سناً. ومنذ ذلك الحين، لم يحاول موريتز قط حمل صندوقين معاً. كانت الآلة ترفض ذلك وكان عليه أن يمتثل لأمر الآلة. حتى إنه لو كان يستطيع حمل خمسة صناديق دفعة واحدة لما فعل. لقد سيطر عليه إيقاعها فكان لا يستطيع التحرُّر من ربقه، لم يكن العمل صعباً ولا سهلاً. كان في الأيام السالفة، عندما كان يشتغل شغلاً مضنياً، يتفصّد العرق من جسمه ويشعر بالتعب فيسبّ ويشتم. أما الآن فإنه لم يكن يسبح في عرقه كما كان في السابق. لذلك فقد كفّ عن السباب. لم يكن يحس بأنه يعمل وكذلك لم يكن يشعر بأنه لا يعمل. كان إيوهان موريتز أثناء عمله السابق يفكِّر في شتى الأمور فيمرّ الوقت دون أن يشعر بمروره. أما الآن فقد عدل عن التفكير. كان يستطيع التفكير بألوف الأشياء من خلال رفعه الصندوق وإيداعه جوف العربة. لكنه لم يكن يجد في رأسه خيالاً خصباً يحلِّق به إلى مرتبة التفكير. كان رأسه فارغاً خالياً من أيّ نوع من الصور. لقد فارقته الأحلام والأفكار. فكان لا يفكِّر حتى في عمله. كان يعرف أنه يقوم بعمله ذاك ليس بقوة ذراعيه فحسب، بل بمجهود من عقله كذلك. ولولا ذلك المجهود الفكري، لكان عقله ودماغه في مكان آخر. لكنهما كانا هنا. قرب الصندوق، لصق الآلة!

كان إيوهان موريتز يشعر بأن كيانه يذوي كالغصن المحروم من الري. كان إذا ما أوى إلى فراشه مساءً يشعر بإحساس غريب، يخيَّل إليه أنه ينحني ويلتقط صندوقاً. وإذا نهض من سريره صباحاً، شعر كأنه انتصب في تلك اللحظة بعد أن أودع الصندوق في العربة وباتت يداه فارغتين فترة بانتظار وصول الصندوق التالي. كان نومه خلواً من

Twitter: @ketab_n

الأحلام. أما جبينه وعيناه فقد غشيهما الاكتئاب والقلق. لقد اتخذا لون الآلة وليس لون الأرض.

لقد بلغ إيوهان موريتز في الأيام الأخيرة حداً جعله ينسى أن الصناديق التي كان ينقلها تحوي أزراراً. فإذا ما تذكر ذلك صدفة - وكان ذلك لا يقع له إلّا نادراً - كان يبتسم. وكانت ابتسامته جافة كالأرض بعد الجفاف.

زعم الأطباء أنه مريض، لذلك فقد نقل إيوهان موريتز إلى مستشفى المعسكر.

- 78 -

كان إيوهان موريتز في تلك اللحظة في الأبنية الخشبية التي أقيمت لتكون مستشفى المعسكر. كانت النوافذ مشبكة بالأسلاك الشائكة. لبث في المستشفى أكثر من أربعة أسابيع لأنه كان مصاباً في رئتيه. كان كلّ جسمه يحترق وكأنه معرَّض لنار حامية تُذيب جسده. كان لا يحلم إلا في مصنع الأزرار ويتحرَّق شوقاً للعودة إليه. كان يلبث مغلق العينين طيلة النهار لا يتحرك. شعر ذلك اليوم أن حوله ضجة غير مألوفة. قال في سره: «لعلهم الأطباء يقومون الآن بجولتهم التفتيشية». أحسَّ فجأة برائحة بشرة مغسولة نظيفة، رائحة لم تبلغ أنفه مثلها منذ زمن طويل. لكنه ما كان يستطيع نسيانها. فتح عينيه وهو يبتسم. كان بالقرب منه امرأة ترتدي ثوباً عسكرياً. كانت شقراء في ميعة الصبا تفوح من جسمها رائحة الصابون والهواء الطلق النقي. راحت تنظر إليه بخشونة لكنه استمرّ يبتسم لها. كان جنديان وعدد من الأطباء يحيطون بها. سألها أحد الأطباء. . . بينما كانت تنظر إليه:

Twitter: @ketab_n

- أهذا هو؟

كانت المرأة تقرأ اللائحة الطبية المعلقة على سريره وهي تلقي عليه نظرات مستريبة. كان كل مَن لقيهم في ألمانيا يحتفظون بذلك الشك في نظراتهم. سألته:

- هنغاري؟ إن الهنغاريين والإيطاليين أشدّ الناس خطورة!

أمسكت المرأة بالغطاء فأزاحته عن جسمه وكشفت عن صدره ثم أردفت:

- إنه ليس هو! إن الآخر كان غزير شعر الصدر.

ابتعدت وراحت تتوقّف أمام الأسِرة الأخرى، فتتأمل الوجوه وتكشف عن صدور بعض المرضى. والجنديان يتبعانها أبداً فلم تجد الشخص الذي تبحث عنه.

لبثت تلك الرائحة زمناً طويلاً في القاعة بعد أن غادرتها المرأة. لم تكن رائحة الماء والصابون والعطر فحسب. كانت رائحة المرأة. تذكَّر موريتز أن رائحة جسم سوزانا وإيوليسكا كانت مشابهة لهذه.

قال الطبيب:

- إن واحداً من زملائكم قد ضاجع في الليلة الفائتة امرأة ألمانية. لقد فاجأتهما المرأة التي خرجت منذ حين فأوقفت الفتاة. أما الرجل فقد تمكّن من الفرار. إنه أسمر غزير شعر الصدر رفضت الفتاة الإفصاح عن اسمه. لكنه لن يستطيع الإفلات. لسوف ينال خمس سنوات يقضيها في السجن. يا للمسكين!

كان الطبيب هولندياً. قال وهو ينظر إلى النافذة:

- لقد قبضوا عليه!

تناهض موريتز واشرأب بعنقه. شاهد من خلال النافذة شاباً صربياً مغلول اليدين يقوده الجنديان بخشونة. كان رجلاً جميلاً ذا

Twitter: @ketab_n

شعر أسود يعرفه موريتز. كان يشتغل في معمل الحبال وهو فتى دمث وديع. كانت الفتاة ذات الثوب العسكري تتبعه وهي تقول:

- لقد قلت لكم إنني سأعثر عليه أخيراً!

- 79 -

كان جوزيف «الشخص» الوحيد الذي يشعر معه موريتز بالاطمئنان لم يشعر بخوف مطلقاً من صحبته رغم أنّ كل شيء كان يخفيه في الأيام الأخيرة، كان في المصنع يخاف أن يفلت أحد الصناديق وأن يتأخر في حمله فيسقط عن الخط. ويخاف النظر في وجه إحدى الألمانيات كما يخاف أن يطَّلع، ولو عفواً، على أسرار الأزرار. كان يخاف من كلّ الألمان، ليس فقط من الرجال والنساء، بل من الأرض الألمانية والكلمات الألمانية والهواء الذي يستنشقه لأنه هو الآخر ألماني. لقد سجن إيوهان موريتز في رومانيا وضرب وأُهين. لكنه لم يشعر بالخوف. حتى في هنغاريا حيث قطعوا جسده قطعة فقطعة، لم يشعر بكلّ هذا الخوف. كان الرومانيون والهنغاريون كائنات بشرية. كان إيورغو إيوردان إنساناً أيضاً فلم يشعر موريتز بالخوف منه.

لم يرتعد موريتز مرة أمام الإنسان لأنه يعرف أن بني الإنسان يتمتعون بطيب النفس وخبثها معاً فكان بعضهم ميالاً للطيبة والبعض الآخر للخبث. لكنهم كانوا جميعاً يجمعون بين الاثنين.

ففي رومانيا قدَّم إليه وكيل الضابط سيجارة بعد أن لكمه لكمة أطاحت بسنَّين من أسنانه. وفي هنغاريا كان رجال الدرك يعطونه ماء وتبغاً بعد أن يحرقوا باطن قدميه بالحديد الأحمر.

أما في ألمانيا فإنه لم يُضرب قط. كان يتناول كل يوم ربع

Twitter: @ketab_n

رغيف كبير من الخبز وقدحاً من القهوة الساخنة وحساء. وكان العمل أكثر سهولة ويسراً من حفر القناة في رومانيا وإقامة التحصينات في هنغاريا. لكنه لم يكن يستطيع العيش في ألمانيا. كان موريتز واثقاً من أن الألمان سيطيحون برأسه آخر الأمر. كان واثقاً من أن التفكير في مثل هذا الأمر لون من السخف المطلق. مع ذلك فقد كان يشعر بإحساس غامض ينذره بأنه سيؤخذ ذات يوم والقيود في يديه حتى ولو لم يكن مذنباً. سوف يرسلونه إلى السجن حتى ولو لم يكن قد حاول الاطّلاع على أسرار معمل الأزرار. كان بنو الإنسان هناك يُعادلون الآلات في الخبث. لذلك فقد كان يذوي عوده ويشعر بخوف مقيم. كان يخاف من كل الآلات وكل الرجال الذين هم على شاكلته. كان يشعر بوحدة مريعة وهو بين الآلات. كان يتلهَّف للصياح لشدة ما كان يرزح تحت وطأة الوحدة. ولذلك فإنه كان يشعر بميل طبيعي إلى الفرنسي.

جاء جوزيف يقابله وقال:

- سالف سكلاف!

فأجابه موريتز باسماً:

- سالف سكلاف!

كان جوزيف يحب أن يُجاب على تحيته بعبارة مماثلة. كان يقول:

- إننا جميعاً عبيد. ومن الخير أن نظلّ نذكر أنفسنا بذلك ألف مرة كل يوم حتى لا ننسى هذه الحقيقة لحظة واحدة. إننا إذا تناسينا أننا عبيد هنا فقدنا كل شيء. ينبغي أن يظلّ وجداننا متيقظاً.

كان ذلك بعد ظهر يوم أحد وكان إيوهان موريتز وجوزيف مستلقيين على الأعشاب في ظلّ واحد من أبنية المعسكر الخشبية. كان جوزيف يروي لموريتز أنه يحب امرأة وكان موريتز يعرف أن

Twitter: @ketab_n

تلك المرأة اسمها بياتريس وأنها تقطن باريز وأن لها عيوناً سوداء كبيرة وأنها تبكي كل ليلة لأن جوزيف سجين. كان الفرنسي قد قصّ عليه أشياء وأشياء عن بياتريس حبيبته حتى خُيِّل لموريتز أخيراً أنه سيتعرف عليها ولو كانت بين ألف امرأة من شبيهاتها، بل إنه كان أحياناً يخيَّل إليه أنه يصغي إلى حديثها وأن صوتها يشبه التغريد. كان موريتز يشعر بوجود بياتريس معه ومع جوزيف كلما التقيا. فكان كلما جلس إليه يشعر بأنّ المجلس يضم ثلاثة، بل إنه كان يدهش أحياناً لأن بياتريس لا تشترك في الحديث ولا تجيب عن الأسئلة...

- 80 -

وفجأة سمعا صوت قائد المعسكر يُصدر أمراً من خلال مكبرات الصوت:

- ليدخل الجميع الأكواخ!

قال موريتز وهو ينهض واقفاً:

- أهو تفتيش جديد؟

وتبعه جوزيف وهو يقول:

- ماذا يريدون منا بعد!

كان الفرنسي متذمراً لأنه ما كان يحب قضاء بعد ظهر أيام الأحاد في الأكواخ!

أخذ العمال يغادرون الباحة جماعات جماعات. كان النهار جميلاً دافئاً والشمس مشرقة.

وقف موريتز وجوزيف قرب نافذة مهجعهما يطلّان على الباحة مستطلعين من خلال الأسلاك الشائكة.

Twitter: @ketab_n

هتف موريتز:

- إن الأمر صحيح إذن!

ذلك أن ثلاث سيارات عسكرية كبيرة دخلت الباحة الكبرى في تلك اللحظة وتوقفت قرب النافذة التي كانا وراءها.

راجت في الأيام الأخيرة شائعة على الألسن مَفادها أن نساء سوف يؤتى بهن إلى المعسكر. لقد وقع مثل هذا الأمر في المعسكرات الأخرى، لكن السجناء لم يصدِّقوا هذه الشائعة. وها أن النساء الآن أمامهم، نساء لهم هم!

قال إيوهان موريتز:

- ألا ترى أن الأمر حقيقي!

كان إيوهان موريتز لا يقوى على تصديق هذا الأمر رغم أنه كان ماثلاً أمام عينيه. غير أن النساء كن هنا وكان موريتز يتطلع إليهن. كن جميعاً متبرجات متزينات يرتدين ثياباً خفيفة. ألقين نظرة حولهن حيث كان السجناء محشورين حشراً وهن يتضاحكن. وأخيراً شرعن يهبطن من السيارات بخفة فكانت الريح ترفع أطراف أثوابهن. كان موريتز يرى ألبستهن الداخلية وسراويلهن الصغيرة الشفافة وكأنها صُنِعت من أوراق السجائر وصُبِغت بألوان مختلفة. وكان يرى أفخاذهن إلى أقصى الوسط. كان السجناء الواقفون وراء موريتز يضحكون أما هو فإنه ما كان يصدق عينيه لذلك لم يجد الضحك سبيلاً إلى شفتيه.

ارتفع صوت آمر المعسكر من خلال المكبرات:

- لا ينبغي للنساء أن يبارحن السيارات! إنّ أمر مغادرة السيارات لم يُعطَ بعد!

كان الصوت قاسياً آمراً. لم يكن أحد من السجناء قد رأى من قَبل آمر المعسكر لأنه كان يتكلم من مكتبه، عادت النسوة إلى

Twitter: @ketab_n

السيارات فتسلقتها بسرعة كما هبطن وتكدّسن فوق بعضهن وجلات. كن يخشين العقاب لأنهن بارحن أماكنهن دون تلقي الأمر بذلك.

ولما تسلقن صاعدات، استطاع السجناء رؤية ركبهن وسراويلهن وألبستهن الداخلية العديدة الألوان. كن يضحكن ولكن ضحكهن في تلك المرة كان مخنوقاً مذعوراً.

أمر الصوت بحزم:

- عشر نساء لكلّ مهجع! سيمكثن فيه حتى التاسعة مساءً. إن رؤساء المهاجع قد تلقوا التعليمات الخاصة المتعلقة بسير البرنامج في خلال هذه الفترة. إنهم مسؤولون عن النظام والطاعة في المهاجع!

وصمت مكبر الصوت...

لبثت النسوة هادئات في السيارات. كنّ ينتظرن صدور الأمر إليهن.

صرف الفرنسي على أسنانه وهتف:

- خ...!

ظن موريتز أن الفرنسي يوجّه إليه الكلام فاستدار برأسه نحوه غير أن جوزيف كان شديد السخط والحنق فلم يكن يلتفت إليه.

جلجل الصوت الآمر من خلال مكبرات الصوت:

- لتنزل النسوة من السيارات بنظام حسب عدد الجماعات!

كان هذا ما تنتظره النسوة. رُحن يقفزن من السيارات هابطات وانقسمن إلى خمس فِرق فتقدم كلّ منها رجل هو رئيس المهجع وأشار إلى الفريق النسائي أن يتبعه.

لم يكن موريتز يفهم كيف «سيتم الأمر حسب النظام المقرَّر». كان يتحرق من الفضول. كان يعرف أن النساء قد جئن ليضاجعن المساجين. لأن الألمان ادّعوا أن إنتاجهم لم يكن كافياً وأنه سيزداد

Twitter: @ketab_n

نقصاً إذا لبث المساجين محرومين من المقارنة الجنسية. والألمان يريدون أن يكون الإنتاج حسناً لذلك فقد استقدموا نساء ليتيحوا للمساجين تحسين العمل في مصانع الحبال ومعمل الأزرار وأفران الصهر.

لم يكن إيوهان موريتز يفهم كيف يستطيع الرجال زيادة إنتاجهم إذا زاولوا العمل الجنسي. وما كان يفهم كيف سيستطيع العمال مضاجعة أولئك النساء اللواتي انتُقين انتقاءً ووزِّعن على المهاجع بذلك الشكل الآلي. كانت المهاجع كبيرة تحوي على أسرة كثيرة وكان عدد الرجال كبيراً وعدد النسوة ضئيلاً فكان يتعذَّر على كلّ سجين الانفراد وحده بامرأة في سريره: «لعلهن سيطُفن من سرير إلى آخر!» لكنه فكّر في أن النسوة سيخجلن من التنقل من سرير إلى آخر. لم يكن يتوقع أبداً رؤية نساء في أكواخ تحيط بها الأسلاك الشائكة. مع ذلك فها إن النسوة على وشك الدخول إلى المهاجع.

كان رئيس المهجع يتحدث إليهن. فكان ولا شك ينهي إليهن التعليمات التي يجب عليهن اتِّباعها فكن يستقبلن أقواله بضحكات مرتفعة.

سأل جوزيف:

- لنخرج هل توافق؟ لنذهب حيث كنا منذ قليل.

خرج موريتز من المهجع مع الفرنسي وتبعهما عدد من العمال.

ولما وصلا إلى عتبة المدخل مرّا بالقرب من النساء. كانت رائحة العطور والأصباغ تنبعث منهن. رحن ينظرن إلى موريتز وجوزيف وهما في طريقهما إلى خارج المهجع ويتضاحكن بصوت مرتفع هازئات منهما لأنهما غادرا المكان.

شعر إيوهان موريتز بيد إحداهنّ تلامس وجهه وتداعبه فغضّ الطرف وجَرض بريقه. كانت اليد معطَّرة رطيبة.

Twitter: @ketab_n

هتف جوزيف لمّا وصل إلى حيث كن مجتمعات:

- سالفيتي سكلافي!

فأجبنه بضحكات مدوية.

لم يضحك جوزيف كما فعلن، بل اكتأب جبينه واكفهرّ وجهه.

لمّا وصل إلى الفناء استلقى على العشب وراح يتطلع إلى السماء فتمدَّد موريتز بجواره وراح يفكِّر في النساء. كان جوزيف ولا شك يفكِّر فيهن كذلك غير أن موريتز ما كان يستطيع تحديد أفكاره.

قال الفرنسي:

- يمكنك أن تذهب إذا شئت.

فأجاب موريتز:

- كلا لن أذهب.

لم يتبادلا كلمة واحدة. كانت تلك هي أول مرة يجد موريتز نفسه بجانب جوزيف دون أن يحدِّثه هذا عن بيارتيس.

قال جوزيف:

- إنهن بولونيات من معسكرات الاعتقال. إن الموقوفات في ذلك المعسكر يستعدن حريتهن إذا زاولن هذا العمل مدة ستة أشهر... غير أنهن في خلال هذه الفترة يتهدّمن تهديماً. إنهن لا يغادرن معسكرات الاعتقال إلا ليمضين مباشرة إلى المستشفى أو الملجأ أو إلى المشرحة.

قال إيوهان موريتز:

- ظننت أنهن محترفات.

شعر بإشفاق نحوهن بدلاً من الازدراء لأنه عرف أنهن سجينات مثله.

قال الفرنسي:

- إنهن لسن محترفات يا جان (كان دأب الفرنسي مناداة موريتز

Twitter: @ketab_n

باسم جان) هؤلاء النسوة هن رقيق مثلنا يبذلن مجهوداً يائساً لنيل حريتهن. إنهن رقيق يحاول تحطيم أغلاله بيديه وحدهما دون الاستعانة بأية أداة أخرى. إنهن يمزِّقن أجسادهن وهن يحاولن تحطيم سلاسلهن وأغلالهن. إنه عمل ينطوي على بطولة. ولكن للأسف إنّ أغلال العبودية أقوى من الجسد البشري.

في الساعة التاسعة مساء غادرت النسوة المعسكر.

ما كن يضحكن لمّا صعدن إلى السيارات، بل كن يدخنّ.

هتف جوزيف عند رحيلهن بصوته الصريح الودود:

- سالفيتي سكلافي!

وفي تلك الليلة فرّ الفرنسي من المعسكر.

- 81 -

قال موظف المعمل لإيوهان موريتز وهو يقوده إلى المكتب:

- إن الضباط بحاجة إلى مترجم للّغات البلقانية. فكن مهذباً وقوراً! إنهم ضباط من هيئة الأركان العامة والمؤسسة القومية للدراسات العنصرية.

انتظر إيوهان موريتز أمام الباب ما يقرب من الساعة وأخيراً أدخل إلى المكتب فاستقبله دخان اللفافات ورائحة الخمر ورأى على المائدة أقداحاً وزجاجات فارغة.

لما دخل إيوهان موريتز لم يحوِّل أحد رأسه لينظر إليه. فلبث واقفاً قرب الباب يكاد دخان اللفائف أن يخنقه. كان يود أن يقول لهم إنه ليس مترجماً ضليعاً لتُتاح له العودة إلى صناديق الأزرار. فهناك كان الصمت والسكون يخيمان والجو نظيف خالٍ من دخان السجائر الخانق. راح يتأمل الشريط الأحمر المثبت على طرفي

Twitter: @ketab_n

سراويل الضباط. كانوا جميعاً في أعمار فتية أحصى موريتز عددهم فإذا هم سبعة. تقدّم أحدهم من موريتز ووضع يده على رأسه ثم راح يديره ويتأمله كما يتأمل اللاعب الكرة التي سيلعب بها. نظر إليه من جانبه الأيمن ثم أداره وتأمل جانبه الأيسر وقال:

- استدِر!

راح ينظر إلى مؤخرة رأسه ثم أخذ يلمس كتفيه وأخيراً أمسك بذقنه وطلب إليه أن يفتح فمه لينظر إلى أسنانه. فلما فعل استتلى الضابط آمراً:

- اخلع ملابسك!

نزع إيوهان موريتز ثوب العمل الذي يرتديه ووضعه على الأرض قرب الجدار. وكان الضابط يتابع حركاته بنظره.

وبينما كان موريتز ينزع ثيابه، والضابط يزِن كلّ حركاته ويراقبها لبث الآخرون يتحدثون غير مبالين به.

قال الضابط - وكان برتبة زعيم في قلم المخابرات - عندما فرغ موريتز من تنفيذ أمره:

- أيها السادة اصغوا إليَّ. سأعرض على حضراتكم بعض البيانات والبراهين!

أَقبَل الضباط الستة فالتفوا حولهما بينما لبث موريتز عابساً مرتبكاً بينهم. لقد استدعي ليكون مترجماً لذلك لم يفهم شيئاً ممّا كان يقوله ذلك الزعيم. عادت به ذاكرته إلى الألعاب التي كان يشاهدها في «السيرك». تذكر أن أحد الحواة كان يستدعي رجلاً من المتفرّجين ويطلب إليه الصعود على المسرح وهناك يستخرج من جيبه على مرأى من النظارة قططاً حية وعدداً من الأرانب والعصافير. كان هذا هو مدلول كلمة البراهين والبيانات في نظره. ولم يكن يعرف لهاتين الكلمتين معنى آخر. وها إنّ الزعيم الآن يدعو رفاقه ليقدِّم

Twitter: @ketab_n

لهم بيانات مستخدماً شخصه. لعله سيرى بعد حين مشهداً من تلك المشاهد الخلابة التي كان يرى مثلها في «السيرك» لما أن كان جندياً. شعر إيوهان موريتز بقلق وبلبال عظيم فابتسم لأنه لم يكن يخاف مثل تلك التجارب. كان يعرف أن الرجال الذين ينتقيهم الحواة لإجراء التجارب عليهم أمام الجمهور لا يشعرون بشيء مؤذٍ من جراء ألاعيبهم، بل إنهم يذهلون فقط. ولسوف يذهل هو الآخر في اللحظة التي يستخرج فيها الزعيم الأرانب والقطط والعصافير من تحت إبطيه أو من بين يديه لذلك فقد مضى يبتسم بتودُّد للزعيم لأنه كان يحب الحواة. كان يفكّر في نفسه: «أنه لو لبث يتمرّن ألف عام لما توصَّل إلى عمل ألاعيبهم وإتقانها!» راح يتأمل الزعيم الذي يستطيع القيام بتلك الألاعيب وتذكَّر في تلك اللحظة كلمات أمه الذي كانت لا تنفكّ تقول: إنّ الحواة والمشعوذين هم خدم الشيطان. فشعر عندئذٍ بموجة من الغم وكفّ عن الابتسام لأنه كان يخاف دائماً من الشيطان ويرهبه.

قال الزعيم:

- أيها السادة إن هذا الشخص أدخل إلى المكتب منذ عشر دقائق. إنني لم أره من قبل ولا أعرف سبب مجيئه إلى هنا!

فقال موظف المصنع:

- إنه المترجم الذي طلبته للغات البلقانية.

قال الزعيم:

- لقد نسيت تماماً أنني طلبت منك مترجماً. غير أنه منذ دخوله جذب وجهه انتباهي.

وضع الزعيم يده على رأس إيوهان موريتز وهو يبتسم، بينما راح موريتز ينتظر بفارغ صبر أن يبدأ الزعيم بإخراج الأرانب من تحت إبطه. صحيح أن وجهه كان صارماً، غير أن موريتز كان

Twitter: @ketab_n

يعرف، أن هذا هو شأن الحواة في «السيرك» أيضاً. إن المشعوذين يلبثون دائماً متجهمي الأسارير، حتى ولو كان الجمهور ينفجر من الضحك.

كان موريتز ينتظر القهقهات التي ستنبعث عندما تموء القطة الأولى، وكان يهيئ نفسه لمشاركتهم الضحك. لقد كفَّ عن الضحك منذ زمن طويل.

قال الزعيم:

- لقد وقع بصري على هذا الشخص لأول مرة، منذ عشر دقائق. في الوقت ذاته الذي نظرتم أنتم إليه. ولعلَّكم تذكرون، أنني لم أتبادل معه كلمة واحدة. ومع ذلك، فإنني سأقصّ عليكم، بتفاصيل دقيقة، تاريخ حياة هذا الرجل، وتاريخ ثلاثمائة عام، معتمداً فقط على المشاهدات العلمية.

تذكّر إيوهان موريتز، أنه شاهد من قبل، فصلاً مماثلاً لهذا، في أحد مسارح «السيرك» لما أنْ كان جندياً. كان المشعوذ يستدعي واحداً من النظارة، فيحكي له اسمه وسنه، ويبيِّن له إذا كان متزوجاً أم عزباً، ويسرد عليه سلسلة من الأقوال المشابهة، والنظارة ذاهلون لقدرة المشعوذ على اكتشاف كلّ هذه الأسرار. غير أن إيوهان موريتز، ما كان يحبّ هذا النوع من الأدوار. كان يفضِّل عليها مسألة القطط والأرانب. لذلك فقد شعرَ بأسف في أعماق نفسه، لأن الزعيم لا يُتقن ألاعيب الأرانب. كان يتمنى لو أخرج من جيبه فجأة، قطاً يموء. لقد عرض نفسه مرّات عديدة في السيرك، أما أنظار المشعوذ، لكن هذا، كان ينتقي دائماً رجلاً آخر بدلاً منه، فيأسف موريتز لحرمانه من هذه المتعة.

قال الزعيم وكان اسمه «موللر»:

- إن دراسة الأصول والأجناس تقدَّمت تقدّماً ملحوظاً في عهد

Twitter: @ketab_n

القومية الاشتراكية حتى إنها سبقت مثيلاتها في البلدان الأخرى بما لا يقلّ عن مائة عام. إنني أستطيع بمجرد النظر إلى هذا الشخص العاري أن أُبين لكم نوع أسلافه والتزاوج الذي وقع بينهم وعادات أسرته ويمكنكم بعد ذلك التحقُّق من بياناتي بطرح الأسئلة المباشرة عليه والإصغاء إلى أجوبته.

هتف الضباط:

- إنّ هذا لا يصدق! إنه خارق!

وراحت دائرتهم تضيق حول إيوهان موريتز.

استرسل الزعيم قائلاً.

إذا نظرنا إلى تكوين الجمجمة وطريقة التئام العظم الجبهي والأنفي والوجهي، وإذا نظرنا إلى تركيب الهيكل العظمي وبصورة خاصة إلى القفص الصدري ووضعية الترقوة، فإن هذا الشخص الماثل أمامكم ينتمي إلى عرق جرماني يعيش اليوم بأعداد قليلة في وادي الرين، واللوكسمبورغ وترانسلفانيا وفي أستراليا. وهناك ثماني عشرة أسرة في الصين وفي الولايات المتحدة لكنها لم تسجَّل في الإحصاء الرسمي لأنها لم تُكتشف إلا قبل نشوب الحرب بأشهرٍ معدودات. إننا سنقدم في إحصاءاتنا الرسمية التي سننشرها في عدد خاص نظريات دقيقة كاملة للمرة الأولى عن هذا الفريق الجرماني الذي نطلق عليه اسم «الأسرة الشجاعية». إن هذه الأسرة تضمّ أعظمياً ثمانمائة عضو وقد نزح أسلافهم جماعات من جنوب غربي ألمانيا في الحقبة التي تقع بين أعوام 1500-1600 للميلاد. إنهم ألمان من أكثر الأجناس صفاء ولقد استطاعوا الحفاظ على دمهم حتى اليوم متحاشين أيّ اختلاط فيه رغم الضغط العنيف والإرهاق الشديد اللذين تعرضوا لهما في خلال التاريخ. إنّ «الأصل» أيها السادة يحوي على شعور بالمحافظة يفوق أحياناً شعور الشخص نفسه. «إن

Twitter: @ketab_n

الأسرة الشجاعية» التي يمتّ إليها هذا الشاب بصلة، برهنت بما فيه الكفاية على صلابة الإحساس بالمحافظة الذي يمتاز به عنصرنا، إذ كيف نفسِّر بغير ذلك تزاوج أسلاف هذا الشاب الماثل أمامكم من عنصرهم في خلال ثلاثة قرون أو أربعة بينما تنتشر حولهم نساء أخريات يتمتعن بجاذبية أقوى! إنها غريزة المحافظة على العنصر، إنها صوت الدم الذي جعل أفراد هذه الأسرة يتحاشون الخطيئة القاتلة الكامنة وراء اختلاط العنصر. إن تاريخ هذه الأسرة لم يقدِّم أي حالة حتى اليوم من حالات الزواج بامرأة من عنصر آخر وهذا هو التفسير الوحيد الذي جعل هذا الشاب الماثل أمامكم يبدو اليوم شبيهاً لأسلافه الذين سبقوه بأربعةِ قرون. تأملوا شعره القاسي ولكن الناعم، إنه نسخة مشابهة تماماً لشعر «الأسرة الشجاعية». لم يختلف أبداً عمّا كان عليه منذ أربعة قرون بدلالة البقايا الجسدية التي جمعناها من أفراد هذه الأسرة. إنّ هذا النوع من الشعر لا يمكن أن يختلط أمره على أحدٍ من العارفين الذين يستطيعون تشخيصه وتمييزه على الفور. إنه شعر أكثر نعومة من شعر معظم الفصائل الجرمانية. غير أنّ المنشأ واحد لم يختلف. ثم إن الأنف والجبهة والعينين والذقن عند هذا الشاب لا تختلف في شيء عن الرسوم التي في مجموعاتنا عن أسلافه الذين سبقوه بأربعة قرون. إنّ الزمن لم يُحدث أي تبديل عليها!

راح الضباط يمسون رأس موريتز ويعاينون شعره وينظرون إليه بإعجاب.

شعر موريتز أن العيون كلها تحدق في وجهه. لم يقع له أبداً في مجرى حياته أن عُوين بمثل هذا الاهتمام. لقد كان بطلاً لكنه كان يخاف أن يخيِّب أمل الضباط ويأسف لأنه لم يعمل شيئاً ليستحق مديحهم، ذلك المديح الذي ما كان يغدق مثله إلّا على أولئك الذين استطاعوا نيل صليب الحديد المرصَّع مع أوراق السنديان.

Twitter: @ketab_n

عادت أصابع الكولونيل مولر تلمس كتفي إيوهان موريتز من جديد بإعجاب وفخار وورع وكأنه يلمس رفات القديسة باراشيفا العجائبية في كنيسة «الملائكة الثلاثة».

أطرق إيوهان موريتز وهو شديد الخجل لأنه لم يساهم في معارك الجبهة الشرقية ولم يقُم بأي عمل يدلّ على الشجاعة والإقدام. بينما أردف الزعيم قائلاً:

- إن هذه الفصيلة التي نسميها «الأسرة الشجاعية» تعطي المثل الأعلى للبطولة العنصرية. إنني أعتبر اليوم عيداً حقيقياً لأنني وفِّقت إلى اكتشاف هذه النسخة الفريدة ولا يسعني إلّا أن أقول لكم في هذه المناسبة إن واحداً من أسلافي كان قد تزوج من فتاة من هذه الأسرة لكنهما وللأسف لم ينجبا أبناء لأن قريبي قتل في الحرب بعد زواجه بثلاثة أشهر. غير أن هذا ليس إلّا أمراً ثانوياً. إنني أريد الآن أن أبرز صورة هذا الشاب في الكتاب الذي أضعه مصحوبة بنظريات عن فن قياس الجسم البشري ولمحة عن التسلسل التاريخي لأنني الآن في صدد إعداد هذا الكتاب الذي اشتغلت فيه منذ عشر سنين بإرشادات الرايخ فوهرر الطبيب روزنبرغ. إن ذلك سيساهم في تتويج مجهودي.

هتف الضباط فرحين وهم في وضعية الاستعداد:

- تفضل بقبول تهانينا.

كان الزعيم قد غدا أحمر الوجه من الانفعال فرفع ذراعه اليمنى بالتحية ثم صافح زملاءه الضباط فرداً فرداً.

لبث إيوهان موريتز جامداً ينظر إليه فسأله الزعيم:

- هل أنتَ من رينلاد (أراضي الرين) أم من اللوكسمبورغ أم من ترانسلفانيا؟

فأجاب موريتز:

Twitter: @ketab_n

- إنني من ترانسلفانيا.

أطلق الضباط صرخة إعجاب بينما أشرق وجه الزعيم موللر بالسعادة. قال لزملائه:

سأحدد لكم بالضبط محل إقامة هذا الشاب.

ثم التفت إلى موريتز وسأل:

- هل ولدت في تيميسوارا أم برازوف أم في بلاد الزيكليريين؟

فأجاب موريتز:

- في بلاد الزيكيلريين.

هتف الزعيم:

- مدهش!

وراح يفرك راحتيه بسرور ثم أردف:

- كان من المستحيل عليّ أن أخطئ. منذ أن فتح الباب شعرت كأنني أرى شخصاً من لوحات جناح «الأسرة الشجاعية» يهبط بيننا. إنني أعرف تلك اللوحات عن ظهر قلب ولسوف تجدون في إمكانكم أنتم أيضاً أن تتأمّلوا تلك اللوحات في كتابي المقبل. سيكون حافلاً بالصور الملوّنة. إنني أؤكد لكم أيها السادة أنّ هذا الشاب نسخة كاملة عن «العائلة الشجاعية». إنه يؤيِّد نظريتي بكمالها.

طلب الزعيم إلى موظف المصنع أن يأتيه ببطاقة موريتز. فلما قرأها هتف:

- يا للحقيرين! لم يحمل أحد من أفراد الأسرة «الشجاعية» اسم إيانوس! إنّ هذا الاسم عار وشنيع!

كان الزعيم في منتهى الغضب لهذه الفضيحة. فالتفت إلى موريتز وقد تجهَّم وجهه وقال له:

- هل أطلق أبوك عليك هذا الاسم، إيانوس؟

قال إيوهان موريتز:

Twitter: @ketab_n

- كلا يا سيدي الزعيم، إنني لا أدعى إيانوس!

كان يريد أن يطلعه على أن اسمه هو إيون. غير أن الزعيم قال:

- ما كان ممكناً أن يعمِّد أحد أفراد «الأسرة الشجاعية» ابنه باسم خارج عن التقويم الألماني. إن عكس هذا الأمر لم يقع منذ أربعمائة عام. إنه من المستحيل أن يكون اسم هذا الشاب إيانوس!

التفت الزعيم نحو موريتز مشرق الأسارير، كان شديد السرور لأن موريتز لم يكن يُدعى إيانوس. سأله:

- مَن أعطاك اسم إيانوس؟

- لستُ أدري، عندما وصلت إلى ألمانيا منذ عامين وجدته مسطوراً في أوراقي!

قال الزعيم:

- إنّ اسمه ليس إيانوس! إن «الأسرة الشجاعية» قد احتملت كثيراً من الاضطهاد والظلم في مَسار تاريخها. لقد غيّرت الشعوب التي عاشوا بينها أسماءهم دون أن تستطيع تغيير دمهم، إن دم «الأسرة الشجاعية» لبث نقياً كقطعة من الزجاج!

اتجه الزعيم نحو موظف المصنع وقال له:

- إن هذا الشاب قد وضع منذ اليوم رهن تصرف المؤسسة القومية للدراسات العنصرية. إنه مثال نحن في حاجة إليه.

سأل الموظف:

- ألن يشتغل بعد اليوم في المصنع؟

فأجابه الزعيم بجفاء:

- كلا! سأرسل لكم فيما بعد التعليمات الخاصة المتعلقة به.

نظر الزعيم إلى موريتز وراح يفكِّر: «إن العلم قد تقدَّم تقدماً خارقاً غير أننا ما زلنا بعيدين عن الكمال. إنّ هذا المثال المصطفى،

Twitter: @ketab_n

هذا الممثل لفئة عنصرية شديدة الأهمية، ينبغي أن يحفظ في حديقة معروضات الأصول البشرية التي ستؤدي نماذج نادرة ثمينة عن العنصر الإنساني. غير أن هذه الحديقة لم تُنشأ بعد وللأسف. لدينا في أوروبا حدائق تضمّ منتجات من شتى أنواع الطيور والحيوانات لصيانتها. غير أنّ الآراء الفاسدة جعلتنا نمتنع عن إقامة حدائق لصيانة أنواع الإنسان وعرض مختلف أصوله. وإنها لخسارة كبرى للعلم. لقد سبقنا الأميركيون في هذا المضمار إذ أقاموا مثل هذه الأمكنة الخاصة حيث يحتفظون فيها «بعينات» هامة من الهنود. غير أننا سننشىء مثل هذه الحدائق في أوروبا. ينبغي أولاً أن ننتصر. سوف أقترح في محاضرة قريبة لي إنشاء هذا النوع من الحدائق التي ستتيح للعلم أن يحصل على الأمثلة الفريدة النادرة لدراستها ومعاينتها. وسيكون هذا العضو من العائلة «الشجاعية» من الأمثلة الأولى في حديقتنا. سوف أقدِّمه للحديقة هدية مني.

نظر الزعيم موللر إلى موريتز وابتسم. كان يتصوّره في حديقة صيانة أنواع الإنسان في جناح العناصر الألمانية، يقطن فيه مع زوجته وأولاده! وأردف:

- سوف يتحقَّق هذا الحلم ذات يوم... أمّا في الوقت الحاضر، فيجب أن نجد لهذا الشاب، العمل الجدير بمنبته. إنّ ما سيسرّه ويرضيه، هو أن يكون جندياً. إنني أعرف «العائلة الشجاعية» إنها جماعة من أشدّ المحاربين من العنصر الجرماني بأساً. فلنعطِه إذن، إمكانية الانخراط في الجيش، لنجعله جندياً.

راح الضباط يهنئون الزعيم موللر، على سَداد فكرته ورأيه. فعاد وجه الزعيم يصطبغ باللون الأحمر لشدّة اغتباطه، وطلب إلى تابعه أن يعطيه حافظة أوراقه. فأخرج منها ورقة مطبوعة باسم المؤسسة القومية للدراسات العنصرية كتب عليها توصية لإيوهان

Twitter: @ketab_n

موريتز إلى المختصين ليدخلوه في عداد الجيش كجندي في فِرق الحرس. ثم سلّم تلك التوصية إلى موظف المصنع وقال آمراً:

- قُم بكلّ المعاملات اللازمة ودون تأخر!

والتفت الزعيم موللر إلى موريتز باسماً وقال:

- أريد الحصول على صورة لك باللباس العسكري في خلال الشهر المقبل. ستكون تلك الصورة ثمينة جداً في دراستي حول «الأسرة الشجاعية» التي تمتُّ إليها. سوف أرسل واحدة منها إلى الدكتور غوبيلز. ولسوف تتأمل صورتك على صفحات المجلات والصحف.

- 82 -

قال الرئيس الطبيب في لجنة معاينة المجندين الطبية إثر فحص إيوهان موريتز:

- إنّ هذا الرجل غير صالح للخدمة العسكرية. إن على رئته اليمنى أطيافاً مشبوهة. ينبغي أن تكون رئتا الجندي متينتين.

كان قد مضى على مقابلة موريتز مع الزعيم موللر ثلاثة أسابيع.

فكّر إيوهان موريتز قبل كلّ شيء، في أنّ الجندي يحصل على الأقل على نصف رغيف من الخبز في اليوم، وينتعل أحذية ضخمة لا ينفُذ الماء من خلالها ويرتدي ألبسة دافئة مناسبة، وأنه يستطيع أن يأكل طعاماً مناسباً، وأن يدخن اللفافات ويستمتع بها. وكان يعرف أن حياة الجندي خير ولا شك من حياة المساجين، مع ذلك فقد شعر بشيء من السرور، عندما بلغه أن اللجنة الطبية لا توافق على انخراطه في الجندية.

قال الطبيب وهو يتصفّح ملف موريتز:

Twitter: @ketab_n

- إن هذا الشاب يحمل توصية من الزعيم موللر من هيئة الأركان العامة، ورئيس المؤسسة القومية للدراسات العنصرية. لا يمكننا أن نرفضه.

نظر الأطباء الثلاثة إلى موريتز. سأله الرئيس:

- هل تستطيع القيام بعملٍ كتابيّ؟ ماذا كانت مهنتك في حياتك المدنية؟

فأجاب موريتز:

- حراث.

تشاور الأطباء الثلاثة، وطلبوا إلى موريتز انتظار النتيجة في غرفة الانتظار، وعندما استدعوه، أفهموه أنهم وجدوه صالحاً للخدمة وأعطوه الأمر الذي يجب عليه أن يتقدَّم به إلى وحدته.

قال الرئيس مفسراً:

- لقد ألحقت في الخدمة الإضافية. ولما كنت لا تستطيع القيام بأيّ عمل كتابي، فإنك ستُلحق في فصيلة للحراسة.

- 83 -

صفر قائد المعسكر التأديبي معلناً حلول وقت الإفطار. فانتفض الجندي إيوهان موريتز لدى سماعه الإشارة. لقد نسي تماماً أنه كان في مرصد للحراسة، وراح يبحث بحركات محمومة عن إناء الطعام الذي جرت عادته على تناول طعامه فيه عندما كان سجيناً، واحمرّ وجهه من الحنق حينما لم يجده. وفجأة هتف يحدِّث نفسه:

«كم أنا سخيف!». ثم ضم بندقيته بين يديه واسترسل: «لقد نسيت من جديد أنني حارس ولست سجيناً».

كان في مركزه ذاك منذ ثلاثة أيام. غير أنه ينتفض دائماً كلما

Twitter: @ketab_n

سمع الإشارة. لم يكن يستطيع إقناع نفسه بأنه أصبح حارساً ولم يعد سجيناً. فكان كلما شاهد الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعسكر وصفوف المساجين الواقفين بانتظام، ينسى تماماً أين هو، ويعتقد أنه سجين مثلهم. كانت السنوات الطويلة التي قضاها في السجن قد أحدثت في نفسه تأثيراً كبيراً تغلغل في دمه، فكان لا يستطيع التخلص من الفكرة المسيطرة عليه بأنه سجين مدى العمر! فإذا جاء زميله لينوب عنه في الحراسة بعد انتهاء مدته، ارتعد ظنّاً منه أن ذلك الجندي إنما جاء يوقفه! كان في تلك اللحظة بالذات، يرى المساجين ينتظمون صفوفاً طويلة أمام المطبخ لتناول أنصبتهم من الطعام فينسى أنه في المرصد، ويتساءل لِمَ تأخر دوره في تناول طعامه كلّ هذا التأخير. كان يرى نفسه واقفاً بين صفوف المساجين منتظراً.

راح موريتز منذ يومه الأول في عمله الجديد يتفحص وجود المساجين علّه يرى بينهم وجهاً يعرفه، فلم يعثُر على أيّ وجه معروف منهم ممّا أدهشه. لقد انتقل في ألمانيا بين عشرات المعسكرات وكان ولا شك قد استخلص لنفسه صديقاً بين كل هذا الحشد الهائل. كان يتوق إلى رؤية وجه يعرفه بين هذه الوجوه العديدة. لم يكن مسموحاً له أن يحادث المساجين، مع ذلك فقد كان يتلهف إلى رؤية وجه معروف ولو على البُعد!

نسي إيوهان موريتز أنه جندي وحارس بالوقت نفسه وراح يصرخ:

- جوزيف، جوزيف!

راح المساجين المجتمعون في الفناء ينظرون إليه. ونظر إليه جوزيف بدوره غير أنه استمرّ يأكل. لم يتعرّف الفرنسي عليه في ملابسه تلك.

Twitter: @ketab_n

عاد موريتز يُناديه مرة أخرى فلبث جوزيف فترة وصحفة طعامه في يده يحدِّق في وجهه ثم أوغل مبتعداً.

صرخ موريتز:

- ألا تعرفني؟ أنا موريتز إيانوس!

هتف الفرنسي ضاحكاً.

- سالف سكلاف!

لقد عرفه في تلك اللحظة. فوضع طبق الطعام على الأرض واقترب من الحاجز الشائك. سأل جوزيف:

- كيف وصلت إلى هنا؟

قصّ عليه موريتز بعبارات مختصرة كيف وصل إلى ما هو عليه. كان جوزيف يفهم الألمانية أكثر من ذي قبل غير أن مسافة بعيدة كانت تفصل بينه وبين موريتز. سأل موريتز:

- وأنت، كيف وصلت إلى هنا؟

أجاب جوزيف:

- لقد قبضوا عليّ بعد خمسة أيام من فراري. هل تريد أن ترسل كلمة مني إلى بياتريس؟ إن الكتابة محرَّمة علينا ولم أتلقَّ أخباراً عنها منذ أربعة أشهر.

سأل إيوهان موريتز عن عنوان بياتريس. فراح الفرنسي يكتبه على ورقة. وبينما كان هذا مستغرقاً في الكتابة، أخرج موريتز رزمة علب السجائر من جيبه وكان قد تلقاها أمس من السرية ألقاها عبر الحاجز الشائك إلى جوزيف فسقطت عند أقدام الفرنسي. قال موريتز:

- سآتيك غداً بسجائر وبمزيد من الخبز. وسأرسل كتابك الليلة بالذات إلى بياتريس.

انحنى جوزيف وأخذ الرزمة. ثم لفَّ العنوان على حجر صغير

Twitter: @ketab_n

وألقاه بدوره عبر الحاجز الشائك إلى موريتز. غير أنّ الحجر وحده بلغ الجانب الآخر أما الورقة فقد سقطت بين الأسلاك الشائكة. هَمَّ جوزيف بكتابة العنوان من جديد. فهتف موريتز:

- دعها. سآخذها بنفسي. إنهم لن يعدموني رمياً بالرصاص إذا تسللت من خلال الأسلاك أو اقتربتُ من الحاجز.

وبينما كان موريتز يهبط درجات سلم برج الحراسة، رأى عن بُعد عريف الحرس متجهاً نحوه لتبديله. فعاد يصعد السلم متهافتاً وصرخ يحذر جوزيف:

- إن العريف قد أقبل. لن أستطيع أخذ العنوان. سأكون غداً في الساعة التاسعة في مركزي وسآخذ الورقة. فانتظرني غداً. والآن إلى اللقاء!

فأجاب جوزيف:

- سالف سكلاف!

وابتعد وهو يشعل «سيجارة». كان يرتدي ذلك الثوب الرمادي القديم لكنه كان أكثر تمزيقاً عن ذي قبل. وكان قد ازداد نحولاً. لقد كان الطعام في ذلك المعسكر رديئاً.

وبينما كان العريف يبدِّله بحارس آخر، كان إيوهان موريتز ينظر بزاوية عينه إلى حيث كان جوزيف ويقول لنفسه:

«سآتيه غداً برغيف كامل!».

- 84 -

أُصيب إيوهان موريتز تلك الليلة بالذات بحمى شديدة فنُقل صباح اليوم التالي في سيارة الإسعاف إلى المستشفى. كان يعرف أن جوزيف سينتظر قرب الحاجز ليلتقط الخبز والسجائر التي وعد

Twitter: @ketab_n

بتقديمها إليه. والأدهى من ذلك أنّ تلك الورقة - العنوان - كانت في مكانها وكان عليه أن يلتقطها كما وعد. أسف كلّ الأسف لأنّ الفرنسي سينتظره عبثاً وسوف يعتريه اليأس أخيراً. غمغم إيوهان موريتز: مسكين جوزيف! لعلّه كان ينتظر بفارغ صبر بزوغ النهار ممنياً نفسه بتلقي الرغيف الموعود!».

راح إيوهان موريتز يعزي نفسه بأنه في خلال أيام قليلة سيستردّ عافيته وسيستطيع عندئذٍ تزويد صديقه بالخبز كلّ يوم وسيحمل رسالة إلى بياتريس.

غير أنّ موريتز كان مصاباً بذات الرئة وكانت الإصابة قد سرت إلى رئتيه معاً. فلبث شهرين كاملين في المستشفى.

وفي اليوم الأول من شباط قال له الطبيب:

- ستخرج هذا الأسبوع من المستشفى وستُمنح شهراً كاملاً راحة مرضية.

فكّر إيوهان موريتز في أنه لو تقبل الراحة المرضية لازداد إبطاؤه على جوزيف. ولعلّ الفرنسي كان في خلال هذا الوقت الطويل ينتظر كل يوم أن يأتي موريتز ليلتقط عنوان بياتريس ويكتب إليها. كان ينتظر اللفافات والخبز الموعودين.

قرر إيوهان موريتز أن يرفض الراحة وأن يلتحق بفرقته. غير أن الطبيب قال:

- ينبغي أن تستعيد قواك يا فتى! إنك في حاجة إلى غذاء جيد وراحة كاملة وإلا فإنك هالك. أين تريد قضاء عطلتك؟

لم يجد إيوهان موريتز الشجاعة على رفض الراحة المرضية لكنه شعر بالدماء تتصاعد إلى رأسه. فقال الطبيب:

- إنني أفهم... إنك لا تدري أين تذهب. أستطيع أن أرسلك

Twitter: @ketab_n

إلى مصحّة للنقاهة لكنني أعتقد أن هذا ليس ما ينبغي لك. إنك في حاجة إلى جوّ دافىء... عائلي!...

شعر إيوهان موريتز بعواطفه كلها تتحفّز. لقد أدرك الطبيب ما كان يجول في خاطره. إنه لم يكن يريد مالاً ولا مصحات ولا غذاء جيداً، بل كان يتوق إلى مكان هادئ يستطيع أن يرى نفسه فيه وكأنه في داره. قال:

- إنك بحاجة إلى امرأة تُعنى بك وتساعدك. ينبغي أن تستعيد ثقتك في نفسك وإلا فإنك لن تشفى. إنك ستجد في مصحات النقاهة نساء كثيرات عديدات غير أنهن هناك لمجرد الضرورات الجنسية فقط. أما بالنسبة إلى مريض في مثل حالتك الصحية والنفسانية، فإن هذا النوع لا يدخل في نطاق تفكيرك. إنك يا فتاي في حاجة إلى الحنان وليس إلى الإثارة الغريزية!

ألقى الطبيب نظرة حوله. كان واثقاً من دقة تشخيصه للمرض. كان متأكداً ممّا يتفق ومزاج مريضه. كان ضميره المهني وقناعته توحيان إليه بأن يشير على مريضه بالحنان والجو العائلي والثقة وإخلاص المرأة كعلاج ناجع! غير أنه ما كان يستطيع تقديم هذه الأدوية إلى مريضه لافتقاره إليها. مع ذلك فإنّ المريض ما كان يمكن شفاؤه بدونها. توقفت أنظاره على الممرضة التي كانت واقفة بقربه وبيدها بطاقة موريتز.

هتف الطبيب وكأنه وجد الحل:

- شفايتزر هيلدا! إنك تقطنين مع أمك في المدينة أليس كذلك؟

أجابت:

- مع أمي نعم. وعلى بعد خطوتين من المستشفى.

كانت هيلدا تنظر إلى الطبيب وفي عينيها بوادر ثقة الجندي الذي ينتظر بكلّ طاعة أوامر رئيسه.

Twitter: @ketab_n

ابتسم الطبيب. لقد تأكَّد في تلك اللحظة من أن الحلّ المطلوب قد بات في متناول يده. قال:

- إنني أوكل إليك أمر إيوهان موريتز الذي يجب أن تعامليه كما تعاملين زوجك تماماً. يجب أن تُعيديه في خلال شهر من اليوم مسترداً كامل قواه. أريد أن أراه قبل أن يلتحق بوحدته. وإنه في حاجة إلى امرأة تكون حبيبته بالوقت نفسه الذي تكون فيه أمه وأخته!

- لقد فهمتُ يا سيدي الطبيب.

كانت هيلدا فتاة ذات وجنتين ورديتين ممتلئتين لا تتجاوز العشرين من عمرها قصيرة القامة ميالة إلى البدانة.

راح الطبيب يفحصها ببصره ناعماً. لقد آمن من أنه واجد فيها كل الحنان اللازم لإيوهان موريتز. ولما نظر إلى شعرها قال الطبيب في نفسه: «إنّ الشقراء مفضلة في مثل هذه الحالة لأن السمراء تثير فلا تصلح لهذه الحالة. أما الشقراوات فإن حضورهن وحده يكفي لتهدئة انفعال المريض».

قال الطبيب موجِّهاً حديثه إلى الفتاة:

- ستحصلين على راحة أربعة عشر يوماً. لن يكون لديك خلالها إلا العناية المتواصلة بموريتز. يمكنك أن تأخذي الطعام كلّ يوم من مطبخ المستشفى ولكن يجب أن تطهي شيئاً في الدار لأنه في حاجة إلى ألوان من الأطعمة يهيئها الرفيق في عش الزوجية وليس إلى الطعام المأخوذ من قدر عام.

قالت هيلدا:

- فهمت يا سيدي الطبيب!

كانت تشعر بفخار وكبرياء لهذه المهمة وتعرف أن كلّ زميلاتها سيحسدنها على هذه الخدمة. سأل الطبيب:

- هل لك غرفة مستقلة في البيت؟

Twitter: @ketab_n

فاحمرّ وجه هيلدا وأجابت:

- بالطبع.

فقال الطبيب:

- أعتقد أن هذا الفتى يعجبك أليس كذلك؟

ودون أن ينتظر الجواب أصدر الأمر التالي:

- هيئي ورقة الخروج وأوزاق المأذونيات لكما وأذون الطعام الجيد الكافي لثلاثين يوماً لشخصين مع زيادات في الفئة «أ» من الأطعمة.

هتفت هيلدا:

- ليكن!

وفتحت الباب ليخرج الطبيب. فتوقف هذا على العتبة وألقى نظرة على إيوهان موريتز وقال له:

- إلى اللقاء يا فتاي. عد إليّ سريعاً معافى!

- 85 -

ألقى إيوهان موريتز نظرة على فناء المستشفى. كان الثلج يتساقط. فلبث فترة طويلة أمام النافذة يتأمل حاجز الأسلاك الشائكة. وفجأة أحسّ بيدين باردتين تحجبان عينيه. فالتفت وإذا به أمام هيلدا. كان قد نسيها تماماً، بل ونسي كذلك كلمات الطبيب وأقواله.

قالت هيلدا:

- ارتدِ كسوتك العسكرية وتعال معي إلى الصندوق ليُدفع لك مرتبك. إن ورقة الخروج من المستشفى والمأذونية جاهزتان. وكذلك مأذونيتي.

Twitter: @ketab_n

كانت هيلدا تتحدث بعجلة وهي تساعده على ارتداء كسوته وتمدّ يدها إلى قميصه فتسوّيه. شعر إيوهان موريتز بيد هيلدا على صدره فأحسّ بأنها يد حبيبة عرفها منذ زمن طويل. كانت تساعده على ارتداء ملابسه كما لو كان ولداً لها أو زوجاً منذ الأبد.

كانت هيلدا حتى ذلك اليوم نافرة باردة الإحساس نحوه، فكانت تأتيه بالأدوية وتقيس حرارته ثم تمضي دون أن تتفوه بكلمة، أما الآن فقد أصبحت ودودة متحببة أكثر تعلقاً وحناناً من سوزانا وإيوليسكا.

شعر موريتز بأنّ هيلد متيمة حباً به. لقد خلقت هذه العاطفة في نفسها فجأة بعد صدور أمر الطبيب. كانت تحبه تنفيذاً لوعدها للطبيب. كانت تلك اليد التي امتدت إلى صدره لتسوي القميص والتي راحت تساعده على ارتداء ثوبه يد امرأة مُحبَّة عاشقة تماماً كما أشار به إليها الطبيب.

قالت هيلدا:

- لقد سمح لنا الطبيب بأخذ سرير من المستشفى. إنه سرير كبير أبيض من الشعبة الجراحية ومعه غطاءان من الصوف. إن سريري يضيق عن استيعاب شخصين.

كانت هيلدا تفكر حتى في السرير. قالت معقبة:

- لقد قال الطبيب أنه لا يجب أن أثيرك كثيراً. وهذا طبيعي للغاية لأنك كنت مريضاً مرضاً خطيراً. غير أنه بعد أسبوع من النظام الغذائي وتناول الأطعمة الغنية بالغذاء والاستسلام للراحة، سيتبدّل حالك كله.

سأل موريتز:

- ما الذي سيتبدل؟

فقاطعته قائلة وهي تطبع قبلة على شفتيه:

Twitter: @ketab_n

- سترى.

قبض إيوهان موريتز مرتَّبه. لكنه لم يشعر بسرور لأنه كان إنما ينفذ أمراً صدر إليه. لم يكن أمراً بالعمل في الحصون أو في مصنع الأزرار أو بالقيام بالحراسة في المعسكر، بل كان أمراً بمرافقة هيلدا ومضاجعتها ليشفى عبد شهر من الناحيتين: الجسدية والعقلية. وإنه لأمر جميل غير أنه أمرٌ على كل حال وما كان الأمر ليُسعِد موريتز.

- 86 -

قالت هيلدا بعد انقضاء أسبوع على حياتهما المشتركة:

- أتدري أننا لو تزوجنا فإنني سأحصل على أربعة عشر يوماً أخرى أقضيها معك؟

نظر إليها بحنان. فأعقبت:

- لقد حدثتني البارحة بعزمك على الزواج بي.

فقال موريتز:

- صحيح.

تذكَّر أنه شرب أمس مع هيلدا وأمها خمس زجاجات من الخمر.

قالت هيلدا:

- لِمَ لا نتزوج؟ إذا أسرعنا في ذلك فإنني سأحصل على إذن إضافي وسيكون نصيبك كذلك تمديد راحتك. سوف يعطوننا مسكناً وأثاثاً وعلاوة مالية قدرها ألف مارك. ثم إنك لن تنام في الثكنة إلا في يوم خدمتك. ولقد تحدثت بذلك إلى أمي وأعتقد أن خير حلّ هو أن نسارع بالزواج.

لم يحِر موريتز جواباً. فظنَّت هيلدا أنه لا يريد قضاء عطلته بالطواف بين مختلف الدوائر لإعداد الشكليات اللازمة. قالت:

Twitter: @ketab_n

- لن أحوجك إلى القيام بأي مجهود. يمكنك البقاء في البيت والاستمتاع بالراحة الكاملة بينما أقوم أنا بالخطوات اللازمة في مكاتب الأحوال المدنية والإسكان والإعاشة والعمل ودائرة الشرطة. وبالإيجاز، سأقوم بكلّ ما ينبغي. إذ لا ينبغي أن تتعب نفسك.

كان إيوهان موريتز موافقاً على هذا العرض. لقد كانت نظريات هيلدا وعروضها منطقية. إنهما إذا تزوجا ستزداد الفائدة التي يجنيانها.

تزوجا وحصلا على مسكن ذي ثلاث غرف وحمام ومطبخ وأعطي لهما ألف مارك مع بطاقات للحصول على الأسرة والألبسة والأثاث وأدوات المطبخ ولوازمها من الحطب والفحم والنبيذ واللحوم اللازمة لحفلة الزفاف إلى جانب جهاز «للراديو» وعدد كثير من الكماليات.

قالت هيلدا وهي تساعد موريتز في ارتداء ثياب للذهاب إلى الثكنة:

- لو أننا لم نتزوج لكنا من الحمقى لأننا كنا سنخسر كل هذه الفوائد.

ثم أعقبت:

- ألا تنام في البيت خيراً من نومك في الثكنة؟

فأجابها:

- بلا شك.

- أليست الأطعمة التي أقدِّمها لك مساءً خيراً ممّا تأكل في السرية؟

كانت هيلدا متباهية فخورة بعملها. أردفت تقول:

- سأعلن بعد شهرين أنني حبلى وبذلك أحصل على إجازة طويلة وبذلك تستطيع أن تتناول طعام الظهر في المنزل أيضاً

Twitter: @ketab_n

وسنحصل على مزيد من الطعام لأنّ المرأة الحبلى تعطى عادة ثلاث بطاقات تغذية. سيمكنك أن تأكل كما تشتهي، لأنني أتوق إلى رؤيتك منتفخ الأوداج سميناً.

ابتسم إيوهان موريتز وقال لها:

- إنك فتاة طيبة يا هيلدا!

- 87 -

تلقى مخفر درك فانتانا نسختين من إذاعة بحث لإعلانها في القرية. قرأ رئيس المخفر نيكولاي دوبريسكو فيها ما يلي: «إن اليهودي موريتز إيون المسمى إيوهان وجاكوب وإيانكل قد فرّ من معسكر العمل. والمطلوب من كلّ شرطة البلاد ورجال الدرك فيها البحث عنه. مع العلم أن كل مَن يأويه أو يعرف معلومات عن مكان وجوده ولا يتقدم بها إلى السلطات يُعاقَب بالسجن».

وكان في الزاوية اليمنى من النشرة صورتين لإيوهان موريتز إحداهما مأخوذة من الأمام والأخرى من الجانب.

قال رئيس مخفر الدرك وهو ينظر إلى الصورة: «إن هذا الشخص إذن يهودي حقاً!». ثم استدعى أحد الجنود وأمره قائلاً:

- خذ بندقيتك وامضِ على الفور فأتِني بأم هذا اليهودي وبأبيه والصِق هذا الإعلان على الجدار الخارجي وليكن الإلصاق محكَماً فلا يتطاير مع الريح.

كان الثلج يتساقط في فانتانا ورئيس المخفر يتأمله من خلال النافذة فلمح على الطريق الكاهن ألكسندرو كوروغا يسير مقوّس الكتفين متأبطاً حافظة أوراق.

عاد الجندي بعد فترة يقول:

Twitter: @ketab_n

- لقد جئتك بأمّ اليهودي فقط لأنّ أباه مريض.

غضب رئيس المخفر لأنه كان يريد استجواب الأبوين معاً. فقال الجندي:

- إذا أمرتَ أتيتك بالأب بالقوة. غير أنه لا يستطيع الوقوف على ساقيه. لقد نزعتُ الغطاء عنه فوجدت جسده منتفخاً كالقربة.

فكّر رئيس المخفر برهة ثم عدل عن استجواب الأب وأمر الجندي بإدخال أم إيوهان موريتز التي كانت منتظرة عند الباب.

دخلت أريستيتزا إلى المكتب وهي ممتقعة الوجه من الغضب. سألت محنقة:

- كيف تجرؤ على إرسال الجندي إليّ ليسوقني ببندقية وكأنني مجرمة؟ أليس لديك كفاية من اللصوص والمجرمين تستقدمهم إلى المخفر فرُحتَ توقف الأشخاص الأشراف بدلاً منهم؟ أم تَراني ارتكبت جريمة ما!

كانت أريستيتزا في أقصى درجات الانفعال وقد صمَّمت على تَمْل عينَي رئيس المخفر عندما أبلغها الجندي المسلح أنه جاء يقودها إلى القسم.

قال رئيس المخفر:

- إنك لست مجرمة. إنما هو ابنك الذي هو الآن موضع بحث السلطات وملاحقة رجال البوليس.

نظرت أريستيتزا إلى إذاعة البحث التي قدَّمها إليها رئيس المخفر فلمّا رأت صورة ابنها انخرطت في البكاء وقالت:

- كم هَزُل المسكين!

كان حسبها أنّ ابنها إيوهان قد هَزُل لتستخلص من ذلك أنه أسيئ إليه. وكان هذا هو كل ما يستحوذ على اهتمامها.

قال رئيس المخفر آمراً:

Twitter: @ketab_n

- اقرئي.

فأجابت وهي تمسح دموعها:

- وما فائدة القراءة؟ إنني أرى صورته وأعرف أنه سينفق من الجوع وأن القمل يفترس جسده وأنهم ضربوه وسجنوه فماذا تريدني أن أقرأ بعد هذا؟ إن هذا يكفيني.

قرأ الدركي النشرة بصوت مرتفع فقاطعته أريستيتزا منذ قراءته الجملة الأولى وهتفت:

- اقرَأ مرة أخرى أيها الدركي. علّني لم أفهم ما سمعت. هل قلت «اليهودي موريتز إيون»؟ إذا كنت قرأت ذلك فإن الأمر إذن لا يتعلق بولدي! إنني لستُ أماً لولد يهودي!

مدّ رئيس المخفر الإذاعة إليها فعادت أريستيتزا تتأمل الصورة وتجيش عواطفها حسرة على ولدها الهزيل.

سأل رئيس المخفر:

- أليس هذا ابنك؟

فأجابت أريستيتزا:

- إنه هو، المسكين! لا ليغفر الله خطيئات أولئك الذين سجنوه!

هتف رئيس المخفر:

- هل تعرَّفتِ عليه؟ إذن لِمَ تنكرين أنه يهودي؟ لا لنضيع وقتنا. من الخير لك أن تصغي إليّ. إنّ كلّ ما ستُعلنينه عديم الفائدة. إنك شخص خاص. أما أنا فلا أصدق إلا الأقوال الرسمية. إن هذه الورقة مستَنَدٌ صدر عن السلطات فهي إذن مستند مقدّس وهي تؤكد أن ابنك يهودي.

صرخت أريستيتزا:

- إذا جرُؤتَ على القول بأن ابني يهودي فقأتُ عينيك! هل تريد

Twitter: @ketab_n

إغضابي؟ مسكين ولدي! لقد كان عند ذهابه جميلاً معتداً كالأرزة السامقة والآن لم يبقَ عليه إلا الجلد والعظام!

قال رئيس المخفر:

- لا تهيني السلطة وإلا نظَّمت بحقك ضبطاً لإهانتك أحد أفراد القوة العامة!

هتفت أريستيتزا:

- لقد أنجبتُ إيوهان مع زوجي وليس مع السلطات! إنني أنا التي حملته في أحشائي وأرضعته حليبي وليست السلطات. وأنا أعرف أنه ليس يهودياً.

- إن وزارة الداخلية تؤكد حرفياً في هذه النشرة أن موريتز إيون يهودي.

- لتقل لي وزارة الداخلية ذلك إذا وجدت في نفسها الجرأة! سأبصق في وجهها إذا جرؤت على القول إنها تعرف ذلك الذي حملته في أحشائي أكثر مني.

- إذا كنتِ رومانية فإن زوجك قد يكون يهودياً. إنه واحداً منكما ينبغي أن يكونه على كل حال. لأن هذا مستند رسمي. لعلك ما كنت تعرفين ذلك.

سألت أريستيتزا:

- هل أنت ثمل؟ كيف لا أعرف من هو ربي وأمام آية «أيقونة» أجثو على ركبتي؟

فقال رئيس المخفر:

- إن القضية ليست مسألة أيقونات. يمكن أن يكون المرء يهودياً مسيحياً لأنّ المسألة مسألة دم.

- إن دمي ودم زوجي مسيحي. أما أولئك الذين سجنوا ابني وعذّبوه في السجون فهؤلاء هم الكَفرة!

Twitter: @ketab_n

قال رئيس المخفر ملمّحاً:

- هل أنتِ واثقة من أن زوجك مسيحي؟ لعلك في خلال هذه السنوات الطويلة من الحياة الاجتماعية الوثيقة قد اطّلعتِ على شيء. إن الرجال أسهل من النساء في تقديم الدليل. أم تُراك تجهلين هذه الناحية المميزة؟

زمجرت أريستيتزا:

- أتجرؤ على القول بأنني لا أعرف ذلك الذي نمت بجانبه خمسة وثلاثين عاماً؟ إن النساء الفاسقات يعرفن نوع الرجل الذي يضاجعن. مع ذلك فإنك تجرؤ على القول إنني نمت خمسة وثلاثين عاماً بجانب زوجي دون أن أعرفه؟ وإن السلطة تعرف خيراً مني مذهب الغلام الذي أنجبته أنا وزوجي؟ أتسألاني أنت أيها الدركي والسلطة من ورائك تفسيراً عن الذي حملته في بطني وأرضعته لبني؟

كانت عينا أريستيتزا تحدقان في المحبرة الموضوعة على المكتب قبالتها. كانت ترى كل شيء مصبوغاً بلون أحمر فكانت المحبرة التي كانت تريد قذفها إلى رأس الدركي حمراء والجدران كذلك، بل إن الدركي نفسه كان من ذلك اللون في نظرها.

وشعَرَ الدركي باتجاه أبصارها فنقل المحبرة بحكمة بعيداً عن متناول يدها.

تقلصت أصابع أريستيتزا على أردان ثوبها بغضب وكأنها كانت تعتصر عنق السلطة بين يديها فتخنقها. فلما أبعدت المحبرة عن متناول يدها شعرت بأن آخر سلاح قد انتُزع منها.

راحت أريستيتزا تصرف على أسنانها ثم رفعت أطراف ثوبها بيديها لتغطي رأسها. فتطايرت أطراف الثوب العريض المثنى وكأن عاصفة قد هبَّت بين طياته فارتفع كذلك قميصها وتعرى بذلك جسدها المغضنِ المزرق وظهر ثدياها وكأنهما كيسان فارغان أسودان

Twitter: @ketab_n

من الجلد. شاهد الدركي في خلال لحظات خاطفة كلّ عري أريستيتزا من الصدر والظهر والجانب فأغمض عينيه. فسمع صوت الباب يصفق بعنف اهتزّت له الجدران وتساقطت من السقف قطع بيضاء من الجير.

خرجت أريستيتزا وصوتها يجلجل كالنفير الصدئ في أسماع الدركي قائلة:

- إليك جوابي! لتلحس... أنت والسلطة معاً!

- 88 -

لمّا وصلت أريستيتزا إلى منزلها تخلَّصت من الشال الذي كانت تغطي به كتفيها وتمدَّدت أمام الموقد. ألقت قطعة من الخشب لتغذي النار المشبوبة وراحت تنظر إلى اللهب الطويل الأحمر يتراقص أمام عينيها. كانت الدموع تنهمر من عينيها وتسيل على خديها. فكّرت في نفسها: «لن أقول شيئاً لزوجي إنه مريض لا يجب أن أعذّبه».

أدارت أريستيتزا رأسها. كان العجوز نائماً على ظهره فراحت تنظر إليه من خلال دموعها وتفكِّر في إيون الذي كانت السلطة ورجال الدرك يعذبونه منذ خمس سنين في كل السجون ويعتبرونه يهودياً. غمغمت: «وهو ليس كذلك. فلو إنه كان يهودياً لما كان سجن. أما إيون فإنه مسكين ساذج يصدِّق كل ما يقوله الناس له فلو أنهم ضربوه ليعترف بأنه يهودي لاعترف ولنجم عن ذلك تصديق السلطة لاعترافه!».

لبثت أريستيتزا تنتحب بهدوء ورأسها بين يديها. تستطيع السيطرة على مشاعرها فأرادت أن تقول لزوجها أن ولدهما قد طُبعت صورته على إعلانات خضراء كإعلانات الانتخابات وإنها ملصقة

Twitter: @ketab_n

على باب مخفر الدرك. غير أنها راحت تفكّر: بأنها لن تحدّثه عن هزال إيون وعن أنه يشبه الكلب العقور لأنه سيغتم للخبر. غير أنني سأحدثه بأن الدركي قال لي: إن إيون يهودي».

هتفت أريستيتزا:

- إيانكو! استيقظ. إذا نمتَ طول النهار فإنك لن تستطيع الاستراحة في أثناء الليل!

لم يُجِب العجوز. كان من عادته أن يخلد إلى الصمت كلما أوقظ، لكنه الآن غير نائم. إن عينيه مفتوحتان ولا شك أنه يسمع كل ما يُقال له غير أنه لا يجيب لشدة كسله. قالت:

- إيانكو! لقد قال لي الدركي بأنك يهودي. أتظن أنه كان شديد المكر. لقد أجبته الجواب الذي يستحقه.

خُيِّل لأريستيتزا أن زوجها يبتسم: كانا كثيري التشاحن في خلال حياتهما الزوجية التي تخطَّت عامها الخامس والثلاثين. لكنها كانت تشعر أبداً بمودة نحوه. مع ذلك فقد كانت تحبه. كانت أريستيتزا تحب زوجها بكلّ قواها وروحها.

قالت مسترسلة:

- إيانكو، إذا لم تُشفَ حتى صباح الغد سآتيك بطبيب من المدينة. سأبيع خنزيراً وأدفع من ثمنه أجرة الطبيب. أما إذا شفيت فسنشتري خنزيراً آخر، لكن ينبغي أن تشفى.

غير أن العجوز لم يُجب، بل ظلّ صامتاً فاسترسلت أريستيتزا:

- افتح عينيك يا إيانكو سأعطيك لفافة. لقد احتفظتُ لك بواحدة.

ونهضت من مكانها ومضت إلى عمود في الركن أخرجت من تحته «سيجارة» كانت قد وضعتها جانباً من أجل زوجها وقالت تسأله:

Twitter: @ketab_n

- هل لديك ثقاب إلى جانبك؟

واقتربت من السرير واللفافة في يدها. كانت تريد أن تضعها بيدها بين شفتي زوجها كما جرت عادتها في أيام زواجهما الأولى. كانت تعرف أنه لن يفتح عينيه، بل سيباعد بين شفتيه بما يكفي لإدخال طرف اللفافة.

غير أن شفتي العجوز المتورمتين لم تتحرّكا في ذلك اليوم، بل لبثتا جامدتين حتى بعد أن قربت أريستيتزا اللفافة منهما. هتفت:

- ما بك يا إيانكو؟

أمسكت بكتفه وراحت تهزه. غير أنها أحسَّت ببرودة جسمه تسري إلى يدها. كان الثقاب في يدها، ذلك الثقاب الذي أرادت أن تشعل به سيجارة زوجها. أشعلت به شمعة وضعتها عند رأسه على السرير وراحت تبكي بكاء مراً. عرفت في تلك اللحظة أنه لم يبقَ لها أحد يصغي إليها...

- 89 -

بكت أريستيتزا حتى أنهكها البكاء وأفضها الألم فخفَتَ صوتها وراحت تنتحب صامتة قرب الميت المسجى دون حركة ولا نأمة ولا خاطر. غير أن البكاء لم يكُن ليخفِّف مصابها.

ثم أجهد ذهنها فتعب وأنهك وكفَّت عن البكاء. كانت أريستيتزا في تلك اللحظة وحيدة مع نفسها. وبينما كانت تبكي كانت تحسّ كما لو كان هناك أحد بجانبها. أما الآن وقد كفَّت عن البكاء فقد ثقلت الوحدة عليها ورانت قوية مؤلمة فأرادت أن تعاود البكاء لتستأنس لكنها أخفقت.

أجَّجت النار في الموقد ووضعت ماء في القدر عليها لتهيئ

Twitter: @ketab_n

الطعام كما كانت تعمل كلّ يوم ثم جذبت ستائر النوافذ. فلمّا انتهت أحسّت بالوحدة من جديد. كانت مذهولة متعبة. حدَّقت في وجه الميت لأنها لم تكن تخاف الموتى. كانت تعرف أنها ستنام وحيدة مع الميت في غرفة واحدة تلك الليلة والليالي الثلاث المقبلة حتى يُدفن وإنها ستبقى في خلال هذه الفترة وحيدة مع ميتها في ذلك البيت.

تذكرت أريستيتزا أقوال الدركي: «لعلّ زوجك يهودي».

كانت واقفة في منتصف الحجرة معقودة الذراعين على صدرها حائرة في أمرها.

راح الماء يغلي في القدر لكنها لم تكُن تشعر بالجوع. كان السرير غير منظم وكانت تستطيع الاستلقاء عليه. غير أنها لم تكن ناعسة. كانت تريد أن تتحرك أو تعمل شيئاً مهما كلف الأمر. كان عقلها وجسمها قد هزّهما الألم وأثارهما. فما كانا يستطيعان السكون. كان ينبغي أن تتحرك. أعقبت الوحشة المؤلمة سيل أفكارها المتجمدة. عادت من جديد تجذب الستائر بعد أن رفعتها واقتربت من الميت وهي تشعر كأنّ الدركي منتصب بالقرب منها يقول لها «لعلّ زوجك يهودي!».

نظرت أريستيتزا إلى الميت ثم أزاحت الغطاء. كانت الجثة متصلِّبة. ألقت أريستيتزا نظرة على القميص والسراويل المصنوعة من الكتان الخشن والتي كثيراً ما غسلتها بيديها وطوتها بعناية. فحلَّت رباط السراويل وأنزلتها إلى ركبتي الميت. كان جسده قد حال لونه إلى الزرقة.

هتفت أريستيتزا بصوت مرتفع:

- لِمَ أخجلٍ؟ إنه زوجي.

تذكرت أيام شبابهما عندما كانت تراه عارياً إلى جانبها وعادت تنظر إليه في تلك اللحظة وقد تفسَّخ لون بشرته وحال.

Twitter: @ketab_n

«إن زوجك يهودي»! كانت هذه الجملة تقرع رأسها وتدوي في أذنيها بعنف فراحت يدها تبحث عن أعضاء زوجها أسفل بطنه. لقد كانت هي الأخرى بنفسجية اللون كالجفنين والأنف والشفتين. غير أن أريستيتزا لم تستمر في مهمتها، بل جذبت يدها منتفضة ورفعت سراويل الميت بسرعة وأعادت عليه الغطاء ثم انتصبت واقفة وهي ترتعد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ورسمت إشارة الصليب وهي تتمتم:

- أشكرك يا رباه لأنك أوقفتني في اللحظة المناسبة.

وعادت ترسم إشارة الصليب على صدرها وتقول:

- لو أنني نظرت إلى أعضائه الجنسية لاحترقتُ في الجحيم. لأن فعلتي كانت ستُعتبر خطيئة قاتلة. لكنني لم أنظر. إنني لم أرَ شيئاً. ولا أريد أن أرى أو أن أعرف إذا كان يهودياً. لا أريد!

نظرت أريستيتزا إلى الميت ثم قالت وهي تنتحب:

- اغفِر لي يا إيانكو. أقسم لك إنني لم أرَ شيئاً. وإنني ما كنت أريد رؤية شيء. إنك تعرف يا إيانكو أنني لم أنحدر في الخطيئة إلى هذا الحد، إنك تعرفني تماماً لتتأكد من صحة قولي. لقد حشا الدركي والسلطة الخطيئة في رأسي فليحترق كلاهما في نار جهنم.

- 90 -

كان الجندي إيوهان موريتز يجتاز شوارع المدينة مرافقاً خمسة مساجين. وكانت الساعة السابعة صباحاً. فلما مرّ قرب بيته أطلت هيلدا من النافذة ولوَّحت له بيدها. كانت تحمل بين يديها ولدهما فرانتز. سمع موريتز صوت هيلدا وهي تقول: «هذا أبوك أتعرفه؟ انظر. إنه يلبس خوذة ويحمل بندقية».

Twitter: @ketab_n

كان فرانتز في شهره الثالث وكان لا يستطيع رؤية موريتز وهو يحرس المساجين من خلال شوارع المدينة متنكباً بندقيته. غير أنّ هيلدا كانت تريه كل يوم تلك اللوحة ليكون فخوراً بأبيه كما كانت هي تفخر به.

ظل إيوهان موريتز يفكّر في هيلدا وفي ابنه طوال الطريق.

بعد أن تجاوز السجناء المدينة قطعوا حقلاً وموريتز في أعقابهم صامتاً وبندقيته على كتفه. ثم اتجهوا نحو جسر فهبطوا تحته. كان هذا الجسر هو منطقة عمل أولئك السجناء. ولمّا بلغ السجناء الضفة التفتوا نحو موريتز وضحكوا مقهقهين. كانوا هنا بعيدين عن الأبصار والأسماع.

هتف أحد السجناء وهو يضغط على يد موريتز بصداقة وإخلاص:

- سالف سكلاف! هل نمت جيداً؟

كان ذلك السجين هو جوزيف.

أجاب موريتز بمثل ذلك النداء وراح يضغط على أيدي السجناء مصافحاً بعد أن أسند بندقيته إلى صخرة ثم فتح أزرار معطفة وأخرج قطعة كبيرة من الخبز وخمس علب من «السجائر».

قال موريتز وهو يقدم «السجائر» إلى جوزيف:

- ما زلت مديناً لك بخمسة عشر ماركاً لأنني ما استطعت شراء الصابون. سأحاول الحصول عليه غداً. ثم أخرج من حقيبته العسكرية رغيفاً من الخبز أعطاه لجوزيف فجلس السجناء وراحوا يدخنون اللفافات يشاركهم موريتز في جلستهم. كانوا كل صباح منذ أن بدأوا العمل في هذا الجسر، يجلسون كل يوم نصف ساعة تحت الجسر يستريحون ويضحكون ويتجاذبون الحديث مع موريتز بعيداً عن أعين الرقباء. ثم كانوا يشتغلون حتى الظهر حيث يعاودون الاستراحة

Twitter: @ketab_n

فيعطيهم موريتز الرسائل التي وردت إلى عنوانه باسمهم من فرنسا ويوزع عليهم «السجائر» والخبز وكل ما كان يشتريه لهم من المدينة. وبعد الاستراحة يعودون إلى العمل. كان موريتز كثيراً ما يساعدهم في عملهم بنفسه، كان يقوم بالعمل سراً دون أن يُرى، لكنه كان يشعر بلذة في عمله لأن المساجين ما كانوا يتقنون هذا النوع من العمل. كان يشفق عليهم ويرثي لحالهم. كانوا خمسة من المفكرين الذين لم يستعملوا أيديهم قط فكان موريتز يدلهم على نواحي عملهم ويقوم بجانب منه لأنه كان معتاداً على هذا النوع من العمل اليدوي.

قال جوزيف:

- جان، أريد أن أحدثك بشيء اليوم.

بينما راح السجناء الآخرون يباشرون العمل فكانت ضربات المعاول والمجاريف تسمع متَّزنة رتيبة.

قال جوزيف لما أضحى وحيداً مع موريتز:

- إننا سنلوذ بالفرار. ليس اليوم ولكن في أحد الأيام. سوف نفرّ نحن الخمسة معاً.

نظر موريتز إلى الفرنسي. كان يظنّ أن جوزيف يمزح في قوله غير أن جوزيف لم يكن مازحاً.

سأل موريتز:

- أية إساءة سببتها لك ولزملائك لتهربوا؟ هل تريدون أن أقضي ما تبقى لي من عمر بين جدران السجون؟

كان موريتز ممتقع الوجه من الغضب. استرسل:

- إنك تعرف أنني لن أستطيع إطلاق النار عليك إذا فررت لأنني لا أريد أن أقتلك. وإذا لم أطلق النار عليك انتهى بي الحال إلى السجن. لكنني أعتقد بأنك تمزح.

أجاب جوزيف:

Twitter: @ketab_n

- كلا إنني لا أمزح. ينبغي أن نفرّ. غير أنك لن تسجن.

أشاح موريتز عنه بوجهه وقال:

- سأطلب إلى آمر السرية أن يبدل مركزي. لن أعود لحراستكم على هذا الجسر اعتباراً من صباح الغد لأنكم عازمون على الفرار. إنني لا أريد أن أقتل كما لا أريد أن أسجن. إنني لم أطلق النار على أحد في حياتي وقد مكثتُ سنين كافية في السجن. لن أحضر معكم اعتباراً من الغد وباستطاعتكم إذا شئتم أن تفروا من حراسة سواي. إن ذلك شأنكم.

سأل جوزيف:

- كما لا تريد الإصغاء إلى خطتي؟ ينبغي أن تفرّ معنا.

فأجاب موريتز:

- لا مبرر لي على الفرار! إن لي ولداً وزوجة ولست سجيناً. لو كنت سجيناً لجازَ لي أن أفكّر في الهرب.

قال جوزيف:

- لكنك سجين مثلنا يا عزيزي جان. إنك رقيق يحمل بندقية على كتفه بينما نحن أرقاء دون بنادق. لكننا رغم كل ذلك من طرازٍ ونوع واحد لذلك ينبغي لك أن تفرّ معنا.

قال موريتز وهو يشعل «سيجارته»:

- لن أحضر معكم اعتباراً من الغد.

كان وجهه شديد الاحمرار من الغضب.

قال جوزيف يقنعه:

- لكننا نريد خيرك يا عزيزي. إنك تعرف بأن الحرب ستنتهي قريباً والحلفاء يقتربون. ألا ترى أنهم إذا وجدوك في ثياب الحرس الألماني ذقت منهم ويلاً جديداً؟ سيسجنونك لعشرة أو لعشرين عاماً.

Twitter: @ketab_n

فقال موريتز:

- لا تحدِّثني بالحماقات. إذا وصل الحلفاء فلن يسيئوا إليّ لأنني لم أسِئ إلى أحد. إن أجهزة الراديو تتحدث قائلة: إن الحلفاء أقوام عادلون.

- لكنك عدوّهم يا جان. إنك عدو فرنسا وطني وعدو الأمم الحليفة.

قال إيوهان موريتز غاضباً:

- أنا عدو فرنسا؟ ألأنني عدو فرنسا أشتري لكم خبزاً «وسجائر» وكل ما تريدون؟

طرح موريتز «سيجارته» على الأرض واسترسل بانفعال:

- ما كنت أعرف أنكم تعتبرونني عدواً لكم. كنت أظن أنني صديقكم.

قال جوزيف:

- إنك صديق الألمان تحارب من أجلهم. إنك من جنود هتلر فلا ينبغي أن تنسى ذلك.

سأل موريتز غاضباً:

- قل لي: عندما أحصل على زجاجة من الجعة هل أشربها مع الألمان أم معكم؟ هل أشربها في الثكنة أم هنا معكم تحت الجسر؟ أجبني؟ مع مَن أدخن التبغ الذي أملكه؟ هل أتحدث معكم عن كلّ ما في خاطري أم معهم هم؟ إنني لم أتحدث أبداً إلى الألمان في الثكنة. إنني أتحدث معكم وحدكم لأنني صديقكم. لكنكم تدّعون الآن بأنني عدوكم. لقد ذكرت لي منذ حين أنني صديق الألمان. هل رأيتني مرة أتحدَّث معهم كما أتحدث إلى أصدقاء؟ إنني كنت صديقاً لكم ولكم وحدكم!

كانت يدا موريتز ترتعدان كلما رفعهما باللفافة إلى شفتيه.

Twitter: @ketab_n

استرسل قائلاً:

- لقد قلتَ إن الحلفاء سيسجنونني عشرين عاماً ولعلّ الفرنسيين أنفسهم هم الذين سيتولّون ذلك. أليس كذلك؟

فأجاب جوزيف:

- نعم. إذا دخل الجيش الفرنسي إلى هنا فسيسجنك الفرنسيون.

- حسناً. إذا كان الأمر كذلك فإن معناه أنّ كل عدالة على الأرض قد اختفت. وعندئذٍ لن آسف على شيء حتى ولو رموني بالرصاص. إذ ما فائدة الحياة بعد زوال العدالة. ما فائدتها إذا كنت أنتَ والآخر تزعمون أنني عدوّ لكم! اعتباراً من الغد لن أرافقكم إلى الجسر. وإذا شئتم الفرار فأنتم وشأنكم. لن أتدخل في موضوعكم ولن أوقفكم، بل إنني إذا استطعتُ مساعدتكم فإنني لن أتوانى عن مساعدتكم شريطة أن لا أعرِّض نفسي للخطر. إن مساعدة السجين على الفرار عمل طيب يسرني القيام به. لكنني لن أفرّ معكم. ولا أريد قضاء بقية عمري في سجن الأشغال الشاقة من أجلكم.

قال جوزيف:

- إن المسألة لا ينبغي أن تناقش من هذه الزاوية. إننا نريد انقاذَك معنا وهذا هو عربون الصداقة. نريد أن نصحبك معنا إلى فرنسا.

قال موريتز:

- إن لي زوجة هنا وولد ولا أستطيع مرافقتكم.

- لن تمضي شهور قليلة حتى يكون الحلفاء قد وصلوا إلى هنا. وعندئذٍ سنستقدم زوجتك إلى فرنسا. إنّ لي مزرعة في منطقة باريز وستبقى فيها. إنك حرّاث لذلك فستعنى بها وستربح مالاً وفيراً

Twitter: @ketab_n

تستطيع أن تشتري به لنفسك مزرعة وبيتاً. إن فرنسا جميلة وأهلها طيبون. ماذا تعمل في ألمانيا بعد الحرب؟ سوف نفرّ معاً.

فقال موريتز:

- إنني لن أفرّ.

قال جوزيف:

- سنترك لزوجتك مالاً يكفيها ريثما نعود لأخذها معنا إلى فرنسا. لقد اقتصدنا خمسة آلاف مارك حتى اليوم ولن تنقضي أشهر معدودة حتى نكون قد عدنا لأخذها. إن فرنسا ستعترف بجميلك إذا ساعدت خمسة من بَنيها على الفرار. ما جوابك على كلّ هذا؟

لم يجب إيوهان موريتز. كان طوال الوقت يفكِّر في المزرعة التي سيحصل عليها في فرنسا. كان يحاول أن يتخيّل الأرض التي سيشتريها هناك والبيت الذي سيشيده والحياة التي سوف يحياها مع هيلدا وفرانتز. كان يحدِّث نفسه بقوله: «سيكون لي أطفال آخرون. إنني أتوق إلى ابنة أسميها أريستيتزا باسم أمي».

شعر موريتز بأنه يبسم لمستقبله فاكتأب وجهه وتجهَّم وقال:

- إنني لن أفرّ.

- 91 -

استقبلت هيلدا إيوهان موريتز على عتبة الباب. كانت مرتدية ثيابها على أهبة الخروج للذهاب إلى دار الصور المتحركة.

كان موريتز لا يذكر أي شريط شَهِدَ، لأنّ أفكاره كانت متجهة جهة أخرى. كان يتذكر فقط المناظر التي عرضت فيها المعارك الأخيرة على الجبهة: مصفحات محطّمة وبيوت محترقة ورجال قتلى. كانوا قد عرضوا كذلك خريطة القتال فظهرت الجبهة قريبة من

Twitter: @ketab_n

حدود الرايخ. لذلك فإنّ موريتز عند خروجه من الدار لم يكن يحسّ برغبة في الحديث. وقبل أن ينام ألقى نظرة على ولده في السرير وأوى إلى فراشه. لكنه ما كان يستطيع أن يغمض جفنيه.

سأل زوجته:

- هيلدا، ماذا سيحلّ بنا إذا هُزمت ألمانيا؟

فأجابت:

- إن ألمانيا لن تهزم أبداً!

راح موريتز يفكّر في المعارك التي تدور رحاها على كل الجبهات والتي شاهد عرضاً عنها منذ حين في دار الصور المتحركة ثم انتقل بتفكيره إلى خريطة الجبهات التي عرضت وأخيراً إلى جوزيف ومنه إلى الطفل الذي في السرير وقال:

- إنني أعرف يا هيلدا أن ألمانيا ستخسر الحرب. لكني لا أعرف ماذا سيحلّ بنا. إنني واثق من أنهم سيسجنونني. فكيف تستطيعين الحياة أنت والطفل؟

أجابت هيلدا:

- سننتصر أو نفنى حتى آخر رجل. إنّ أي ألماني لن يقبل العيش في ألمانيا محتلة!

سأل موريتز:

- وإذا لم نمُت؟

أجابت هيلدا:

- سنموت ونحن نحارب! إن مَن لا يموت أثناء المعركة عليه أن ينتحر في اللحظة التي يدرك فيها أنّ كل شيء قد أفلت من يديه.

قال موريتز:

- هذا حال الرجال ولكن ماذا سيفعل النساء؟

- إن النساء سيحذين حذو الرجال وسأكون أول مَن تنتحر مع

Twitter: @ketab_n

ابنها إذا خسرنا الحرب. إنني لن أعيش يوماً واحداً بعد الهزيمة. غير أن ألمانيا لن تخسر الحرب. إنها لن تُهزم أبداً! كيف استطعتَ التفكير لحظة واحدة في هذا المصير؟ والآن عمتَ مساء!

ورفعت هيلدا الغطاء إلى ما فوق رأسها.

راح إيوهان موريتز يفكِّر في هيلدا وفي فرانتز. رآهما يموتان. كان يحلم طيلة الليل بأن الحلفاء دخلوا ألمانيا وأنهم كانوا أمام بيته بوحداتهم المصفحة وأن هيلدا أخذت بندقيته فأطلقت منها الرصاص على فرانتز في سريره ثم قتلت نفسها على الأثر. فاستيقظ موريتز سابحاً في العرق وهو يصيح في نومه. تسلل من السرير بهدوء متحاشياً إيقاظ هيلدا وارتدى ثيابه ومضى إلى الثكنة. لم يطلب من رئيسه إبدال مركز خدمته كما كان مصمماً أمس مع ذلك، فإن الفرنسيين لم يدهشوا عندما رأوه معهم، بل غمرت الغبطة نفوسهم. كانوا يخافون من تخلف موريتز عن حراستهم في العمل.

ولما بلغوا الجسر هتف جوزيف كعادته:

- سالف سكلاف! هل نمت جيداً؟

تذكر إيوهان موريتز أحلام ليلة أمس ذلك، الحلم الذي رأى فيه زوجته هيلدا تقتل ابنه وتنتحر فقال:

- هل تقسم لي يا جوزيف بأنك ستنقل زوجتي وابني إلى فرنسا إذا خسر الألمان الحرب؟

- نقسمُ لك على أننا سننفذ ذلك منذ أن تصل القوات الحليفة إلى هنا.

طرح إيوهان موريتز سلاحه جانباً وراح يقصّ على الفرنسيين المناقشة التي دارت بينه وبين زوجته عند أوبتهما إلى البيت وأردف:

- وماذا تعملون إذا تأخَّرتم في الوصول، بعد أن تكون قتلت ابني وانتحرت؟

Twitter: @ketab_n

فوعده الفرنسيون بأنهم سيكونون مع الصفوف الحليفة الأولى التي ستدخل ألمانيا. فامتلأت عينا موريتز بالدموع وقال:

- إذا كنتم تعدونني بذلك فسأفرّ معكم. متى ينبغي أن ننفذ عزمنا؟

فأجاب جوزيف:

- غداً صباحاً. سنأتي إلى عملنا كالمعتاد غير أننا لن نعود إلى المعسكر. إنك تقوم بعمل يشرّف فرنسا ولن تنسى لك فرنسا هذا الجميل.

قال موريتز:

- إنني لا أعمل شيئاً لفرنسا! إنني أعرف هيلدا تمام المعرفة. إنها تنفذ وعدها أبداً. فإذا لم نصل في الوقت المناسب قتلت نفسها على الأثر. إنّ لها قلباً كالجلمود.

صمت برهة مفكراً واسترسل:

- كيف اعتقدت بأنني أفرّ من أجل فرنسا؟ إنك تعلمت كثيراً وقرأت كثيراً فينبغي أن تفهم. إنني لا أعرف ما هي فرنسا. إذ ما هي العلاقة المشتركة بيني وبين فرنسا؟ إن ما أعرفه هو أن لي ولداً وزوجة حياتهما في خطر. ومن أجلهما أفرّ معكم!

- 92 -

رسالة من تريان كوروغا إلى أبيه:

«أبي، أكتب إليك في البريد الدبلوماسي وأرجوك أن تبعث إليّ بالجواب دون دقيقة إبطاء. إنني أخاف أن يكون قد أصابك مكروه. يمكنك أن تسخر من ذعري القاتل. لك أن تتهمني بالهستيريا. لكنني

Twitter: @ketab_n

أتوسل إليك أن تجيبني فوراً. أريد أن أعرف إذا كنت ما زلت على قيد الحياة.

«إن روايتي الجديدة تتقدم في طريق نهايتها. لقد وصلت إلى الفصل الرابع، إلى الساعة الثالثة بعد موت الأرانب البيضاء. إنّ العبيد الآليين يدمِّرون كل شيء على طريقهم والأنوار تطفأ بعضها إثر بعض والرجال هائمون في ظلمة الموت.

«نقبّلك كما نُقبِّل أمي. - تريان ونورا -.

«راغوز، دالماسيا، 20 أغسطس 1944».

Twitter: @ketab_n

الكتاب الرابع

- 93 -

أجاب الكاهن كوروغا على رسالة تريان دون إبطاء فأعلمه بأنه وزوجته في صحة جيدة وأن فانتانا ما زالت كما كانت عليه من قبل باستثناء إيوهان موريتز الذي لم يعُد إلى منزله ولا يعرف أحد عنه شيئاً.

دخل قاضي التحقيق جورج داميان إلى باحة دار الكاهن في اللحظة التي كان هذا يُعيد قراءة الرسالة. جاء يقضي يومين في الريف مع الكاهن. تلك كانت عادة درَجَ عليها فكان لا يخطئها إلا أسابيع نادرة فمضى الرجلان يودعان الرسالة في البريد.

قال الكاهن وهو يطلع داميان على الرسالة التي تلقاها:

- إن تريان شديد القلق من أجلنا.

قرأ قاضي التحقيق الرسالة وهو يبتسم وأعقب:

- إن تريان شاعر. إنه يبالغ دائماً وأعتقد أنه متعب مرهق الأعصاب.

كان عدد كبير من الناس مجتمعاً في فناء البلدية.

لم تكن عربة البريد قد تحركت بعْد فأراد الكاهن إعطاء الرسالة إلى الساعي غير أنه رفض أخذها قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- إننا لا نقبل رسائل للخارج اعتباراً من اليوم. لقد استسلمت رومانيا اليوم في الساعة السادسة وسيحتل الروس البلاد. لقد تكلّم الملك في الراديو.

فوضع الكاهن كوروغا الرسالة في جيبه.

- 94 -

اجتمع القرويون ذلك المساء في فناء دار الكاهن ألكسندرو كوروغا. لقد جاؤوا يسألونه النصح. فالروس كانوا قد دخلوا مدينة مجاورة فكان سكانها ينفرون إلى الأرياف مذعورين يروون الفظاعات التي يرتكبها المحتلون: لقد استحيوا النساء وشنقوهن وأطلقوا الرصاص على الرجال في الشوارع.

خرج الكاهن كوروغا إلى شرفة منزله وكان القرويون متجهّمي الأسارير صامتين. فقال لهم:

- إن رجالاً آخرين يديرون البلاد. إنهم ليسوا أسوأ من أسلافهم الأول لأنهم غرباء. غير أن المؤمنين بمسيحيتهم يعرفون أنّ كل سيطرة في عالمنا الأرضي صعبة الاحتمال. إن الملكوت الحقيقي هو ملكوت المساء.

سأل قروي شاب:

- هل يجب علينا الالتجاء إلى الغابة إذن ومتابعة النضال ضد المحتلين؟ بماذا تشير علينا أن نعمل؟

- إن الكنيسة لا تستطيع دفع المسيحيين للقتال من أجل الحصول على سلطة زمنية.

فسأل القروي مستزيداً:

- هل تنصحنا الكنيسة بمدّ أيدينا لتُلفّ حولها السلاسل؟ هل

Twitter: @ketab_n

تريد الكنسية أن نلبث مكتوفي الأيدي بينما تُغتصب نساؤنا وتُحرق دورنا! إن الكنيسة لا يمكنها أن تطلب منا ذلك. وإذا أوجبت الكنيسة هذا التصرف فإننا لن نكون بعد اليوم مع الكنيسة!

أيد القرويون الشبان وجهة نظر زميلهم بينما لبث الكاهن كوروغا شديد الهدوء. قال مجيباً:

- لقد علّم يسوع المسيح المسيحيين الخضوع للسيطرة الزمنية. لعلكم تقولون بأن السيادة الحالية في رومانيا سيادة أجنبية قاسية كافرة. إنني أعرف ذلك. غير أن أولئك الذين كانوا يهيمنون على الأرض التي وُلِد فيها يسوع المسيح كانوا كذلك غرباء قساة وملحدين. فكروا في أُلوف الأطفال الذين ذُبِحوا في بلاد اليهود بأمر الملك هيرود عقب ولادة المسيح. لقد كانت السلطة وحشية باغية ولعلها كانت تساوي في البغي والطغيان سيطرة الشيوعيين وحكمهم. غير أن يسوع لم يُثِر ولم يدْفَع أحداً إلى الثورة. لقد قال: أعطوا لقيصر ما لقيصر ولله ما لله».

سأل القروي الشاب:

- وأنت يا أبانا، هل ستصلي في الكنيسة من أجل ستالين إذن؟ إذا كنت ستبتهل من أجل ستالين في الكنيسة فإن معنى ذلك أنك ستصلي من أجل الدجال. سوف لن نطأ بأقدامنا أرض الكنسية!

- إذا أمر محتلو البلد المسيطرون عليه أن أصلي من أجل ستالين كما صلّيت حتى الآن من أجل الملك فإنني سأخضع وأمتثل. إنني أعرف أن «ستالين» ملحد كافر غير أن الكفرة ليسوا إلا آدميين. فإذا كانت نفوسهم محمَّلة بالخطايا فذلك لأنهم تاهوا بعيداً عن حظيرة المسيح. إن الكاهن ينبغي أن يصلي من أجل كلّ البشر وخصوصاً من أجل النفوس الخاطئة..

قال الفلاح الشاب:

Twitter: @ketab_n

- باستطاعتك أنت أن تصلّي من أجل ستالين أما نحن «فإننا لن نطأ بعد اليوم أرض الكنيسة».

وأعقب بصوت عامر بالحقد:

- وإذا أوينا إلى الغابة لنكافح ضد البلشفية من أجل حريتنا، هل ستصلي أيام الآحاد في الكنيسة من أجلنا أيضاً؟

- إن الكاهن يصلّي كذلك من أجل أولئك الذين يناضلون في الغابات والجبال ليس أيام الآحاد فحسب، بل مرتين كل يوم. لأن حياة أولئك المكافحين في خطر دائم ولأنهم في حاجة إلى صلوات الكاهن ورحمة العذراء.

رانَ الصمت على الحشد وفجأة قال أبوستول قازيل:

- إذا صلّيت مرة من أجلنا أعدموكَ رمياً بالرصاص!

- إن هذا ليس سبباً وجيهاً لأكفّ عن الصلاة من أجلكم. إن الموت لم يرهب قط مسيحياً.

قال أبوستول:

- إننا سنمضي إلى الغابة. إننا نرجوك قبل ذهابنا أن تباركنا وأن تستمع إلى اعترافاتنا. إننا لا نعرف ما سيقع لنا ولا ندري إذا كنا سنعود. إننا سنناضل من أجل الصليب والكنيسة.

فقال الكاهن:

- إذا أردتم النضال من أجل الصليب والكنيسة مستعملين السيف فإنكم تنساقون في طريق الخطيئة ومن الخير لكم أن تمكثوا في بيوتكم. إن الكنيسة والإيمان المسيحي لا يتطلبان للدفاع عنهما نضالاً مسلحاً.

قال إيوستول قازيل:

- سنناضل من أجل رومانيا التي هي بلد مسيحي.

Twitter: @ketab_n

ثم نظَّم الفلاحين فِرقاً صغيرة بعد أن أجمعت كلمتهم على اللجوء إلى الغابة كانوا خيرة شباب القرية.

كان بينهم عدد من النساء وغلمان كانوا طلاباً في المدرسة.

ركعوا جميعاً على الحشائش في الفناء!

تلا عليهم الكاهن كوروغا صلاة ثم راح يباركهم كلاً بدوره.

فقال قاضي التحقيق جورج داميان:

- أرجوك يا أبي أن تباركني أنا الآخر!

وركع أمام القسيس وهو يقول:

- سأنسحب معهم إلى الغابة وأقاتل من أجل حرية الرجال والإنسانية!

فقال الكاهن:

- إن الكنيسة تقدِّم تبريكها إلى كلّ مَن يطلبه.

سأل القاضي:

- هل تبارك الكنيسة أولئك الذين يرتكبون إثماً؟ أم أنك قانع من عدالة غايتنا؟

فقال الكاهن:

- إحبب واعمل ما تريد. فإذا كان عملك يا سيدي القاضي ناشئاً عن بواعث مخلصة فلا تخشى من الخطيئة. لأنك عندئذٍ في الطريق القويم.

قبَّل قاضي التحقيق يد الكاهن ألكسندرو كوروغا كما فعل القرويون وخرج مع الجماعات المنظمة في طريقهم إلى الغابة.

وفي البيت، كانت زوجة الكاهن تبكي.

Twitter: @ketab_n

- 95 -

مضت ساعتان على ذهاب القرويين. كان الكاهن يحاول القراءة ليبدِّد قلقه، لكن قرويَّين لم يكونا من قريته، دخلا في تلك اللحظة إلى المكتبة، دون أن يقرعا الباب. كانا يربطان على سواعدهما أشرطة مثلثة الألوان ويحملان المسدسات. فاستقبلهما الكاهن باسماً متجاهلاً رؤية الأسلحة.

قال الكاهن بصوت مرتفع ليتأكد من أن زوجته قد سمعت قوله في الغرفة المجاورة.

- يخيَّل إليَّ أنهم يدعونني إلى دار البلدية.

كان يتحاشى بث الخوف في نفس زوجته.

قال أحد القرويين بصوت مرتفع:

- لقد تلقينا أمر سوقك لتَمثُل أمام محكمة الشعب!

ألقى الكاهن نظرة إلى حيث كانت زوجته في الغرفة المجاورة وابتهل في سرِّه أن لا تكون قد سمعت عبارة القروي. ثم وضع الكتاب على الأريكة وخرج.

وقبل أن يغادر الفناء، ألقى نظرة إلى الوراء. كانت نظرة وداع.

رافقه القرويان وهما سائران إلى جانبيه فاجتاز العتبة مرفوع الرأس. ما كان يمشي كالمساجين. كان يبدو كمن يلامس جبينه السماء.

مشى هكذا في أزقة القرية وطرقاتها من بيته حتى دار البلدية...!

Twitter: @ketab_n

كانت «محكمة الشعب» تشغل قاعة البلدية الكبرى وكان ماركو غولدنبرغ يرأسها فكان جالساً على مقعد وثير.

كان شعر ماركو غولدنبرغ محلوقاً ككل الذين يُحكمون بالأشغال الشاقة. وكان الروس قد حرَّروه قبل أيام قليلة من السجن الذي كان يقضي فيه عقوبته تكفيراً عن قتله «لانجييل».

كان إلى يمينه وراء مكتب رئيس البلدية أريستيتزا أم إيوهان موريتز. لقد انتخبها ماركو غولدنبرغ لتكون قاضية لأنها كانت أفقر «المواطنين» في فانتانا. وإلى يساره كان إيون كالوغارو الذي كان منذ سنين قد قَتل دركياً بضربات فأس وكانت فعلته هذه هي التي رفعته إلى هذا المركز.

حياهم الكاهن كوروغا فحدجه ماركو غولدنبرغ بنظرة قاسية. لكنه لم يُجِب على تحيته.

وخفض إيون كالوغارو وأريستيتزا أبصارهما متشاغلين عن رؤيته. لقد كانا قد أصدرا حكمهما على آخرين قبل وصول القس. أما في تلك اللحظة فقد كانت قاعة البلدية خالية. لم يكن فيها إلا القضاة الثلاثة والقرويان المسلحان.

سأل ماركو غولدنبرغ عن اسمه وسنه وصنعته. فلمّا أجاب قال غولدنبرغ:

- إن الكهانة ليست مهنة! إنّ الحَذّاء يصنع الأحذية والخياط الألبسة، إنّ كل شغيل ينتج شيئاً فهل يمكنك أن تخبرني عمّا ينتج القس؟

أشاح إيون كالوغارو وأريستيتزا بأبصارهما عن القس وأطرقا إلى الأرض بينما راح القرويان المسلحان يضحكان من وراء ظهره.

Twitter: @ketab_n

قال غولدنبرغ:

- إنك لا مهنة لك! وإنها لجريمة أن يكون المرء غير ممتهن. لقد عشت إذن عالة على أكتاف الشغيلة.

كان وجه ماركو غولدنبرغ شاحباً كالليمون وشفتاه رقيقتين بنفسجيتي اللون. تذكر الكاهن أن أبَ غولدنبرغ العجوز كان له مثل تينك الشفتين الرقيقتين البنفسجيتين لكنهما كانتا تنفرجان بابتسامة. أما شفتا ماركو فكانتا متقلصتين.

سأل غولدنبرغ:

- أتدري لِمَ استدعيت أمام محكمة الشعب؟

أجاب الكاهن:

- كلا.

صرخ ماركو محنقاً:

- إنه جواب المعارضين المثالي! إن المُعارض يزعم دائماً أنه يجهل السبب الذي من أجله يُحاكَم. هل تعترف بأنك نظَّمت العصابات الفاشية التي أوت إلى الغابات؟

- إنني لم أنظِّم عصابات. غير أنني أعترف بتلاوتي الصلوات في فناء منزلي من أجل شباب القرية الذين طلبوا مني الابتهال من أجلهم.

سأل غولدنبرغ:

- ومع ذلك فهي ليست عصابات فاشية؟ لِمَ صلّيت من أجلهم إذا لم تكن راعي أولئك الجناة؟

قال الكاهن:

- إنني أعرف أنّ الشبان الذين صلّيت من أجلهم يجتازون الآن حقبة عصيبة. لقد ابتهلتُ إلى العذراء أن تساعدهم وتهديهم طريق الحقيقة والعدالة.

Twitter: @ketab_n

قال ماركو غولدنبرغ:

- إن محكمة الشعب تحكم عليك بالموت شنقاً! إنك متهم بتنظيم عصيان مسلح ضد النظام العام. وقد صحَّت التهمة!

رفع إيون كالوغارو وأريستيتزا عيونهما مذعورين وراحا ينظران إلى ماركو.

كان غولدنبرغ يكتب دون أن يُعِرْهما التفاتاً.

حوَّل إيون كالوغارو وأريستيتزا عيونهما إلى القس فابتسم الكاهن كوروغا لهما بعذوبة.

وقال ماركو:

- سينفَّذ الحكم فجر غد أمام الشعب! لقد رُفِعت جلسة محكمة الشعب.

- 97 -

اقتاد القرويان المسلحان الكاهن كوروغا وسجناه في اصطبل البلدية حيث كان هناك جورج داميان الذي لم يستطع بلوغ الغابة ورئيس مخفر درك فانتانا وقازيل أيوستول وثمانية من القرويين الأكثر ثراء في القرية. لقد كانوا جميعاً محكومين بالإعدام شنقاً حكماً ينفذ فجر غد لأن محكمة الشعب قرَّرت أن يكون الأمر كذلك.

غير أن السجناء أُخرجوا في أثناء الليل الواحد تلو الآخر وأعدِموا رمياً بالرصاص أمام حفرة مجاري القرية لأنّ ماركو غولدنبرغ تلقى أمراً بعدم تنفيذ أحكام الإعدام جهاراً تحاشياً لإثارة غليان في الرأي العام ضد الجيش الأحمر. لذلك فقد قتل السجناء بيده بإطلاق رصاصة على مؤخرة رأس كل منهم.

Twitter: @ketab_n

بعد منتصف تلك الليلة سمعت أريستيتزا قرعاً على زجاج النافذة كان الطارق سوزانا زوجة إيوهان موريتز.

لما سمعت أريستيتزا شكايات المرأة وتأوّهاتها ظنت أن الروس قد دخلوا القرية واستحيوها على عادتهم، نهضت مغضبة. كانت تعرف أن فصيلة من الجنود الروس ستمرّ في القرية وأن من عادة الجنود استباحة النساء. لكنها ما كانت تحتمل أن تكون كنتها أولى النساء اللاتي يُعتدى على عفافهن، كنَّتها هي المواطنة القاضية في محكمة الشعب!

سألت أريستيتزا وهي تفتح لها الباب:

- ماذا جرى؟

قالت سوزانا:

- لقد أعدِم الكاهن كوروغا رمياً بالرصاص.

قالت أريستيتزا:

- إنه غير صحيح! إن غولدنبرغ يريد شنقه صباح غد في فناء الكنيسة. غير أنه لن يستطيع تنفيذ هذا الحكم. إنني أنا الأخرى قاضية!

إنه ليس وحده قاضي القرية. لسوف نُعيد النظر غداً في قضية الكاهن وسنطلق سراحه. لقد تحدَّثت في ذلك إلى كالوغارو فاذهبي إلى زوجة القس وطمئنيها حتى تنام مطمئنة.

قالت سوزانا:

- إن الكاهن كوروغا قد مات! لقد شاهده عدد من الرجال عندما أطلق عليه الرصاص وحدثوني عن ذلك.

كانت أريستيتزا لا تستطيع تصديق ذلك الخبر فاتجهت مع

Twitter: @ketab_n

سوزانا إلى دار البلدية دون أن تدخل إلى غرفتها. ولم تكن مرتدية إلا جلباب النوم. كانت الليلة مضيئة والمرأتان تمشيان وسط الطريق دون أن تتفوها بكلمة. وكانت سوزانا تبكي بهدوء وتمسح عينيها بين الحين والحين بذيل ثوبها أما أريستيتزا فقد كانت محنقة تتنفس بصعوبة. استدارت نحو زوجة ابنها عدة مرّات في الطريق وهتفت بها صاخبة:

- أتنامين وأنت تمشين؟ ما الذي يسيل في عروقك؟ أهو دم أم حليب؟

كانت سوزانا تحثّ الخطى وهي تفكِّر في أن إسراعها عبثٌ لأن الكاهن كان قد مات ولن يستطيع أحد أن يعيد إليه الحياة.

كانت الأنوار مضاءة في بناء البلدية. غير أنه لم يكن فيه أحد.

قالت أريستيتزا:

- هيا بنا إلى الإصطبل. إنني قاضية ولي الحق في السؤال وفي معرفة كلّ ما حصل.

كان الظلام مخيماً على الزريبة والباب موصداً. غير أن الرتاج لم يكن مدفوعاً وراءه. فلما دخلت أريستيتزا شعرت بالخوف. فقالت تسأل سوزانا:

- هل معك ثقاب؟

- كلا يا أماه.

فهتفت أريستيتزا حانقة:

- إنك لا تملكين شيئاً أبداً حتى إنك عندما تزوجت كنت خالية الوفاض كان عليك أن تجدي أبلهاً كابني ليتزوجك كما كنت.

لم تغضب سوزانا لأنها كانت تعرف أنّ نقمة أريستيتزا لم تكن موجَّهة إليها. كانت أريستيتزا تخاف ثبوت موت القس لذلك كانت تزجرها.

Twitter: @ketab_n

هتفت أريستيتزا وهي واقفة أمام باب الإصطبل.

- هل من أحد هنا؟

قالت سوزانا:

- ليس من أحد هنا يا أماه. إن ماركو قد ساق كل الذين كانوا هنا وقتلهم رمياً بالرصاص قرب حفرة أقذار القرية.

صرخت أريستيتزا:

- هل تحلمين؟ كيف يستطيع قتلهم دون إعلامنا نحن القضاة؟

صمتت سوزانا وراحت المرأتان تبحثان في الفناء في ذلك الظلام عن أجساد القتلى.

قالت أريستيتزا:

- ليس من أحد هنا، لقد قلت لك بأنك تحلمين، لعلهم نقلوهم إلى سجن آخر فانتهز المعارضون في القرية هذه الفرصة ليشيعوا أن ماركو أعدمهم رمياً بالرصاص.

ابتعدت سوزانا عن أريستيتزا وراحت تبحث بعناية في الفناء حول حفرة القاذورات. لقد روى لها الفلاحون الذين شهدوا الحادث أنّ ماركو غولدنبرغ أخرج السجناء من الإصطبل واحداً فواحد وأيديهم معقودة إلى الوراء بوثائق متينة وأطلق عليهم الرصاص من الخلف.

قالت أريستيتزا:

- هيا بنا نبحث عن غولدنبرغ.

أطلقت سوزانا صرخة وتهاوت على الأعشاب فهرعت أريستيتزا إليها غاضبة وصرخت محنقة:

- ماذا بك أيضاً؟ أيتها المغفلة. هل رأيت ظلك فارتميت عليه؟

غير أنّ الكلمات توقفت في حنجرتها. رأت بجانب سوزانا على حافة حفرة الأقذار أجساداً ممدودة على العشب.

Twitter: @ketab_n

رأت أريستيتزا بادئ الأمر جثة رجل مرتدياً قميصاً أبيض كانت مسجاة قرب أقدام سوزانا. ثم جثة أخرى سوداء على بعد خطوات من الأولى وثالثة ورابعة فرسمت أريستيتزا على صدرها إشارة الصليب لتبعث الشجاعة في نفسها وقالت آمرة:

- انهضي، إنني بحاجة إليك.

كانت أريستيتزا لا تخاف الموتى غير أنها في تلك اللحظة ما كانت تريد البقاء وحدها.

نهضت سوزانا وهي ترتعد فقبضت أريستيتزا على يدها وراحتا تبحثان بين الجثث وتنحنيان على كلّ واحدة منها. كانتا تتفحصان الوجوه بعناية للتعرُّف على أصحابها. كان هناك تسع جثث على حافة الحفرة، وثلاث بداخلها.

انحنت أريستيتزا تتأمل إحدى الجثث وقالت:

- إنه نيكولاي جيوبوتارو رئيس البلدية السابق!

جثت على ركبتيها وأدنت أذنها من صدر الجثة تتحسَّس ضربات قلبه ثم نهضت وهي تقول:

- ميت!

ومضت إلى جثة أخرى تنحني فوقها من جديد.

قالت أريستيتزا:

- ما زالت الجثة دافئة غير أنّ القلب ميت. إنه كونستانتان سالومون ليرحمه اللّه. لقد سألني الزواج منه كنت شابة.

ولكي تبعد الألم عن نفسها صرخت في وجه سوزانا غاضبة:

- ابحثي أنتِ الأخرى عمّا إذا كان هناك بعض الأحياء! لِمَ تمكثين هكذا باكية كالحمقاء؟

قالت سوزانا:

- لا أستطيع يا أماه، إنني خائفة.

Twitter: @ketab_n

- ولِمَ تخافين؟ ضعي أذنك على كلّ صدر واكتمي تنفسك لحظة واصغي إلى ضربات القلب. فإذا كان ساكتاً فاطلبي إلى اللّه أن يرحم الميت وارسمي على نفسك إشارة الصليب. أما إذا كان القلب ما زال خافقاً فإننا عندئذٍ سنعمل شيئاً آخر غير رسم إشارة الصليب. هل فهمت؟

فأجابت سوزانا:

- لقد فهمتُ ولكنني خائفة.

صرخت أريستيتزا غاضبة:

- أيتها الحمقاء المغفلة! كيف تزوَّج ابني بك!

كانت أريستيتزا في تلك اللحظة منحنية على جثة أخرى. قالت:

- إن هذه جثة قاضي التحقيق الشاب الذي كان يأتي كل أسبوع لزيارة القس كوروغا. لقد كان صديق السيد تريان وكان شاباً ممتازاً.

أزاحت أريستيتزا سترة القاضي وأصغت برهة ثم نهضت وقالت:

- ليرحمه اللّه! إنه ميت هو الآخر. لعلّ للمسكين زوجة وأطفالاً ينتظرونه في البيت.

كانت أريستيتزا قد نسيت تقريباً وجود سوزانا بقربها إذ إنها عثرت في تلك اللحظة على جثة الكاهن كوروغا وانحنت على صدره باحترام وتقوى فأزاحت ثوبه الكهنوتي وألصقت أذنها على صدره. وقالت بصوت منخفض:

- إن الكاهن لم يمُت بعد يا ابنتي.

ازداد نحيب سوزانا وبكاؤها لدى سماعها بأنّ الكاهن ما زال على قيد الحياة. فقالت أريستيتزا:

- أمجنونة أنتِ؟ أتبكين بدلاً من أن تُسرّي وتسعدي؟ تعالي قربه واصغي إلى ضربات قلبه الرتيبة.

Twitter: @ketab_n

ركعت سوزانا أمام القس لكنها لم تنحني للإصغاء إلى ضربات قلبه، أخذت أريستيتزا يد الكاهن بين يديها وقالت:

- إنه ما زال دافئاً. انظري كم هو دافئ يا ابنتي.

كانت أذنا أريستيتزا وعيناها ويداها تحاولان لمس الحياة التي يختلج بها جسد الكاهن بأكثر دقة، لكن حواس أريستيتزا لم تلتقط شيئاً جديداً عن حياة الرجل الممدَّد بالقرب منها أكثر من حرارة يده ووجنتيه وضربات قلبه:

- هذه إذن هي الحياة: وجيب خفيف في القلب وقليل من الحرارة التي تنتشر في أطراف الجسد.

كانت أريستيتزا تعتقد أن ذلك شيء ضئيل تافه.

قالت:

- إذا كانت حياة البشر هي هذه الدلائل فإنها في الحقيقة من أتفه الأمور.

كان السكون مخيماً على الفناء حول المرأتين.

أردفت أريستيتزا:

- إنّ رائحة البخور والريحان تفوح منه. إن جسد الكاهن يشبه الكنيسة لشدّة ما تفوح منه رائحة طيبة. إنه كالكنيسة الحقيقية.

كانت الروح قد فارقت أجساد كلّ السجناء باستثناء الكاهن. وكانت بعض الجثث لا تزال دافئة لأن أصحابها لم يموتوا على الفور، بل تألموا وقتاً طويلاً. وكان بادياً على جثثهم أنهم تدحرجوا وتقلبوا على الحشائش طويلاً قبل أن يسلموا الروح. وكانت بعض الجثث باردة ممّا يدل على أن أصحابها فارقوا الحياة فور اختراق الرصاصة أجسادهم.

مسحت أريستيتزا يديها بثوبها للمرة الخامسة أو السادسة دون

Twitter: @ketab_n

أن تدرك سبباً لتلك الحركة وكانت ركبتاها قد ابتلتا لكثرة ما جثت عليهما. قالت:

- لعلني وطأت دماءهم. إنني في هذه الظلمة غمست قدميّ ويدي في دمائهم. وإنها لخطيئة كبرى أن يطأ المرء بأقدامه دماء الإنسان. غير أن اللّه سيغفر لي لأنني ما فعلت ذلك إلا بسبب الظلام.

وبينما هبطت أريستيتزا إلى حفرة الأقذار لتفحص الجثث الأخرى كانت سوزانا تدلِّك جبين القس.

سألت أريستيتزا وهي تخرج من الحفرة وتمسح يديها بأطراف ثوبها من جديد:

- أين الجرح؟

- لست أدري يا أماه.

- إنك لا تدرين شيئاً. ينبغي أن نضع شيئاً فوق الجرح فوراً وإلّا فإن الدم كله سيغادر الجسد كما تغادر الروح.

وجدت أريستيتزا بقعة مغرقة بالدم. كان الكاهن مصاباً في ظهره في أعلى الكتف اليمنى.

هتفت أريستيتزا آمرة:

- أعطِني خرقاً لأضعها على الجرح وأسرعي.

راحت سوزانا تتساءل من أين تأتي بالخرق فنفد صبر أريستيتزا ورفعت ثوبها بحثاً عن قميصها لتنتزع منه قطعة. راحت يداها تبحثان متقلِّصتين بين ثوبها وجلدها عن القميص عبثاً. فرفعت الثوب حتى فوق صدرها وقالت منفعلة:

- أي شيطان ذهب بالقميص؟ أين هو؟

تذكرت أنها صباح أمس لمّا دُعيت على عجل إلى محكمة الشعب فاتها أن تلبس قميصها تحت ثوبها. فقالت:

Twitter: @ketab_n

- إنني ألبس ثوبي دون قميص تحته.

أخذت أريستيتزا الكاهن بين ذراعيها وفكت أزرار ثوبه الكهنوتي فكشفت عن كتفه حيث موضع الجرح وخاطبت سوزانا آمرة:

- أعطِني قميصك يا سوزانا.

وراحت تمسح الدماء عن الجرح بيديها وتقول:

- ما أطيب أريج الريحان والبخور. إن جسده يتضوع بشذى عطري كالكنيسة.

التفتت أريستيتزا نحو سوزانا التي كانت قد فرغت من نزع ثوبها وراحت تنتزع قميصها وهي عارية تماماً فصرخت فيها:

- أمجنونة أنتِ يا ابنتي؟ ألا تخجلين من المثول عارية تماماً في حضرة الكاهن والأموات!

سألت سوزانا:

- كيف تريدين مني أن أُقدِّم لك قميصي دون أن أنزع ثوبي أولاً؟

فقالت أريستيتزا دون أن تصغي إليها:

- يا لك من قذرة! إنك تُظهرين عريك أمام الكاهن والأموات.

وبصقت على الأرض.

- 99 -

توقفت أريستيتزا وسوزانا قرب حقل من الذرة ووضعتا جسد الكاهن على الحشائش بعد أن نقلتاه من الإصطبل حتى ذلك المكان ملفوفاً بكسوته الكهنوتية وكأنه لُفّ في الأكفان. بدأتا الطريق بأن أسجتا الجسد على الثوب الكهنوتي وحملت كلٌّ منهما جانباً من الثوب أشبه بالنقالة. فسبحتا في العرق وأعياهما ثقل الحمل فكانت

Twitter: @ketab_n

أريستيتزا كلما وضعتا حملهما على الأرض تنحني على الكاهن تتلمس بوادر الحياة فيه وتعود مع سوزانا إلى نقله. فلما أعياهما التعب عزفتا عن نقل الكاهن على طريقة النقالة واكتفتا بأن راحتا تجرانه جراً بعد أن حزمتا جسده في ثوبه.

قالت أريستيتزا:

- عسى أن يشاء اللّه فلا يُميته على الطريق. لنسرع ولسوف نجد متسعاً من وقتنا للاستراحة. إن لدينا الغد وما بعده والأيام التي تليه.

خافت أريستيتزا أن تنقل الكاهن إلى منزلها خشية أن يكشف الشيوعيون عن مكانه فكانت تقول في نفسها: «إذا استطعنا إنقاذه في المرة الأولى فإنه لن يفلت في المرة الثانية لذلك قرَّرت نقله إلى الغابة إلى حيث الفتيان مختبئون «لأنهم سيعالجونه إلى أن يشفى دون أن يستطيع الشيوعيون اكتشاف مكانه في الغابة».

قالت سوزانا:

- إن موظف الصحية قد رافقهم حاملاً معه صندوقاً من العلاجات والأضمدة.

فقالت أريستيتزا:

- سوف نعثر عليه.

لكنهما كلما ازدادتا اقتراباً من الغابة هبطت حماستهما وفترت عزيمتهما. فالغابة كبيرة واسعة الأرجاء وليس من السهل العثور على موظف الصحة فيها. إنّ البحث عنه فيها يشبه البحث عن إبرة في كومة من التبن.

قالت أريستيتزا:

- إذا لم نجد فتياننا فإننا سنخفي الكاهن بعيداً عن الشيوعيين.

Twitter: @ketab_n

إن هذا هو المهم وبعدئذٍ سنرى ما سنعمل. ستمكثين معه في الغابة بينما أمضي إلى القرية. وسأعود قبل الفجر ومعي الطعام والماء ولعلني أصطحب معي إحدى القابلات اللواتي يحسنَّ تضميد الجراح.

- 100 -

راحت سوزانا تبكي. كانت تخاف البقاء في الغابة وحيدة في ذلك الظلام. وكانت تبتهل إلى اللّه بصمت أن يجمعهما بفتيان القرية.

كان هناك طريق يسير بمحاذاة الغابة فلما عزمتا على قطعه أصاخت أريستيتزا السمع خشية أن يكون بعض الجنود الروس مارين عليها في تلك اللحظة فرأت على الطريق رتلاً من السيارات تدرج ببطء وأنوارها مطفأة.

كان دوي المحركات الخافت المكتوم يصل إليهما خافتاً كالدندنة. كان الرتل يقترب في الطريق الصاعدة. فوضعت المرأتان حملهما على العشب واختبأتا بين الذرة بجانب الطريق.

همست أريستيتزا:

- إنها فرقة روسية. ولكن لا بأس علينا منها. لندعهم يمرون. سوف لن يرونا.

وصلت السيارات إلى مكان اختبائهما وتوقف الرتل دفعة واحدة وكفَّت المحركات عن الدوي. وتعالت أصوات الصراصير. هبط بعض الجنود من السيارات وراحوا يتحدثون بأصوات خافتة.

قالت سوزانا:

- إنهم ألمان!

Twitter: @ketab_n

أصاخت أريستيتزا السمع ثم اقتربتا كلتاهما من الرتل وهما تزحفان عبر حقل الذرة وتصغيان بعناية وانتباه.

قالت أريستيتزا:

- إنهم ألمان حقاً. ماذا لو سألناهم علاجاً للكاهن؟ ينبغي أن يكون بينهم ممرض أو طبيب؟

خرجت المرأتان من حقل الذرة. وقالت أريستيتزا تسأل سوزانا:

- ألا تعرفين كلمة من الألمانية؟ ولا كلمة واحدة؟ إذا لم نتحدث معهم فإنهم سيظنون أننا أعداء وسيرموننا بالرصاص.

فأجابت سوزانا:

- إنني لا أعرف أية كلمة بالألمانية.

خطت الامرأتان بضع خطوات أخرى نحو القافلة ثم توقفتا. لبثتا على الطريق دون حراك وإحداهما ملتصقة بالأخرى بينما كانت يد أريستيتزا تعتصر معصم سوزانا بحركة تشنجية. قالت لها:

- إنك أصغر مني سناً. حاولي أن تتذكري كلمة ألمانية. لا شك أنك سمعت في خلال حياتك حديثاً بالألمانية. لقد كان أبوك يتكلم هذه اللغة. إن الإنسان في شبابه يكون عادة متوقِّد الذاكرة.

قالت سوزانا:

- إنني لا أذكر شيئاً. حدِّثيهم باللغة الرومانية:

قالت أريستيتزا بغضب:

- ماذا تريدين أن أقول لهم بالرومانية؟ إنهم لن يفهموها وسيعتقدون أننا شيوعيون.

قالت سوزانا:

- لنهتف بكلمة كريست يا أماه. إن الألمان مسيحيون فإذا

Twitter: @ketab_n

سمعونا ننادي بكلمة «كريست» سيعرفون أننا لسنا شيوعيين. إن كلمة «المسيح» «كريست» تعني أفكاراً نبيلة وطيبة.

فقالت أريستيتزا:

- حسناً حاولي. فإذا فهم الألمان فإنك ستثبتين أنك لست حمقاء كما تبدين!

قالت سوزانا:

- لا أجرؤ على الذهاب وحدي. لنصرخ معاً.

ازداد التصاق المرأتين بعضهما ببعض وراحتا تصيحان بصوت منخفض راح يرتفع تدريجياً:

- كريست! كريست! مسيح! مسيح!

سأل صوت آمر:

- مَن هناك؟

لم تفهم المرأتان ماذا يطلب الألماني فأجابتا بصوت واحد:

- كريست!

اقترب جنديان منهما فارتعدت أريستيتزا من الخوف. كانت أشدّ خوفاً من سوزانا. لم يفهم الألمان ماذا تريدان فذهبتا إلى حيث كان الكاهن في حقل الذرة وعادتا به فوضعتاه في منتصف الطريق أمام القافلة.

أشعل الألمان بعض المصابيح وراحوا ينظرون إلى وجه القس.

سأل ضابط:

- أهو كاهن؟

فأجابت أريستيتزا:

- كريست!

سأل الضابط:

- هل أعدمه البلاشفة؟

Twitter: @ketab_n

ظنَّت أريستيتزا أن الضابط يسألها عمّا إذا كان الجريح شيوعياً، فكرّرت مقتنعة:

- كريست!

كانت القافلة الألمانية في طريق التقهقر فأصدر الضابط الذي تحدث إلى المرأتين أمره بالمسير وأشار إلى أريستيتزا أن تزيح الجريح عن طريق السيارات لتمرّ.

قبضت أريستيتزا على يده وراحت تتوسل إليه أن يعطيها ممرضاً أو طبيباً ليعنى بالقس.

ولما سمعت أريستيتزا صوت السيارات يدوي من جديد استحوذ عليها رعب قاتل. كانت لا تريد أن يغادرها قبل أن يضمِّدوا جراح القس. فجَثَت على ركبتيها أمام الضابط وقبّلت يديه. كانت تعرف أنها لن تستطيع إيجاد طبيب في مكان آخر.

سأل قائد القافلة:

- ماذا تريد هذه المرأة؟

- إنها تريد أن نأخذ معنا جريحاً إلى المدينة. إنه قسّ أرثوذوكسي.

فقال القائد:

- ولِمَ لا تأخذه؟ إننا شعب متمدِّن حتى في الهزيمة! احملوا الجريح إلى عربة الإسعاف وأسرعوا لأننا راحلون.

رأت أريستيتزا وسوزانا الجنود يحملون الكاهن على محفّة ويغطونه بدثار من الصوف وتحركت السيارات. ولمّا همت أريستيتزا أن تركب بدورها لترافق الكاهن سخر الجنود منها وأغلقوا باب العربة.

تحركت القافلة وراحت تختفي عن أنظار سوزانا في طيات الليل. فبكت هذه وكأنها تنشد عوناً.

Twitter: @ketab_n

أمسكت أريستيتزا بكتفها وراحت تهزها قائلة:

- ماذا أصابك أيضاً؟ أتريدين أن يسمع صياحك الروس؟

قالت سوزانا:

- سيعاقبنا اللّه على الخطيئة التي ارتكبناها الآن. ما كان يجب أن نسلمه إلى الألمان! من يدري ماذا سيفعلون به!

قالت أريستيتزا:

- سيحملونه إلى المستشفى. ومن الخير له أن يكون في المستشفى بدلاً من الغابة.

لكنها بعد لحظات انخرطت هي الأخرى في البكاء وقد أسِفَت شديد الأسف على تصرّفها. هتفت:

- ما كان يجب أن نعطيه للألمان. لقد ارتكبنا خطأ كبيراً. سيعاقبنا اللّه عليه! سوف نحترق في جهنم. إنه خطؤك. ولولاه لما أعطينا الكاهن إلى الألمان.

أرادت المرأتان اللحاق بالقافلة لاستعادة القس، غير أن الطريق كانت مقفرة.

فعادتا إلى القرية.

- 101 -

في صبيحة اليوم الثاني أوقفت أريستيتزا وجُلِدَت في دار البلدية بالحبال الندية فاعترفت بأنها أخرجت القس من الحفرة وأعطته للألمان.

وفي الساعة التاسعة أعدمت بالرصاص قرب حفرة الأقذار بينما فرّت سوزانا مع ولديها من القرية.

Twitter: @ketab_n

ولما جاء رجال ماركو غولدنبرغ للقبض عليها وجدوا بيت إيوهان موريتز خالياً. . .

- 102 -

قال جوزيف وهو يتمدَّد على سريره.

إنّ هذا هو أجمل يوم في حياتي!

كان السجناء الفرنسيون الذين فرّوا بفضل مؤازرة إيوهان موريتز قد اخترقوا منذ حين الخطوط الأميركية وحلّوا بينهم.

وجد إيوهان موريتز وجوزيف نفسيهما في غرفة جميلة في فندق من فنادق «الأونرا». كانا قد التهما ألواناً طيبة شهية من الطعام واحتسيا من الخمر ودخنا لفائف ثمينة جداً. أعطي لهم عدد من رزم الطعام والألبسة واللوازم الأخرى. كان إيوهان موريتز ينظر إلى تلك الرزَم المرصوفة فوق بعضها على السجادة قرب الجدار ويشعر أنه قد تلقى من التكريم وحسن الالتفات كما لم يتلقَّ مثلهما من قبل. لقد أعطاه الأميركيون حاجته من القمصان والأثواب الجديدة وموس للحلاقة وأحذية وصابون وعلب «السجائر». لقد أعطوه كل هذه الأشياء، هو إيوهان موريتز، منذ أن وقعت أبصارهم عليه. كان فخوراً يعتقد أنه قام بعمل جليل تأييداً لنصر الحلفاء لأول مرة في حياته.

«لو أنني لم أقم بعمل خطير لما أعطاني الأميركيون كل هذه الأشياء بسخاء».

تذكر أن الأميركيين لم يسألوه عن اسمه وتصوَّر أنهم كانوا على علم بفراره قبل أن يصل مع زملائه. كان كل الأميركيين يبتسمون له

Twitter: @ketab_n

شأن من يدلل على أنه مطّلع على كلّ ما عاناه من ألم وما بذله من مشقة وأظهر من شجاعة.

كان إيوهان موريتز تعباً لكنه ما كان يريد النوم. كان ينظر حوله بإعجاب ولا يستطيع التصديق أنهم احتجزوا له تلك الغرفة الفخمة وأن كل تلك الأشياء المصفوفة بعناية قرب الطاولة أو على السجادة كانت له. لقد منحه الأميركيون كل هذه الأشياء الثمينة لأنه بذل من الشجاعة الخارقة وأنقذ خمسة من المساجين الفرنسيين من معسكر الاعتقال.

قال جوزيف:

- لقد كان فرارنا كاملاً موفقاً.

تذكر إيوهان موريتز كيف خرج ذلك الصباح من المعسكر مع المساجين الخمسة واخترق شوارع المدينة. كانت هيلدا تنتظره دائماً وراء نافذتها والطفل بين يديها تقول له «انظر، إن ذلك الذي يحمل البندقية ويلبس الخوذة إنه أبوك». ابتسم موريتز ذلك الصباح ابتسامة كل صباح لكنه لم يتوقف على الجسر. كان السجناء يتقدمونه وهو يمشي وراءهم وبندقيته على كتفه حتى بلغوا حدود الغابة. كان الناس الذين يلاقونهم على الطريق يعتقدون أنهم إزاء جندي يحرس خمسة مساجين. لكنهم كانوا في الحقيقة خمسة فارين. خيِّل إلى موريتز أن امرأة أطالت النظر إليه فشعر بقلبه يدقّ بعنف وبالخوف يدبّ فيه. وقد نظر إليه بعضهم بشيء من الارتياب غير أن موريتز تجاهل نظراتهم.

ولما بلغوا الغابة ارتدى موريتز ثوباً مدنياً كان الفرنسيون قد أتوا به له وحطّم جوزيف بندقيته على الصخور. فلمّا أصابته بعض الشظايا شعر إيوهان موريتز بأنّ شيئاً قد تحطّم في قلبه. غير أنه كتم

Twitter: @ketab_n

ما في نفسه ولم يمانع عندما أشعل الفرنسيون النار في ثوبه العسكري رغم أنه شعر برغبة ملحَّة في البكاء وهو يشاهد بزَّته تحترق. لكنه تمالك أعصابه كيلا يُغضب الفرنسيين الذين كانوا يشتمون هتلر دون أن يفهم موريتز شيئاً من أقوالهم.

لبثوا بعد ذلك أسبوعاً كاملاً يسيرون في الغابة. وذات يوم خرجوا من الغابة فإذا هم أمام سيارات أميركية. فراح الفرنسيون يغنون. كانوا منهوكين من الإعياء غير أنهم راحوا يغنون كالمجانين في الغابة. وصفوا أشرطة مثلثة الألوان في عروة ستراتهم ومثلها في عروة إيوهان موريتز. ثم خرجوا أمام السيارات الأميركية فأعطاهم الأميركيون لفافات وحملوهم إلى مركز المساعدة «أونرا» حيث خصّصت لهم الغرف وقدّم لهم الطعام وكأنهم كانوا ينتظرون مجيئهم.

منذ وصول الفارِّين وحتى ذلك اليوم لم يكفّ الأميركيون عن إعطائهم الرزم والطعام. حتى إن إيوهان موريتز شعر بأنه يعيش في جوّ سحري من قصص الجان. لكنه عندما يرى جوزيف إلى جانبه كان يتأكد من أنه يعيش في حقيقة وأن كلّ ذلك قد وقع له، هو، إيوهان موريتز، لأنه قام بعمل جليل في سبيل نصرة الحلفاء.

نام جوزيف بينما كان إيوهان موريتز يحدِّث نفسه بأنه سيذهب من هنا إلى فرنسا ويحلم في البيت الذي سيشيده وفي هيلدا وفرانتز ويطمئن نفسه بقوله «عندما تنتهي الحرب سأستدعي أبي وأمي إلى فرنسا».

ثم أغضّ هو الآخر وهو في كامل ثيابه ونام ليلة يحلم في سعادته المقبلة فلم يستيقظ ولم يتحرك حتى انبلج الصبح.

Twitter: @ketab_n

أمضى إيوهان موريتز أسبوعين في مركز «الأونرا». كان قد قصّ على الأميركيين كيفية فراره مع الفرنسيين الخمسة وهنأه الأميركيون على شجاعته ثم طلبوا إليه أن يقصّ تفاصيل الفرار خطياً لأنهم يريدون نشر قصة إيوهان موريتز في صحفهم. سوف يشيد كلّ الناس بذكره ويتحدَّثون عنه.

كان إيوهان موريتز يزداد اقتناعاً كل يوم بأنه ساعد الأمم الحليفة في كسب الحرب. فكان سعيداً فخوراً لأنه استطاع أن يقوم بعمل في سبيل الأمم الحليفة ولأنه رأى أن تلك الأمم الحليفة كانت مسرورة من فعلته.

وذات يوم استدعاه المدير إلى مكتبه. كان قد استدعاه من قبل عدة مرّات ليقصّ حكاية فراره.

دخل إيوهان موريتز إلى المكتب فرحاً مسروراً فدعاه المدير إلى الجلوس على الأريكة وقدّم له علبة «سجائر» وابتسم. فكان هذا التقدير يذهل إيوهان موريتز وتطيب له نفسه. كان يُستقبل كلّ مرة بمثل هذه الحفاوة لكنه ما كان يستطيع احتمال هذه الحفاوة دون أن تهزّ مشاعره.

قال المدير وهو يشعل لفافة إيوهان موريتز...

- لم يعد من حقك السكنى وتناول الطعام في «الأونرا». لن تستطيع اعتباراً من الغد الجلوس إلى المائدة وتناول الطعام معنا. وينبغي لك أن تخلي الغرفة التي تقيم فيها في الفندق.

شحب وجه إيوهان موريتز. راح يتساءل عن الخطيئة التي ارتكبها حتى غضب عليه الأميركيون. قال في سره: «لعلني ارتكبت جرماً كبيراً حتى يطردوني ويلقوا بي إلى الشارع».

Twitter: @ketab_n

كان قد تلقى حتى ذلك اليوم عدداً كبيراً من الهدايا. كان لديه خمس رزم من الأشياء له ولهيلدا. ولما عرف الأميركيون أن له طفلاً حملوه بالهدايا والثياب لطفله فرانتز وطلبوا منه إبراز صورة ابنه وراحوا كلهم ينظرون إليها بحنان.

«والآن، وفجأة، يطرحني هؤلاء الرجال أنفسهم إلى الطريق فلا شك إذن أن الخطأ خطأي».

قال المدير:

- إن «الأونرا» لا تحمي إلّا رعايا الدول الحليفة. أما أنت فإنك عدو الأمم المتحدة.

تذكر إيوهان موريتز الهدايا التي حصل عليها لقاء العمل الذي قام به. كانوا جميعاً يؤكدون له منذ حين أنه قام بعمل شديد الأهمية في نصرة الحلفاء. وها أن أولئك الرجال أنفسهم يدعون الآن أنه - هو إيوهان موريتز عدو للأمم المتحدة.

كرَّر المدير قوله:

- إنك عدو الأمم المتحدة.

فقال إيوهان موريتز:

- لكنني لم أرتكب شيئاً ضد الأمم المتحدة! أقسم لك يا سيدي المدير أنني لم أسئ مطلقاً إلى الحلفاء!

سأل المدير بصوت قاسٍ:

- ألست رومانياً؟ إن الرومانيين أعداء الأمم المتحدة. وأنت روماني وإذن فإنك تكون عدواً لنا بصورة آلية ولا تستطيع مؤسسة «الأونرا» أن تأوي وتطعم رعايا البلاد العدوة. ينبغي أن تُخلي غرفتك.

خرج إيوهان موريتز من مكتب الرئيس مُطرق الرأس. كان يودّ العودة إلى سريته لكنه تذكر أنه حطم بندقيته في الغابة وأن الفرنسيين

Twitter: @ketab_n

أحرقوا ثوبه العسكري وما كان يستطيع العودة إلى قطعته دون سلاح. فراح يتساءل: «والآن إلى أين أمضي؟».

- 104 -

أوقفت هيلدا بعد فرار موريتز مباشرة فأعلنت في دائرة البوليس أنها لا تعرف شيئاً. وأوقفت أم هيلدا بعد يومين من توقيف ابنتها وأخضعتا معاً للاستجواب والضرب. غير أن مفتشي البوليس لم يستطيعوا الوصول إلى أية معلومات عن طريقهما. ولما فتش المسكن، عثر رجال البوليس على رسائل الزعيم موللر.

قالت هيلدا:

- إنه صديق إيوهان! لقد كان يرسل إلينا مائتي مارك كل شهر. وقد كان يزودنا في عيدي رأس السنة والفصح وفي أعياد زواجنا وميلادنا بما نحتاجه من الأطعمة والسجائر.

فأعلمت الشرطة العسكرية الزعيم موللر بفرار موريتز على أمل الحصول على معلومات متممة تتيح لها الاستمرار في التحقيق.

وبعد يومين، تلقى رجال البوليس البرقية المطولة التالية من دائرة الأركان.

أبرق الزعيم موللر يقول:

- «منذ أربعة قرون، لم يشر مرة واحدة إلى فرار فرد من «الأسرة الشجاعية» التي يمتّ إليها إيوهان موريتز. نقطة. يستحيل استحالةً كلية أن يكون إيوهان موريتز قد فرّ من الجيش. نقطة. إنني مقتنع بأن اختفاءه يرجع إمّا إلى عملية اختطاف وإمّا إلى جريمة قتل. نقطة. إن اختفاء إيوهان موريتز يشكِّل بالنسبة إلى تاريخ «الأسرة الشجاعية» خسارة لا تعوض. نقطة. ينبغي العثور عليه مهما كان

Twitter: @ketab_n

الثمن. نقطة. لا تلوثوا بشبهة الفرار من الجندية فرداً من أعرق الأسر ذات الدم الجرماني وأكثرها شجاعة. نقطة. لا تستعملوا كلمة فرار من الجندية في التحقيق الذي تقومون به. نقطة. إن زوجة إيوهان موريتز وولده يعتبرون منذ الآن محميين من قِبل مؤسسة الدراسات والبحوث الألمانية. نقطة. سيمنح لزوجة إيوهان موريتز وولده جراية غذائية من المؤسسة حتى العثور على الزوج. نقطة. إن الشرطة المحلية مدعوة للسهر على المرأة والطفل. نقطة. أطلعوني على سير الأمور. نقطة. كل خبر جديد يتعلق بإيوهان موريتز ينبغي أن يبلغ إلي برقياً إلى الأركان العامة. نقطة. الزعيم موللر رئيس مؤسسة الدراسات الألمانية».

فقال الرئيس، قائد الشرطة العسكرية:

- إذا علم الزعيم بأننا أوقفنا زوجة موريتز فسوف ينقلنا إلى الجبهة فوراً لأسباب تأديبية في خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة. من الخير لنا أن نطلب إلى المرأة عدم الاتصال بالزعيم وإطلاعه على مسألة توقيفها.

وسأل الملازم الأول الذي يترأس الشرطة العدلية:

- وماذا سنعمل بالملف؟

فأجاب الرئيس:

- احفَظ القضية فوراً. إنّ اللعب مع مؤسسة الدراسات خطير جداً.

واسترسل يقول:

- هذا لا يَمنع من أن نعترف بأن عدم إبلاغنا عن حالة فرار هذا الجندي من الجيش حماقة جسيمة. إن الرؤساء أحياناً يرتكبون من الأخطاء أكثر ممّا يرتكبه الأحياء العاديون. إن الزعيم موللر عالم. ولقد قرأت عدة مقالات له في المجلات، بل إنه نشر كتباً أيضاً.

Twitter: @ketab_n

غير أنه شديد الممانعة. إذ كيف يستطيع التصوّر أن موريتز لم يفرّ من الجيش؟

اقتيدت هيلدا إلى دارها في سيارة الرئيس قائد الشرطة الذي قال لها:

- إذا احتجت إلى السيارة مرة أخرى، فمُرّي أو اتصلي بي هاتفياً. إن سيارتي «المرسيدس» ستبقى رهن إشارتك ليلاً نهاراً. اتصلي بي لأنفذ لك أية رغبة تعتلج في نفسك. إنني أكون لك من الشاكرين إذا امتنعت عن إخبار الزعيم موللر بأمر توقيفك. إننا لم نقم بهذه الخطوة إلا على سبيل إعطاء المثال للآخرين وإبراز القدوة الحسنة. لقد كان توقيفك لمجرد الشكليات.

سألت هيلدا:

- إن زوجي لم يفرّ من الخدمة إذن؟ هل أرسل في مهمة خاصة؟

فأجاب رئيس البوليس:

- لا نستطيع إعطاءك جواباً شافياً. إن زوجك لم يفرّ. أما الباقي فإنه سرّ.

احمرّ وجه هيلدا من الاغتباط وراحت حياتها اعتباراً من ذلك اليوم تترى أشبه بقصص ألف ليلة وليلة.

كانت مقتنعة من أن زوجها قد أرسل بمهمة خاصة من قِبل مكتب الدراسات وإلا «فلِمَ يضعون السيارة تحت تصرفي؟».

كانت تلبث ساعات طويلة أمام النافذة وهي تتصور إيوهان موريتز في مواقف مختلفة تكنفه الأسرار كما تشاهد في أشرطة المغامرات.

كانت تحدِّث نفسها: «إنه لم يحدثني بشيء. إنه يعتبرني أدنى منه مقاماً. لذلك فسأبذل قصارى جهدي لأكون جديرة به».

Twitter: @ketab_n

قبّلت هيلدا ابنها وراحت تضمّه وتقول:

- إنني لم أكن في حياتي أكثر سعادة من اليوم. إن زوجة إيوهان موريتز هي وحدها التي تستطيع معرفة هذه السعادة وتذوقها، سعادة اقتران امرأة ببطل!

- 105 -

قالت هيلدا:

- لا أستطيع التصديق أننا خسرنا الحرب. إن كلّ سكان المدينة قد فروا إلى الغابات أو الأرياف وهم يقولون إنّ الروس على بعد عشرة كيلومترات من هنا. إنّ كل الجيران قد ارتحلوا. لكنني لا أصدق ذلك. إن الأمر مجرد دعاية عدوة هدفها بثّ الذعر في النفوس. إنني سأبقى في مكاني لأن ألمانيا لا يمكن أن تخسر الحرب.

فقال الضابط الذي كانت تحدِّثه:

- إئتني بوعاء فيه ماءٌ لأغتسل.

وراح ينزع معطفه الجلدي ويعلِّقه على المشجب. كانت حقيبته على مقعد قريب فنزع سترته العسكرية ووضعها على مسند المقعد وظلّ واقفاً يكسو جزءه قميص صوفي.

كانت هيلدا تتابع حركاته. كانت تشعر بأنها قادرة على البقاء ساعات طويلة تتمتع بالنظر إليه وهو يخلع معطفه الجلدي ويعلِّقه على المشجب ثم يفكّ أزرار سترته.

قال الضابط:

- إئتني بماء ساخن لأحلق لحيتي.

ثم أدار لها ظهره وفتح الحقيبة فخرجت هيلدا من الغرفة تاركة

Twitter: @ketab_n

بابها مفتوحاً. كانت ترى من نافذة المطبخ سيارة الضابط العسكرية الواقفة أمام الباب. لقد جاء الضابط في تلك السيارة. نظرت هيلدا إلى ساعة المطبخ فإذا بها تشير إلى أنّ الضابط لم يمضِ أكثر من ربع ساعة في المنزل فقالت في سرها «مع ذلك فإنني أشعر بأنني أعرفه منذ الأبد».

كان الضابط قد قرع الباب ففتحت له. أنبأها بأنه يريد الاغتسال وإبدال ثيابه. كانت لهجته آمرة وكأنه يُصدر أمراً إلى جنوده. ودخل البيت دون أن ينتظر جوابها. مرّ بجانب هيلدا التي لبثت واقفة على العتبة واحتكّ بها في مروره بجانبها فاستنشقت رائحة المعطف الجلدي الممتزج بأريج الرياح والغبار والحرب، فتبعته إلى الداخل نشوى.

كان القادم طويل القامة عملاقاً. فتح باب غرفة الطعام بحركة طبيعية وكأنه كان في مسكنه ودخل إليها ثم راح يخلع ثيابه بينما ظلّ الباب مفتوحاً. انتظرت هيلدا على العتبة علّه يُصدر إليها أمراً. غير أن العملاق راح يخلع ثيابه دون أن يلتفت إليها.

لما خلع خوذته لمحت هيلدا شعره الأشهب الفضي ثم خلع معطفه فلمحت رتبة الملازم الأول التي يتقلّدها فقالت تناجي نفسها:

«إنه من ضباط الاحتياط».

نظر إليها العملاق عدة مرّات غير أن نظراته كانت تخترقها ببساطة دون أن تراها. راحت هيلدا تتحدث وتقصّ عليه ما يجيش في صدرها والعملاق لا يجيب على قولها ولا ينظر إليها.

وبعد أن خلع سترته أمرها بكلّ بساطة أن تأتيه بالماء وبإناء. همّت هيلدا بدعوته إلى الاغتسال في الحمام لأن بيتها كان يضم حماماً جميلاً أنيقاً، لكنه بعد أن أمرها بإحضار الإناء والماء لم تجرؤ على معارضة رغبته.

Twitter: @ketab_n

ملأت إبريق الماء وهي تنظر من جديد إلى السيارة الواقفة أمام الباب. كانت السيارة مغطّاة بطبقة من الغبار كما كان حال معطف الضابط الجلدي. ولمّا رجعت بالإناء إلى الغرفة كان العملاق يستر جسده بقميصه.

قال لها وهو يبدو مشغول البال تعباً:

- أعطني مرآة.

فكرت هيلدا في أنه قد يطلب إليها أن ينام. كانت على استعداد لإعداد سرير له في غرفة نومها وتركه ينام فترة ويرتاح.

شهدت في الأيام الأخيرة عدداً كبيراً من قوافل الجند تخترق المدينة وقرع عديد من الجنود والضباط بابها في طلب القرى لليلة أو الماء والاغتسال أو لطهو الأطعمة المحفوظة. وقد عنيت في خلال هذا الوقت كله بإسداء كل ما استطاعته من خدمات وهي تفكّر في زوجها. كانت تعرف أن إيوهان موريتز في مهمة سرية خاصة فأرادت أن تبرهن عن جدارتها به وبخدمة وطنها إسوة بزوجها.

كان أولئك الجنود والضباط يجدون عندها ما يريدون من خدمات وكانت تسمح لبعضهم بالنوم في غرفة الطعام، أما هذا العملاق فإنها كانت على استعداد لدعوته للنوم في غرفة النوم أما هي فإنها كانت ستنام على الأريكة في غرفة الطعام.

فكّرت هيلدا في أن العملاق قد يختار سريرها بدلاً من النوم في سرير موريتز. فارتعدت فرائصها لهذه الفكرة. أخذت المرآة التي كان موريتز يقف أمامها كلما أزال لحيته وحملتها إلى العملاق الذي كان يسير في الغرفة جيئة وذهاباً مفتوح الياقة. فأخذ المرآة من يدها وبحث عن مكان مناسب يضعها فيه. إنه لم يجد المكان المناسب. لأنه كان طويل القامة لا يستطيع تركيز المرآة على المائدة لأنه في هذه الحالة سيضطر إلى الانحناء لإتمام مهمته. لذلك فقد وضع

Twitter: @ketab_n

المرآة بين يدي هيلدا دون أن ينطق بكلمة وراح يغطي وجهه بطبقة الصابون.

هتف آمراً:

- ارفَعيها أكثر من ذلك!

كان وجهه متأثراً بالشمس والريح ووجنتاه تغطيهما لحية شهباء ميالة إلى الحمرة. رفعت هيلدا المرآة إلى مستوى فمها وظلّت ترفعها حتى بلغت ارتفاع الجبهة. ولما اقترب العملاق من المرآة أحست بأنفاسه فارتعدت يداها. غير أنها بذلت مجهوداً كبيراً للبقاء منتصبة وقد تقلصت أصابعها على المرآة.

كرر العملاق بصوته الخشن:

- ارفَعيها قليلاً أيضاً.

فرفعت هيلدا المرآة إلى أعلى من الجبهة وشعرت بذراعيها يتخدران وودَّت لو قالت شيئاً. غير أن صوت الموس المتزن وهي تقطع شعر اللحية الأصهب المغطى بالصابون جعلها تلزم الصمت. كانت حواسها المستيقظة تلتقط رائحة الصابون وتحسّ بأنها ليست مجرد عطر يفوح من الصابون نفسه، بل إنها رائحة الرجل والحرب والطريق التي لا نهاية لها. إنها رائحة المعطف الجلدي. لم يلاحظ العملاق أنها تترنح لأنه كان يزيل لحيته بعناية متفادياً جرح بشرته.

ولما فرغ من غسل يديه بالصابون في الإناء النظيف الأبيض قال لها:

- شمّري عن ساعدي.

فلفَّت هيلدا أكمام القميص. كانت تخاف أن تلمس بشرة العملاق ولمّا اصطدمت يداها بيده ارتعدت. كانت رائحة الغابة والريح التي حملها العملاق معه تفوح في البيت كله. وكانت هيلدا تشم ذلك العطر وتشعر أنه تغلغل في قطع الأثاث والسجاد والجدران

Twitter: @ketab_n

وأنه لن يبرحها أبداً. لقد اخترق ذلك العطر أثوابها وبشرتها وشعرها وقميصها ولن يخرج منها ولو أمضت العمر في الاغتسال.

قال الضابط:

- والآن أريد أن أبقى وحيداً.

ولما استدارت هيلدا لتغلق الباب رأت جذعه عارياً لأنه كان يخلع قميصه. كان رأسه محجوباً بالقميص فلم ترَ إلا صدره. كانت هيلدا قد رأت من قبل ألوفاً من الرجال العراة بوصفها ممرضة. لكنها لم ترَ أبداً قبل تلك اللحظة صدراً يشبه ذلك الصدر.

مضت هيلدا إلى المطبخ وعادت تنظر إلى السيارة من النافذة.

كان طفلها نائماً فراحت هيلدا تتساءل عما إذا كان العملاق سيتابع طريقه على الفور أم أنه سينال قسطاً من الراحة. كانت تريد أن تهيئ له الطعام. لكنها كانت في تلك اللحظة مصغية بكلّ جوارحها استعداداً للإجابة عن أول طلب.

قالت إحدى الجارات وهي تمر أمام نافذة هيلدا:

- إن الروس على بعد ثلاثة كيلومترات! أما زلتِ باقية هنا؟

فأجابت هيلدا:

- إنني أبقى.

راحت تتساءل عن سبب إبطاء العملاق في مناداتها ونفد صبرها فلم تعُد تطيق الصبر والانتظار. قرعت الباب ودخلت. كان العملاق مرتدياً ثوب الحفلات وقد غطَّت الأوسمة صدره العريض.

تسمّرت هيلدا على العتبة مذهولة.

ابتسم لها العملاق للمرة الأولى. كانت رائحة الزهور تفوح في الغرفة بدلاً من رائحة الجلد والحرب والريح التي كانت تملأ جو المكان.

قال العملاق:

Twitter: @ketab_n

- أريد أن أعلم إذا كنت ألمانية حقاً. لأنني أريد سؤالك خدمة لا تستطيع أداؤها إلا الألمانية الصميمة.

فأجابت:

- إنني الألمانية الصميمة التي تطلب. إنني لست فقط ألمانية، بل إن زوجي موفَد من قبل..

كانت هيلدا تتوق إلى سرد سرّ ذهاب زوجها على العملاق. لكنها بترت حديثها فجأة. كانت على المائدة صور مأطرة لامرأتين جميلتين. فراحت هيلدا تنظر إليهما. لم تجد في نفسها الشجاعة على التصريح إليه بالسر الذي لم تبُح به لإنسان والذي كادت أن تطلع العملاق عليه لمجرد رغبة رعناء. لكنها ما إن رأت الصور تحت أبصارها حتى أسفت على ما اعتزمت عليه من رواية القصة التي تعرفها.

قال العملاق:

- هذه زوجتي وتلك ابنتي. إنهما ماتتا كلتاهما. لقد أحببتهما كثيراً لكنهما خدعتا حبي. إن زوجتي وابنتي خدعتاني. ولقد دفنتُ زوجتي. أما ابنتي فإنها في مكان ما لا أعرفه. لقد تزوجت صعلوكاً تافهاً ومنذ ذلك الحين أعتبرها ميتة بالنسبة إليّ.

نظرت هيلدا إلى الصورتين وناجت نفسها قائلة: «أما أنا فإنني ما كنت لأخدعه قط لو أنه أحبّني!».

كان بالقرب من الصورتين صورة ثالثة ذات إطار من الجلد. تلك كانت صورة الفوهرر.

قال:

- والآن لقد مات الفوهرر أيضاً! إن ألمانيا لم يعُد لها وجود. إنني لم أحيا إلا من أجلهم. كنت أحب الخيول لمّا كنت فتى لكنه كان حب الشباب. لقد اختفى كلّ ما عشتُ من أجله. لقد ماتوا

Twitter: @ketab_n

جميعاً: زوجتي، ابنتي، زعيمي، ووطني. والآن لقد جاء دوري. سيكون الروس هنا بعد نصف ساعة وإنني أودّ قبل مجيئهم أن أنهي واجبي الأخير في خلال حياتي.

اخضلَت عينا هيلدا بالدموع. كانت تظنّ أن العملاق سينام في غرفة نومها وأنه جائع تقدم له طعاماً يأكله، وإذا بها الآن تراه مرتدياً ثوب الحفلات الرسمية.

قالت:

- سأعمل كلّ ما تطلبه مني. هل تريد الذهاب إلى مكان ما؟

كانت تنظر إلى ثوبه الأنيق. فأجابها:

- إنني لن أذهب إلى أي مكان. إنّ هذه آخر رحلاتي في هذا العالم السفلي.

راح العملاق يضحك راضياً وأردف:

- كنت تظنين أنني سأذهب إلى مكان ما لأنني حلقت لحيتي واغتسلت وارتديت كسوتي الجميلة؟

أخذَ يربت على كتفها وهي شديدة الارتباك. شعرت هيلدا بصَغارها إزاءه مثل ذلك الصَّغار الذي أحست به عندما علمت أن إيوهان أرسل في مهمة خاصة.

قال العملاق:

- انتبهي جيداً إلى ما سأقوله لك. إنه أمر شديد السهولة. غير أن المرأة الألمانية وحدها هي التي تستطيع إنجازه! إن زوجتي ما كانت تقدر على مثل ذلك الأمر. أما أنت فتقدرين. لقد كانت زوجتي شديدة الضعف، بل إنني ما كنت لأسألها مثل ذلك الأمر. أما أنت فإن الأمر يختلف معك.

شعرت هيلدا بالاعتداد والزهو لأنّ العملاق يسألها ما لا يسأل مثله زوجته الخاصة.

Twitter: @ketab_n

استرسل يقول:

- بعد موتي ينبغي أن تسحبي جثتي إلى الفناء وأن تحرقيها. ستجدينني ميتاً هنا على قطعة من قماش الخيام.

كان العملاق قد مد على الأرض قطعة من قماش الخيام. أردف يقول:

- لن يكون عليكِ إلّا أن تأخذي بطرفي قطعة القماش وأن تسحبيني إلى الفناء.

وأخرج العملاق من تحت المائدة صفيحتين عسكريتين وقال:

- هذا هو البنزين اللازم. إنه من وقود الطائرات. بعد أن تجرِّي جثتي إلى الفناء ستغطينني بهذه القطعة من قماش الخيام وتسكبين الوقود عليها ثم تشعلي النار بهذا المشعل.

كان العملاق دائم الابتسام. أخرَجَ من جيبه مشعلاً ذهبياً قدَّمه إليها واسترسل يقول:

- إليك ما تشعلين به النار. إذا انطفأت النار الأولى فما عليك إلا أن تصبي ما في الصفيحة الثانية من وقود وأن تشعلي النار من جديد. وبعدئذٍ أعتقد أنه لن يبقى مني شيء. لن يجد الروس إلّا رمادي. إن جندياً جديراً بشرف هذا الاسم لا ينبغي أن يترك جثته بين يدي أعدائه. لقد تصرف الجنود الألمان هكذا في خلال حقبات التاريخ. كانوا إذا قضي الأمر يسقون أنفسهم كأس المنون ويتلفون أجسادهم فلا يجد العدو إلا بقاياهم المتفحمة.

راح العملاق يفرك كفيه بارتياح، بينما لبثت هيلدا صامتة تنظر إلى الصور.

- إذا شئتِ إحراق الصور فما عليك إلا وضعها معي ضمن قطعة الخيمة. إنها ستحترق كما أحترق أنا. أما إذا شئت الاحتفاظ

Twitter: @ketab_n

بها فلك ذلك. لكنني لا أرى سبباً يدعوك للاحتفاظ بها. إنني لست من هذه البلاد، بل إنني من رومانيا.

لبثت هيلدا صامتة لا تريم. كانت تتخيل العملاق ممدداً على قماش الخيمة. لكنها ما كانت تستطيع تصديق ذلك واعتباره ممكناً. كانت ترى أن العملاق خُلق لا ليموت، بل ليبقى خالداً.

- هل تشعرين بالخوف؟ إن الألمانية لا تخاف أبداً وخصوصاً لمّا يكون الأمر متعلقاً بالوطن. إنني أعتقد بأنك مقتنعة أن في تنفيذك رغبات جندي قبل موته إنما تخدمين وطنك.

قالت هيلدا:

- إنني أعرف ذلك ولست خائفة. لكنني لا أستطيع تصديق كل هذا. إنني لا أصدق أن الروس سيصلوا إلى هنا ولا أعتقد أن ألمانيا يمكن أن تهزم!

قال العملاق.

- لقد انتهى كل شيء. لقد ضاع كل شيء ولا يمكن التعويض عنه.. لا تنسي وضع المسدس في جرابه الجلدي ليحترق معي في آن واحد. ينبغي أن يدفن الجندي أو يحرق مع سلاحه.

ساد الصمت فترة كان العملاق خلالها ينظر إلى اللانهاية ساهماً تائهاً في أفكاره مستغرقاً فيها وكأنه غارق في ماء لا قرار له.

وفجأة قال:

- والآن لقد انتهى كل شيء.

رفعت هيلدا عينيها إليه. ظنَّت أن العملاق يريد الانتحار أمامها الأمر الذي ما كانت تستطيع احتماله. غير أنه لم يكن يبدو عليه أنه راغب في الانتحار. استدار العملاق إلى حيث كانت صورة الفوهور فوقف وقفة الاستعداد ورفع ذراعه اليمنى محيياً.

كانت هيلدا تقف وراءه تنظر إلى كتفيه وقامته التي يضمها الثوب

Twitter: @ketab_n

العسكري. كانت ترى ذراعه الممدودة وهو جامد كالتمثال. وأخيراً استدار نحوها ورفع ذراعه يحييها وقال:

- الوداع يا صديقتي وشكراً! إنني الملازم إيورغو إيوردان. ولكن لا حاجة بكِ إلى ترديد هذا الاسم. كوني فخورة بما ستقومين به. إنه شرف للألمانية أن تنفذ الرغبات الأخيرة للجندي!

ضغط على يد هيلدا مصافحاً. كان يضغط عليها بشدة كمن كان يشعر بالفراق ثم قال آمراً:

- أريد الآن أن أبقى وحيداً! تعالي حالما تسمعين صوت الطلقة. الوداع!

- 106 -

ظهرت السيارات الروسية الأولى عند أول الشارع.

سمعت هيلدا بادئ الأمر دوي محرّكاتها ثم رأتها من نافذة المطبخ مقبلة فهرعت إلى الغرفة التي تركت العملاق فيها. كان قد أمرها بأن لا تدخل الغرفة إلا بعد سماع صوت الطلق الناري ولم تكن حتى تلك اللحظة قد سمعت شيئاً لذلك ما كانت تجرؤ على خرق أوامره.

كانت السيارات الروسية الكبيرة التي تمرّ في الشارع تهزّ الجدران فلم تستطع هيلدا الانتظار أكثر ممّا انتظرت لأنها كانت خائفة. قرعت الباب ودخلت.

كان العملاق منطرحاً في وسط الغرفة مسجى على ظهره فوق قطعة الخيمة.

تساءلت هيلدا: «كيف لم أسمع صوت الطلق؟».

كان جسد العملاق مستقيماً وكأنه مات وهو في وضعية

Twitter: @ketab_n

الاستعداد يحيي صورة الفوهرر. كانت عمرته على رأسه ووجهه مزرقاً وكأن مسحوق الرماد قد نثر فوقه. وكانت وجنته اليمنى وفمه وأنفه ملطخة بالدم. لم يكن هناك دم كثير، بل خيوط دقيقة لا أكثر.

أخذت هيلدا المسدس الذي سقط قرب فم العملاق ووضعته في جرابه الجلدي وأغلقت الجراب وهي تتساءل: كيف استطاع العملاق أن ينتحر دون أن تسمع صوت الطلقة النارية!

أمسكت هيلدا بأطراف قطعة القماش وغطت الجثة بها وقبل أن تحجب وجهه ألقت على العملاق النظرة الأخيرة.

راحت تحدِّث نفسها:

- إنني لا أشعر بأنني بالقرب من ميت. إن الموت لا يخيفني. إنني لا أرى الموت حتى عندما أكون بجواره. ذلك راجع إلى عديد الأشخاص الذين رأيتهم يموتون في المستشفى...».

غطت هيلدا وجه العملاق دون أن تلمسه.

كان في تلك اللحظة يشبه كلّ الرجال الذين رأتهم من قبل، لكن العملاق لم يكن يشبه الآخرين لمّا كان على قيد الحياة. بيد أن هيلدا كانت لا تكاد تذكر اللحظات التي لبث العملاق فيها حياً يزيل لحيته ويرتدي ثوبه ولا الرعدة التي كانت تسري في كل أوصالها عندما كانت تقترب منه.

أما الآن فقد بدا ذلك وكأنه حصل منذ سنين طويلة. لأنها كانت قد نسيت كل شيء عنه تقريباً.

وفي الخارج كان ضجيج السيارات والمصفحات الروسية يرتفع مدوياً. شعرت هيلدا فجأة بالخوف. فأرادت أن تأخذ الطفل وتفرّ به إلى الغابات عن طريق باب الحديقة. لكنها تذكرت الوعد الذي قطعته للعملاق.

همست تحدث نفسها: «إنني آسفة إذ وعدته بإحراقه بعد موته».

Twitter: @ketab_n

كانت لا تستطيع حمل الجثة إلى الحديقة لأنها كانت تعرِّض نفسها للاكتشاف من قِبل الجنود الروس وهم في سياراتهم ومصفحاتهم يمرون أمام الباب.

ناجت نفسها تقول: «ينبغي أن أنتظر حتى المساء. وعندئذٍ سأحمله إلى الفناء وأشعل النار فيه عند هبوط الظلام وألوذ بالفرار مع الطفل».

لبثت هيلدا بجانب الميت لا تفكر في شيء. وفجأة حدَّثت نفسها بأنهم إذا وجدوا الميت في البيت فإنها قد تسجن. لذلك فقد جاءت بطفلها من الغرفة المجاورة وجلست على مقعد قرب الميت وأجلست الطفل في حجرها.

خاطبت نفسها: «لا أستطيع الإخلال بوعد قطعته لجندي قبل موته».

أغلقت الباب ودفعت المزلاج وراءه مصممة على الانتظار حتى يهبط الظلام. كانت هيلدا لا تحمل ساعة لكنها كانت تعرف أن الظلام سيسود بعد ساعتين أو ثلاث ساعات. تذكرت أن العملاق يحمل ساعة حول معصمه فأزاحت طرف القماش ونظرت إلى ساعة العملاق لتعرف الوقت الذي يجب عليها الانتظار خلاله. وحينئذٍ سمعت قرعاً على الباب.

ضمت هيلدا الطفل بين ذراعيها ولم تجِب.

سمعت حديثاً بالروسية وراء الباب وعادت الضربات تقرع الباب من جديد ففتحت النافذة المطلة على الحديقة.

«لا أستطيع الفرار دون أن أنفِّذ وعدي. إن إيوهان «زوجي» بطل فلا يحقّ لي أن أكون أنا على عكسه نذلة».

رفعت هيلدا غطاء إحدى الصفيحتين وصبَّت محتوياتها على قطعة الخيمة بينما كانت ضربات أعقاب البنادق تكاد أن تطيح

Twitter: @ketab_n

بالباب. فتحت هيلدا الصفيحة الثانية وصبت نصف محتوياتها. كانت متعجلة خائفة أن يوفق الروس في تحطيم الباب. ثم حملت طفلها واتجهت نحو النافذة.

حدثت نفسها: «بعد أن أقفز من النافذة سألقي بالزناد المشتعل في الغرفة فيحترق الجسد وبذلك أكون قد برَرْت بوعدي».

كان جوّ الغرفة مشبعاً بالسائل القابل للاشتعال فراح الطفل يسعل بينما زادت هيلدا من سرعتها. ولما تخطّت حاجز النافذة لتقفز إلى الفناء كان الروس قد تمكنوا من تحطيم الباب بأكتافهم. لم تكن المسافة بين حافة النافذة وممشى الحديقة مرتفعة جداً وكان القفز سهلاً. غير أنه في تلك اللحظة بالذات ظهرت ثلاث عمرات روسية أمام النافذة.

كان في الحديقة عدد آخر من الجنود فتعذّر القفز عليها. ألقت هيلدا نظرة نحو الباب. كان الطفل يصيح وهو على وشك الاختناق من غاز الوقود. فقررت القفز من النافذة وشق الطريق لنفسها بين الجنود الروس. وفي تلك اللحظة مدّ أحدهم يده من النافذة محاولاً الإمساك بها فلمس قدمها.

أطلقت هيلدا صرخة وأرادت الدفاع عن نفسها. لم يكن في يديها إلا الزناد فضغطت عليه دون وعي كما يضغط المرء على زناد المسدس عندما يُهاجَم فانبعث ضوء هائل دام ثانية أعقبه ظلام أشدّ حلكة وكثافة من الليل البهيم. كان الضوء قد مضى إلى لا رجعة.

واحتوت النيران التي كانت تحرق جسد العملاق إيورغو إيوردان زوجة إيوهان موريتز وطفلهما موريتز ودمرت تلك النار نفسها المنزل من القبو وحتى السطح، وأتلفت كل ما فيه بما في ذلك الصور التي أتى بها العملاق معه ووضعها بنفسه على المائدة: صورة أم سوزانا وصورة سوزانا زوجة موريتز الأولى.

Twitter: @ketab_n

لبث الوقود الذي أتى به العملاق مشتعلاً وارتفعت ألسنة اللهب صاعدة نحو السماء.

- 107 -

لبث تريان كوروغا وإليونورا ويست جالسين قرب بعضهما أمام الميجور براون الحاكم الأميركي لمدينة ويمار.

قال تريان كوروغا:

- هذا كلّ شيء يا سيدي الحاكم. عندما طلبت رومانيا الهدنة في الثالث والعشرين من أغسطس أوقفنا زوجتي وأنا من قِبل الكرواتيين مع كل أعضاء السفارة الرومانية.

«لقد سجنّا حسب القوانين الدبلوماسية في فندق مع ممثلي الدول العدوة الأخرى.

«ثم احتل أنصار تيتو بلاد الكروات فنقلنا إلى النمسا ثم إلى ألمانيا ومنها تشيكوسلوفاكيا.

«ولما استسلمت ألمانيا لم يكن هناك من يسجننا بعد ذلك فمضينا نحو الغرب. لقد هجرنا كل شيء لنذهب نحو الغرب.

تخيّلت إليونورا المائتي كيلومتر التي قطعتها مشياً على الأقدام والتي أدمت ساقيها وملأت باطن قدميها بالشنن.

قالت إليونورا ويست معقّبة:

- لقد تركنا كل شيء وفررنا إلى الغابات والحقول لنصل إلى منطقة محتلة من قِبل الأميركيين أو الإنجليز أو الفرنسيين. ما كنا نريد أن نقع أحياء بين أيدي الروس أو الأنصار. لقد كنا على استعداد لقتل أنفسنا بدلاً من الاستسلام لهم.

سأل الحاكم:

Twitter: @ketab_n

- لِمَ كنتما تخافان من الروس والأنصار؟ إن الفاشيين وحدهم يخافون منهم. إن الروس والأنصار حلفاؤنا. لقد حاربوا في سبيل نصرة الأمم المتحدة.

قال تريان:

- إنك لست فاشياً يا سيدي الحاكم مع ذلك فإنني لا أظن أنك تقبل ببقاء زوجتك في أرض يحتلها البلاشفة ولو لأربع وعشرين ساعة. ليس لأسباب سياسية ولكن بسبب قسوتهم ووحشيتهم والذعر الذي يشيعونه في النفوس. إنني أعتقد بأنك شخصياً لا تجد في نفسك الشجاعة على الدخول إلى منطقة سوفيتية إلا وأنت مرتدياً لباسك العسكري ومحاطاً بحرس كافٍ. فهل من العدل أن تسألنا، ونحن مخلوقين محرومين من كلّ سلاح عن سبب فرارنا أمام عصابات البرابرة المسلحين ببنادق رشاشة من أحدث طراز أميركي؟

قال الحاكم:

- وماذا تريدون الآن؟ ليس باستطاعتكما الخروج من ألمانيا. سوف تُعاملان هنا معاملة رعايا الأعداء تخضعان للقيود التي يخضع لها الشعب الألماني. سيكون لكما ما لهم من حقوق وليس أكثر.

فقال كوروغا:

- أي أنه لن يكون لنا أيّ حق. إن الألمان في ويمار يرغمون على تنظيف مراحيض معسكر «بوشنوالد» وغسل ألبسة الموقوفين السابقين مرة كل أسبوع على الأقل. فهل تريد إرغام زوجتي على القيام بمثل هذه المهمات؟

وقالت إليونورا ويست:

- إننا لسنا أعداء أميركا والأمم الحليفة. لقد سجنّا قرابة عام من قِبل أعداء الأمم المتحدة واليوم نسألك أن تسمح لنا بالسكن في غرفة ما في هذه المنطقة أو تأمين إمكانية رحيلنا إذا كنا غير مقبولين

Twitter: @ketab_n

للبقاء. إننا كلانا لا نملك شيئاً ولا ندري أين ننام ولا أين نأكل ولا نستطيع الاغتسال فيمنع علينا البقاء ويمنع عنا الذهاب.

قال الحاكم:

- إنكما من رعايا الأعداء. ألستما تحملان جوازات سفر رومانية؟ إنكما أعداء إذن.

قالت إليونورا ويست:

- لكن رومانيا تقاتل مع الحلفاء ضد ألمانيا منذ أكثر من عشرة شهور وأنت تعرف ذلك كما أعرفه. لقد قُتل ثمانون ألف روماني في سبيل قضية الحلفاء. فهل تعتبرون أولئك الذين يقاتلون في صفوفكم أعداء لكم؟

كرّر الميجور براون:

- إن رومانيا دولة عدوة.

وأخرج من درج في مكتبه ورقة راح يقرؤها بصوت مرتفع:

- البلاد العدوة: «رومانيا، هنغاريا، فنلندا، ألمانيا، اليابان، إيطاليا». إن هذا واضح أليس كذلك؟ إنكم معشر الرومانيين أعداء الولايات المتحدة.

نهض تريان كوروغا واقفاً بينما ألقت إليونورا ويست نظرة متوسِّلة على الحاكم وسألته:

- ألم تقرأ أبداً في الصحف أن رومانيا تقاتل في صفوف الحلفاء منذ حوالى عام؟ ألا تكفيكم أوراقنا التي تدل على أننا سجنّا من قِبل الألمان؟ إننا لسنا أعداءكم.

فأجاب الحاكم:

- إن الأمر لا يمكن أن يهمني حتى ولو كان كما تقولين. إن التعليمات التي تلقيتها تفيد بأن الرومانيين أعداء للولايات المتحدة. لقد أضعتُ وقتاً طويلاً في النقاش معكما. إنك يا سيدتي عدوة لي.

Twitter: @ketab_n

عدوة هل تسمعين؟ ولو أنني وقعتُ بين إيديكم لأعدمتموني رمياً بالرصاص ولما لبثتم تناقشونني كما ناقشتكم منذ حين. إن ما قمت به حتى الآن غير قانوني ولن أعود لمثله لأنه لا يجوز أن يناقش المرء أعداءه!

كان الميجور براون حاكم مدينة ويمار العسكري ممتقعاً غضباً فلم يردَّ على تحية تريان كوروفا وإليونورا.

قال تريان كوروغا وهو يهبط السلم:

- هذا هو الغرب. إنهم لا يأبهون بالوقائع ولا بالإنسان. لقد عمّموا كل شيء فهم لا ينحنون إلا أمام النظام.

قالت نورا:

- لا أستطيع الاستمرار بالسير.

أمسك تريان بذراعها ليسندها فارتمت على كتفه وراحت تبكي:

- لقد قطعنا مائتي كيلومتر ونحن نجري لنصل إليهم. لقد ركضنا وكأننا نقصد مكة...

قال تريان:

- لا يجب أن تأسفي يا نورا. لقد فررنا من الهول الروسي وفرارنا منه منة على كل حال. غير أن بني الإنسان لا يمكن أن يكونوا في هذه اللحظة طيّبين في أية ناحية. لم تعد الأرض ملكاً للبشر.

- 108 -

بعد أربعة أيام عاد تريان كوروغا وإليونورا ويست إلى مكتب الحاكم لأنهما كانا في حاجة إلى إذن يخوِّلهما حق البقاء أسبوعاً آخر في مدينة ويمار.

Twitter: @ketab_n

كانت أقدام نورا منتفخة لا تسمح لها بالسير والابتعاد عن المدينة في الوقت الحاضر.

ارتدت أجمل ثيابها ووضعت على رأسها قبعة رشيقة وانتعلت أحذية ذات كعبين مرتفعين. وبعد أن أعلنا للجندي الحاجب عن رغبتهما في التحدّث إلى الحاكم قال تريان يحدث إليونورا:

- إنك مرتدية ثيابك وكأنك ماضية إلى حفلة استقبال رسمية.

ابتسمت إليونورا. لقد ارتديتُ ذلك الثوب لأول مرة منذ ثلاثة أعوام عندما ذهبت في زيارة صباحية إلى وزير فنلندا.

عاد الحاجب وقال لهما بأدب:

- إن سيدي الحاكم يرجو الانتظار بضع لحظات.

وانقضت دقائق كانت نورا خلالها مسرورة. ثم تقدّم جندي نحوهما وسأل:

- أأنتما الدبلوماسيان الرومانيان الراغبان في التحدث إلى الحاكم؟ تفضلا بالانتظار برهة أخرى.

وذهب الجندي. فراحت إليونورا ويست تخمِّن في سرها أن الميجور براون كان في حقيقته رجلاً مهذباً يعرف كيف يتصرف. لقد اعتذر مرتين لأنه تركهما ينتظران خمس دقائق.

كان قصر الحاكم في بناء كبير ذي بهو متسع. راحت تنظر إلى نفسها بالمرآة. رأت أنها قد هزُلت وأن ثنيات ثوبها كانت في هذه المرة أكثر انسدالاً ممّا كانت عليه عندما زارت مفوضية فنلندا.

عاد الجندي يقول وهو يتجه نحوها:

- اتبعاني.

ابتعدت إليونورا ويست عن المرآة ودعاهما إلى سيارته فاستقلّاها وراحت السيارة تسير في شوارع المدينة بسرعة جنونية.

انحنى تريان على أذن الجندي وسأله:

Twitter: @ketab_n

- إلى أين نمضي؟

فهزّ هذا كتفيه أيضاً كما فعل زميله من قبل. التفت تريان نحو نورا فرآها ممسكة بيديها أطراف قبعتها وهي تضحك راضية لأنها كانت من هواة السرعة.

توقفت سيارة الجيب أمام جدار حجري في الجانب الآخر من المدينة. ففتح الباب بَوّاب معتمر.

غير أن السيارة لم تدخل الفناء.

أودع أحد الجنديين البواب مغلفاً وأشار إلى إليونورا ويست وزميلها بالنزول.

سألت إليونورا ويست:

- أين نحن؟

غير أن الأميركيين كانا ينتظران ترجّلهما من السيارة فلم يجيبا.

كرّرت نورا السؤال باللغة الألمانية متوجّهة به إلى البواب:

- أين نحن؟

فأجاب هذا:

- في سجن المدينة.

ثم أخذ بذراع نورا.

أرادت نورا أن تقول شيئاً للجنديين غير أنّ السيارة كانت قد اختفت بمثل السرعة التي جاءت بها ففات الوقت.

التفتت نورا إلى تريان الذي كان شاحب الوجه بينما أغلقت الأبواب الحديد خلفهم.

كانا في تلك اللحظة قد أصبحا في باحة السجن.

Twitter: @ketab_n

أودع تريان كوروغا في الزنزانة رقم «5» من الطبقة الأرضية أما نورا فقد اقتيدت إلى الزنزانة رقم «2» في الدور الثالث.

قال تريان في نفسه عندما أضحى وحيداً:

- لعلهم أخطأوا.

كان يحاول معرفة أسباب هذا التطور. لكنه تذكر أن نورا سجينة بمثل زنزانته المنفردة ففقد هدوءه.

ودّ تريان قبل افتراقه عن نورا أن يقبلها أو أن يهمس في أذنها بجملة أو بكلمة عاطفية غير أن الحارس أمسك بكتفه وفرَّقهما بوحشية.

والتفتت نورا إلى الحارس تتوسَّل إليه لكنه دفعها بعنف نحو الجانب الآخر من الممشى.

وهكذا قدّر لهما أن يفترقا في ممشى السجن.

- أعتقد أنهم يخلطون بيني وبين مجرم يشبهني لا يعرف إلا اللّه من أمره شيئاً. ولكن لِمَ أوقفوا نورا؟

راح تريان كوروغا يقرع الباب يقبضتيه ليستدعي الحارس. كان يفكِّر في سره:

«كنت أنتظر أن يوقفني الروس. لأن الأيدي النظيفة عند الروس تكفي لتوقيف الشخص، بل إنهم لو أوقفوني دون أن يُنظر إلى يدي ودون أن يكون هناك داعٍ فإنني ما كنت أستغرب تصرفهم، لأنّ للمرء أن يتوقع كلّ شيء مع الروس.

«لقد قطعت مائتي كيلومتر سيراً على الأقدام لأبتعد عن مجتمع يعتبر فيه «الافتقار للأدلة» سبباً كافياً للتوقيف أو القتل أو النفي».

راحت قبضتاه تؤلمانه غير أنه استمرّ يقرع الباب دون هوادة.

Twitter: @ketab_n

.لم يكن يضرب الباب لاستدعاء الحارس فحسب، بل ليعاقب نفسه على قطعه مائتي كيلومتر عبثاً وهو يجرّ نورا وراءه، نورا ذات القدمين المنتفختين المثخنتين.

حدَّث نفسه قائلاً: «كان يستطيع الألمان توقيف نورا لأن الألمان كانوا نازيين وأعداء اليهودية».

ظهر الحارس على عتبة الباب وقال:

- ماذا تريد؟

قال تريان:

- أريد أن أتحدث إلى مدير السجن فوراً لأنني وزوجتي قد أوقفنا خطأ.

فأجاب الحارس ساخراً:

- إنني لا أشك في ذلك. إنّ كلّ مَن يفِد إلى هنا، يدَّعي أنه أوقف خطأ.

قال تريان:

- لا أسمح لك أن تسخر مني! أريد التحدث إلى مدير السجن فوراً.

- ليس هنا مدير للسجن. لقد أوقفكما الأميركيون. إننا هنا نقوم بالإشراف على الإدارة. أي إننا سجناء على شكلٍ ما.

- إذن، أريد التحدث إلى الأميركيين!

فقال الحارس:

- إن النائب لا يأتي إلّا مرة كلّ أسبوع. فإلى الاثنين القادم.

تذكر تريان أنه كان في يوم الاثنين فسأل مذعوراً:

- أتعني أننا سنقضي أسبوعاً قبل أن نتّصل بأحد؟ أتعتقد بأن زوجتي تستطيع البقاء أسبوعاً كاملاً في السجن؟

قال الحارس:

Twitter: @ketab_n

- لا حول لي ولا قوة. تستطيع أن تحدِّثني بما تشاء وتستطيع كذلك أن تقرع الباب ساعات وساعات ولكن عبثاً. إنني لا أستطيع إسداء المعونة لك. والنائب الأميركي لا يأتي إلّا كل يوم اثنين من كل أسبوع.

وأغلق الباب.

اعْلِم مَن تشاء أو لا تُعْلِم أحداً بأنني لن أقرب الماء ولا الطعام حتى تحين اللحظة التي أتحدث فيها إلى مدير السجن لمعرفة سبب توقيفي. إنه الأسلوب الوحيد الذي أستطيع اللجوء إليه للاحتجاج. وسأستعمله.

سأل الحارس:

- هل ستُضرب عن الطعام؟

- وعن الماء أيضاً!

لبث الحارس برهة في الباب والمفاتيح في يده وراح ينظر إلى تريان بإشفاق ثم أغلق الباب:

- يا للأسف! إنك ما زلتَ شاباً!

وأدار المفتاح في القفل دورتين.

- 110 -

قرعت نورا ويست باب زنزانتها بيديها طيلة نصف ساعة فجاء الحارس ينظر إلى الزنزانة من خلال فتحة في الباب دون أن يفتحه وقال لها:

- إذا لبثتِ تقرعين الباب هكذا فإنك ستُعَاقبين. لأن السجناء لا يحقّ لهم قرع أبواب زنزانتهم.

وابتعد الحارس.

Twitter: @ketab_n

تمدَّدت إليونورا ويست على السرير. لكنها لم تلبث حتى نهضت مذعورة وهي تغمغم: «ينبغي أن يكون السرير حافلاً بالقمل؟». كانت خائفة. ودَّت لو تقرع الباب لتطلب غطاء نظيفاً أو تستعلم على الأقل عن مدى نظافة السرير وهل فيه قمل أم لا. لكنها كانت تعرف أنه ليس من حقها أن تقرع الباب. فاستمرَّت تذرع الزنزانة.

كانت إليونورا ويست تشعر في أعماق نفسها بأنها مذنبة. وتعرف أنّ توقيفها حقّ وعدل. لقد كانت فكرة السجن تغزو عقلها ليلاً نهاراً منذ أن زوَّرت أوراقها المشيرة إلى أصلها اليهودي اشتَرت ورَشَت كلّ ذي علاقة لتسحب من ملفات الأحوال المدنية الوثائق التي تُثبت يهوديتها. كانت تنتظر كلّ يوم وصول رجال الشرطة وتعرف أنها ستُكتشف يوماً وتوقف وكانت في أثناء رحلتها في ألمانيا ترتعد خوفاً كلما وقع بصرها على جندي: لأنّ أوراقها كانت مزورة!

كانت السنوات الأخيرة فترة انتظار طويلة: انتظاراً للساعة التي ستحين لتوقيفها.

غمغمت: «ولقد حانت الساعة. لقد اكتشفوا الآن أنني يهودية ولن أستطيع الخلاص بعد اليوم».

كانت ترتعد من الخوف ويقشعر جسمها رعباً.

«إنني سخيفة إذا أظنّ أنّ الأميركيين قد أوقفوني بسبب أصولي الإثنية وأوراقي المزيفة في ألمانيا مع ذلك فإنني أشعر بأن هذا هو سبب توقيفي الحقيقي الأوحد. إنني أعرف أن هذا غير منطقي لكنه واقع: فأنا مذنبة وقد حلّ دور العقاب وسيكون عقاباً مثالياً قاسياً وإنني لأستحقه».

شعرَت إليونورا ويست بالبرد «كانت ألبستها الداخلية الشفافة الرقيقة التي تشبه فقاعات الصابون وثوبها الخفيف الرقيق لا يمكن

Twitter: @ketab_n

أن تدفع عنها عاديات الرطوبة الباردة التي تتسرب من الجدران الحجرية.

اخترق البرد بشرتها وبلغ عظامها. فكانت تشعر بتلك الرطوبة منتشرة في أعماق جسدها. لم تشعر من قبل بالبرد في كليتيها، بل إنها ما كانت تعرف موضع الكليتين والحجم الذي يمكن أن تكونا عليه. أما الآن فقد أحسَّت ببرودتها وتجمدها ولم تكن البرودة مقتصرة عليهما، بل إن أمعاءها كانت كذلك متجمدة.

غطّت إليونورا ويست ركبتيها بثوبها، لكن ذلك لم يُجْدِ نفعاً. كانت تخاف الجلوس على السرير فراحت ترتعد وترتجف وبدأت أسنانها تصطك ببعضهما.

كان الجو حاراً خارج الزنزانة، لكن ذلك لم يكن مهماً طالما أنها كانت ترتجف من البرد وتصطك أسنانها وكأنها في صميم الشتاء. عمدت إليونورا إلى الجثو وسط الزنزانة لتبعث الدفء في أوصالها وفي تلك اللحظة شعرت بالحاجة الجسدية الملحة. وأحسَّت بمئات من الإبر تخترق مثانتها وبعضلاتها ترفض النزول عند إرادتها.

تذكرت إليونورا ويست القصص التي كانت تقرأها، ففي زنزانات السجون يقوم وعاء أو صفيحة مقام دورات المياه. لكنها لم تجد في زنزانتها الجديدة إلّا السرير والمائدة الصغيرة ونافذة مشبكة. أما الصفيحة المنشودة فلم يكن لها وجود. تقدّمت نورا نحو الباب ورفعت يدها لتطرقه.

قالت في سرها: «سوف يأذنون لي ولا شك بالذهاب إلى دورات المياه».

لكنها تذكّرت في تلك اللحظة كلمات الحارس الألماني القاسية: «إذا قرعتِ الباب ستُعاقبين!».

فأسقطت يدها إلى جانبها وخافت من قرع الباب.

Twitter: @ketab_n

قالت: «لقد أخطأت في قرع الباب لمّا لم يكن هناك داعٍ لقرعه». وعادت تسير في طول الزنزانة وعرضها.

فوقفت من جديد ورفعت يدها. لكنها لم تهوِ بها على الباب لأنّ عبارة الحارس كانت تدوي في أذنيها: «ستعاقَبين إذا قرعت الباب!».

وبينما كانت تتذكر تلك الكلمات سرى في جسمها تيار كهربائي: إشارة الخطر. شعرت بأنها فقدت سيطرتها على عضلاتها وأحسَّت بسراويلها الحريرية الرقيقة تبتلّ وبالبلل ينتقل إلى حمالة جواربها فالجوارب. وشعرت بشيء رطبٍ وساخن معاً يسيل منحدراً على فخذيها فجواربها ويبلغ حذاءيها.

بذلت إليونورا ويست جهداً جديداً لتتمالك نفسها غير أنّ عضلاتها وجسدها وبشرتها، كلّها استعصت على أوامرها فازدادت انكماشاً. وكلما ازدادت سراويلها بللاً وشاع فيها الدفء كان شعور الراحة والتحرّر الذي تحسّ بمثله من قبل يجتاح كيانها. كانت كلّ عضلة وكل مسام وكل ليف من ألياف جسدها يسترخي. وكان الإحساس الذي خالج نفسها بالغبطة أقوى من أي إحساس شعرت به من قبل. كان لذة حقيقية، بل إنه كان أكثر من لذة. كان نشوة. وبفضل هذه اللذة انفصلت عن كل العوالم الأرضية. كانت بعيدة عن مضمار الزمن. وكان جسمها كله متحرراً.

شعرت إليونورا ويست بأنها تفرغ مثانتها منذ ساعات وساعات دون انقطاع ولا توقف. لكنها عندما رأت سطح الأرض مبتلاً حولها اعتراها الذعر والذهول فانتفضت واقفة وهرعت إلى زاوية الزنزانة تحتمي فيها وكأنها تبحث عن مخبأ. كانت تلك الساعة من أصعب ساعات حياتها. كانت الأرض كلها مبتلة وقد سالت «الأملاح» إلى أسفل السرير والمائدة وتجمعت أمام قدميها.

Twitter: @ketab_n

أدركت إليونورا ويست أنها ارتكبت أمراً محظوراً وأن ذلك الأمر سيُكتشف ويؤدي إلى عقابها وعاد صوت الحارس القاسي يدوي مهدداً في أذنيها: «ستعاقبين»!

همّت إليونورا ويست بتمزيق ثوبها لتجفيف الأرض غير أنها أدركت عقم المحاولة. لقد كان حجم السائل كبيراً ولا يمكن لثوبها الحريري أن يمتصّه حتى ولو استعملت في سبيل ذلك ما عليها من ألبسة رقيقة شفافة. وظلّ ذلك الصوت قريباً منها وظلّت تسمعه دون فكاك: «ستعاقبين! فستعاقبين!».

تأكّدت أنها لن تستطيع الاختفاء وأنها ستكتشف فتصبح كل محاولة للإفلات من العقاب غير مُجدية. فغطّت عينيها بقبضتيها وأحسَّت وهي تبكي بيأس بأنها لم تنزع بعد قفازاتها المصنوعة من «الدانتيلا» على شكل نسيج العنكبوت. . .

- 111 -

قال النائب غولد سميث، مدير السجن.

- إن ما وقع لكما يدعو إلى الأسف الشديد. إنني أقدِّم لكما اعتذاري وأعرب عن أسفي الشديد لأنني لم أطَّلع على مسألتكما من قبل.

كان قد مضى أسبوعاً على توقيف تريان كوروغا وإليونورا ويست وكان تريان ممدداً على سريره لا يستطيع الحراك لأنه لم يقرب طعاماً ولا شراباً منذ سبعة أيام.

وكان النائب غولد سميث قد جاءهما بأشيائهما في سيارته وساعد نورا على نقل الأمتعة. وقدم لهما لفافات وهو بادي الارتباك والانزعاج. قال لهما:

Twitter: @ketab_n

- سيطلق سراحكما غداً صباحاً وسأبحث لكما بنفسي عن مسكن أقودكما إليه بسيارتي. إنني آسف بإخلاص لِما حدث لكما.

كان تريان كوروغا وإليونورا ويست صامتين واجمين.

قال النائب غولد سميث لرئيس الحرس:

- إن السيد والسيدة كوروغا لا يُعتبران موقوفين. لقد أدخلا إلى هنا خطأ وسيخرجان صباح غد لأنهما لا يملكان مأوى في الوقت الحاضر. لذلك فإنهما سيقضيان ليلتهما في هذه الغرفة فقدِّم لهما أغطية نظيفة كافية واعتبرهما ضيفين علينا ولا أقل من ضيفين.

ذهب النائب وعاد بعد نصف ساعة يحمل ربطة فيها أطعمة وقدّم إلى تريان برتقالاً وعدداً من حبات «الكريب فروت». وقبل أن ينسحب اعتذر لهما من جديد وضغط على يد تريان مصافحاً ومضى.

كان رئيس الحرس يراقب هذا المشهد، جاحظ العينين وكأنه شهد معجزة.

قالت نورا:

- لقد كنتُ واثقة في أثناء كل هذا الوقت من أنّ الأميركيين سيقدِّمون لنا اعتذاراتهم. إن الولايات المتحدة بلد تقطنه أمة متمدنة.

كان تريان مصاباً بالحمى فنام على الفور. حلم في أثناء نومه أنه كان على سطح غواصة وأن كل الأرانب البيضاء ماتت عن آخرها فاستيقظ وهو غارق في عرقه وجلبابه مبتل. قال: «ليس هناك من أمل بعد موت الأرانب البيضاء».

كان قد صاح في أثناء نومه بهذه الحقيقة بكلّ قواه غير أن البحارة أبوا تصديقه...

Twitter: @ketab_n

لم يعد النائب غولد سميث صباح اليوم التالي فلبثت نورا تنتظره طيلة ذلك النهار. كانت تقول:

- مَن يدري ما الذي منعه عن الحضور لكنه سيحضر حتماً غداً.

كان رئيس الحرس من رأيها غير أن النائب لم يحضر في اليوم التالي ولا في اليوم الثالث. ومضى أسبوع، فجاء نائب آخر بدلاً منه.

قال مدير السجن الجديد:

- إنني لست مطَّلعاً على قضيتكما! لقد عاد النائب غولد سميث إلى الولايات المتحدة دون أن يترك لي إشارة عنكما. لكنني سأبحث في أميركا وأطلعكما يوم الاثنين المقبل على النتيجة.

ومضى:

كان شاباً ذا شعر أحمر يغطيه الكلف. لم يشأ ذكر اسمه حتى ولا لرئيس الحرس. وكان توقيعه معقداً غير مقروء.

وفي الأسبوع التالي عاد إلى السجن لكنه لم يمضِ في مكتبه إلا فترة قصيرة وكانت حركاته تدلّ على عصبية ظاهرة.

فلمّا جاء تريان وزوجته للقائه في مكتبه وجدا أنه قد غادر السجن فاضطرا إلى الانتظار أسبوعاً آخر.

كان النائب في هذه المرة سيئ المزاج. قال:

- لقد سألتُ عن التعليمات الصادرة بخصوصكما فعلمت بأنكما موقوفين كالآخرين وليس هناك ما يسمح لكما بجراية غذائية خاصة.

وأدار لهما النائب ظهره وأصدر أمره إلى رئيس الحرس:

Twitter: @ketab_n

- ينبغي سجنهما في زنزانتين منفصلتين وإخضاعهما للنظام الغذائي الساري مفعوله على الآخرين. إنني لا أقبل أية استثناءات في السجن.

حملق رئيس الحرس في وجهه وجحظت عيناه وهو يحاول إقناع نفسه بصحَّة ما سمع وقال مردداً:

- لقد فهمت: زنزانتين منفصلتين ونظام غذائي عادي دون استثناء.

كان صوته متهدجاً...

- 113 -

قالت نورا وهي تصغي إلى وقع أقدام الحارس في الممشى:

- لقد جاءوا يفصلوننا!

وارتمت على عنق تريان باكية منشجة وقالت:

- إنني أفضِّل الموت على الانفراد في زنزانة من جديد!

وقف رئيس الحرس بالباب يلوّح بحلقة مفاتيحه. فلم تلتفت نورا إليه لأنها كانت تعرف سبب مجيئه ويعرفه تريان كذلك فشَخَص بصره إليه. كان يودّ أن يتوسل إلى الحارس أن يبقيهما بضع دقائق أخرى معاً. لكنه لم ينطق بحرف واحد لأنه كان يعرف عقم المحاولة.

قال الحارس:

- سوف أسرَّح في خلال الصيف المقبل لأنني رجل مسن. ومَن كان في سني لا يروق له أن يلعب «الطميمة»، بل ولا أريد أن ألعب هذه اللعبة.

Twitter: @ketab_n

صمت الحارس برهة وراح يستجمع قواه وكأنه يحاول إزاحة عبء ثقيل. قال:

- ستبقيان معاً كما كنتما وسأترك لكما الباب مفتوحاً.

سألت نورا:

- هل عاد النائب عن أمره؟

فأجاب الحارس:

- لم يسحب النائب أمره.

ومضى وهو يهز مفاتيحه، تاركاً باب الزنزانة مفتوحاً على مصراعيه.

- 114 -

سألت نورا بيأس:

- ماذا يضمر الأميركيون نحونا؟ لِم يُبقونا في السجن منذ عشرة أسابيع؟ فأجاب تريان:

- إن الأميركيين غير حاقدين علينا، بل إنهم لا يشعرون بوجودنا.

- ولم يمضِ لهم من الوقت ليعرفوا أنهم أوقفونا وأودعونا السجن؟ إنني ما عدت أستطيع الاحتمال!

قال تريان:

- إنهم لن يتحققوا أبداً من وجودنا. إن الحضارة الغربية في مرحلتها التقدمية الأخيرة لا تحفل بالشخص. وليس هناك ما يدعونا إلى الأمل بأنهم سيحفلون به. إن هذا المجتمع لا يعرف إلّا بعضاً من مقاييس الشخص. إن الإنسان السطحي، الإنسان بصورة شخصية لا وجود له في هذا المجتمع. أنت إليونورا ويست التي تبقين في

Twitter: @ketab_n

السجن دون ما ذنب، وأنا وكثير غيرنا لا وجود لهم ولا أثر. إننا عديمو الوجود. إن وجودنا مقتصر على اعتباره كسراً في حسابات الكميات الصغرى. أنت مثلاً، إنك لست إلّا مواطنة عدوة أوقفت في أرض ألمانية. إن هذا أقصى درجات الإحصاء في المجتمع الآلي الغربي ولا يمكن لهذا المجتمع أن يهضم أكثر من ذلك الإحصاء. إنه كلّ ما يشير إليك في نظره. إن هذا المجتمع لا يتعرف عليك إلا على ضوء الخطوط هذه المميّزة ولا يعاملك إلّا مع النوع أو الفصيلة التي تنتمي إليها وبحسب قواعد الضرب والقسمة والطرح. إنك لستِ إلا جزءاً من رومانيا وقد أوقف هذا الجزء. والخطيئة أو الجريمة التي سبَّبت هذا التوقيف راجعة إلى نصيلتك.

قالت نورا:

- مع ذلك لا بدَّ وأن يكون للأميركيين سبباً لتوقيفنا. إنهم حاقدون علينا يشتبهون بأمرنا. وإلا لأطلقوا سراحنا. إنني أتألم لأنني لا أعرف سبب توقيفنا ولا يمكن إلّا أن يكون هناك سبب!

أجاب تريان:

- هناك سبب ولا شك. ولكنه سبب سخيف شاذ من الناحية الإنسانية ومعترف بعدالته من وجهة نظر الآلة. إنّ الغرب ينظر إلى الإنسان من الوجهة الآلية. أما الإنسان المخلوق من لحم وعظم القادر على الشعور بالفرح والألم فإنه غير موجود. وبهذا السبب فإنّ واقع توقيفنا واحتفاظهم بنا في السجن، بل وإعدامنا غداً إذا أرادوا ذلك لا يمكن أن يعتبر جريمة لو كان متعلقاً ببشر من لحم وعظم. غير أن المجتمع الغربي عاجز عن الاعتراف بالرجل الحي. وهو عندما يوقف شخصاً أو يقتله فإنه لا يوقف شيئاً حياً، بل رقماً، أو إشعاراً فإذا راعينا المنطق الصحيح وجدنا هذا الجرم لا يمكن أن يعزى إلى المجتمع الغربي لأنّ أية آلة لا يمكن أن تتهم بالقتل ولا

Twitter: @ketab_n

يمكن لأحد أن يطلب إلى آلة معاملة الإنسان معاملة تنطبق على مميزاته الشخصية.

سألت نورا:

- ماذا يمكن أن يكون السبب العادل الكامل من وجهة النظر الآلية الذي دفع الأميركيين إلى توقيفنا؟

فأجاب تريان:

- إنني أجهل السبب. وكل ما أعرفه هو أنّ واقع إخضاع الإنسان للقوانين والمقاييس الآلية، تلك المقاييس الممتازة بالنسبة إلى الآلة وحدها يساوي جريمة قتل. إنّ الإنسان الذي يرغم على العيش في الوسط والجو الذي يعيش فيه الأسماك يموت في خلال دقائق معدودة والعكس صحيح. لقد خلق الغرب حضارة تشبه الآلة وهو يرغم الإنسان على الحياة في صميم هذا ويدعو إلى التطبّع بطبائع الآلات وقوانينها. لكنهم بذلك يقتلون الإنسان بإخضاعه للقوانين التي تهيمن على السيارات والساعات.

«إن الآلات وحدها يمكن أن تكون متكافئة فيما بينها. إنها وحدها يمكن أن تُستبدل وأن تُفكك أجزاؤها وتحوّل إلى عناصرها الرئيسة أو إلى حركات أساسية. فإذا تشبَّه الإنسان بها حتى يماثلها فعندئذٍ لا يبقى إنسان على سطح الأرض.

زفرت نورا بينما استرسل تريان يقول:

- إنك لست موجودة على اعتبارك من الأحياء أو إذا شئت، إنك موجودة ولكن يُنظر إليك مشوهة مفككة بعيني الآلة.

«ولكن الإنسان لا قيمة له في المجتمع الآلي كما في المجتمعات البربرية وإذا كانت له بعض القِيم فإنها تافهة. ومن ذلك يتّضح أنك لم توقَّفي في حقيقة الأمر.

- ألسنا موقوفين؟

Twitter: @ketab_n

- أبداً. وأقصد أننا رغم مرور ستة أسابيع على بقائنا في السجن لا يمكن أن نكون موقوفين. لأن شخصيتنا وكياننا الفردي لا وجود لهما في المجتمع الآلي الغربي. لذلك فإن كياناً لا وجود له لا يمكن كذلك أن يوقَف ويُسجن.

قالت نورا:

- إن هذا لا يعزّيني. إننا لسنا موقوفين مع أننا في السجن.

- بل إنه عزاء. إنه العزاء الأوحد في هذه الساعة المتأخرة من التاريخ.

- 115 -

قال رئيس الحرس وهو يدخل زنزانة كوروغا:

- لقد انتهى كل شيء الآن. اقرأ هذا البلاغ. لقد سلمت مدينة ويمار ومدينة «سورينج» إلى الروس وقد دخلتها الوحدات الروسية بعد أن نقلتها سيارات كبيرة طيلة الليل. إن الأميركيين قد انسحبوا من المدينة ولم يبقَ في حوزتهم الآن إلا بناء الحكومة والسجن وعدد من المساكن ولا يحقّ لأحد مغادرة المدينة. وقد أحاطت بها الشرطة العسكرية منذ الصباح الباكر.

قرأت نورا البلاغ في الصحيفة وراحت تنقل الطرف بين تريان والحارس المستند إلى الباب.

سألت:

- وعندما يسلم السجن الروس سنبقى فيه لنسلَّم إليهم بدورنا أليس كذلك؟

فأجاب الحارس:

- أخشى أن يكون كذلك. سوف يستولي الروس على السجن

Twitter: @ketab_n

صباحاً أو بعد الظهر أو عند المساء على أبعد حدّ. لأنه لا يمكن تحديد الوقت.

ضغط تريان كوروغا رأسه بين يديه وراح يفكّر لحظة ويستعيد في ذاكرته عديداً من الأحداث: «الفرار، مائتي كليومتر، روسيا، الرعب والذعر، استباحة النساء، سيبيريا، أقدام نورا المنتفخة المقروحة القوميسيرين السياسيين، تسليمهم عند تسليم السجن وكأنهم عبيد مغلولون».

قال تريان:

- لا تهتمي بعد الآن إلا بالأهم لأنّ الزمن لا يسمح بغير ذلك. لا يجب أن تحتفظ بالأسرار في هذه اللحظة ويستطيع رئيس الحرس أن يصغي إلينا. إنني أعرف أن الأميركيين سيسلموننا ونحن في زنزاناتنا إلى الروس وأعرف أن هذا العمل جريمة. لكنني إذا نظرت إلى الأمر من زاويتهم أدركتُ أنهم أبرياء. إنهم يشبهون في سذاجتهم القاطرات التي تبدو كأنها تبتسم عندما تسحق إنساناً على الخط الحديد. لقد حوَّل الغربيون الخطيئة ذاتها إلى مقياس محدود موحّد. لقد ضغطوا ذلك المقياس حتى أعدموه، بل أستطيع القول إنهم نسوا كلّ مقياس للخطيئة. إنهم ليسوا مذنبين في ذلك. إن الذنب ذنب الحضارة. غير أنّ كل هذا عديم الفائدة في الوقت الحاضر. ولقد ذكرته لأبعِد الشك والتورية عن الحديث. سنصبح بعد لحظات ملكاً للروس أي لأشدّ الرجال وحشية بسبب أسلوب حكمهم على الأرض. فإذا كنت أستطيع احتمال «الرجل الآلي» الذي تحوَّل إلى مخلوق عديم الإحساس فإنني لا أستطيع أبداً مجابهة «الوحش المفترس الآلي»، ولا أريد ذلك. سأحاول أن أفرّ قبل أن أُسلّم إلى الروس، فإذا لم أفلح، قتلت نفسي.

والتفت تريان كوروغا إلى الحارس وقال:

Twitter: @ketab_n

- هل تساعدنا على الهرب؟

فقال هذا:

- سأعمل ما في وسعي. إنني أريد الذهاب من هنا أيضاً لأنني نمساوي، سأذهب إلى فيينا لكنني لن أستطيع الذهاب الآن.

قالت نورا:

- ماذا يصيبني بعد فرارك؟ إنني لا أستطيع الهرب! إنني خائفة. إن أفضل ما تعمله يا تريان هو أن تقتلني!

قال تريان:

- بل سنفرّ معاً!

فقال الحارس:

- يحسن بك أن تحاول الفرار أولاً. إن الأمر ليس مستحيلاً. إن الجدران قد دمرت بالقنابل والصعوبة هي في بلوغ الفناء. ومتى بلغته أصبح الأمر كلعبة الأطفال.

- 116 -

قالت نورا:

- لا أجد في نفسي الشجاعة على الهبوط من الدور الثالث على الحبل. أما أنت فإنك رجل ويمكنك أن تهبط.

كان تريان كوروغا يربط الأغطية بعضها ببعض ليصنع منها حبلاً. قال:

- لا يجب أن تخافي. سوف أربطك بالحبل وأدليك من النافذة وعندما تبلغين الأرض تتسللين على طول الجدار، وتختبئين قرب الشجرة التي أشرتُ إليها.

Twitter: @ketab_n

كانت نورا ممسكة بطرف الحبل بينما كان تريان يعقده. فأفلتت الحبل من يدها وقالت:

- لا أستطيع الفرار. عندما تدليني من النافذة لا يمكنني إلا أن أفكِّر في أنهم سيطلقون عليّ الرصاص. إنّ مجرد هذه الفكرة ستجعلني أفقد شعوري. ألا تظن بأنهم سيطلقون عليّ النار عندما أكون متدلية؟

فأجابها تريان:

- إن هذا ممكن ولكن ينبغي أن نحاول إذ علّهم لا يطلقون. على كلّ حال إننا بهذه العملية نقابل احتمال النجاة وذلك خير من أن نقتل أنفسنا مباشرة.

سألت نورا:

- وماذا لو بقينا لدى الروس؟ قد لا يكون الشيطان شديد السواد كما يصفونه. إنّ هناك عدداً كبيراً من البشر تحت الحكم الشيوعي. ولمّا كانوا ما زالوا على قيد الحياة فإننا قد نستطيع أيضاً أن نعيش مثلهم.

قال تريان:

- إنك على حق. إنّ في الدولة الشيوعية بشراً يعيشون. ولعلّ حياتهم ليست أكثر مشقّة وصعوبة من حياة الرجال في الغرب.

«ليست هناك زاوية نظرية لا يمكن للمرء أن يحكم منها. ليس في العالم حقائق موضوعية. إنّ كل ما فيه ذاتي.

«أما أنا فإنني لن أتقبل أبداً أن أعيش في الجنة السوفيتية. وقد يبدو عنادي غريباً ولكنني أراه من وجهة نظري عادلاً صحيحاً.

«إن الكائن البشري لا يجد أشياء عادلة إلا حسب وجهة نظره الشخصية.

«إنني شخصياً لا أريد الوقوع في أيدي وحوش الفولغا الآليين.

Twitter: @ketab_n

«قد أكون مجنوناً لكنني لا أتمسك بالحياة بصورة خاصة. إنني أستطيع التخلي عنها متى أشاء.

«لكنني لن أتخلى عن الحياة، بل أريد أن أحياها في شروط تبدو لي أكثر ملاءمة. يمكن لأيٍّ كان أن يبرهن لي على أنّ أسلوبي في الاحتفاظ بالحياة ليس أسلوباً حسناً. وإنني أتقبّل أي نقد لكنني لا أرتضي أبداً أن يدلني أحد على الطريقة التي يجب أن أعيش بها حتى ولو اقتنع المتكلم بوجاهة رأيه وأراد أن يرغمني على اتّباعه. إن حياتي ملكي أنا وهي ليست ملكاً للوحدة الاشتراكية أو للقوميسيرية السياسية أو لغيرهما إذاً فإنّ من حقي أن أحيا بحسب الطريقة التي انتقيتها بنفسي فأستطيع إذا شئت محاكاة حياة القوميسير بنفسه لكنني لا أرغب في ذلك ولو رغبتُ فيه لما جاز لأحد لومي أو الادّعاء بأنني أسأت العمل أو أحسنته.

«إنني أتصرف بحياتي كما أشتهي كذلك فإنني أرفض أن أعيش على الطريقة السوفيتية.

«ولذلك فإنني سأقتل نفسي».

راحت نورا تبكي. بينما استمرّ تريان يعقد الحبل ويربطه بعد أن أعاد الطرف الثاني إلى يد نورا التي أمسكت به بقوة.

قال تريان:

- انظري إذا كان الأميركيون قد غادروا برج الحراسة في الفناء.

خرجت نورا إلى الممشى ومضت إلى باب السجن فأطلت منه على أبراج الرقابة لتتأكد من أن الروس لم يحتلوها بعد لأنهم لو فعلوا ذلك لفات الوقت.

قال تريان:

- ينبغي مراقبة ذلك مرة كل خمس دقائق. إنّ اللحظة المناسبة

Twitter: @ketab_n

لفرارنا هي تلك التي تُسنح لنا أثناء تبادل الحراس الروس مع الحراس الأميركيين. فإذا لم ننتهزها أفلتت الفرصة من أيدينا.

واستمرا يلفان الحبال ويبرمانها فأمضيا ساعات النهار الأولى. وأخيراً راحا يختبران طول الحبل ومقاومته.

كان أحدهما يخرج من الغرفة كلّ خمس دقائق ليُراقب أبراج السجن ويعود معلناً لزميله:

- ما زال الأميركيون في أمكنتهم!

إننا مسرورون لبقاء الأميركيين لأنهما اعتقدا أنه طالما لبث الأميركيون في أمكنتهم فإنّ الخطر لم يكن قد دنا والفرصة لم تكن قد أفلتت.

- 117 -

في الساعة السادسة مساءً، أخرج تريان كوروغا ونورا ويست من زنزانتهما ونقلا إلى سيارة نقل عسكرية كبيرة مع الموقوفين الآخرين.

كان تريان شاحباً وكانت نورا تبكي.

قال تريان:

- لقد انتقوا موضعاً آخر يسلّموننا فيه إلى الروس. إن السيارة تتجه نحو الشرق.

كانت شوارع مدينة ويمار تعجّ بالجنود الروس وبالسيارات الروسية.

سأل تريان:

- أتوافقين على أن نقفز من السيارة؟ إنهم ينقلوننا حتماً إلى سجن روسي.

Twitter: @ketab_n

كانت السيارة قد خرجت من المدينة فراحت نورا تنظر إلى الحقول الخضراء ثم إلى الشمس فكان الاتجاه إلى الشرق واضحاً تماماً.

قال تريان:

- سنجتاز غابة بعد حين وليس عليك إلا أن تقفزي أولاً ثم تختبئي في وغل وتنتظريني. وسأقفز بعدك.

كانت نورا تبكي. فقال تريان:

- استعدي.

أجابت:

- لن أستطيع الآن لأنني شديدة الخوف. لننتظر قليلاً.

قال تريان:

- لن تسمح لنا فرصة أفضل من هذه. انظري إلى الأدغال على جانبي الطريق. لا شيء أسهل من الاختفاء فيها. ألا تريدين القفز؟ انظري لقد أبطأت السيارة!

قبض على ذراع نورا فتشبَّثت بيديها إلى المقعد وتقلصت أصابعها على جوانبه وقالت:

- كلا. تستطيع أن تقفز أنت. أقسم لك أنني لن أحقد عليك إذا تركتني ونجوت بنفسك وحيداً.

جلس تريان كوروغا إلى جانبها وأغمض عينيه كي لا يرى الأدغال الكثيفة التي كان يمكن أن يختبئ فيها. كان يعرف أنهما لن يجدا فرصة أطيب من هذه.

ولما فتح عينيه وجد أنه يمضي في مواجهة الشمس والشمس تبهر بصره فدهش وذهل لأنها كانت أمامه بعد أن كانت وراءه منذ حين.

كانت السيارة تتجه الآن نحو الغرب.

Twitter: @ketab_n

أمسك تريان بيد نورا وقال لها:

- إن الأميركيين نبلاء رغم كل شيء. إنهم لن يسلمونا إلى الروس!

كان وجهه يطفح بالبِشر فسألت نورا:

- وإلى أين يمضون بنا؟

تجهّم وجه تريان وقال:

- إلى سجن أميركي.

- شعر بالخجل للسرور الذي بدا عليه. قال معتذراً:

- اصفحي عني يا نورا لِما بدر مني من سرور. إن من الجنون أن يبتهج المرء لأنه سيحبس في سجن دون آخر.

«لكن هذه هي المرحلة الأخيرة التي وصل إليها الإنسان في أوروبا.

«لم يكن أمام الإنسان إلا اختيار واحد من سجنين.

- 118 -

سأل الضابط الأميركي:

- ألستَ أنت إيوهان موريتز؟

وابتسم ابتسامة وديعة متودِّدة وأردف:

- إن قائد المدينة يودّ أن يسمع من فمك كيفية فرارك. ألستَ أنت الذي أنقذتَ خمسة من المساجين من معسكر الاعتقال؟

احمرّ وجه إيوهان موريتز من الغبطة.

ما كان يصدِّق أنّ الضباط الأميركيين يمكن أن يأتوا إليه بسياراتهم لاستقدامه ليقضي بنفسه على كلّ ما عمله وفكّر إيوهان

Twitter: @ketab_n

موريتز في سره: «حتى قائد المدينة سمع ما يروى عني» فقال ببهجة لم يشعر بمثلها من قبل:

- نعم. إنني أنا إيوهان موريتز:

قال الضابط:

- ليمضِ! إن سيارتي معي.

أراد إيوهان موريتز أن يرتدي سترته لأنه كان بالقميص والسروال فقط. ورغب في وضع جواربه لأنه كان ينتعل أحذيته دون جوارب.

غير أن الضابط كان مستعجلاً فقال له:

- إن القائد ينتظرنا فتعالَ كما أنت الآن سوف تعود في خلال نصف ساعة. سأعيدك بسيارتي.

صعد كلاهما إلى سيارة الجيب، راح موريتز يحدِّث نفسه بأنه سيروي القصة إلى القائد دون أن يضيف إليها شيئاً وأخذ ينتقي كلماته سلفاً. كان مشرق الوجه من الحبور. كان يتصور وجه القائد ويرى نفسه جالساً أمامه يحدثه عن قصةِ الفرار.

خلال ذلك الوقت كانت السيارة قد بلغت بناءً كبيراً من الحجر فالتفت الضابط إلى موريتز وقال:

- إنك ستمكث هنا.

نزل إيوهان موريتز من السيارة وهو يأسف لأنّ الضابط لم يرافقه. كان يعتقد بأنه سيستوحي من وجوده شجاعة أكثر عند سرد قصته، لكن السيارة كانت قد ابتعدت. أدخل حارس الباب إيوهان موريتز إلى الفناء فجاء شرطيان ألمانيان يأخذانه منه. راح موريتز يتلفت يميناً ويساراً. لم يكن يعتقد أن قائد المدينة يوافق على السكن في بيت بشع كهذا غير أنه لم يجرؤ على السؤال.

Twitter: @ketab_n

ولما أدخل عبر الفناء إلى البيت رأى كلّ من النوافذ مشبكة بقضبان من حديد كنوافذ السجون.

سأل إيوهان موريتز:

- هل يقطن قائد المدينة هنا؟

قهقة الشرطيان ضاحكَين إذ أخفقا في امتلاك نفسيهما. واقتادا إيوهان موريتز إلى أحد الأقبية حيث أدخلاه إلى زنزانة محرومة من الضوء وأغلقوا الباب بالمفتاح وأداروه دورتين وهما يضحكان للسؤال الساذج الذي طرحه السجين.

- 119 -

استُدعِيَت كورينا كوروغا زوجة الكاهن كوروغا إلى دار البلدية. كان الوقت يقارب منتصف الليل حينما تقدَّم فلاحان يربطان على ساعديهما أشرطة مثلثة الألوان فقرعا الزجاج وأمراها بالمجيء معهما. كان القمر بدراً فأغلقت كورينا كوروغا الباب بعناية واحتفظت بالمفتاح في يديها.

وفي دار البلدية كان عشرة جنود روسيين يثرثرون مع القرويين. استُحضرت زوجة الكاهن أمامهم فقدموا لها قدحاً من الخمر وراحوا يفحصونها من كل الزوايا.

أطرقت زوجة الكاهن بعينيها إلى الأرض وراحت في سرها ترفع صلاة للقديس نيكولا.

أجبرها الجنود على الشرب. غير أنها لبثت تبتهل إلى القديس نيكولا دون أن تنظُر إلى أحد أو أن تمسّ قدح الخمر بشفتيها. فصبّ لها أحد الجنود خمراً في طوقها ورفع آخر ثوبها وراح يصب الخمر

Twitter: @ketab_n

على جسدها. غير أنها لم تكن تسمع شيئاً ولم تكن ترى شيئاً. أغمضت عينيها واسترسلت ترفع الصلوات للقديس نيكولا الذي كان يشبه الكاهن ألكسندر كوروغا زوجها. راح الروس والقرويون يسكبون على رأسها أقداحاً أخرى من الخمر وعلى قميصها وثوبها حتى ابتلّت كلها. ثم طرحوها أرضاً بوحشية. شعرت زوجة القس أن ثوبها وجسدها قد ابتلا وكأنها سقطت في الماء وأحست بأنها تغرق وتختنق وعلى الشاطئ لبث القديس نيكولا يصلي من أجلها.

وفي اليوم التالي شنَقَت كورينا زوجة القس كوروغا نفسها في غرفة الدواجن إثر ما وقع لها في دار البلدية.

- 120 -

نورا ويست في الليلة الأولى في معسكر أوهردروف. فرَّق الجنود بينهما حال نزولهما من السيارة التي نقلتهما من (ويمار) وأخذوا تريان إلى مكان آخر بينما اقتِيدَت إلى المعتقل الخاص بالنساء المؤلف من أكواخ خشبية وكان فيها قرابة ثلاثون امرأة لم تستطِع تمييز وجوههن إذ كان الظلام دامساً ولكن مظهرهن يدلّ على أنهن شابات. ولما استلقت على السرير الخشبي المُعدّ لها الخالي من الفراش والغطاء أخذت تُحدِّث نفسها قائلة لا يمكن أن يوقفونا دون أسباب بينما تبكي من ألم ألمَّ بها في وركيها ومرفقيها حتى استغرقت في سِنَة من النوم، ولمّا أزف نصف الليل سمعت ضحكة مكتومة من زاوية المهجع الأخرى قالت في نفسها: مَن هن السجينات هنا يا ترى؟

خُيِّل لنورا أنها ضحكة رجل غير أنّ الرجال لا يمكن أن يكونوا في معسكر للنساء. أصاخت السمع. تأكَّدت من أنه رجل. لكنه لم

Twitter: @ketab_n

يكن يضحك. شعرت أنه يضاجع امرأة. لأن حركاتهما كانت واضحة.

عاد الرجل يضحك من جديد غير أنّ الصوت انبعث في تلك المرة من الزاوية الثانية.

أحسَّت نورا بالخوف.

قالت تطمئن نفسها: «لِمَ أخَف من هؤلاء الرجال الذين يقضون سويعاتهم مع النساء؟».

غير أنها لم تهدأ ولم تسكن.

صمَّت أذنيها فلم تعد تسمع شيئاً. غير أنها لبثت تراهم حتى وهي مغمضة العينين. اهتزّ خشب سريرها ففتحت نورا عينيها. كان الباب مفتوحاً على مصراعيه فرأت عدداً من الرجال يدخلون إلى الغرفة ويقفون في وسط المهجع يتحادثون.

وكانت امرأة مرتدية جلباباً واقفة بالقرب منهم.

لم تستطع نورا أن تضبط شعورها فراحت تصرخ. أغمضت عينيها وزمجرت بكل قواها.

لم تعرف هي نفسها لِمَ راحت تصرخ غير أنها استمرت في صراخها، لأنها كانت تخاف من النساء والرجال الذين كانوا في المهجع. لعلهم سيسحقونها باللكم والضرب لأنها صرخت وحرمتهم بذلك من لذاتهم.

قالت في سرها: «ما كان ينبغي أن أصرخ. إن ما فعلته سخيف. سوف يرتمون عليّ ويضربونني حتى الموت. ولن يكونوا مخطئين في قتلي لأنني صرخت».

هرع الرجال يغادرون الغرفة فارين. كان عددهم كبيراً. وكان بعضهم مستلقياً على أرض المهجع دون أن تسمع نورا حركاتهم.

Twitter: @ketab_n

وكان آخر نائماً مع امرأة في سرير مجاور لسريرها مع ذلك فإنها لم تسمع صوت حركاته.

والآن غادر الرجال المهجع أشبه بالظلال والأشباح.

ظنت إليونورا ويست أنها ترى أولئك الرجال أطول من المعتاد وأشدّ سواداً من الليل.

ذهبت بعض النسوة مع الرجال لكنهن عُدن بعد فترة قصيرة وتسلّلن على أطراف أقدامهن واستلقين في مضاجعهن.

والآن عاد السكون وعادت النسوة كل إلى سريرها ما عدا اثنتين منهن لبثتا وسط الغرفة واقفتين في الظلام. كانتا مرتديتين قمصاناً قصيرة صغيرة وكان شبح جسميهما السمين واضحاً في الظلام. كانتا صامتتين لا تتكلمان ملتصقتين ببعضهما. سمعتهما نورا تأكلان. لقد كانتا تقضمان قطع «الشوكولاتة».

انتظرت نورا أن تذهب المرأتان الواقفتان وسط الغرفة إلى سريرهما. كانت تخاف أن تضربانها أو أن تذبحانها في أثناء نومها غير أن المرأتين لبثتا واقفتين بهدوء واستمرتا تقضمان الشوكولاتة دون أن تنطقا بحرف واحد.

سألت إحداهما بصوت منخفض:

- مَن التي صرخت؟ أليست الغريبة الصهباء اللون، التي وصلت مساء اليوم؟

فأجابت الأخرى:

- لست أدري. لكنني لستُ آسفة على صراخها. كنت قد انتهيت من رجلي، وما كانت بي رغبة في معاودة الكرة...

لبثتا تقضمان «الشوكولاتة»، دون أن تتبادلا كلمة جديدة، بينما راحت نورا تتابع حركاتهما. وأخيراً افترقتا، ومضت كل منهما إلى

Twitter: @ketab_n

زاويتها في المهجع، فاستلقتا على سريريهما. وارتفع صرير أخشاب السرير ثم عاد السكون.

غير أن نورا كانت تختنق. لم تكن تستطيع النوم.

لم يكن في تلك اللحظة أي رجل في الغرفة. وكانت النسوة قد أوين إلى مضاجعهن ونمن، لكن الجو كان عابقاً برائحة الخمر، والعرق، ورائحة الرجال الذين يمارسون لذائذهم البهيمية. كانت النوافذ مفتوحة الدرفات. غير أن الرائحة ما كانت تتبدد.

لم تعد نورا ويست تستطيع المقاومة.

كانت تقول لنفسها: «ينبغي أن يكون هناك سبب لتوقيفي، ولولا ذلك لما كنا حيث نحن».

شعرت بحاجتها إلى السعال. لكنها وضعت يدها على فمها، وكتمت تلك الحاجة: كانت تخشى أن تضربنها النسوة...

- 121 -

الصبحية الأولى في معسكر اعتقال أوهردروف. فتح تريان كوروغا عينيه، فوقعتا على إيوهان موريتز.

قال تريان، وهو يضغط على يد إيوهان موريتز مصافحاً:

- لقد نمنا كل الليل جنباً إلى جنب! كيف وصلتَ إلى هنا؟

قصّ إيوهان موريتز حكايته على تريان، بادئاً من النهاية. ذكر أن الضابط قد أتى به إلى السجن، بحجة استقدامه ليقص قصة فراره على القائد. واسترسل موريتز قائلاً:

- وبدلاً من أن يصحبني إلى قائد المدينة ألقاني في السجن! لقد لبثتُ فيه، ثمانية أسابيع، في زنزانة لا نوافذ فيها، ولا شعاع

Twitter: @ketab_n

ضوء. انتظرت طوال الوقت أن يستدعيني القائد، لكنه لم يفعل. ثم جاءوا بي إلى هنا. هذا كل شيء.

كفّ إيوهان موريتز عن حديثه، والتفت إلى تريان وقال:

- وأنت، كيف جئت إلى هنا؟

هزَّ تريان كوروغا كتفيه.

راح المساجين الذين ناموا مستلقين على الأرض يستيقظون واحداً إثر واحد. كان معسكر اعتقال أوهردروف حقلاً كبيراً، محاطاً بالأسلاك الشائكة، وكان يضمّ خمسة عشر ألف سجينٍ، وليس فيه إلّا السماء والأرض والرجال.

وعلى أربع أركان الحاجز الشائك، وقف جنود مسلحون بالرشاشات قرب مصفحات يراقبون المعسكر، ويسهرون عليه.

سأل إيوهان موريتز:

- هل لديك أخبار عن فانتانا؟

ونظر إلى وجه تريان، وقال مسترسلاً:

- لا أستطيع تصديق وجودك هنا! كيف حدث والتقينا هنا وجهاً إلى وجه؟ لقد بتنا ليلتنا جنباً إلى جنب. إنني لا أستطيع الفهم...

- 122 -

كان قائد معسكر أوهردروف يهودياً. فاستبشَرَت إليونورا ويست.

قالت تُحدِّث نفسها: «إن اليهودي يستطيع أن يفهم آلامي أكثر من سواه. سوف يساعدني كما يساعد إحدى قريباته. سوف يُخرجني من هنا».

Twitter: @ketab_n

صمَّمَت على أن تروي له حكايتها، وأن تتوسل إليه، وتطلب منه مساعدتها. عزمت على التحدث إليه كما تتحدث مع أخ.

كانت جدران حجرة القائد مغطاة بصور أخذت في معسكرات الاعتقال الألمانية.

راحت نورا ويست تتأملها. كانت الصور بحجم الجدار، تمثل رجالاً بين قتلى ومشنوقين وجائعين، وسجناء يرتدون أثواباً مخططة، وأشلاءَ الجثث، وأعمدة المشانق، وسيارات كبرى مملوءة بنساء ميتات.

نسيت نورا أين كانت في تلك اللحظة. خُيِّل إليها أنها، هي الأخرى في معسكر من معسكرات إفناء اليهود.

نظرت إلى الملازم ذي الشعر الأحمر الفاتح، الذي كان في المكتب، وراحت تتوسل إليه بنظرتها، مبتهلة أن ينقذها من الفناء والجوع، وغرف الغازات والتعذيب.

غمغمت نورا في سرها: «إنني أختك، أتوسل إليك أن تساعدني!».

لم تشعر نورا في حياتها أنها أكثر يهودية ممّا كانت عليه في تلك اللحظة!

قالت نورا:

- أيها الملازم!

كان صوتها متهدجاً، وحنجرتها مضغوطة، وكأن نصالاً كانت تخترق حنجرتها وتمنعها من الكلام.

قال الضابط بخفاء:

- لا يحقّ لك أن تتحدثي قبل أن تُسألي.

عضَّت نورا ويست على شفتيها وصمتت. راحت تنتظر الأسئلة.

Twitter: @ketab_n

كان الضابط يقرأ دون أن يحفل بها. وأخيراً سألها بجفاء:

- إن اسمك إليونورا ويست كوروغا؟ أهي أنت؟ إن زوجك هو الآخر موقوف، أليس كذلك؟

كان الضابط يخاطبها بلغة المفرد، لكن لهجته لم تكن لهجة أخ.

استطرد يسأل:

- لقد كان زوجك موظفاً في حكومة أنتونيسكو؟

فأجابت نورا ويست:

- كان زوجي موظفاً في مملكة رومانيا.

احمرّ وجه الضابط بعد أن كان شاحباً وازداد الكلف الذي في وجهه دكنة، وارتعدت شفتاه. سأل قائلاً:

- لقد وقع في رومانيا استفزاز رهيب ضد اليهود؟

لم تجد نورا وقتاً كافياً للجواب، لأنه استطرد يقول:

- ألم يكن في رومانيا معسكرات اعتقال لليهود؟ لقد كان فيها معسكرات، كان اليهود يفنون فيها، سواءً في غرف الغاز، أو على أعواد المشانق، أو رمياً بالرصاص أو بالنطع...

نهض الملازم واقفاً.

قررت نورا أن تخبره بأنها كانت هي الأخرى يهودية، وأنها استحصلت على أوراق زائفة، وأنها فرت وظلّت ترتعد خوفاً كل ليلة.

زمجر الضابط:

- أجيبي عن أسئلتي!

اقترب نحوها رافعاً قبضته مهدداً.

تأكّدت نورا من أنه سيضربها بجمع قبضته على وجهها،

Twitter: @ketab_n

فأغمضت عينيها، وانتظرت الكلمات. راح جسدها يرتعد فرقاً، وفقدت الشجاعة فما استطاعت أن تحير جواباً.

زمجر الضابط:

- أجيبي أيتها المجرمة! كم يهودية قتلت بيديك؟ أجيبي! إذا لبثتِ صامتة مزَّقتك شر ممزق! كم يهودية قتلت بيديك هاتين؟

ظلّت نورا صامتة.

- ألا تريدين القول! إنك خائفة الآن. الآن فقط ترتعدين. إنك تلوثين سراويلك من الخوف، لكنك لما كنتِ تقتلين، ما كنت تشعرين بالخوف!

قال نورا ويست:

- إنني أنا الأخرى...

صرخ الضابط حانقاً:

- أيتها العاهرة النازية القذرة، اخرجي من هنا! اخرجي!

كانت قبضته مرفوعة مهدِّدة، تكادُ تلامس عينيها، فلم يَسَع إليونورا ويست إلّا الخروج.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكتاب الخامس

- 123 -

كان تريان كوروغا يكتب. وإيوهان موريتز بجانبه ينظر، بانتباه، إلى الكيفية التي يمسك بها قلمه، بأصابعه المشدودة، وكيف يرسم أحرفه بدقة، وكأنه ينضد لآلئ.

لم يكن إيوهان موريتز جلوداً على الكتابة، وما كان يحبّ أن يكتب، لكنه كان قادراً على البقاء، ساعات طويلة، ينظر إلى تريان كوروغا وهو يكتب، دون أن يشعر بملل.

كان إيوهان موريتز يقول في نفسه: «عندما يكتب السيد كوروغا، يبدو كأنه يصلي أمام «الأيقونات». وعندما ينظر المرء إلى السيد كوروغا، ينسى أنه سجين. إنه ينسى أنه حافي القدمين، طويل اللحية، ممزق السراويل. عندما يكتب كوروغا، فإنه يكتب كسيد، يشعر المرء أمامه برغبته في نزع قبعته، وبالتحدث إليه بصوت منخفض».

سأل تريان، متوقفاً عن الكتابة:

- هل سمعت مرة عن مروِّضي الثعابين؟

- نعم.

فقال تريان:

لقد لبث القديس دانيال في حفرة مع الأسود، دون أن تفترسه.

Twitter: @ketab_n

لقد سيطر عليها. إن الرجال يستطيعون ترويض الثعابين، والسيطرة على الأسود. لقد كان لدى موسوليني نمران في مكتبه. لقد حولهما من وحشين ضاريين إلى حيوانين أليفين. إن الإنسان يستطيع السيطرة على كل الحيوانات المفترسة. غير أن حيواناً جديداً ظهر على سطح الأرض في الآونة الأخيرة. وهذا الحيوان الجديد اسمه: المواطنون. إنهم لا يعيشون في الغابات، ولا في الأدغال، ولكن في المكاتب. مع ذلك فإنهم أشدّ قسوة ووحشية من الحيوانات المتوحشة في الأدغال. لقد وُلِدوا من اتحاد الرجل مع الآلات. إنه نوع من أبناء السفاح، وهم أقوى الأصول والأجناس الموجودة الآن على سطح الأرض. إن وجههم يشبه وجه الرجال، بل إن المرء غالباً ما يخلط بينهم. ولكن لا يلبث المرء حتى يدرك، بعد حين، أنهم لا يتصرفون كما يتصرف الرجال، بل كما تتصرف الآلات. إن لهم مقاييس وأجهزة تشبه الساعات، بدلاً من القلوب. وأدمغتهم نوع من الآلة، فهُم بين الآلة والإنسان، ليسوا من هذه ولا من ذاك. إنّ لهم رغبات الوحوش الضارية، مع أنهم ليسوا وحوشاً ضارية، بل إنهم مواطنون... إنها سلالة غريبة اكتسحت الأرض.

راح إيوهان موريتز يحاول تصوّر المواطنين، لكنه لم يفلح. انتقل تفكيره في فترة إلى ماركو غولدنبرغ. غير أن تريان استرسل في الحديث، فطرد صورة ماركو من خيال موريتز.

استطرد تريان:

- إنني كاتب. وفي نظري أن الكاتب نوع من مروض. إنه عندما يُظهر للبشر الجمال، وأقصد الحقيقة، فإنه يرهف شعورهم. أما أنا، فأريد أن أُروض المواطنين. لقد بدأت في كتابة هذا الكتاب، وبلغت الفصل الخامس. ثم أوقفني المواطنون وسجنوني، فانقطعت عن الكتابة. لذلك فإنّ الفصل الخامس لم يبدأ بعد.

Twitter: @ketab_n

«والآن لم تعُد هناك حاجة إلى كتابة الفصل الخامس.

«إنني لن أنشر كتباً بعد اليوم. وبدلاً من الفصل الخامس أريد أن أكتب شيئاً لأروض به المواطنين.

«وإذا نجحت في ترويضهم، فسأموت قرير النفس. سأقرأ لك ما سأكتبه. إنه لن يكون رواية، ولا قطعة مسرحية، لأن المواطنين لا يحبون الأدب. ولكي أستطيع إيناسهم، وإخضاعهم، فسأكتب بالأسلوب الذي يتقبّلونه. سأكتب «معروضات». إنّ المواطنين لا يجدون من وقتهم ما يضيّعونه في قراءة الروايات، والمآسي، والمقطوعات، لكنهم يقرأون عروض الحال.

- 124 -

عرض حال رقم 1 - الموضوع: اقتصادي. (مواد دسمة).

سأرسل إليكم معاريض كثيرة، وسأبدأ بموضوع اقتصادي. إنني أعرف أن المدينة الآلية مبنية على أسسٍ مادية، وأن الاقتصاد إنجيلكم. إنني شخصياً كاتب، وكل كاتب «شاهد» قبل كل شيء.

إنّ الميزة الأولى للشاهد هي الحياد الذي يجب أن يتّصف به. وبناءً على ذلك، فإن عروض الأحوال التي سأقدّمها ستكون شواهد على الحقيقة.

إن المشكلة التي سأعرضها عليكم، تبدو لي شديدة الأهمية. إنها تتعلق بالمواد الدسمة.

إنكم ولا شك على علم بالحاجة إلى المواد الدسمة، التي يعرفها العالم أجمع. إنني، عندما وصلت إلى هذا المعسكر، وجدتُ المساجين ينامون على الأرض، الواحد بجانب الآخر. فلم

Twitter: @ketab_n

أجد مكاناً أستلقي فيه إلا بمشقة. وكنت خارجاً من السجن، وكنت منهوكاً. لاحظت أن الحقل الذي يحيط بالمعسكر متّسع كبير جداً. فلم أفهم سبب تضييقكم فسحة المعسكر إلى هذا الحدّ!

إنّ الخمسة عشر ألف سجين، الموجودين في هذا المعسكر، يمكثون ملتصقين بعضهم ببعض. فإذا وقفوا، ظلّت مساحة قليلة خالية. أما إذا أرادوا النوم، فإن المساحة شديدة الضيق، حتى إنهم يتراكمون بعضهم فوق بعض. إنني، شخصياً، لم أستطع مدَّ ساقي طيلة الليل، فكان كل مَن حولي يضعون أقدامهم فوق رأسي. كانت أرجلهم حارة، لذلك، ولما كانوا متمددين فوق جسمي طيلة الليل فإنني لم أشعر بالبرد.

أعتقد، الآن، أنني فهمت السبب الذي من أجله ضيقتم فسحة المعسكر إلى هذا الحد. ذلك لأن المساجين يطأون الحشائش بأقدامهم، بينما أنتم ترغبون في توفير تلك الحشائش في الحقول، لأنها مرتفعة الثمن، ولأنه من المؤسف أن تطأها الأقدام، دون أن ينجم عن ذلك أية فائدة. ومن الخير أن تعطى تلك الحشائش لبقرة تجترها، لأن البقرة تعطي الحليب. أما المساجين، فإنهم لا يعطون شيئاً.

ومن جهة أخرى، فإنّ جعلكم رحبة المعسكر أكثر اتّساعاً، كان سيكلفكم مزيداً من الأسلاك الشائكة، وهذه الأسلاك مرتفعة الثمن، فما كان من الضروري إنفاق مبالغ طائلة لمجرد إتاحة مساحة أفضل للمساجين، حتى يستطيعون النوم براحة على طول أجسادهم.

كذلك، فإنه عندما يحين البرد، ويحلّ موسم الأمطار، فإن معظم المساجين سيموتون، بينما سيموت بعضهم قبل ذلك. وعليه، فإنّ الذين يظلون على قيد الحياة بعدهم سيجدون ولا شك المكان الكافي للاستلقاء، وتمديد سيقانهم. إنني أعتقد بأنكم عنيتم بذلك،

Twitter: @ketab_n

عنهدما بنيتم هذا المعتقل، فلا أستطيع والحالة هذه إلا أن أنحني أمام دقة نظرياتكم الفنية.

لقد أصغيت، قبل أن أنام، إلى محاضرة. كان المحاضر - وهو أستاذ في جامعة برلين - يحدِّثنا عن المواد الدسمة، وإنني سأشرح لكم في عرض الحال هذه خلاصة محاضرته.

لقد أحصى الأستاذ حبات الفاصولياء التي تُقدَّم إلينا في الحساء الذي نأكله في المعسكر كل يوم.

لبث يعدّ ثلاثين يوماً، كل ظهر ومساء، جميع الحبات التي تحويها قصعته. ثم جمع، واستخرج نسبة وسطية. وهو يؤكد، بناءً على إحصاءاته، أن السجين الواحد يتلقى يومياً في وجبة الطعام عشر حبات من الفاصولياء فقط. وكان المستمعون إلى محاضرة الأستاذ قد عدّوا بدورهم محتويات قصعاتهم، فأيدوا حساب الأستاذ الدقيق وأكّدوه.

ثم أحصى الأستاذ قشور البطاطا، واستخرج حسابياً كمية الطحين الموجودة في الحساء. ولا شك أن هذا الحساب الأخير تقريبي، لأنّ الأستاذ، لا يُسمح له بالدخول إلى المطبخ.

إنكم تعرفونه، مثلي، إن الألمان قوم أقوياء في مشاكل القياسات والإحصاءات، لذلك فإنه يحق لنا أن نعتقد ونؤمن أنّ حبات الفاصولياء قد أحصيت بدقة متناهية. إن الألمان شديدو الصبر، كثيرو التدقيق. وبعد ثلاثين يوماً من العمل والإحصاء المتواصل، أنهى الأستاذ دراسته، وألقى محاضرته التي قدَّرها المستمعون حق قدرها. إن الألمان شغوفون بالاستماع إلى المحاضرات، والبحث فيها عن شتى المواضيع على اختلافها. إنها عادة عندهم، ترجع إلى العصور الوسطى. وبعد أن سرد الأستاذ

Twitter: @ketab_n

كيف استطاع إحصاء الحبات، بتصفية حسائه كل يوم، بيَّن عدد الحريرات الموجودة في كل حبة - ولست أذكر الرقم على وجه الدقة - ثم أحصى عدد الحريرات التي تنتج عن احتراق الحبات العشر، وأضاف إليها عدد الحريرات الكامنة في البطاطا والدقيق، الذي لم يلحظ المساجين وجوده في حسائهم، والذي يؤكد الأستاذ وجوده. واستنتج من ذلك أن كل سجين في المعسكر، يتلقى وسطياً، خمسمائة حريرية كلّ يوم. إنه ولا شك يتلقى أحياناً أقلّ من هذا العددْ. فقد وقع للأستاذ نفسه أنه لم يجد يوماً حبة واحدة من الفاصولياء في حسائه، وأنه أمضى الأيام الأخيرة منقطعاً عن الإحصاء، لأنه لم يجد ما يحصيه. غير أنّ هذا الشحّ يقابله، في أيام أخرى، إغداق في الكرم، إذ يبلغ عدد الحبات أحياناً خمس عشرة حبة، ويرتفع هذا الرقم أحياناً إلى ثماني عشرة. وإذن فإن المعدل صحيح.

إن المساجين، في المعسكر، لا ينامون كل النهار. ومع ذلك فقد وضع الأستاذ حساباته على أساس أن المساجين يستهلكون، في حالة اليقظة، عدداً من الحريرات مساوياً لما يستهلكونه في حالة قضائهم النهار كله في النوم. فوجد أن أقل كمية من الحريرات اللازمة لبقاء السجين في حالة حيوية تبلغ ألف حريرة.

إن المساجين يتلقون خمسمائة حريرة في حبات الفاصولياء، فعليهم إذن أن يستهلكوا خمسمائة حريرة أخرى، من احتياطهم من الشحن. وبعبارة أصح، من رأس المال المجمَّد في أجسادهم كل يوم، فإن السجين يفقد شهرياً ثلاثة كيلوغرامات من وزنه.

إنّ كل هذا، ولا شك، مأخوذ على حساب المعدل. لقد وزن الأستاذ نفسه المساجين في ميازين، مستعملاً وحدات اصطلاحية. مع ذلك، فقد أثبتت التجربة أن تلك الأدوات التي ابتكرها كانت

Twitter: @ketab_n

دقيقة. فإذا جمعنا الكيلوغرامات الثلاثة من الدهن، التي يخسرها كل سجين بتحويلها إلى حريرات، نستنتج أن في معسكر أوهردروف، الموضوع تحت سلطتكم الإدارية، خسارة قدرها خمسة وأربعون ألف كيلوغرام من المواد الدسمة شهرياً، أي أنه في كلّ شهر يتبدَّد، من هذا المعسكر وحده، حمولة خمس عربات من عربات السكة الحديد. إن الخمسة عشر ألفاً من المساجين يبدِّدون، في الهواء المحيط بهم، هذه الكمية الهائلة من المواد الدسمة. ولكم أن تحصوا الخسارة التي تنجم عن ذلك. إنني شخصياً لست اقتصادياً، لذلك لن أستطيع إبداء أي حلّ، أو اقتراحه. ومع ذلك، فإنني مقتنع بأنكم تستطيعون بفضل الرسائل الآلية التي تملكونها، الإفادة من هذه المواد الدهنية الحية. فلِمَ إذن تدعونها تضيع؟

هذا هو موضوع عرض الحال المقدَّم اليوم.

إنني واثق من فهمكم الأمر، لأنكم تنتمون إلى أرقى سلالة في الحضارة الآلية، ولعلكم ترفعون تقاريركم بهذا الصدد إلى المجامع العلمية في بلادكم.

إنها بربرية أن يَترك المرء خمسة وأربعين ألف كيلوغرام من الدهن تضيع هباءً كل شهر. إن لديكم معسكرات أخرى، وأعتقد أن عدد هذه المعسكرات يبلغ، في ألمانيا وحدها، أكثر من مائتين، فلديكم إذن، كل يوم، جبال من الدهن الطازج.

إنني، منذ أن استمعت إلى محاضرة أستاذ برلين، أستنشق العبير الذي يتضوع في الأجواء، وأجد أنه مشبعاً برائحة دهن الإنسان.

إن معسكركم عبارة عن مكبس جبار لاستخلاص شحم المساجين. إنني أشم رائحة هذا الشحم في الهواء. ألا يحدث لكم استنشاق هذه الرائحة مثلي، كلما فتحتم نوافذ مكاتبكم؟ إن ثيابكم كلها مجبولة فيها. فتفضلوا بالسؤال من زوجاتكم أو عشيقاتكم،

Twitter: @ketab_n

اللواتي تنامون بقربهن ليلاً، عمّا إذا كن لا يجدن في الرائحة التي تفوح من شعركم وجلودكم رائحة شحم الإنسان؟ إن النساء يفقن الرجال بحاسة الشم. فاسألوهن يُجبنكم. أما أنا، فإن مجرد التفكير في هذه الحقيقة تضطرب له نفسي، وأشعر منه بالغثيان. تفضلوا بقبول تحياتي، والتأكيد بأنكم ستجدونني أبداً من أكبر المعجبين بالحضارة التي تمثلونها. إنني واثق من أنكم، بفضل مصادركم وأساليبكم الآلية التي تمتلكونها، تستطيعون الإفادة من كل هذه الكمية من الشحم. (ولا تنسوا أنني، شخصياً، أُقدِّم لكم كل شهر ثلاثة كيلوغرامات من جسدي الخاص).

الشاهد

- 125 -

عرض حال رقم 2 - الموضوع: علم الجمال. (غاية الجمال البشري في المجتمع الآلي الغربي).

لقد تناقشت مساء أمس في موضوع الجماليات مع أستاذ ألماني. . . فاختلفنا في نتائج النقاش. إنّ الألمان، كبقية الأوروبيين، ما زالوا متقيدين موضوعيين في هذا الفن. كذلك فقد انهار مجتمعهم. إن مجتمعاً سليماً متطوراً كمجتمعكم يملك من الفن الحديث.

إن الأستاذ الألماني أشارَ إلى السجناء الذين كانوا يتجوّلون في المعسكر، ودلني على هؤلاء الذين لم يبقَ لهم - كما لا شك تعرفون - إلا العظم والجلد. قال لي الأستاذ الألماني إن هؤلاء المساجين بشعون، لأنه ما زال مقتصراً، في تفكيره، على مثال

Twitter: @ketab_n

الجمال اليوناني. أما أنا، فإنني أجد أن الرجال الذين تحوّلوا إلى هياكل عظمية تغطيها جلودهم، غاية في الجمال، يكوّنون أمثلة حقيقية عن الفن الحي.

لقد حاولت إقناع الألماني بأن مجتمعكم، يقدِّر الجمال لدرجة لم يبلغها أي مجتمع حتى يومنا هذا، وأنكم تمارسون مهمَّة تبديد الشحم والدهن من الأجساد البشرية، لأسباب جمالية بحتة، تهدفون من ورائها إلى تجميل العالم. لكنه لم يفهم. والألمان يفهمون بصعوبة. لذلك يُقال إنهم ذوو رؤوس مربعة. سأحاضر غداً في موضوع غاية الجمال البشري، في الغرب المتمدين.

هناك نحّات سويسري، اسمه ألبرتوجيا كوميتّي، حقق في حقل النحت المبادئ إياها، والغاية إياها، عن الجمال المذكر والمؤنث، التي حققتموها في الحياة العملية، بتبديد الدهن واللحم، من الأجساد البشرية! إنه، هو الآخر، جهد وهو ينحت تماثيله على أن يسقط الدهن والشحم من الجسم البشري، ومن الفراغ.

إن الجسم البشري، قد حُوِّل بهذا الشكل، إلى مقياس واحد. فأخذ أشكالاً عديدة جافة، لا تزيد على حجم سلك حديد.

إنكم تنحون النحو ذاته في المعسكر. إنني أعرف أن حضارتكم كلها قائمة، منذ الأبد، على المبادئ الجمالية.

وعندما تصبح الكرة الأرضية، غداً، معمورة ببشر من ذوي الأجساد المتحولة، بحسب قوانين الجمال الجديدة، وأعراف فن جياكوميتي وفنكم، فإن العالم سيلتمع ثناءً وجمالاً!

الشاهد

Twitter: @ketab_n

قال تريان كوروغا:

يا عزيزي موريتز. لقد كتبت حتى الآن حوالى أربعين شكوى، أردت أن أبيِّن لهم فيها الحقيقة، وأن أقنعهم بالعزوف عن تعذيب البشر. إنني واثق من أنني على صواب. لقد نظمت كل شكوى ببراعة، ولكن عبثاً. لقد استعملت الإنشاء القضائي، والإنشاء الدبلوماسي، ثم الأسلوب البرقي وأسلوب حسابات المطابخ، ثم الأسلوب الإذاعي. فكنت على التتالي عاطفياً، أو مبتذلاً، أو متوسلاً. سألتهم عدالة بكلّ الوسائل التي وضعها اليأس في متناول يدي، لكنني لم أتلقَّ أي جواب.

لقد قلت لهم أكثر الحقائق إيلاماً، لكنهم لم يغضبوا. لقد جثوتُ على ركبتي لأكتب لهم، لكنني لم أوفَّق في إثارة إشفاقهم. وقد أهنتهم بغلظة، لكنهم لم يشعروا بالإهانة. لقد أردتُ إضحاكهم، أو إثارة فضولهم، ولكن عبثاً. إنني لم أوفَّق في إيقاظ العواطف النبيلة فيهم، كما لم أوفق في تسخير شهواتهم العادية. إنني لم أتوصَّل إلى إيجاد أي ردّ فعل في نفوسهم. لقد كان أفضل لي، لو كتبت إلى حجارة. إنهم عديمو الشعور، لا يعرفون الكراهية، ولا الانتقام. والشفقة غريبة عنهم. إنهم يعملون آلياً، ويجهلون كلّ ما هو غير مسجَّل في البرامج. قد أقتطعُ جزءاً من جسدي، وأكتب عليه بدمي الساخن، الشكاية المرة. لكنهم لن يقرأوا شكايتي. سوف يلقون بها إلى سلة المهملات، كما فعلوا بما قبلها، بل إنهم لن يعرفوا أنها قطعة من اللحم، اللحم البشري الساخن. إن الرجل لا قيمة له عندهم. إنها لا مبالاة المواطن، حيال الإنسان. ذلك الإغفال الذي تخطى مثيله عند الآلات.

Twitter: @ketab_n

قال إيوهان موريتز بإشفاق:

- يا سيدي تريان المسكين! ماذا تنوي أن تفعل؟ إنني أعتقد، شخصياً، أن من الأفضل الانقطاع عن الكتابة.

قال تريان:

- بل سأستمر. لن أتوقف إلا إذا متّ. لقد روّض الرجال كل الحيوانات المتوحشة، فلِمَ لا نُروض المواطنين؟

فقال إيوهان موريتز:

- لعله ينبغي أن تتصرف على نحوٍ جديد. أعتقد أنك بالكتابة لن تصل إلى أية نتيجة.

- إنّ كل انتصارات البشر، منذ أن وُجد على سطح الأرض، كانت انتصارات العقل. وبفضل العقل، سنستطيع أخيراً، السيطرة على المواطنين في مكاتبهم.

إننا إذا لم نتوصل إلى ترويضهم، فإنهم سيمزقوننا إرباً، مهما بلغ شأننا.

ينبغي لنا أن نعلِّمهم، أن لا يمزقوا الرجل عندما يلتقون به، وأننا إذا لم نعلِّمهم ذلك فإننا لن نستطيع السكنى على هذه الأرض، وفي المدن ذاتها، وفي البيوت ذاتها، التي يسكنون فيها. إن المهمة أكثر صعوبة من ترويض الأفاعي، والسيطرة على النمور. لكنني لم أكن مرة أكثر تفاؤلاً ممّا أنا عليه اليوم. إنه ولا شك تفاؤل الرجل قبل الموت. إن تشنّج النزع عندي، هو فصل عروض الأحوال، من الساعة الخامسة والعشرين، لكنني سأكتبه!

Twitter: @ketab_n

عرض حال رقم 3 - الموضوع: اقتصادي. (سجناء لم يعد لهم إلّا نصف أجسامهم أو ثلثها).

لقد استطاع صديق لي، بمساعدتي، أن يُحصي في خلال أربعة أيام، ويرتب السجناء في هذا المعسكر، الذين لم يعد لهم إلّا نصف أجسامهم أو ثلثها أو خُمسها.

إن صديقي لم ينهِ إحصاءاته بعد. إنه طويل الباع في الحساب، لكنني تعجلت في الكتابة إليكم، لأنّ المسألة بدت ليس مستعجلة من وجهة النظر الاقتصادية. إنكم تستطيعون كل يوم توفير بضعة ملايين من الماركات على الأقل.

إليكم الأمر كما هو: إن بين الخمسة عشر ألف سجين، المسجونين معي، ثلاثة آلاف على الأقل، لا يملكون أجسادهم كلياً. فمنهم مائتان فقدوا سيقانهم، وهم يزحفون كالزواحف في المعسكر، وألف ومائتان لا يملكون إلا ساقاً واحدة، وعدد آخر، ذراعاً، بينما هناك بعضهم أشلاء تماماً. هذا من حيث المظهر.

غير أن عدداً كبيراً منهم فقدوا عضواً داخلياً: رئة، أو كلية، أو عظاماً... إلخ وأربعين سجيناً فقدوا البصر.

إن كلّ هؤلاء الأشخاص، قد أوقفوا آلياً مثلي تماماً. وقد أشفقت عليهم في البداية. إن صديقي إيوهان موريتز، يغمض عينيه كلما يقع بصره على المعوّقين، وكبار المشوهين في المعسكر، لكن إيوهان موريتز، رجل قديم. إنه لا يفهم التوقيف «أوتوماتيكي»، وإنه لا يمكن للمرء أن يفلت منه، لأنه فقد ساقاً، أو عيناً، أو أنفاً، أو رئة، طالما أنه يمتّ إلى فصيلة ينبغي أن تُوقَف وتُسجن. إن التوقيف

Twitter: @ketab_n

الآلي، لا ينظر في استثناءات تتعلق بأولئك الذين يملكون أجساداً في حالة متعطلة. إنّ من العدالة أن يكون كذلك. ينبغي أن تعمّ العدالة، وتنفَّذ دون استثناء.

يوجد في هذا المعسكر أستاذ أبتر الساعدين، لأنه فقَدَ ذراعيه أثناء الحرب، فلما أصدرتم الأمر بتوقيف الأساتذة، ما كان من العدل والإنصاف توفير صديقي الأستاذ، لأنه فاقد الذراعين. إذ ما هي العلاقة بين واقع التوقيف والذراعين؟ أية علاقة. إنه أستاذ، وإذن، ينبغي أن يوقف مع كل أفراد الفصيلة التي ينتمي إليها، وهذا ما عملتموه، وأنتم لا تخطئون أبداً! إنني من أجل هذا، معجب بكم كل الإعجاب، وأنا قادر على التضحية بحياتي في أية لحظة، في سبيل حضارتكم الكبرى الممتازة. إنكم العدالة والدقة المجسّدتان.

لكن لنعُد إلى موضوعنا: إن أجزاء البشر هؤلاء، الذين لم يعُد لهم إلا بقايا من الجلد والجسد، يتلقون كل يوم الكمية الغذائية المخصصة للسجناء الكاملي التكوين. إن حكومتكم تقوم بتضحيات جسيمة، لتؤمن الحصص الغذائية للسجناء، لكن كلمة سجين تعني رجلاً كاملاً، فإذا جمعتم أولئك المشوهين، وأحصيتم عدد أيديهم وأرجلهم، وعيونهم ورئاتهم، لوجدتم أنهم ألفان بدلاً من ثلاثة آلاف رجل.

باستطاعتكم، إذن، توفير ألف حصة غذائية في اليوم على الأقل.

فلِمَ إذن تنفقون المال لتغذية أعضاء لا يملكها المساجين؟ إن كرماً، من هذا القبيل، هو في الحقيقة في غير محله.

إنني أعتقد بأن السلطات العليا سترضى عنكم كثيراً، إذا أعلمتموها بالموضوع، بل ولعلكم ستمنحون أوسمة، لأنكم بذلك تحققون وفراً كبيراً للدولة. إنّ كل إنسان يعرف أن المال هو كل ما

Twitter: @ketab_n

له أهمية في الوجود. لذلك سمحتُ لنفسي بالخوض في هذا البحث، استناداً إلى هذه النظرية.

الشاهد

- 128 -

عرض حال رقم 4 - الموضوع: عسكري. (تبديل الجنس).

إن المساجين، في المعسكر، قد ظهرت عليهم عوارض مدهشة بسبب الجوع. يمكن أن تشكِّل، بالنسبة إليكم، أهمية عسكرية كبيرة. وإليكم خلاصة تلك العوارض في بضع كلمات: إن المساجين الموقوفين منذ زمن طويل، والذين قضوا كلّ هذا الزمن معتمدين على خمسمائة حريرة يومياً، لم يعودوا في حاجة إلى حلق لحاهم. أصبح الرجال منهم الذين اعتادوا على إزالة لحاهم مرة أو مرتين في اليوم، لا يمارسون هذا الواجب بعد أن أدخلوا إلى المعسكر، إلا مرة كل يومين، ثم مرة كل أسبوع، ثم مرتين في الشهر الواحد. وأخيراً، كفوا نهائياً عن هذا العمل، لأن شعرهم أصبح نادراً ويشبه الزغب. وسوف يؤول هذا الزغب إلى الفناء من تلقاء نفسه. لقد أصبحت وجوههم تشبه في نعومتها وجمالها وجوه النساء، لكن الأمر لم يقتصر على هذا النحو. إذ إن أصواتهم أيضاً قد تخنثت، وثديّهم قد انتفخت حتى بلغت عند بعض المساجين حجم ثديّ فتاة في الثالثة عشرة. وغدا جلدهم ناعماً رقيقاً حريرياً كجلد النساء، لكنني لا أعرف تماماً ما آلت إليه أعضاؤهم التناسلية. غير أنني واثق من أن تلك الأعضاء ستنتهي إلى السقوط، والتحول إلى أعضاء نسوية بفضل قانونكم الغذائي، وخصوصاً إذا عمدتم إلى إنقاص الحصص الغذائية

Twitter: @ketab_n

عما هي عليه. إن الأطباء يدعون أن هذا يرجع إلى نقص الغذاء، وأن الحرمان من التغذية يحول تحويلاً خطيراً، بل ويوقف الإفرازات الهرمونية، ذات المفعول المزدوج: الأندروجين (أي الهرمون الذكري) والأستروجين (أي الهرمون المؤنث).

«ثم إن الكبد الضعيفة، لا يمكن أن تمارس مهمتها كمنظم للهرمونات، بل إنها قادرة إذا ازداد ضعفها، على إتلاف هرمونات الآندروجين، والإبقاء على الهرومونات الأنثى.

«فإذا اختلّ التوازن الهرموني، فإن التكوين العضوي يبشر بتحوُّل أنثوي!».

إن هذه الملاحظة، يمكن أن تكون ذات أهمية عسكرية قصوى في حضارتكم. يكفي أن تفكروا في الهدوء الذي سيعمّ الأرض، فيما إذا وضعتم كلّ أعدائكم البرابرة في معسكرات اعتقال - كما فعلتم حتى الآن. وأعطيتموهم بضع مئات من الحريرات يومياً ليصبحوا جميعهم نساءً بعد حين. ستكون الأمة العدوة لكم، محرومة من الذكور، وإذن، فإنكم لن تجدوا مَن يعلن عليكم الحرب. إنني أعتقد بأن هيئة الأركان، عندكم، ستستعمل هذا الاكتشاف وتفيد منه، وإنني استناداً إلى العقلية العملية والإبداعية الرائعة في حضارتكم أعتقد أنكم ستطبقون أيضاً عكس هذه العملية: فتزيدون تغذية النساء في بلادكم، ممّن يتطوعون للتحوّل إلى رجال، وبذلك تحصلون على الأيدي العاملة اللازمة.

لذلك أعرض عليكم تخفيض الحصص الغذائية، الحاوية على خمسمائة حريرية، والتي تمنحونها إلى السجناء في معسكركم، وإنقاصها، وبذلك ستحوِّلون المساجين إلى نساء حقيقيات بسرعة زائدة.

الشاهد

Twitter: @ketab_n

الاستعدادات للرحيل. كان يجب نقل الخمسة عشر ألف سجين إلى معسكر آخر. كانت الساعة الثانية صباحاً. والمصفحات وسيارات النقل منتشرة حول المعسكر، وقد أضيئت كل المشاعل والأنوار، بما فيها مصابيح المصفحات، فحوَّلت الظلام إلى نهار. وكانت الأسلحة، من كل العيارات، مصوّبة على جماعة المساجين الذين كانوا يتدفقون من البوابة كالنهر الهادر. مشى تريان كوروغا وإيوهان موريتز جنباً إلى جنب، وكانت أسنان موريتز تصطك ارتعاداً.

كان أمام الباب فصيلتان من الجنود المسلحين بالعصي، فكانوا يحصون المساجين، ويقسمونهم إلى جماعات.

قال تريان:

- إنهم يريدون حشرنا كلّ سبعين منّا في سيارة تتسع، في الأحوال العادية، لعشرة رجال، ولاثني عشر رجلاً. فكيف سيوفِّقون في ذلك؟ هل سمعت من قبل بقانون استحالة تداخل الأجساد البشرية؟

لم يجب موريتز. كان يرتعد. راح تريان يرقب الجنود بانتباه وهم يملأون السيارة الأولى. أدخلوا فيها بادئ الأمر عشرين رجلاً، ثم راح الجنود يضربون الراكبين بعصيهم، فأخذ هؤلاء يتقلصون ويلتصق بعضهم ببعض، وعندئذٍ أمر الجنود عشرة آخرين بالصعود. ثم عادت العصي إلى العمل، فراح الوافدون الجدد ينكمشون، محاولين تفادي الضرب، وبذلك أخلوا فراغاً جديداً، فصعد عشرة آخرون. كان يمكن للناظر عندئذٍ أن يقسم أيماناً مغلظة على أنه يستحيل إيجاد مكان لطفل صغير، لكن الجنود لم يقنعهم ذلك،

Twitter: @ketab_n

فقلبوا أسلحتهم وراحوا يضربون المساجين بأعقابها. فازدادوا التصاقاً بعضهم ببعض. وأفسحوا مكاناً لعشرة آخرين، وهكذا لم يبقَ، من السبعين رجلاً، مَن ظلّ على الأرض، بسبب انعدام المكان في السيارة. وعندئذٍ، كفّ الجنود عن الضرب، وانتظرت السيارة أوامر الحركة.

صعد تريان كوروغا إلى السيارة، ممسكاً إيوهان موريتز من يده، لأنه كان يأبى الافتراق عنه. قال تريان:

- يا صديقي موريتز العجوز، لم تعد في الدنيا قوانين قطعية. إن علم الفيزياء نفسه لم يعد له قوانين لا تتبدل، لأن هذا العلم يزعم أن جسمين لا يمكن لهما أن يشغلا، معاً، مكاناً واحداً في الفراغ. بينما في حالتنا الحاضرة يشغل سبعة رجال مكاناً واحد. فهل يمكن بعد ذلك الاعتماد على علم الفيزياء؟ هل سمعت شيئاً عن بيكاسو؟

- كلا، يا سيدي تريان.

كان صوت إيوهان موريتز مختنقاً مكتوماً.

كان تريان طويل القامة، يستطيع بذلك الحصول على الهواء. أما إيوهان موريتز، فكان قصيراً ينسحق رأسه بين صدور من حوله، فكانت رئتاه مضغوطتين لدرجة جعلتهما لا تحويان نفحة من الهواء.

قال موريتز:

- إنني أختنق!

انتابه ذعر مريع وشعر برغبة في البكاء. كان لا يستطيع الحراك، وأنفه يبحث عبثاً عن الهواء، عن كمية مهما ضؤلت. لكنه ما كان يجدها. قال:

- إنني أختنق، يا سيدي تريان. إنني أشعر بأني أموت!

- أجبني هل سمعت شيئاً عن بيكاسو؟

قال موريتز:

Twitter: @ketab_n

- لم أسمع شيئاً عنه. إنني لا أعرف شيئاً. ولكنني أختنق، وهذه هي النهاية ولا شك.

أراد تريان أن يرفع رأس موريتز قليلاً، لكنه ما كان يستطيع تحريك ذراعيه، بل إنه كان عاجزاً عن تحريك عضلة واحدة. لقد كان جسمه مسحوقاً مضغوطاً محولاً في الحد الأدنى من الحجم، لكن رأسه كان سابحاً فوق الرؤوس.

قال تريان:

- إن بيكاسو، هذا، أكبر رسام في المجتمع الغربي.

قال موريتز:

- إنني لا أسمع شيئاً. إنني أتوق إلى إخراج أنفي من هنا، ولو فتحة واحدة منه. أتوسل إليك يا سيدي تريان أن تساعدني. إنني أموت!

حاول تريان أن يوفر له بعض الفراغ، لأن رأس موريتز كان في تلك اللحظة مضغوطاً على صدره.

- لقد رسم بيكاسو صورتك كما أنت الآن، في هذه السيارة يا صديقي العجوز.

سأل موريتز:

- صورتي؟ إنني لا أسمع شيئاً، لأن أذني مسدودتان.

كرَّر تريان:

- صورتك. إنها تشبه الصورة تماماً. وصورة سيارتنا حيث يشغل سبعة رجال مكاناً في الفراغ يكفي لرجل واحد. فلواحد خمس سيقان، ولآخر ثلاثة رؤوس، ولكنه محروم من الرئات. أنت مثلاً، إن لك صوتاً، ولكن ليس لك فم. وأنا ليس لي إلا الرأس محروم من الجسد، رأس يرتفع في الفضاء، فوق سيارة النقل. . . إنني عندما شاهدت لوحته للمرة الأولى - وكان ذلك في باريز -

Twitter: @ketab_n

أعجبني كثيراً. بيد أنني لم أفهم الغاية منها. لكنني الآن أكاد أجزم بأنني فهمت. إنها صورة هذه السيارة، وقد رُسمت بدقة متناهية، دون أن يفلت الرسام أية لمحة أو تفصيل. لقد رسم كذلك معسكرنا. إنه يرسم كما لو كان يصوّر، ولا يهتم إلا بالأشياء الواقعية. إنه رسام عبقري.

بدأت السيارات تصعد الطريق، فراح تريان ينظر إلى الرجال حوله. لم يكونوا مخلوقات بشرية، بل إنه لم يكن في السيارة كلها مخلوق حي واحد، عندما كانت تخترق طرق القرية الغارقة في الظلام. مع ذلك، فإن الرجال في تلك السيارة لم يكونوا أمواتاً. كانوا يتأرجحون بين الموت والحياة. كانوا في أثناء لحظة أحياء، وفي اللحظة التي تليها أمواتاً، بل وكانوا أحياناً أحياء أموات في آنٍ واحد. وفي النطاق الذي يشغلونه، لم يكن هناك فراغ. لقد حذف الفراغ كله، حتى قتل ومات.

لم يكن في النطاق الذي يشغلونه إلّا التشنجات، فالعيون كانت تشنجات، واللحم والدم والهواء، والوقت والتفكير، كانت كلها تشنج. لم تكن للرجال أشكال ولا عقول، لم يكونوا إلا تشنجاً...

سأل تريان:

- هل تستطيع التنفس بعد؟

- لست أدري. إنني أشعر أن نعم. ولكن بواسطة فتحة واحدة من أنفي، وفي فترات معينة فقط. إنني أتنفس هنا، فوق صدرك، من خلال ضلوعك.

قال تريان:

- إن فتحة واجدة ينبغي أن تكفي. أصغِ إليّ، إنني سأحدثك بأمر ذي أهمية قصوى...

فقال موريتز:

Twitter: @ketab_n

- لا أستطيع الاستماع إلى شيء. اعذُرني إذا أمرت.

- حاول، إن الأمر عظيم الأهمية:

إن كل رعب يمكن أن يحدَّد
وكل حزن له نهاية ما:
ليس في الحياة وقت نكرسه للأحزان الطويلة،
لكن هذه، إنها خارج نطاق الحياة، خارج نطاق الزمن.
إنها خلود مستمر للشر والطغيان.
لقد تلوثنا بقذارة لا نعرف كيف نغسلها،
قذارة متحدة بالهوام الخارق للطبيعة،
لسنا نحن وحدنا، وليس البيت، وليست
المدينة التي تلوثنا.
بل إن العالم أجمع هو الذي تلوث[1].

قال موريتز:

- ارفع صوتك! إنني لا أسمع شيئاً أبداً.

فاسترسل تريان بما استطاع من قوة يقول:

- نقِّ الهواء، نظف السماء، واغسل الهواء، وارفع الحجر من الحجر، واسلخ الجلد عن الذراع، وانزع العضلة عن العظم واغسلها. إغسِل الحجر، واغسل العظم، واغسل المخ، واغسل النفس، اغسلها اغسلها!

قال إيوهان موريتز:

- إنني لا أفهم شيئاً. كم أنت سعيد يا سيدي تريان، إذ تستطيع التنفس. إنك لا تختنق أنت!

---

(1) هذه الأبيات للشاعر ت.س. إليوت واردة في النص.

Twitter: @ketab_n

كان الرجال قصيرو القامة، أقل ألماً من زملائهم طوال القامة. أما في هذه السيارة التي حشر فيها سبعون شخصاً، في هذه السيارة التي كانت تجتاز شوارع قرية أوهردروف كالشبح، فإن قصار القامة من المساجين كانوا على وشك الموت اختناقاً، لقلة الهواء.

قال إيوهان موريتز:

- يا سيدي تريان لا تقل شيئاً، لأنني لا أسمع ما تقول.

- إذا كنت لا تسمع فستدفع حياتك ثمناً...

- أسمع ماذا؟

لقد ارتكب الأستاذ الألماني خطيئة كبرى! لقد أخطأ، وسيموت بسبب خطئه.

- أي ألماني ارتكب خطيئة خطيرة؟

قال تريان:

- الأستاذ الذي وزن شحمنا ولحمنا الحي. لقد وزنها حافلة بالحياة، ليقيس آلامنا. غير أن آلام البشر لا يمكن أن تُقاس بالكيلوغرامات والأطنان!.. إن الحياة لا يمكن أن توزن. إذن ذلك الذي يحاول وزنها يرتكب خطيئة قاتلة.

قال إيوهان موريتز:

- إنني لا أسمع شيئاً!

فأجاب تريان:

- لا أهمية لذلك. إن المرء يتهدّم، حتى إذا لم يسمع. إن سائق سيارتنا، والحراس، والجنود المسلحين بالعصي والمسلحين بالرشاشات، الذين ينتظرون بفارغ الصبر اللحظة المناسبة لقتلنا، فإنهم يتحطّمون مثلنا، وبالطريقة ذاتها والأسلوب الذي نتحطّم بهما. ألا تراهم يتهدمون؟

فقال موريتز:

Twitter: @ketab_n

- إن عينيّ محجوبتان فلا أرى شيئاً.

- أوَ لا تحس بشيء أيضاً؟

فأجاب موريتز:

- لا شيء. إنني أشعر فقط بأنني أختنق!

فقال تريان بحزن:

- ألا ترى مع ذلك أنك تحسّ المهم في الموضوع؟ فلِمَ تزعم إذن أنك لا تحسّ بشيء؟ إن كلّ العالم يحسّ مثل إحساسك. لكنه لا يريد الاعتراف به..

- 130 -

نقل السجناء إلى عربات السكة الحديد المخصّصة لنقل الحيوانات.

كانت كل عربة تتسع لخمسة وعشرين حصاناً. مع ذلك، فقد تلقت حمولة مائة وأربعين رجلاً.

وأغلقت أبواب كلّ العربات.

وفي العربات الأخيرة من الرتل جرى نقل ثلاثة آلاف امرأة.

كان القطار طويلاً جداً، فقال تريان في سره: إنه يحلو له أن يرقب مرور مثل هذا القطار عن بُعد. قال:

- إن قطارنا يشبه القافلة التي كانت تتسلق هضبة غولغوثا[1]. والفرق أن قافلتنا آلية. إننا نتسلق الغولغوثا بوسائل آلية. لقد صعد إليها يسوع سيراً على قدميه بين مجرمين حقيقيين. هل تعرف بأن يسوع قد صُلب بين مجرِمَين؟

(1) غولغوثا، جبل قرب بيت المقدس صلب عليه المسيح. [المترجم]

Twitter: @ketab_n

- كلا، لا أعرف ذلك.

- من عادة القضاة، إذا أرادوا معاقبة بريء، أن يحيطوه بمجرمين. إن الحيلة معروفة منذ القدم. لم يجرؤ اليهود على صلب المسيح وحده، فأحاطوه باثنين من المجرمين من ذوي السمعة الشائنة المعروفة لسبب واحد: وهو جذب انتباه الجماهير إلى ناحية أخرى، في خلال تنفيذ أحكام الإعدام.

«إنني أنا، وأنت، وزوجتي، وعدد كبير آخر، نجد إلى يميننا ويسارنا مجرماً. إنها الخدعة المعهودة، التي سبق تنفيذها على غولغوثا، ولم يتبدَّل من الواقع إلى النسب. كان في ذلك العهد، يُحاط كل بريء بمجرمين. واليوم، يحاط عشرة آلاف بريء بمذنبين، لكن الفرق ضئيل بسيط. إن الأسلوب واحد لم يتبدل. ثم إننا نصعد على الصليب بشكل آلي وبوسائل آلية. غير أن الخدعة صبيانية بعد أن تنفذ الأحكام، لن يتحدث الجمهور عن المجرمَين، اللذين أعدما مع يسوع في آنٍ واحد، لكن الجمهور لن يذكر إلا يسوعاً، ويسوعاً وحده. هذه هي الطريقة التي اتبعت في كلّ العصور وهذه نتيجتها. وهذا ما يقع اليوم، حتى ولو رفعنا على الصليب بشكل آلي، ولو صعدنا إلى غولغوثا مقطورين!

اقترب تريان كوروغا من النافذة المشبكة. كان القطار قد توقف.

سأل إيوهان موريتز:

- هل ترى شيئاً؟

كان لا يبلغ مستوى النافذة لقصر قامته.

قال تريان:

- لقد توقف القطار في محطة. وهنالك قطار بمحاذاة قطارنا.

سأل إيوهان موريتز:

Twitter: @ketab_n

- أهو مشحون بالمساجين أيضاً؟

كان الفضول يلوعه. فقال تريان:

- إنه قطار من المساجين المحررين. إنهم العبيد الأجانب الذين كانوا في ألمانيا أمس، والذين أعيدت إليهم الحرية.

كانت جماهير من الرجال والنساء تتلاطم كالأمواج، حول القطار الآخر. أردف تريان قائلاً:

- إنهم يدخنون اللفافات!

ابتلع إيوهان موريتز لعابه، واستطرد تريان:

- هناك امرأة نزلت من العربة. إنها تأكل خبزاً أبيض مع مصير محشو باللحم.

وازدرد لعابه بدوره!

قال إيوهان موريتز

- وددت لو أستطيع رؤيتهم مثلك. علّني أعرف واحداً منهم. ما هي جنسيتهم؟

أجابه تريان وهو يتأمل الأعلام المرسومة على العربات، وتلك التي أودَعها أصحابها في عراهم:

- إنهم من جنسيات مختلفة. إن المرأة التي تلتهم الخبز المدهون بالزبد، والمصير المحشو، والذي يشبه فخذاها في لونهما لون الخبز الأبيض الذي تقضمه، دنماركية، تأتي وراءها مباشرة فرنسية. إنها جميلة ذات عينين سوداوين.

سأل موريتز:

- هل هناك فرنسيون بين الحشد؟

أجاب تريان:

- هناك جمهور كبير واقف قرب عربتنا. وهناك بلجيكيون وإيطاليون.

Twitter: @ketab_n

قال إيوهان موريتز بنفاد صبر:

- أريد رؤية الفرنسيين!

استيقظ حنينه القديم إلى الفرنسيين.

رفعه تريان كوروغا، ليتيح له بلوغ النافذة. والنظر من خلالها.

فقال موريتز مشرق الوجه:

- إنهم فرنسيون! إن هذا الذي بالقرب من الإيطالي يشبه جوزيف كما تشبه نقطة الماء النقطة الثانية. هل تراه؟

- أي جوزيف؟

أجاب إيوهان موريتز:

- صديقي جوزيف. ألم أحدِّثك عنه؟ ذلك الذي ساعدته على الفرار. لو لم أكن واثقاً من أن جوزيف في فرنسا الآن، لظننتُ أنه هو. إنه يشبهه شبهاً عظيماً! هل تريد أن تقول له شيئاً؟

- ماذا تريد أن أقول له؟

قال موريتز:

- أي شيء. إنه يشبه جوزيف تماماً. إنني لا أعرف الفرنسية. لكنني أودّ لو أقول لهم شيئاً. قل لهم: مرحباً، وَعَوْداً طيباً إلى فرنسا!

كان إيوهان موريتز، لا يستطيع أن يقابل فرنسياً. دون أن يقول له شيئاً، أو أن يبتسم ابتسامة ودية.

قال موريتز:

- هه! إنه قريب جداً منا. قل له شيئاً إذا أردت!

لبث تريان كوروغا صامتاً، غير أن إيوهان موريتز لم يستطع تمالك نفسه فهتف بالألمانية:

- عوداً سعيداً إلى فرنسا!

Twitter: @ketab_n

نطق جملته بوداعة وكان وجهه طافحاً بالبِشر والسرور لأنه استطاع أن يخاطب فرنسياً، ولأنه يحب الفرنسيين.

توقف أفراد الجماعة المحتشدة عن الكلام فجأة، وتسمّروا في أمكنتهم، ورفعوا عيونهم إلى النافذة التي وقف وراءها إيوهان موريتز.

سمع تريان كوروغا الرجل الذي يشبه جوزيف يتساءل بالفرنسية:

- ماذا يريد منا، هذا الخنزير النازي؟

راح الرجال والنساء الواقفون على الرصيف يحدجون إيوهان موريتز الذي كان يبتسم لهم من وراء قضبان النافذة الحديد، ابتسامة رقيقة ودية.

- لعل الخنزير النازي يريد «سيجارة»!

وضع الشاب الذي يشبه جوزيف يده في جيبه. غير أنّ حركته توقفت فجأة. ذلك أن واحداً بجانبه انحنى على الأرض، وأخذ حجراً وألقاه بعنف على النافذة التي كان إيوهان موريتز واقفاً وراءها، وهو لا يزال يبتسم. فمرَّ الحجر بين القضبان وسقط وسط العربة، بعد أن أصاب أحد السجناء.

وهتف الرجل الساخط:

- إليك لفافتك! لقد أمضيت ثلاثة أعوام في ألمانيا بسببك!

اصطدم الحجر الثاني بجانب العربة، ثم أعقبه الثالث. وتتابع مطر من الحجارة، يهطل على العربة. فتمدَّد السجناء داخل العربة على أرضها، وهم يتباعدون على قدر المستطاع عن النافذة. كانت الحجارة تتساقط كالبرد، والشتائم والصرخات تدوي وكأن هجوماً مركزاً كان موجهاً ضد تلك العربة.

كانت صيحات نساء ورجال وأطفال وثائرين. صرخات

Twitter: @ketab_n

بالفرنسية، والإيطالية، والروسية، والفلمانكية، والنروجية، والدنماركية. صرخات بكلّ لغات العالم. وكان ذلك السباب يتدفق معرِباً عن حقد واحد متفجر. وكانت الكلمة التي تعقب كلّ حجر يلقى واحدة في كل اللغات: خنزير نازي، مجرم نازي، سفاح نازي نازي نازي نازي...

كان كلّ ركاب ذلك القطار من «الأشخاص المنقولين»، وقد هبطوا من العربات وانضموا إلى الآخرين ليلقوا بالحجارة على قطار السجناء.

وتدخل الحراس ورجال الشرطة العسكرية لإعادة النظام، ولكن الهجوم ازداد ضراوة، فاستحالت تهدئة الخواطر، وأصبح يزداد خطورة بعد كل فترة، ممّا اضطر رجال الشرطة إلى إطلاق الرصاص إرهاباً. فدوت زمجرة ثائرة موحَّدة من كلّ صدور العبيد المحررين ضد رجال الشرطة الذين يحمون النازيين من التمزيق.

لبث إيوهان موريتز في خلال هذا الهجوم واقفاً وراء النافذة، حتى بعد أن مرَّت الحجارة الأولى قرب رأسه. لم يتحرك من مكانه، ولم يكفّ عن الابتسام حتى في أشدّ لحظات الهجوم خطورة. لم يكن يفهم سبباً لتلك الثورة، ولو أنه فهم السبب، لما صدَّق لحظة واحدة أن الفرنسي الذي يشبه جوزيف يمكن أن يرميه بحجر بقصد تحطيم وجهه.

وبينما كان إيوهان موريتز يتأمَّل ذلك المشهد، وقد اتَّسعت حدقتاه، ويرى الجمهور الغفير يقذفه بالحجارة، أطبق سجناء العربة على ساقيه، وانتزعوه من أمام النافذة، وألقوه أرضاً. كان كل واحد منهم يريد ضربه. وكلّ الأيدي تسعى للنيل منه، وتتعلق به لتمزِّق جسده وتقطِّعه إرباً إرباً.

وطئت مئات الأقدام جسد إيوهان موريتز، وسحقته بحقد

Twitter: @ketab_n

وضغينة ويأس ووحشية، بينما لبثت الحجارة تتساقط كالبرد فوق رؤوسهم.

لم يكن السجناء ليغفروا له أنه تسبَّب في إثارة الحقد الدفين من عقاله، واستهدافهم لهجوم العبيد المحررين الذين كانوا على الرصيف. كانوا يريدون تمزيق جسده!

لم يكن موريتز محاطاً بمخلوقات بشرية، بل بكتلة من الرجال تشبه وحش التلمود ذي الألف ساق تسحق جسده ولحمه الساخن الحي.

وخارج العربة كانت تلك الكتلة بالذات، وحش التلمود ذي الألف ذراع، تلقي بالحجارة عليه!

راح دم إيوهان موريتز ينبعث من فمه وأنفه.

شعر إيوهان موريتز بدنوّ الموت منه. فلمّا استأنس بتلك الفكرة لم يعُد يحسّ بالأحذية التي تسحقه، والقبضات التي تضربه. لم يعُد يشعر بأيّ ألم. كانت نهاية الآلام تقترب. فكّر في الكاهن كوروغا، وفي كنيسة فانتانا و«أيقونة» العذراء. كان السلام يخيِّم على جسده وروحه. كان يسمع الضربات تكاد تحطّم أطراف العربة وجدرانها، وكان يعرف أنّ تلك الضربات كانت موجَّهة إليه وإليه وحده!

كانوا كلهم يريدون سحقه. كلهم يتوقون إلى موت إيوهان موريتز. لقد فهم الآن كل شيء. كان يحسّ بأن العالم لن يكون عالماً، وأنه لن يكون فيه أي «تقدّم» طالما لبث «هو» على قيد الحياة.

لقد كان مسؤولاً عن كلّ الإثم الذي يغطي سطح الأرض؛ كان هو إيوهان موريتز المسؤول الوحيد، والمذنب الأوحد. ولهذا السبب يتهافت هؤلاء الناس على قتله؛ ولهذا السبب يطأونه بالأقدام فيضربه السجناء، ويرجمه السجناء السابقون! نعم هذا هو السبب

Twitter: @ketab_n

الذي من أجله أوقفه الجنود. إنّ الجمهور الغاضب لن يهدأ طالما بقي - هو - على قيد الحياة. إن الشرطة العسكرية لن تستطيع تهدئة هؤلاء السجناء المحررين قبل أن يموت - هو - إيوهان موريتز، وكذلك سجناء العربة لن يهدأ لهم بال قبل موته. إنّ الجنود المسلّحين بالرشاشات والمصفّحات لن يستطيعوا الوصول إليه، وبلوغ هذا الجانب من المحيط المتلاطم إلّا بعد أن يكون إيوهان موريتز قد مزق أشلاء!

كان يجب أن يموت، لأنه كان الإنسان! ولا يمكن أن يغفر له. تساءل في شبه غيبوبة: «وما هو ذنبي يا ربي؟ إنني أحب الفرنسيين. ولقد أردتُ أن أقول لهم كلمة طيبة تعرب عن صداقتي. ولهذا السبب يقتلونني، لقد قتلوا «يسوع» كذلك لأنه كان يحب البشر!».

تذكر موريتز أقوال تريان كوروغا:

«سنتسلق الغولغوثا في القاطرة، سنتسلق «غولغوتتنا» الآلية المتحركة».

شعر إيوهان موريتز وكأنه معلقاً على الصليب، وأحسّ بالظلام ينسدل فلم يرَ إلا الظلام، الظلام الظلام الحالك...

- 131 -

استيقظ إيوهان موريتز بعد إغماءة طويلة، فأحسّ بالأضمدة تحيط برأسه وصدره. كان رأسه مستنداً إلى كتف تريان كوروغا. كان موريتز يشعر بأنّ وجنته تلامس بشرة أخرى غير محجوبة بشيء. كانت هي كتف تريان العارية الذي فَقَدَ قميصه!

ودّ لو سأل تريان عن سبب خلعه قميصه، لكن قواه خانته. إنَّ إيوهان موريتز:

Twitter: @ketab_n

- عطشان!

تظاهر تريان كوروغا بأنه لم يسمع شيئاً. فكّر موريتز:

- عطشان!

كان موريتز منذ ساعات مستلقياً بين ذراعي تريان دون أن يشعر.

وكان تريان قد ضمَّد جراحه في أثناء ذلك الوقت، بعد أن مزَّق قميصه ووجد مكاناً مناسباً مدّده فيه.

صمت إيوهان موريتز. فوضع تريان يده على صدره يتحسَّس ضربات قلبه الضعيفة. فكان أحياناً يسحب يده ويستبدلها بأذنه فيلصقها بالضمادة ويصغي لأنّ قلب إيوهان موريتز كان يخفت وجيبه أحياناً، حتى ليتعذر على يد تريان تحسّس النبضات. فلمّا وضع أذنه لم يسمع بوادر الحياة في ذلك القلب الضعيف إلّا بصعوبة.

وها إن إيوهان موريتز يتكلم الآن!

شعر تريان كوروغا بالسرور، وكأنه عاد من مكان سحيق بنفسه!

غير أن إيوهان موريتز كان يريد أن يشرب. لقد كان يطلب الماء كما فعل يسوع على صليبه من قبل. ولم يكن في العربة ماء.

لقد انقضت عشرون ساعة على المساجين في تلك العربة، لم يتذوقوا خلالها طعاماً ولا شراباً ولم يسمح لهم أثناءها أن يخرجوا منها لإزالة ضروراتهم. كان جوّ العربة مشبعاً برائحة البول والسلاّح النتنة، والهواء فيها ثقيل كريه.

كانت أرض العربة مبللة بفضلات مثانات السجناء. فكان موريتز مستلقياً على تلك السوائل دون أن يحسّ بها، لأنه لم يكن يشعر بشيء. لم يكن قد فتح عينيه حتى تلك اللحظة، بل إنه باعد بين شفتيه فقط ليقول:

- عطشان!

Twitter: @ketab_n

قال تريان كوروغا:

- آسف، ولكن ليس في العربة ماء، وليس فيها ما يشرب.

كان يتساءل عمّا يمكنه أن يقدِّم إلى موريتز ليبلِّل شفتيه. لم يكن في العربة ما يشرب. تذكر تريان أنه قرأ ذات مرة أن جنود جنكيز خان كانوا عندما يجتازون الهضاب والقفار دون أن يجدوا ماء يشربونه، أو طعاماً يأكلونه، ينزلون عن صهوات جيادهم، فيفصدون بخناجرهم شرياناً من شرايين الحصان - عرق الحافر - ويمتصون الدم. ثم يضمدون الجرح ويسيرون إلى الأمام. وهكذا كان جنود جنكيز خان، لا يأكلون ولا يشربون شيئاً طيلة أيام وأسابيع إلّا تلك القطرات من الدم الحار.

وسوس هذا الخاطر في نفس تريان فأراد أن يمنح موريتز قطرات من دمه ليروي عطشه. ولعلّ الدم يفيده!

قال إيوهان موريتز بصوت ضارع:

- عطشان!

فأجابه تريان:

- يا عزيزي موريتز، ليس هنا ما يُشرب. إنّ السائل الوحيد الذي أستطيع إيجاده والذي أقدّمه لك بسرور هو قطرات من دمي، من دمي الشخصي. ولكن لا ينبغي لك أن تشرب دماً. إن الرجل الذي يشرب الدم شيطان مريد، له وجه إنسان، ولكنه ليس إنساناً. إنه آلة، إنه الشيطان، إنه الجمهور، إنه يشبه الإنسان بكلِّيته ما عدا الروح!

تمتم إيوهان موريتز:

- عطشان!

فقال تريان:

- إنني أصدقك! مع ذلك لا ينبغي لك أن تشرب دماً. وليس

Twitter: @ketab_n

لديّ ما أقدّمه لك غير ذلك. إنك الرجل الوحيد، بين كل المحيطين بي، الذي لم تشرب بعد دماً بشرياً. هل تسمعني؟ لقد ولغ الآخرون جميعاً في الدم، وهم الآن كالعفاريت. إنهم ليسوا بشراً. لم يبقَ بين كل هؤلاء السجناء، وكل الحراس، وكل السجناء المحررين، رجلاً واحداً يمكن أن يكون إنساناً. لم يبقَ سواك إنساناً، لأنك ما زلت تحبّ البشر.

- عطشان!

- أصدقك! إنني أعرف ذلك، وأعرف أنك قد تموت إذا لم تشرب. ولكن من الخير لك أن تموت عن أن تصبح مثلهم. لا ينبغي لك أن تشرب دماً بشرياً. هل تفهم ما أقول لك؟

عاد إيوهان موريتز يتمتم من جديد:

- عطشان!

- 132 -

عرض حال من إيوهان موريتز:

أنا الموقع ذيلاً، إيوهان موريتز، من قرية فانتانا في رومانيا، أرسل هذه الشكوى إلى حكام هذا البلد الذي أنا فيه سائلاً إياهم السبب الذي من أجله يحتفظون بي سجيناً، ويعذّبونني كما لم يعذَّب من قَبل إلا المسيح على الصليب.

وإنني إذا كنت لم ألقِ عليكم هذا السؤال من قبل - كما كان يجب أن أفعل - فذلك لأنني صبورٌ بطبعي. إنني حرّاث، والزُرَّاع يعرفون كيف ينتظرون!

لقد انتظرت إذن ربيعاً، وانتظرت صيفاً كاملاً، وشتاء طويلاً.

Twitter: @ketab_n

والآن عاد الربيع من جديد، ولم يعُد لي إلا الجلد والعظام. إنّ روحي قاتمة شديدة الحلكة من الألم والغم، سوداء كالفحم والحبر.

إنني لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك. ولهذا السبب أسألكم: لِمَ تحتفظون بي سجيناً؟

إنني لم أسرق، ولم أقتل، ولم أخدع إنساناً قط، ولم أرتكب ما يعاقبني عليه القانون وتحرِّمه الكنيسة.

فإذا كنت لم أُجرم ولم أُسرق، ولم أسئ إلى أحد، فلِمَ تبقونني سجيناً؟

لقد سجنتموني وعذبتموني، حتى غدوتُ مجرّد ظلّ على الأرض.

لقد سجنت في أربعة عشر معسكراً، وأعتقد أنه قد آنَ الوقت لأسألكم عمّا لديكم ضدي؟

إن أصعب الأمور عندي هو العزم. ولكنني عزمت الآن.

إنني أرسل هذا المعروض بالبريد إلى حكام هذا البلد. وأرسله كذلك بواسطة الحارس الذي يسهر على باب السجن. ولسوف يصل معروضي إلى الحاكمين، حتى ولو طاف من أجل ذلك حول العالم. يجب على الحاكمين الإصغاء إلى شكواي ولو كان في آذانهم وقر!

سوف ألصق معروضي على أبواب السجن، وألقيه ملفوفاً في حجر إلى الشارع. وأطلقه، لتحمله عبر الكرة الأرضية.

إنني لن أتوقف بعد الآن عن الصراخ، حتى تأخذ العدالة مجراها. لعلكم ستسجنونني في القبو، لتمنعونني من إسماع صوتي إلى الآخرين. ولكن أينما كنت، وأينما حللت، لن أتوقف عن الصراخ. وإذا لم يكن لدي قلم أكتب به، أو ورق أسطر عليه، فسأكتب بأظافري على جدار سجني. فإذا تلفت أظافري ودميت أصابعي تريّثت حتى تبرأ وتنبت أظافري لأكتب من جديد.

Twitter: @ketab_n

وإذا أعدمتموني بالرصاص، فلن أذهب إلى الجحيم، ولا إلى الجنة، ولا إلى المطهر، بل ستبقى روحي هائمة على الأرض، تلاحقكم دون هوادة.

سوف تراودكم كالطيف؛ سأقلق مضاجعكم، وأقضّها مائة مرة كل ليلة، وأحرم عشيقاتكم من النوم، لأصرخ قائلاً: إنني على صواب.

ولن تستطيعوا إغماض أعينكم حتى نهاية أيامكم، ولن تستطيعوا الإصغاء إلى الموسيقى والاستماع لكلمات الحب، لن يمكنكم الاستماع إلى شيء. ستدوي كلماتي وحدها في آذانكم، كلماتي أنا، إيوهان موريتز.

إنني إنسان، فإذا كنت لم أسئ إلى أحد، فلا يحق لأحد أن يسجنني ويعذبني. إن حياتي وظلي ملكاً لي. ولا يحق لكم - مهما بلغت مصفّحاتكم ورشاشاتكم وطائراتكم ومعسكراتكم ونقودكم التي تملكونها - أن تمسّوا حياتي وظلي.

إنني لم أشتهِ طيلة عمري إلا شيئاً قليلاً: أن أستطيع العمل، وأجد المكان الذي آوي إليه مع زوجتي وأولادي، وأن يكون لدي ما أطعم!

فهل من أجل هذه الرغبة تسجنونني؟

لقد أرسل الرومانيون الدركي ليصادرني، كما تُصادر الأشياء والحيوانات. فاستسلمت لمصادرتهم. كانت يداي فارغتين، فما كنت أستطيع مقاومة الملك ولا الجندي المسلح بالبندقية والمسدسات. لقد زعموا أن اسمي إياكوب وليس إيون، كما عمَّدتني أمي. وسجنوني في معسكر لليهود تحيط به الأسلاك الشائكة، وأجبروني على الأعمال الشاقة كالحيوانات. لقد نمنا كالحيوانات مع كل القطيع، واضطررنا على الأكل مع كل القطيع،

Twitter: @ketab_n

وشرب الشاي مع كل القطيع. وكنت أنتظر أن أرسل إلى المسلخ مع كل القطيع. ولقد أرسل الآخرون إلى المسلخ، لكنني فرَرْت.

فهل من أجل ذلك تسجنونني؟ ألأنني هربت قبل أن أساق إلى المسلخ؟

وزعم الهنغاريون أن اسمي لم يكن إياكوب، بل إيون. فأوقفوني لأنني روماني. وعذبوني وضربوني، ثم باعوني إلى الألمان. وزعم هؤلاء أنني لم أكن أدعى لا إياكوب، ولا إيون، بل إيانوس. وعذّبوني من جديد لأنني هنغاري. ثم جاء زعيم وقال إن اسمي ليس إياكوب، ولا إيانكل، بل إيوهان، ثم بعثني جندياً. لقد قاسَ رأسي بادئ الأمر، ثم عدَّ أسناني، ووضع دمي في أنابيب من زجاج. كلّ ذلك ليبرهن على أن لي اسماً غير ذلك الذي عمَّدتني به أمي. فهل من أجل هذا تسجنونني؟

لقد ساعدتُ - بصفتي جندياً - خمسة من السجناء الفرنسيين على الفرار.

فهل من أجل هذا تسجنونني؟

عندما وضَعَت الحرب أوزارها، ظننتُ أنني أنا الآخر سأحظى بقسط من حقي في السلام. فجاء الأميركيون وأعطوني «شوكولاتة» وأغذية من عندهم، كما يعطون الأمراء!

ثم سجنوني دون أن يتفوّهوا بكلمة. لقد أرسلوني إلى أربعة عشر معسكراً، كما يُرسَل أخطر مجرم حملته الأرض.

والآن أريد، أنا الآخر، أن أعرف: لماذا؟

هل لا يعجبكم اسمي: إيانوس، أو إيون، أو إيوهان، أو إياكوب، أو إيانكل؟ هل تريدون أنتم أيضاً تبديل اسمي؟ بدِّلوه. إنني أعرف الآن أن بني الإنسان لم يعُدْ يحق لهم حمل الأسماء التي تطلق عليهم ساعة العماد. لكنني أريد أن أبلغكم شيئاً: إنني لن

Twitter: @ketab_n

أستطيع بعد الآن صبراً. أريد أن أعرف السبب الذي من أجله أسجن وأعذب.

إنني أنتظر جوابكم وأحييكم باحترام.

موريتز إيون، إيوهان - إياكوب - إيانكل - إيانوس، حَرّاث ورب عائلة.

سأل تريان كوروغا، بعد أن انتهى من كتابة الشكوى:

- لِمَ تبكي، يا موريتز؟

- لستُ أبكي.

- إنني أرى دموعاً في عينيك. لِمَ تبكي؟

- لست أدري السبب.

سأل تريان كوروغا:

- هل تخاف نتائج إرسال هذا المعروض؟ أليس ما جاء فيه صحيحاً؟

فأجاب موريتز:

- لستُ أخشى شيئاً. إنّ كلّ ما جاء في هذا المعروض صحيح.

- لِمَ تبكي إذن؟

فقال موريتز:

- إنني أبكي لأنه صحيح. لأنه يتفجر بالحقيقة!

- 133 -

بعد ثلاثة أيام من إرسال المعروض، استدعي إيوهان موريتز للاستجواب. فأعاره تريان كوروغا قميصه وسرواله.

قال تريان.

Twitter: @ketab_n

- لقد انتصرنا. لقد أحدث المعروض الأثر المرجو!

كانت عينا إيوهان موريتز تلتمعان. كان يرى نفسه حراً طليقاً منذ تلك اللحظة.

قال:

- لقد انتصرنا. إنني مدينٌ لك بذلك. لقد كان كل ما كتبته في المعروض يصرخ بالحقيقة!

فقال تريان:

- لا تخف، ينبغي أن يشعروا هم بالخوف، لأنهم هم المذنبون.

ومضى موريتز إلى الاستجواب باسماً.

عاد موريتز عند الظهيرة، وكان تريان ينتظره أمام الباب.

- كيف كان الاستجواب؟ هل وعدوا بإطلاق سراحك؟

لبث موريتز مطرقاً. كان من عادته أن يتخذ هيئة غامضة كلما وُجِّه إليه سؤال. قال:

سأقصّ عليك النبأ فيما بعد. لا أستطيع التحدّث الآن.

- هل جننت؟ لقد مكثتُ هنا ساعات، بانتظار أوبتك، فتقول لي: إنك ستحدِّثني عن النتيجة بعد حين؟

كان إيوهان موريتز قد جمع أعقاب السجائر من المكتب، فأخرجها من جيبه وراح يمزِّق الورق الرقيق المحيط بها ببطء وتؤدة. ثم قسّم التبغ إلى قسمين متساويين، أحدهما له والآخر لتريان. ثم راح يلف «سيجارة» مستعملاً ورق الصحف.

- قال موريتز:

- من الأفضل، يا سيدي تريان، ألا أحدِّثك بشيء.

- هل قالوا لك إنهم لن يخلوا سبيلَك؟

- كلا، لم يقولوا لي ذلك.

Twitter: @ketab_n

- هل وبّخوك وشتموك؟

قال موريتز، وهو مستغرق في عملية لف «السيجارة»:

- لم يشتموني.

- هل ضربوك إذن؟

- كلا!

سأل تريان بانفعال:

- لِمَ إذن لا تريد أن تكلمني؟ إنني أرى أنهم لم يسيئوا إليك.

فأشعل موريتز لفافته، وقال:

- كلا، لا شيء!

سأل تريان:

- هل لم يحِنْ دورك في الاستجواب؟ إن ذلك ليس مصيبة، سوف يستدعونك غداً.

- لقد حان دوري!

- هل استجوبوك؟

- نعم.

كان يبدو على إيوهان موريتز أنّ لسانه قد أصيب بالشلل، فكان ينبغي انتزاع الكلمات من فمه انتزاعاً، كلمة فكلمة. نفد صبر تريان، وهتف:

- قُصّ عليّ كل ما وقع. ابدأ من البداية.

فأجاب موريتز:

- لقد كنت أوّل من دخل المكتب، فلمّا دخلت أشار إليّ أن أجلس، وكان هناك مقعد أمام الطاولة.

فقال تريان:

- لكنها بداية طيبة. إنهم إذا دعوك إلى الجلوس، فذلك فألٌ

Twitter: @ketab_n

حسن. لقد تصفّحوا ولا شك إضبارتك، ووجدوا أنك بريء. إنني لا أعتقد بأنه يدعون كل الداخلين إلى الجلوس. استمر!

- إن الذي استجوبني كان برتبة نائب.

- هل كان مهذباً؟

- نعم.

- ماذا كان السؤال الأول؟

- لقد نظر بادئ الأمر إلى الأوراق، ثم سألني: «أهو أنت إيوهان موريتز؟» فأجبته: «نعم». فنظر إليّ ثم عاد يتصفح الأوراق، وأخيراً سألني: «كيف تكتب كلمة موريتز؟ أتكتبها بحرف «التاء» أم بحرف «الزي»؟ فقلت له بأنني أكتبها على الطريقتين، بالتاء إذا كتبت باللغة الرومانية، وبالزاي إذا كتبتها بالألمانية.

توقف إيوهان موريتز، ونظر بيأس إلى تريان كوروغا.

قال تريان بصبر نافد:

- استمرّ! لِمَ توقفت؟

- ثم قال النائب: «شكراً، يمكنك الانسحاب!».

- أهذا كل شيء؟

فقال موريتز:

سأله تريان:

- ألم تحاول أن تقول له شيئاً؟ لِمَ لم تروِ شيئاً ممّا لقنته لك؟

فأجاب موريتز:

- لقد حاولت، لكن النائب ما كان يريد الإصغاء إليّ. لقد قال دون أن ينظر إليّ: «دور التالي».

- وماذا قلت أنت؟

- لا شيء.

هتف تريان، وهو يضغط رأسه بين يديه:

Twitter: @ketab_n

- إنه غريب، سخيف! سخيف تماماً! ثم ذهبت بعد ذلك؟

- نعم، لقد خرجت.

- وهذا هو الاستجواب الذي انتظرناه طيلة عام كامل في السجن؟ ألا شيء غير هذا؟ ألم تنسَ شيئاً؟

أجاب موريتز يائساً:

- كلا لم يحدث غير هذا. لقد خرجت أنا، وبينما كنت أغلق الباب بيدي المرتجفة استُدْعِي الذي يليني. وكان اسمه: تومانس مانّ.

- ماذا سألوه؟

- لقد سُئِل عمّا إذا كان يكتب مان بالنون المشدَّدة، أم بمجرد حرف نون!

- ولا شيء غير ذلك؟

سالت الدموع على وجنتي إيوهان موريتز. دموع كبيرة كحبات اللؤلؤ. فقال تريان وهو يربت على كتفه:

- ينبغي أن تقنع يا عزيزي موريتز العجوز. بعد موت الأرانب البيضاء، لا يبقى من حلّ إلّا الاستسلام للمُقدَّر...

- 134 -

عرض حال رقم 5 - الموضوع: عدالة. (آلية الاستجوابات).

إنني على علم بأنكم تلقيتم تعليمات خاصة لاستجواب سجناء هذا المعسكر بصورة شخصية. وبالطبع، إنّ هذا الأمر لا يخلو من الغباء. إذ طالما أنّ الرجال كلهم قد أوقفوا جماعات، وبشكل إجمالي آلي، فإنّ من الحماقة استجوابهم فردياً.

Twitter: @ketab_n

مع ذلك أعتقد أني أستطيع التكهّن بسبب صدور هذا الأمر إليكم. إن حضارتكم تعرف كيف تعمد أحياناً إلى تصرّفات فضولية، فيها حب المعرفة، حيال تقاليد الوطنيين أبناء البلاد. إن هذا الأمر إذن ليس إلّا مجرد منّة، لمجرد الشكليات، إنه مجرد ملاطفة.

إن واحداً من ضباطكم مرغم على استجواب خمسمائة سجين في خلال فترة قبل الظهر ومثل هذا العدد بعد ظهر كل يوم. وقد لاحظت أنكم تطرحون سؤالاً واحداً على كل السجناء، كل بدوره. وأنكم لا تصغون إلى الجواب أو الأجوبة. إذ إنه من الغباء ولا شك أن تستمعوا إلى كل ما يريد أن يقوله كلّ شخص من أولئك الموقوفين لأنه لا يمكن أن يلمس المرء شيئاً مهماً من فم سجين!

لكنني أفكِّر في النشاط والحيوية التي تصرفونها في طرح هذه الأسئلة؛ وأشعر أنّ الضباط المكلَّفين بهذا الأمر يحسون مساء كلّ يوم بآلام هائلة في فكوكهم وشفاههم.

لذلك فإنني أقترح عليكم أن تعبئوا أسطوانات مشحونة بهذه الأسئلة. سيكون نظام استعمال هذه الأسطوانات كما يلي: يلبث الضابط المكلّف بالاستجواب الشخصي في مكتبه - وإنه يجب أن يكون هناك، لأن أسلوب الاستجواب الشخصي يستوجب وجوده - فيضع الأسطوانة على «الباك آب». فلمّا يدخل السجين إلى المكتب، تنطق الأسطوانة قائلة: «اجلس!» فيجلس السجين، وتستمر الأسطوانة بالدوران، فتطرح السؤال الأول ثم الثاني فالثالث، وأخيراً تعلن الأسطوانة: «أشكرك، يمكنك الانسحاب». فيقف السجين ويتجه نحو الباب، فلما يبلغه تكون الأسطوانة قد بلغت في دورتها عبارة: «إلى التالي». وهكذا تنحلّ عقدة الاستجواب ويدخل السجين التالي، وتعود الأسطوانة إلى إعادة أسئلتها المملَّة! وبهذا الأسلوب تستطيعون استجواب خمسمائة سجين بأسطوانة واحدة!

Twitter: @ketab_n

خلال هذا الوقت يكون الضابط المكلَّف بالاستجواب جالساً في مكتبه يقرأ رواية بوليسية. فإذا خرج ظهراً لتناول طعامه، فإنه يستطيع تناول وجبة الطعام بشكل طبيعي، دون أن يشعر في فكَّيه بألم المجهود الذي يبذله في الوقت الحاضر.

ينبغي النظر بعين الاعتبار إلى أنّ هذه الاستجوابات، وقد وُضعت خصيصاً لطرح الأسئلة فقط، دون الإصغاء إلى أجوبة المستجوَبين. لذلك فإن الآلة تستطيع القيام بهذا العمل. إن المنطق سديد، إذ ينبغي احترام الآداب المألوفة، لكن إجهاد أولئك الذين يشرفون على تنفيذها يُعتبر عديم النفع والجدوى. إن العدالة بهذا الأسلوب الجديد، تربح طريقة جديدة. لأن العدالة في مجتمع متمدين ينبغي أن تَحُقّ بشكل آلي. فليس من الضروري إذن التصرف وفق الأساليب المتَّبعة قبل اختراع الكهرباء. إذ ما فائدة كلّ هذه المخترعات الفنية إذا لم تستعمل العدالة منها، حتى ولا «الباك آب»؟

الشاهد

- 135 -

دارمستادت: معسكر الاعتقال الخامس عشر. معسكر يشبه كلّ المعسكرات السابقة لكنه يمتاز عنها بأن فيه كنيسة أرثوذكسية، كنيسة صغيرة أقيمت بالوسائل المحلية.

رفع تريان كوروغا وإيوهان موريتز قلنسوتيهما ودخلا إلى الكنيسة.

كانت تلك الكنيسة مُقامة تحت خيمة وفي صدرها مذبح. أما «الأيقونات»، فقد كانت مرسومة على قطع من الورق المقوى، بالفحم والحَكَك الملون.

Twitter: @ketab_n

لم يكن للكنيسة أرضية من خشب، فقد أقيمت الخيمة على أرض عادية.

كان المطر قد انهمر في أثناء الليل، فتجمّعت المياه تحت الخيمة، وحوّلت الأرض إلى وُحول.

وكان في وسط الكنيسة صليب كبير، يضاهي ارتفاعه قامة الرجل. ركع تريان أمام قدمي الصليب. كان يسوع مصنوعاً من الورق المقوى. وكانت الأشواك التي في إكليله مصنوعة من علب الأطعمة المحفوظة التي قطعت قدداً صغيرة.

رفع تريان كوروغا عينيه إلى جراح المسيح التي سبَّبتها المسامير المغروسة في يديه، والحراب في أضلعه. وجد أن الرسام لم يجد لوناً أحمر ليرسم بها الدماء، فألصق في الأمكنة التي يجب أن تكون فيها الجراح أوراقاً حمراء، أخذها من أغلفة سجائر «اللوكي - سترايك». فكانت الأحرف السوداء التي وسط الدائرة الحمراء لا تزال مقروءة، لإخفاق الرسام في محوها.

قال تريان:

- إنني لم أرك أبداً مصلوباً على هذا الشكل الأليم، يا يسوع! كنت مزمعاً على الابتهال من أجل جروحي حينما جئت، لكنني أشعر الآن بعجزي عن الابتهال من أجلها. اصفحْ عني يا يسوع، إذا كنت أصلي أولاً، من أجل جراحك من اللوكي سترايك التي تغطي فخذيك وقدميك وراحتيك. إنها جراحٌ أشدّ إيلاماً من جراح الدم واللحم. اسمح لي أولاً أن أصلي من أجل أشواك علب الأطعمة المحفوظة، المغروسة في الإكليل الذي يحيط برأسك.

راحت عينا تريان تتنقلان على جسد المسيح، فاكتشفتا على صدر المخلِّص حرف (M) مطبوعاً بحبر الطباعة. كان ذلك الحرف،

Twitter: @ketab_n

مطبوعاً عادة على علب الأطعمة الموحَّدة التي استعمل ورقها المقوّى لإقامة الجسد المصلوب.

وقف تريان وقبّل قدمي المسيح:

- أشعر الآن أنني «تناولت» من جسدك يا يسوع، يا مولاي. «إنّ «طعامنا» الأبدي من الآمال يا مولاي، أنت يا «طعامي الموحّد». إنني لم أفهم أبداً أكثر مما فهمت الآن، بأن جسدك هو طعامنا. كيف اهتدى الرسام السجين إلى فكرة صنع صورتك من ورق العلب التي تُعبأ بالأطعمة الموحَّدة؟ إنك ترمز الآن إلى كلّ تعطشي إلى الروح والخبز والحرية».

كان تريان في حالة من الاستغراق والتمجيد فلم يعُد يرى بشراً حوله.

كان إيوهان موريتز يفحص الملائكة المصنوعين من الورق المصقول المأخوذ من علب السجائر، وأيقونات العذراء، ذات القلائد المصنوعة من أغطية العلب المذهَّبة التي تغطي عادة علب الحلوى.

رسم موريتز إشارة الصليب على صدره أمام أيقونة القديس نيكولا، الذي يشبه الكاهن كوروغا، وركع بجانب تريان، وراح ينظر إلى جراح المسيح الحمراء.

قال تريان:

- مولاي إنني لا أطلب إليك إبعاد هذا الكأس عن شفتي لأنني أعرف أن إبعادها مستحيل. لكنني أبتهل إليك أن تساعدني على شرب هذه الكأس. إنني أنظر إليها منذ عام، وأحتفظ بها على مقربة من شفتي. إنني، منذ عام، أقفُ على حدود الحياة والموت. منذ عام، وأنا على أطراف الحياة والحلم. لقد خرجت من نطاق الزمن، ومع ذلك ما زلت أعيش. لقد تبدّدت الحياة من جسدي عن طريق

Twitter: @ketab_n

كلّ المسامات ومع ذلك فإنني ما زلت على قيد الحياة أتنفس وأجرّ نفسي وأدخل في جسدي خبزاً وماءً، لست أرغب فيهما. إنّ كل هذه الآلام منشؤها عدم معرفتي، هل أنا سجين أم متمتّع بحريتي!

«إنني أرى نفسي سجيناً، ومع ذلك لا أتوصل إلى التصديق أنني في السجن.

«إني أرى أنني لست حراً طليقاً، ومع ذلك فإن عقلي يحدّثني بأنه ليس هناك من موجب يستدعي ابتعادي عن الحرية. إن العذاب الذي يُحدِثه عدم الفهم هذا أكثر إيلاماً وشدّة من العبودية. إنّ الرجال الذين سجنوني هنا لا يمقتونني، ولا يريدون معاقبتي، ولا يطلبون موتي.

«إنهم يريدون إنقاذ العالم فقط!

«مع ذلك، فإنهم يعذبونني ويقتلونني تدريجياً . . . إنهم يعذبون ويقتلون الإنسانية كلها. إنني لست الوحيد الذي أتألم، وأنا أعرف ذلك.

«إن أولئك الذين يديرون العالم راحوا ينشئون مستشفيات هائلة، لإبراء جراح البشر، لكن لا تُقام مستشفيات تحت موالجهم، بل سجون.

«إنّ كل شيء يحدث كما لو كانوا منذرين.

«إن تفكيري لا يستوعب شيئاً.

«ولهذا السبب، أريد أن أموت، فساعدني يا مولاي على أن أموت.

«إن قواي لم تعُد تَحتمل هذا العذاب.

«إن الساعة التي أنصف نفسي خلالها لا تخصّ الحياة. إنني عاجز عن المرور بثقلي من اللحم والدم بينها. إنها الساعة الخامسة والعشرون، الساعة التي يكون فيها الإنقاذ قد فات أوانه وفات

Twitter: @ketab_n

الوقت كذلك للموت فيها. كما أن العيش يصبح كذلك عديم الجدوى، لأنه يكون بعد فوات الأوان. إن الأوان يكون قد فات، فلن تصلح هذه الساعة لأي شيء.

«اجعلني قطعة من الحجر يا مولاي، ولكن لا تتركني للحياة!

«إنك إذا تركتني وهجرتني فإنني لن أستطيع الموت. انظر إلى جسدي وعقلي. إنهما كلاهما ينبئان بالموت. لكنني أنا ما زلت على قيد الحياة. إن العالم قد مات مع ذلك، فإنه ما زال يعيش. إنني لست شبحاً ولا مخلوقاً حياً».

ضغط تريان كوروغا رأسه بين يديه، فلمس إيوهان موريتز كتفيه بلطف كمن يريد ملاطفته، لكن تريان لم يكن يشعر بشيء.

دخل الكاهن إلى الكنيسة. كان يرتدي ملابس الأميركيين العسكرية وقد طبعت عليها الأحرف «س. ح» (سجين حرب)، كبقية ملابس المساجين.

استقبله إيوهان موريتز وقبَّل يده.

بينما لبث تريان كوروغا جاثياً على ركبتيه.

طلب الكاهن إلى موريتز إعلامه عن جنسيته وجنسية زميله. فلمّا علم بأن زوجة تريان سجينة كذلك، عقد ذراعيه على صدره، وصلّى من أجلها، ثم منح تريان بركته، وكان هذا لا يزال جاثياً أمام الصليب، لا يشعر بدنو أحد.

قال الكاهن: إنني المطران «يالاد» من فارسوفيا. إن جميع الكهنة التابعين لي مسجونون في هذا المعسكر. لقد أوقفنا جميعاً. إن الحفلات الدينية التي نقيمها جميلة جداً، فتعاليا، إننا نقيم الصلاة كل يوم في الساعة السادسة. إن لدينا كاهناً رومانياً يرتّل الصلوات. إنه الآن في المستشفى.

Twitter: @ketab_n

راح إيوهان موريتز يحدِّق في وجه المطران، فقال هذا:
- سأرسل إليه كلمة إلى المستشفى. إنه عندما يعلم أنّ في المعسكر رومانيين، سيحضر لإعطائكم بركته...

- 136 -

بدأ مجمع من الكهنة يقيمون الشعائر، حوالى الساعة السادسة مساءً. كانوا مُرتَدِين «بطارشهم» فوق ثيابهم العسكرية الخاصة بالسجناء.

كان تريان كوروغا وإيوهان موريتز بجانب بعضهما. وكان المطران مرتدياً حلَّته، يضع تاجه على رأسه. وُبالطبع كان التاج محروماً من الأحجار الكريمة، التي جرت العادة على وجودها.

كان صوت المطران جميلاً عذباً كلحن الكمان الكبير.

اقترب تريان من المذبح. لكنه ما إن وصل قرب الصليب، حتى انهار على الأرض. ظنّ موريتز أنّ قدم تريان قد زلَّت فسقط، لذلك هرع إليه ليُنهضه. غير أن جسد تريان كان لدناً. كما لو كانت عظامه كلها قد اضمحلّت. وكانت وجنتاه ممتقعتين، وكأنهما من الشمع.

لم يكن في خيمة الكنيسة إلّا القساوسة. فرفع إيوهان موريتز عينيه يطلب العون. ولكنه في تلك اللحظة بالذات فهم السبب الذي من أجله انهار تريان كتلة واحدة على الأرض. تمتم: «الأب كوروغا!» ثم ارتمى على ركبتيه أمام القس! كان يبدو كمَن يحاول تقبيل ركبتي الكاهن. غير أنّ القس كوروغا لم يكن يملك ساقيه. اقترب منهما معتمداً على عكازيه.

لبث تريان كوروغا وإيوهان موريتز جامدين.

كان شعر القس كوروغا قد ازداد بياضاً. وكان يبسم، وعلى

Twitter: @ketab_n

شفتيه علائم طيبة عميقة، وفي أمارات وجهه دلائل السعادة. كان الناظر إلى بسمته وعينيه يخيَّل إليه أنه يرى السماء خلالهما! . . .

هتف الكاهن كوروغا:

- تريان، ولدي الحبيب!

لما حاول الانحناء سقط أحد عكازيه، لكن الكاهن لم يسقط، بل لبث واقفاً معتمداً على عكاز واحد.

ثم ترك العكاز الثاني يسقط من يديه، ولبث واقفاً أمام تريان، منتصباً كالسهم على ما تبقى له من سيقان. لقد أسقط عكازيه ليتسنى له عناق ولده بيديه الاثنتين.

التقط إيوهان موريتز العكازين وأبقاهما في يده، ووقف قرب الكاهن كوروغا وولده تريان.

- 137 -

أصبح الكاهن كوروغا الآن وإيوهان موريتز وتريان كوروغا يأوون إلى خيمة واحدة، في معسكر دارستادت.

سمح أخيراً للسجناء بتلقي الرسائل والجواب عليها، بعد عام كامل من الانتظار والصبر.

كان إيوهان موريتز أوّل مَن تلقى رسالة. كانت من أم هيلدا. وكان فيها ما يلي:

«عزيزي هانز

«لقد احترق منزلك في 9 مايو 1945. إنني أعرف أنك لست على علم بالأمر. لقد اشتعلت النار فيه بعد ظهر اليوم الذي دخلت فيه القطعات الروسية مدينتنا. كانت هيلدا وولدك فرانتز في المنزل. لكنني لم أعرف في خلال الأسابيع الأولى أنهما احترقا معه، وهما

Twitter: @ketab_n

على قيد الحياة. بَيْد أنني بينما كنت أبحث بين الأنقاض ذات يوم، علني أعثر على شيء يمكن الإفادة منه بعدما عثرت على جثتيهما محترقتين. لقد ماتت هيلدا وهي تضم الطفل بين ذراعيها. لست أدري لِمَ لم تفرّ لمّا اشتعلت النار في البيت. يخيَّل إليّ أنها كانت نائمة، لكنني لا أعتقد بأن هيلدا كانت نائمة في تلك الساعة، خصوصاً في اليوم الذي دخل فيه الروس المدينة. لقد هرب الناس كلهم، وخصوصاً النساء في ذلك اليوم. ولم يكن من عادة هيلدا النوم بعد الظهر، وأنت تعرف ذلك. كانت عند عودتها من المستشفى ظهراً تمارس عملها المنزلي مباشرة.

«لقد جمعتُ عظام هيلدا وولدك المحترقة، ووضعتها في تابوت واحد ودفنتهما في مقبرتنا. إنني لم أتمكن من صنع تابوتين، لأنّ الثمن مرتفع جداً، ولأن أحداً لا يوافق على صنع التوابيت. فليس هناك ما يلزم من الخشب، والمسامير مرتفعة الثمن. وقد اضطررت إلى انتزاع المسامير من الجدران ومن اللوحات، وإعطائها إلى النجار ليصنع تابوتاً لهيلدا، بل إنه رغم هذه التسهيلات رفض صنعه، زاعماً أنّ المسامير كانت دقيقة وقصيرة لا تصلح للتوابيت. فاضطررت إلى إعطائه إحدى قبعاتك لأقنعه. فأرجو أن لا يُغضبك أن أكون تصرفت بقبعتك دون أن أسألك الرأي، لأنه لولا تلك القبعة لما وافق النجار على صنع التابوت، ولأنني كنت مضطرة إلى دفن عظامهما، رغم أن الناس في هذه الأيام أصبحوا يدفنون موتاهم دون توابيت. لقد لبثت العظام حتى الأسبوع الأخير في البيت. وقد صنعتُ صليباً من الخشب، لكنك عند عودتك ستأمر بصنع واحد من الحجر. إن كل صلبان قبور عائلتنا مصنوعة من الحجر وجميلة.

«لقد وجدوا بين الأنقاض جثة ضابط محترقة تماماً. لعلّه ضابط، طلب القَرى أو أراد إبدال ثوبه العسكري بثوب مدني، لأنّ

Twitter: @ketab_n

كل العسكريين نهجوا على هذا النحو، وارتدوا ثياباً مدنية عندما وصل الروس، لكن حافظته الجلدية لم تحترق كلها. وقد عثرت فيها على أوراقه. إن اسمه إيورغو إيوردان، وهو روماني مثلك. لقد كتبتُ لك هذه التفصيلات ظناً مني أن الرجل قد يكون من أقربائك، وأنه قد جاء ليراك».

- 138 -

قال الكاهن ألكسندر وكوروغا:

- لعلّ من الخير أن باتت النتيجة على هذا النحو!

كان واضعاً يده على كتف إيوهان موريتز، يحاول تغريته. استطرد:

- تصور أنّ هيلدا ما زالت على قيد الحياة، وأنهم أطلقوا سراحك يوماً، فإلى أي زوجة من زوجتك كنت ستذهب؟ إن أحداً ما كان يستطيع المفاضلة بينهما، أو الانتقاء!

قال إيوهان موريتز:

- إن سوزانا إذن لم تطلقني!

لم يكن يعرف الحقيقة من قبل. كان قد ألمّ بها في تلك اللحظة بالذات، وعرف أن سوزانا باقية على عهده. أردف:

- وهي تنتظرني إذن في البيت؟

فأجاب الكاهن:

- إن سوزانا تنتظرك، وستنتظرك إلى الأبد. إنها زوجتك لم تتبدل. إنها لم توقِّع على ورقة الطلاق إلا لتبقى في البيت، فلا يُلقى بها خارجاً مع ولديك. لقد تصرَّفت على هذا النحو بسبب يأسها من بلوغ غايتها على نحو آخر. لكنها لم تعتبر نفسها أبداً مفترقة عنك.

Twitter: @ketab_n

قال إيوهان موريتز:

- وهذا الطلاق؟ لقد كان كَذبة فظيعة! وأنا الذي صدَّقت أن سوزانا قد انفصلت عني بالطلاق لتقترن بسواي، بما جُبِلتُ عليه من سخف! لقد اعتقدت أن سوزانا هجرتني. كيف يتسنى لي أن لا أصدق ذلك، بعد أن قرأته في ورقة الطلاق بعيني هاتين؟ لكنني ارتكبتُ إثماً! ولن يسمح لي اللّه، ولن يصفح عني أبداً!

قال الكاهن كوروغا:

- سوف يغفر لك هذا الإثم! إن ما وقع خطير جداً، يا موريتز! لكن لا أنت، ولا سوزانا المخطئ. إن المسؤولية تقع على الدولة وقوانينها. ولن يغفر للدولة! سوف تُعاقب الدولة كما عوقبت سودوم[1] وعامورة[2]. إن الصاعقة لن تسقط على دولتنا فحسب، بل ستحرق كل مجتمع اليوم، ذلك المجتمع الذي يرتكب الخطايا والآثام التي لا يمكن للّه أن ينظر إليها، دون أن يتألم بمرارة منها.

- 139 -

مضى تريان كوروغا للاستجواب الأول الذي أخضِعَ له..

قال الضابط المستجوب:

- إنك تزعم أنك لا تعرف سبب توقيفك وسجنك، منذ أكثر من عام؟ ليس بين الخمسة والعشرين ألف سجين الذين يعجّ بهم

(1) سودوم: مدينة قديمة في فلسطين كانت تقع قرب البحر الميت، وقد جاء في الإنجيل أنها دمِّرت بنار السماء بسبب الإثم. [المترجم]

(2) عامورة: مدينة أخرى من مدن فلسطين، دُمرت مع سودوم، بنار السماء، حسبما جاء في الإنجيل. [المترجم]

Twitter: @ketab_n

المعسكر واحد يعترف بأنه يعرف سبب توقيفه. إنكم على، اختلاف مَناحلكم ومِلَلكم، تدّعون بأننا أصبحنا أوروبا، وأوقفنا الناس، بعد أن انتزعناهم من سعادتهم الصغرى. لكنكم مخطئون. إن كلّ توقيف حصل بناءً على مرسوم.

ابتسم تريان كوروغا، بينما تابع الضابط، وقد لاحظ ابتسامته:

- لعلّك تزعم أنّ قوانيننا لا تتفق مع مبادئ الحقوق الخالدة؟ إنني أسمع هذا النقد كلّ يوم. إنكم جميعاً تستندون إلى نقص القِيم الخالدة، أو نقص الشمول في القوانين التي جرى توقيفكم بموجبها. إنكم بذلك تثيرون السخرية! سخريتنا! أولاً: إنّ لكل بلد الحق في سَنّ القوانين التي يريد تطبيقها، فالقوانين السائدة إذن في بلدنا تهمنا وحدنا. ثانياً: ليست هناك مبادئ حقوقية خالدة. إنّ العدالة تُحقّق بواسطة بني الإنسان. ولا يمكن لشيء بشري أن يتَّسم بطابع الخلود. فكلّ قانون إذن يساوي على العموم، مثيله في بلد آخر. فكل القوانين فانية وأزلية معاً. وكلّ مَن يرى عكس ذلك، إنما يخدع نفسه بنفسه.

«إنكم موقوفون الآن، باعتباركم موظفين في دولة عدوة، وذلك بحسب القوانين السائدة حالياً في منطقة الاحتلال الأميركية. إن القانون يريد ذلك.

«إن زوجتك أوقفت هي الأخرى، استناداً إلى القانون الذي ينصّ على أن زوجات كبار الموظفين الأجانب يوقفون آلياً. وقد أوقف أبوك كذلك بشكل آلي، باعتباره موظفاً في دولة عدوة.

«إنني أوافقك على أن ذلك قد يبدو قاسياً بالنسبة إليك. ولكن القانون هو القانون. لقد كانت القوانين أبداً قاسية، في خلال حقبات التاريخ. ولا أظن أنك تزعم أنه كان يجب علينا استشارتكم، قبل وضع قوانيننا!

وقف تريان كوروغا يريد الخروج. كان واثقاً منذ أن بدأ في

Twitter: @ketab_n

كتابة روايته، من أنّ الوقت الذي تحرم فيه القوانين على بني العيش كما تحلو لهم الحياة، قد أزف. لقد شعر، منذ توقيفه، بأنّ تلك القوانين قد بدأت تدخل في حيّز التنفيذ لكنه ظلّ يحتفظ بأمل غامض، يدفعه إلى الاعتقاد بأنّه مخطئ في زعمه.

والآن أبلغ رسمياً أن تلك القوانين قد أصبحت مطبَّقة بحزم، ومحترمة.

لم يكن هناك أيّ مجال للاعتقاد بالخطأ.

إن مخلوقات بشرية غير مذنبة كانت تتعرض، وتعرّضت كذلك بصورة مشروعة، إلى التوقيف، والتعذيب، والإهانة، والسلب، والإفناء!

استرسل الضابط يقول:

- إنني مقتنع بأنك لست مذنباً. وهذه هي المرة الرابعة التي أطلب فيها إلى السلطات إطلاق سراحك وسراح زوجتك وأبيك، رغم أنه ممنوع منعاً باتاً أن نطلب إخلاء سبيل شخص ما من المساجين الموقوفين بصورة آلية. لكنني لم أتلقَّ جواباً. إنّ أوامر إخلاء السبيل لا يمكن أن تمنح بصورة فردية. إن إطلاق السراح، لا يمكن أن يقع، إلّا لمجموعات من الأشخاص.

سأل تريان:

- إنّ كون الشخص مذنباً أو غير مذنب، لا علاقة له في موضوع التوقيف إذن؟ إنّ ذلك قد بلغ انتباهكم، ولو من باب حبّ الاستطلاع.

فأجاب الضابط:

- إن هذا لا يهمنا في شيء، حتى ولو كان ذلك يجرح إحساسك كرجل نشأ حسب المفاهيم الفردية، وكلّ أفكارك، وعقائدك اللاهوتية والجمالية والإنسانية. إنني لا أستطيع أن أبدّل

Twitter: @ketab_n

شيئاً. مع ذلك فلا حاجة لأن يبدل أي شيء. قد يبدو أسلوبنا جافياً، آلياً وحسابياً، لكنه صحيح. إن العالم كله يتحرق في لون من «الطريق الحسابي» ولن يخطر ببال أحد أن يبدل سَيْره واتجاهه.

قال تريان:

- إن الاستجواب الذي استهدفت له الآن لا يهمك إذن؟ أي إنه كان يمكن أن لا يكون مطلقاً، أليس كذلك؟ إن كل ما يتعلق بالفرد لا يبدو أنه يشغل اهتمامكم!

أجاب الضابط:

- يلفت انتباهنا. إنّ كل ما نريد معرفته عن الشخص هو معلومات خاصة، أي اسمه الكامل الصحيح، تاريخ الولادة ومكانها، مهنته... إلخ، لنسجل تلك المعلومات على بطاقات خاصة وندونها في إحصاءاتنا.

«على كلّ حال إن هذه الاستجوابات تهدف في حقيقتها إلى التحقُّق من بعض المعلومات، وتقسيم المساجين إلى فئات. إن التعليمات المتعلقة بالتوقيف أو إطلاق السراح لا يُنظر في شأنها إلا على أساس جماعي. إن عملنا يقوم على أساس توزيع، كل شخص على الفئة التي ينتمي إليها. إنه عمل حسابي دقيق.

- أولاً تجدون أن إلغاء الإنسان ومعاملته كجزء من فئة عملاً غير إنساني.

فقال الضابط:

- كلا إنني لا أرى في ذلك شيئاً غير إنساني. إن هذا الأسلوب عملي وسريع، بل إنه علاوة على ذلك عادل. إن العدالة لا يمكن إلا أن تربح من هذا الأسلوب. إن العدالة لَتَسير فوق مناهج العلوم الرياضية والفيزيائية، أي بحسب الأساليب الأكثر دقة. إن الشعراء وحدهم وعلماء اللاهوت يستنكرون هذه الوسائل والأساليب.

Twitter: @ketab_n

«لكن المجتمع المتمدين، قد نقّح المبادئ اللاهوتية والشعر. إننا الآن نجتاز حقبة عملية رياضية سليمة ولا يمكن لنا العودة إلى الوراء لأسباب عاطفية. إنّ العواطف ليست، على كلّ حال، إلّا من ابتكار الشعراء وعلماء المعقولات.

أشار الضابط إشارة يُفهم منها أن الاستجواب قد انتهى.

فتح تريان كوروغا الباب، وسمع من ورائه صوت الضابط الذي استجوبه يقول ببرودة:

- إلى التالي...

- 140 -

كان إيوهان موريتز يفكّر في الفرار من المعسكر. كان لا يستقرّ على حال بعد أن عرف أن زوجته سوزانا لم تطلب الطلاق منه، وأنها تنتظره بكلّ إخلاص مع أولادها.

قال تريان:

- لا يستوجب الأمر مجرَّد التفكير فيه. إنك لا تقرب الأسلاك الشائكة حتى يُطلِق البولونيون النار عليك.

نظر موريتز إلى الحراس البولونيين المرتدين ألبسة أميركية زرقاء. كان البولونيون واقفين ينظرون إليه بانتباه، كما لو كانوا قد خمَّنوا ما يجول في رأيه - ممسكين أسلحتهم بأيديهم على استعداد لإطلاق النار.

استطرد تريان:

- فإذا أخطأك البولونيون فإنك ستُقتل من قِبل العَسَس الأميركي، أو الألماني، قبل أن تصل إلى رومانيا. إنك تلاقي في طريقك جنوداً نمساويين، وتشيكيين، وفرنسيين، وهنغاريين، فلا

Twitter: @ketab_n

تصل أبداً إلى رومانيا... سوف ينالون منك في الطريق. فإذا تفاديت بنادق أمة ونجوت من جنودها، قتلتك الأمة التي تليها. إن بينك وبين بيتك، وبينك وبين أسرتك يا عزيزي موريتز، تقوم أمم العالم، أمم مسلحة تريد قتلك... إن هذا الجيش الدولي العالمي يقوم بين كلّ رجل وحياته الشخصية الخاصة. إنّ الرجل الآن لم يعُد يُسمح له أن يعيش حياته الخاصة. إنه يُقتل رمياً بالرصاص إذا حاول ذلك. إن المصفحات والرشاشات والأنوار الكشافة والأسلاك الشائكة، قد صنعت من أجل هذا الهدف...

فقال إيوهان موريتز:

سوف أهرب رغم ذلك.

ونظر إليه الحارس البولوني باهتمام متزايد.

وفي تلك اللحظة، دخل ضابطان أميركيان إلى فناء المعسكر، واتجها نحو مستشفى المعسكر، فتابعهما إيوهان موريتز بأبصاره.

وفجأة ترك تريان دون أن يتفوّه بكلمة، وراح يجري في اتجاههما وانتصب أمامهما فتوقف الضابطان كذلك. نظر إليهما إيوهان موريتز ونظرا إليه. ودام ذلك لحظة دامت دقيقة كاملة. وفجأة أحاط أحد الضابطين - وهو أقوى من زميله بنية وأكبر سناً - موريتز بذراعيه وعانقه بأخوية. فأحاط المساجين بهما، وقد استبدّ بهم الفضول والاستغراب. لم يسبق لواحد منهم أن رأى ضابطاً أميركياً يعانق سجيناً.

توجه إيوهان موريتز نحو مستشفى المعسكر مع الضابط الأميركي الذي لبث يطوقه بذراعيه، ودخلا معاً.

اقترب تريان كوروغا من المستشفى ووقف قرب الباب. لبث منتظراً يتطلع إلى عودة صديقه تواقاً إلى معرفة أخباره. كان ينتظر

Twitter: @ketab_n

أوبة موريتز ليقصّ عليه وقائع الأمر، لكن إيوهان موريتز تأخّر في العودة.

انقضت فترة سمع تريان كوروغا بعدها صوت إيوهان موريتز. رآه يطل عليه من نافذة مكتب المستشفى، وعيناه السوداوان تلتمعان كالشعلة الملتهبة.

قال موريتز:

- إن الضابط الأميركي هو صديقي الدكتور آبراموفيس. لقد عرفته على الفور. لقد فررت معه من رومانيا. إنني الآن واثق من أنني سأعود إلى الحرية!

أغلق إيوهان موريتز النافذة لأن صديقه استدعاه ليكلّمه.

- 141 -

لم يكن إيوهان موريتز قد تحدث مع الطبيب أبراموفيس في معسكر رومانيا، وفي هنغاريا، إلا بلغة البيديش، فاستمرّ يحدِّثه بها. وكان الطبيب الملازم أبراموفيس يشعر بابتهاج حقيقي لمقابلته إيوهان موريتز فكان يصغي بانتباه إلى كلّ كلمة من كلماته.

قصّ عليه موريتز كل ما وقع له منذ أن افترقا في هنغاريا حتى تلك اللحظة، فكان أبراموفيس يهزّ رأسه للإعراب عن عطفه وإشفاقه خصوصاً لمّا قص عليه موريتز حكاية العذاب الأليم الذي تعرّض له في الخمسة عشر معسكراً التي دخلها في ألمانيا في السنوات الأخيرة.

قال الطبيب أبراموفيس وهو ينظر إلى ساعة يده:

- ينبغي أنْ أذهب. أنت في حاجة إلى المعونة يا عزيزي يانكل. إنني أعرف حاجتك إلى العون، لأنها حاجة طبيعية. حدِّثني

Twitter: @ketab_n

عما تحتاج إليه، وسوف أساعدك. إنني لا أنسى أننا اختبرنا لحظات عصيبة معاً.

وربت الطبيب على كتف موريتز وأردف:

- إنني الآن مقتدرٌ قوي، وأنت تجتاز لحظات رديئة من حياتك. ماذا تحتاج إليه؟ أتريد لفافات، أو غذاء أو ألبسة؟ اذكر لي ما تريد.

فقال إيوهان موريتز:

- أريد الخروج من هنا. أريد العودة إلى بلدي والعودة إلى زوجتي وأولادي.

قال الطبيب بانزعاج:

- لا تطلب المستحيل، يا عزيزي يانكل. اطلُب شيئاً تمكِّنني سلطتي من منحه إليك. إن إطلاق سراح الأشخاص يحدُث آلياً فلا يجب أن تفكِّر فيه، بل ينبغي أن تتعوّد الصبر.

قال إيوهان موريتز:

- لكنني بريء، فلماذا يوقفونني؟

فأجاب الطبيب:

- إنّ الإدانة والبراءة والحرية لا علاقة لها في الموضوع.

ثم أردف وقد بان الانفعال على صوته:

- هل زَعَمَ أحدهم أنك مذنب، يا عزيزي يانكل؟ إن إطلاق سراحك مسألة صبر.

- لقد انتظرت بما فيه الكفاية!

- قال الطبيب:

- هذا رأيك الشخصي. لقد ظللتَ قروياً شديد السذاجة والجمود. إنك تعتقد بأن أي ضابط يستطيع إطلاق سراح سجين ما،

Twitter: @ketab_n

لأنه يعتقد بأنه غير مذنب أليس كذلك؟ لو أن الأمر كذلك لأخلي هذا المعسكر بين عشية وضحاها. إنّ كل نازي يستطيع إيجاد أدلة على براءته. . إنّ إطلاق السراح لا يتحقق إلا بناءً على أمر الأركان العامة في فرانكفورت، أو منه ترسل الأوراق إلى واشنطن فيحوَّل القرار منها إلى ويسبادن. فتشكَّل لجنة خاصة في إسلنجن، وترسله إلى برلين. وبذلك يرسل أمر إطلاق السراح إلى برلين، ويرسل في الوقت ذاته إلى هيدلبرج. فلمّا يصل الأمر إلى هيدلبرج، ترفع البطاقة من المحفوظات في مئات من المكاتب وعندئذٍ فقط تكون مطلق السراح، لكن كل هذه المعاملات شديدة التعقيد، إنها آلة تعمل «أوتوماتيكياً». إن لكل سجين بطاقته. ولدى الأميركيين دار للمحفوظات، ضخمة كبيرة، تضاهي الثكنة التي تراها في الجانب الآخر. فعندما يُرسَل أمر إطلاق السراح إلى هيدلبرج، تُرفع بطاقتك آلياً من محفوظات واشنطن، وستوتجارت، ولوديمبسورج، وميونيخ، وكورنويستذيم، وباريس، وفرانكفورت، وبرلين.

إنّ اسمك مسجَّل في العالم بأسره في كلّ مكان، في المكتب الاتحادي للمعلومات في أميركا، وفي القيادة الحليفة العليا في باريس، وفي لجنة الرقابة في برلين، وفي كل المعسكرات والسجون، وفي مكاتب البوليس: بوليس الجرائم، السياسة، الشرطة العسكرية، شرطة المشبوهين، شرطة الطوارئ. . . إلخ.

إنّ كل حركاتك حتى أكثرها تفاهة ولو لم يكن إلّا نقلك من معسكر إلى آخر تُحدِث حركة وتبديلاً في بطاقتك، بين مختلف دوائر المحفوظات. فهل كنت تعرف ذلك؟

راح إيوهان موريتز يتخيّل اسمه مكتوباً في كلّ مدن العالم، تكرِّره الآلات الكهربائية، فيضيء وينطفئ على التالي أشبه بتلك الأنوار الكشافة المسلطة على الأسلاك الشائكة في المعسكر. عرف

Twitter: @ketab_n

في تلك اللحظة أنّ كل حركة من حركاته كانت تصوَّر وتُسجَّل وتُضاء! قال:

- ما كنت أعرف ذلك!

- لو أنك عرفته لما سألتني إطلاق سراحك. لذلك، فإنني لستُ بناقم عليك لأنك سألتني ذلك. إنك كنتَ تظن أنني لوحدي أستطيع أن أنتزعك من بين ذراعي هذه الآلة الجبارة. أليس كذلك؟

انفجر الطبيب أبراموفيس مقهقهاً، وأردف:

- إن رئيس جمهورية الولايات المتحدة لن يستطيع صنعه، ينبغي لك أن تنتظر حلول دورك بهدوء.

سأل إيوهان موريتز:

- ولكن لِمَ أبقى في السجن طالما أنني بريء؟ لِمَ تنقم الآلة عليّ إذا كنت لم أسئ إليها؟ إن الآلة التي تتحدث عنها مصنوعة، ولا شك، لمطاردة اللصوص والمجرمين والآثمين.

قال الطبيب:

تعلَّم عدم إصدار الحكم بعد الآن كما يُصدره فلاح متأخر ساذج، يا عزيزي يانكل. إنك تعود بالأشياء كلها إلى نطاق الحالات الخاصة الشخصية. إن البلدان المتمدينة لا تُعنى بالحالات الشخصية. إن كونك مجرماً أو بريئاً مسألة شخصية يمكن أن تهتم بها زوجتك أو أن يعلق عليها جيرانك، والفلاحون الآخرون في قريتك، اهتمامهم. إنّ هؤلاء وحدهم يهتمون بمسائلك الشخصية. أما الدول الراقية فإنها تنظر إلى الأمور نظرة إجمالية. إنها لا تهتم بشؤون الأشخاص بمفردهم.

- ولكن، لِمَ أوقفوني؟

- لقد قمنا بتوقيفات وقائية وبحسب الأصناف والطبقات فإذا احتجنا إلى المذنب، أو إلى مجرم حرب مثلاً، فإنه يكون تحت

Twitter: @ketab_n

يدنا، بدلاً من أن نعمَد إلى البحث عنه في كل مكان، وملاحقته في كل القُرى والغابات. لأننا بذلك نضيع وقتاً كبيراً. أما بهذه الوسيلة فإننا لن نتكلف إلا عناء الضغط على زر، يتعلق بالحروف الأولى من الاسم، وقبل أن نعد إلى ثلاثة، تكون بطاقة الشخص المطلوب بين أيدينا مع صورته وكل المعلومات المتعلقة به: طوله، وزنه، لون شعره، تاريخ ولادته، ومكان الولادة، عدد أسنانه، وكل ما يهمنا معرفته. وعندئذٍ يكفي أن نرفع البوق لنبلغ، بواسطه الراديو، المعسكر أو السجن الذي يكون رجلنا فيه، فلا تنقضي ساعات محدودة، إلا ويكون الشخص بلحمه ودمه ماثلاً أمام محكمة نورمبرغ الدولية. إن هذا العمل مدهش. إنه نتيجة التقدم الفني. إنّ كلّ شيء يتحقق آلياً، وكل شيء يسير بالكهرباء. فكيف تريدهم أن يطلقوا سراحك؟ إنّ ذلك يعادل الجنون! إنك تشبه خيطاً انتظم في نول للحياكة، ومنذ أن أدخل في مكانه يتعذّر استخراجه وعندئذٍ ينبغي الانتظار حتى يخرج من تلقاء نفسه منسوجاً مع الخيوط الأخرى، ولن يكون ذلك إلّا في وقت معيّن. إنّ من المستحيل التصرُّف على نول آخر. إن الآلات دقيقة جداً، فينبغي للمرء أن يتعلم الصبر عندما يتعامل معها.

وأنت، إنك في صميم آلة جبارة. فمهما بذلت من مجهود وتحركت وناضلت فإنك لن تخرج منها. إن الآلة صماء، إنها لا تسمع ولا ترى، بل تعمل فقط. إنها تعمل عملاً مدهشاً تبلغ فيه الكمال الذي لا يستطيع الإنسان بلوغه أبداً. فعلى المرء أن ينتظر وهو مطمئن تماماً إلى أن دوره سيحين. إن الآلة لا تنسى كما ينسى المخلوق البشري، إنها دقيقة. فهل فهمت؟

رفع موريتز كتفيه يأساً، وقال:

- إنك لا تستطيع عمل شيء إذن ينتج عنه إطلاق سراحي؟

Twitter: @ketab_n

- ألم أفسِّر لك أنك في آلة جبارة، وأن خير ما تعمله هو الانتظار؟

فقال موريتز ملحاً:

- ولكنك إذا تدخّلت في الموضوع لصالحي، فإن ذلك يجعل الأمور في صفي. إذ إنّ القواد والحكام ليسوا إلا رجالاً مثلك ومثلي، إنهم يفهمون. لعلهم إذا فسَّرت لهم موقفي وشرحت لهم أن لي زوجة وأولاداً، وأنني أتألم في المعسكرات منذ سنوات وسنوات، دون أن أجني ذنباً - يطلقون سراحي فور ذلك.

قال الطبيب أبراموفيسي بانفعال وغضب:

- كأنني أحدِّث بغلاً!... إنك تعيد الأمور أبداً إلى نواحيها الشخصية الخاصة. إنك لا تستطيع إغفال نفسك لحظة واحدة. إن هذه صفة الرجل البدائي. قل لي بدلاً من هذا، إذا كنت تحتاج شيئاً. إن عليَّ أن أذهب. فهل ترغب في الحصول على لفافات، أو أطعمة، أو ألبسة؟

فقال إيوهان موريتز:

- إنني أريد أن أنصف. لكنني أرى أن عدالة الإنسان قد ماتت على طول الأرض وعرضها، لذلك فإنني لا أريد شيئاً آخر.

قال الطبيب أبراموفيسي، وهو يمدّ يده إلى موريتز حاملة علبة «لوكي سترايك»:

- يمكنك مع ذلك أن تأخذ لفافة.

وابتسم بوداعة وأردف:

- لقد كنا أصدقاء في الضراء، يا عزيزي يانكل:

مدّ موريتز يده ليأخذ لفافة، لكن العلبة كانت فارغة. راح الطبيب يبحث في جيوبه عن علبة أخرى، لكنه وجد أنه لا يحمل غيرها فقال:

Twitter: @ketab_n

- سأقدّم لك سيجارة في المرة القادمة، لمّا أعود إلى هنا يا عزيزي يانكل.

ثم خرج..

- 142 -

لبث الكاهن كوروغا جالساً أمام الضابط الذي يستجوبه وعكازتاه على ركبتيه.

قال الضابط متسائلاً:

- ماذا كنت تعمل في ألمانيا إذا لم تكن نازياً، أم عميلاً للنازيين؟ إن القصة التي ترويها والتي تزعم فيها أنك استيقظت فوجدت نفسك في مستشفى عسكري ألماني، دون أن تعرف كيف وصلت إلى ذلك المكان، تصلح للأطفال وحدهم. إنّ مثل هذه الأمور لا يمكن أن تحدُث إلّا في حكاياتكم الخرافية التي تروج بينكم في البلقان. إن الكذب واضح فيها، إنها بعيدة عن المنطق، بعيدة عن العقل، وإذن لا تصدَّق كقصص الجان. إذاً لِمَ يحتفظ بك الألمان في مستشفاهم إذا لم تكن نازياً أو مؤيداً للنازية؟ لِمَ يعالجونك ستة أشهر متتالية، ويبترون ساقيك؟ ألأنك كنت عدواً لهم؟ ألمجرد شعورهم الإنساني؟ ومتى كان الإنسان إنسانين؟ لقد سجن الألمان كل أعدائهم وقتلوهم خنقاً في غرف الغاز. لقد كنت تؤازرهم ولهذا السبب عنوا بك، ينبغي أن تكون الآن شديد الحزن لأنّ هتلر لم يربح الحرب!

لزم الكاهن كوروغا الصمت وهو ممتقع الوجه تنثال من حاجبيه قطرات العرق كاللآلىء. كان يجلس بصعوبة على المقعد لأنه منذ أن بترت ساقاه كان لا يستطيع الجلوس إلا مستلقياً، وكانت الحمى

Twitter: @ketab_n

تنهش جسده، فكان يتلهف إلى الخلاص من هذا الاستجواب بأسرع ما يمكن ليستطيعَ مغادرة مقعده.

استطرد الضابط:

- لو أنّ هتلر ربح الحرب لكنتَ شديد الاغتباط، أليس كذلك؟ كان هتلر سينصِّبك مطراناً على رومانيا لو ربح الحرب، كان يُسعدك ذلك، أليس كذلك؟

قال القس:

- كلا، إنني ما كنت لأشعر بالسرور أو السعادة.

- هل سررتَ إذن لأن الحلفاء ربحوا الحرب؟

فأجاب الكاهن:

- ليس سروراً زائداً.

قطّب الضابط حاجبيه، فابتسم ألكسندرو كوروغا وقال:

- إنّ أيّ نصر يحصل عليه بواسطة السلاح لا يمكن أن يُدخل السرور إلى نفسي.

كان الكاهن ينظر في أثناء تلفّظه بتلك الجملة إلى الصور المأخوذة في معسكرات الاعتقال الألمانية. كان يفكّر في جثث المستنطق جورج داميان وفازيل آبوستول والفلاحين الآخرين في فانتانا الذين قتلهم ماركو غولدنبرغ، وألقاهم في حفرة الأقذار وراء زريبة دار البلدية. كان يفكّر في جثث أطفال دريسد، وفرانكفورت، وبرلين، وفي جثث دونكرك، وستالينغراد، فما كان يستطيع الشعور بالسعادة، وهو يفكّر في تلك الجثث التي كان لها الفضل في النصر.

لقد غُطِّيت الأرض بجثث الأبرياء، حتى كان النصر.

«لا يوجد جمال حتى في النصر،

هو من أولئك الذين يجدون السرور في المذابح.

Twitter: @ketab_n

وذلك الذي يجد السرور في المذابح،
لن ينجح في طموحه الذي يهدف إلى قيادة العالم.
إنّ تأوهات حزينة ترافق حتماً الجماعات المذبوحة،
فينبغي إذن أن يُحتفل بالنصر، حسب الطقوس الجنائزية»[1].

فقال الضباط:

- إن هذه القصيدة رائعة. أأنت الذي نظمتها؟

- بل إنها لشاعر صيني، كتبها قبل ألفي عام.

فقال الضابط:

- اكتبها لي، سأرسلها إلى أسرتي في أميركا.

ابتسم الضابط. كان ولا شك يفكّر في أسرته. لكنه اكتأب بعد ذلك، ونظر إلى القس نظرة مستريبة وقال:

- هل أنت واثق من أنّ القصيدة التي تلَوْتها الآن قد نظمت من قبل صيني؟

فأجاب الكاهن:

- كلّ الثقة! ولكن، إذا أعجبتك الأبيات فماذا يهمك أن يكون الشاعر صينياً أو من أي قطر آخر؟! إن هذه الأبيات جميلة، وهذا هو المهم، أما ما عدا ذلك، فليس مهماً أو جديراً بالاهتمام.

فقال الضابط معترضاً:

- بل إنه جدير بالاهتمام، إنني سعيد لأنّ الشاعر صيني. إن الصين أمة حليفة للولايات المتحدة، وستكون أسرتي سعيدة عندما تتلقى هذه الأبيات. لو أنّ الشاعر كان من أمة عدوة، لما أرسلتها

(1) هذه القصيدة للشاعر الصيني لاو - تزي.

Twitter: @ketab_n

إلى أسرتي. انسَخْها لي، حتى صباح الغد، سأعطيك قلماً وورقاً، هل تعلَّمت شيئاً آخر غير اللاهوت؟ هل قمت بدراسات أخرى؟

- لقد تعلمت كل ما سمحت لي الحياة بتعلُّمه، كل ما راقَ لي أن أتعلمه!

- هل تعرف اللغة الصينية؟

- كلا.

- يا للأسف، لو أنك كنت تعرفها لطلبتُ إليك أن تكتب الأبيات بالأحرف الصينية. ولكان ذلك مفاجأة كبيرة لأسرتي التي لا تنتظر حتماً استلام رسالة من قبلي مكتوبة بالصينية. مع ذلك لا بأس إذا كنت لا تعرف الصينية، فاكتبها بالإنجليزية. إن الصيني الشاعر ذا قريحة هزلية ثم إنه حليف للولايات المتحدة.

لمّا عاد الكاهن إلى المعسكر كان محطماً من التعب.

مدّده إيوهان موريتز على السرير، ووضع على جبينه كمادات باردة. سأله:

- هل تحدّثت عن إطلاق سراحك، يا أبي؟

فأجاب العجوز:

- كلا.

- ولكن، ماذا سألوك إذن؟

- لقد طلب إليّ أن أنسخ قصيدة للاو - تزي، وكان يودّ أن أنسخها باللغة الصينية. وقد أسف أسفاً كبيراً لأنني لا أعرف القراءة والكتابة باللغة الصينية!

- كان هذا كل حدود الاستجواب؟

فهزّ الكاهن برأسه دلالة أن «نعم».

Twitter: @ketab_n

تلقى تريان كوروغا رسالة من نورا.

قال تريان وهو يضغط بين يديه على الغلاف، المطبوع على جانبه عبارة: سجين حرب.

كنت أعرف أن نورا قد أوقفت. لكنني كنت آمل أن تكون قد أطلق سراحها في خلال هذا الوقت. ولأنه لم يعُد في الإمكان الجري وراء الوهم. إنها سجينة مثلنا، في معسكر كمعسكرنا، تتألم مثل ألمنا. إنها خاضعة للمعاملة التي نعامَل بمثلها، هي تنقل من معسكر إلى آخر مثلنا، ويحرسها جنود بولونيون مسلحون بالرشاشات، من وراء الأسلاك الشائكة، كما هو حالنا. إن كل وجودي وكياني يرفضان الاحتمال أكثر من ذلك.

كانت نورا لا تعرف عنوان تريان عندما أرسلت تلك الرسالة، لذلك فقد وضعت على الغلاف، بجانب اسم تريان، أرقام كلّ المعسكرات القائمة في المنطقة الأميركية وبذلك لم تبلغ الرسالة يدي تريان إلّا بعد أن نقلت من معسكر إلى آخر.

استطرد تريان:

- إنهم لم يذكروا لها أين أنا وقد رفضوا إعلامي برقم المعسكر الذي هي فيه.

راح الكاهن يحاول تعزيته والتخفيف عنه. كان ممدداً على السرير والكمادات الباردة على جبهته وإيوهان موريتز واقفاً بالقرب منه، لكن تريان لبث أصمّ الأذن لا يصغي إلى كلمات العزاء.

استطرد تريان يقول:

- إن لكلّ ألم حدوداً، وإنني أُقدِّر أنني بلغت الحدود. إنّ أي

Twitter: @ketab_n

كائن بشري لا يستطيع تخطي تلك الحدود، والبقاء بعد ذلك على قيد الحياة.

ونهض تريان كوروغا واقفاً، وخرج من الخيمة.

قال موريتز بذعر:

- سوف ينتحر السيد تريان، يا أبتاه.

لبث الكاهن مغمض العينين. لم يسمع كلمات موريتز، لأنه كان يصلي ولم يكن يصلي من أجل تريان ونورا فقط، بل كان يصلي من أجل موريتز أيضاً ومن أجل البشر الذين دفعهم المجتمع الآلي الغربي إلى حدٍّ لا يمكن للكائن الحي أن يتخطاه ويبقى على قيد الحياة.

قال موريتز:

- إذا تركت السيد تريان وحيداً فإنه سيقتل نفسه.

فتح الكاهن عينيه ولمس يد إيوهان موريتز سامحاً له بالخروج.

- 144 -

قال الكاهن كوروغا:

- أعطِني يدك أرجوك.

كان مستلقياً على السرير وعيناه نصف مغمضتين. وكان شاحب الوجنتين، ممتقع الجبهة، اختفت الدماء من وجهه. قبض العجوز على يد تريان، فأودعها يديه دون أن يتلفظ بكلمة فاختلطت حرارة الأيدي، وبدا كأنّ الدم قد انتقل من واحدة إلى أخرى. شعر كلاهما بتدانٍ لا يشعر بمثله إلا الأب والابن. وتجاوبت ضربات قلبيهما غير أن وجيب قلب القس كان يزداد خفوتاً.

Twitter: @ketab_n

أراد إيوهان موريتز أن يبدِّل الكمادة، غير أن المريض أشار إليه بعقم المحاولة، وابتسم له.

جلس موريتز على حافة السرير، وأصغى للكاهن وهو يقول:

- في هذه اللحظة لا أشعر بأنني أدفئ يدي بحرارة إنسان، بل بنار الحياة نفسها إنك دافئ مُحرِق يا تريان كما لا يستطيع أحد أن يكون، إلا الحياة نفسها.

ضغط تريان على يدي أبيه كانت اليدان باردتين غير أن الكاهن ابتسم واستطرد:

- لقد حلمتُ حلمين كبيرين في حياتي على الأرض: أن أكون كاهناً في أميركا، وأن أدفن بعد موتي في مقبرة فانتانا. أتعرف تلك المقبرة، يا تريان؟ إنها مقبرة لا جدران لها ولا أسلاك شائكة، وهي مغطاة بالأزاهير والأعشاب البرية.

«إن تلك المقبرة تشبه الحقل الكبير، وقد كنت أفضِّل أن أكون هناك، لأتأمل رحلتي الأبدية. ولقد تحقق الحلمان بطريقة مضحكة غريبة. إنني لم أذهب إلى أميركا، لكن أميركا جاءت إليّ، وسأموت في هذا السجن الذي تخفق عليه الراية الأميركية ذات النجوم.

«ولن أدفن في مقبرة فانتانا، لكن مقبرة فانتانا قد اتسعت حتى عمَّت أوروبا كلها.

«إن فانتانا، ورومانيا، وأوروبا كلها، ليست الآن إلا لطخة سوداء على خريطة العالم، كلطخة الحبر. إنّ القارة كلها صامتة حزينة. لقد غادرها السرور والانشراح كما غادرا مقبرة فانتانا. وعمّا قريب ستُغطى هذه الأرض بالأزاخير والأعشاب البرية، كما هو حال مقبرتنا. وماذا يهمّ ذلك المكان الذي سأدفن فيه على هذه القارة. سأشعر أينما كنت مثل شعوري في مقبرتنا الخالية من الأسلاك والحواجز.

Twitter: @ketab_n

قال تريان:

- لِمَ تحدثني بكل ذلك؟ يجدر بك أن تستريح.

فأجاب القس كوروغا:

- إنك على حق. لكنني أريد أن أحدِّثك بأمر آخر. اعلَم يا تريان أن «العالم لم يكن له أبداً مقصد موضوعي إلا إذا أردنا بذلك التنويه بالموت. إنّ كل هدف حقيقي وواقعي ليس إلا مختص بالنفس، ذاتي».

«إنّ المجتمع الآلي الغربي يريد أن يعطي للحياة هدفاً موضوعياً، وذلك خير وسيلة لإفنائه. لقد حوّلوا الحياة إلى إحصاء، ولكن: «كل إحصاء يغفل أمراً وحيداً بحسب نوعه. وكلما تطورت الإنسانية كلما أصبحت وحدة الشخص، ووحدة كلّ مسألة شخصية، هي المهمة التي يؤخذ بها».

«غير أن المجتمع الآلية يتقدم في الاتجاه المعاكس تماماً: إنه يعمم كل شيء: «وبسبب الاستمرار على التعميم والبحث، أو إبداع كلّ القِيم في ما هو تمام، فإن الإنسانية الغربية فقَدَت كلّ شعور بالقِيم الفردية، وبالتالي بالكيان الفردي. ومن هنا نشأ خطر الجمهرة، سواء كان على الطريقة الروسية أو الطريقة الأميركية.

«وبسبب ذلك فإننا نستطيع أن نتأكّد من أن هذا المجتمع سينهار. لقد تحدثت مرة بذلك بنفسك، ذات مساء في فانتانا، إن مجتمع الحضارة الفنّية قد أصبح متناقضاً مع حياة الفرد لأنه يخنق الإنسان. والبشر يموت ميتة الأرانب البيضاء التي تتحدث عنها في روايتك. إننا نموت جميعاً مختنقين في الجو الخانق الذي يخلقه هذا المجتمع، وحيث لا يمكن لغير الرقيق الآلي والآلات والمواطنين» أن يتحرّكوا فيه، ما أردت البحث في ذلك، في كتابك. إن البشر بهذا الشكل يخطئ خطيئات خطيرة، ويُعتبر مذنباً حيال اللّه.

Twitter: @ketab_n

«إننا نعمل بكلّ قوانا ضد خيرنا الخاص وضد اللّه على الأخص. وذلك هو آخر منحدر بلغت إليه الكتلة البشرية، في يوم من الأيام سوف ينقرض هذا المجتمع كما انقرض من قَبل عدد كبير في خلال حقبات التاريخ، وقبل أن يبدأ التاريخ.

«إن الرجال يحاولون إنقاذ هذا المجتمع بنظام منطقي في حين أنّ ذلك النظام بالذات هو الذي يقضي عليه.

«هذه هي جريمة المجتمع الآلي الغربي. إنه يقتل الإنسان الحي في سبيل النظرية، أو الانصراف عن الواقع، أو في سبيل الخطة. وفي ذلك لون التضحية الإنسانية الحديثة. إن كومة الحطب والميتة حرقاً بالنار، كما كان سائداً من قبل، قد استُعيض عنهما اليوم بالمكتب والاحصاء. إنّ هاتين الخرافتين الوثنيتين الجديدتين في المجتمع الحاضر ليستا إلا النار التي تحرق فيها التضحية الإنسانية.

«إن الديمقراطية مثلاً لون تنظيمي اجتماعي متفوّق تفوقاً واضحاً على النظام الكلي «توتالتياريزم»، السائد في المجتمعات الأخرى. لكنها لا تمثل إلا مقياس الحياة البشرية من الوجهة الاجتماعية. فإذا بلغ المرء مبلغ الخلط بين الديمقراطية واتجاه الحياة نفسها، فإنه بذلك يقتل الإنسان ويحيله إلى مقياس واحد. وتلك هي الخطيئة الكبرى، الخطيئة التي ارتكبها النازيون والشيوعيون.

«إن الحياة الإنسانية ليس لها أي معنى إذا لم تؤخذ ولم تحيا في مجموعها. ولكي يتعمق الإنسان في الاتجاه الأقصى من الحياة، يجب أن يستعمل الأدوات نفسها التي نستعملها لفهم الفن والدين: أدوات الإبداع الفني، وأدوات كل إبداع. إن العقل يشغل دوراً ثانوياً في اكتشاف هذا الاتجاه الأقصىَ من الحياة. فالرياضيات والإحصاءات والمنطق ليس لها في فَهم وتنظيم الحياة البشرية إلّا

Twitter: @ketab_n

ذلك المفعول الذي يُحدثه الإصغاء إلى لحن من ألحان بتهوفن أو موزارت.

«لكن المجتمع الغربي الآلي يلحّ بعناد في الوصول إلى فهم بتهوفن ورفائيل عن طريق الحسابات الرياضية، ويلحّ بعناد على فهم الحياة الإنسانية وتحسينها بواسطة الإحصاءات.

«إن هذه المحاولة منافية وأليمة معاً.

«إن الإنسان يستطيع أن يبلغ على أبعد حدّ - استناداً إلى هذا الأسلوب - إلى ذروة الكمال الاجتماعي، لكن ذلك لن يفيده في شيء. لأنّ حياة الإنسان نفسها لن يكون لها وجود، في اللحظة التي تنقلب فيها إلى اجتماع وآلية، وإلى قوانين تتعلق بالآلة. إنّ هذه القوانين لا يمكن مطلقاً أن تعطي لوناً للحياة البشرية. وإذا نزعنا من الحياة لونها - وهو اللون الوحيد الذي تحتفظ به والذي يفوق حدّ المنطق - فإن الحياة إذن ستبلغ الفناء. إنّ لون الحياة شخصي ودّي محض.

«إن المجتمع المعاصر نبَذَ منذ زمن طويل هذه الحقائق، ومضى بسرعة مريعة، يدفعه اليأس، نحو سُبل أخرى. ولهذا السبب، تتدفق مياه الرين والدانوب والفولغا، فائضة بدموع العبيد. إنّ تلك الدموع تستطيع ملء مجاري كل أنهار أوروبا، وكل أنهار العالم. حتى البحار والمحيطات، فإنها تفيض عن استيعاب مرارة الرجال الأرقاء للآلة والدولة والبيروقراطية ورأس المال.

«ولسوف يشفق اللّه على البشر أخيراً، كما أشفق مرّات من قبل. ثم يصبح العدد الضئيل من بني الإنسان الذين احتفظوا بإنسانيتهم، طافياً فوق أشلاء وحطام هذا التدمير الاجتماعي الإجمالي، كما حدث لنوح في سفينته من قبل. ولسوف تُنقَذ الإنسانية بفضل هؤلاء، كما أنقذت مرّات ومرّات، في مجرى التاريخ.

Twitter: @ketab_n

«لكن الخلاص والسلام لن يهبطا إلّا على الإنسان الذي ظلّ إنساناً. وأقصد على الأشخاص بمفردهم. إن النجاة في هذه المرة لن تكون من نصيب الكتل والجماعات، بل من نصيب الأفراد.

«لن تستطيع كنيسة ولا أمة ولا دولة ولا قارة، أن تنقذ أفرادها جماعات أو فصائل. إنّ مَن يُنقذ عندئذٍ سيكون الإنسان الشخصي، بصَرف النظر عن عقيدته ومنشئه، والفئات الاجتماعية أو السياسية التي يمتّ إليها. ومن أجل ذلك لا يجب أن يحاكم الإنسان استناداً إلى الفصيلة التي ينتسب إليها.

«إن الفصيلة، هي الخدعة الأكثر وحشية والأشد فظاعة من كلّ ما اقتحم يوماً عقل الإنسان من آراء. إذ لا ينبغي أن ننسى أنّ عدونا كذلك رجلاً وليس فصيله.

انتهز تريان كوروغا فترة صمت الكاهن ليسأله بصوت مروّع وجل:

– أبتاه، لِمَ تشرح لي كل هذا الآن؟ لعلّ من الأفضل لك أن تستريح.

– هذا ما سأعمله. إنني سأستريح. ولكن يجب أن أقول لك كلّ هذه الأمور قبل أن أرتاح. إنك تعرفها وتشعر بها مثلي. إنّ كل إنسان يحسّها ويعرفها، وإيوهان موريتز يعرفها هو الآخر، لكن تكرارها بعث في نفسي الراحة والهناء. إنني ما كنت أستطيع التمتع بالراحة لو لم أتحدث عنها.

– إن يدك باردة، يا أبتاه.

– إنني أعرف ذلك، يا تريان. لعلّ ذلك مردّهُ إلى حالة غريبة من حالات القلق، لا أستطيع التغلب عليها! إنه قلق أقوى من جسدي.

قال تريان:

Twitter: @ketab_n

- لست أفهم، يا أبتاه. ماذا تريد أن تقول؟ هل تشعر بألم؟

فأجاب الكاهن:

- كلا.

تقلصت شفتا الكاهن كوروغا في زاوية أليمة، وكأن تياراً كهربائياً أو سهماً من البرق قد اخترق جسده، فانحنى تريان عليه. وفجأة أضاءت وجه الكاهن ابتسامة حارّة طافحة بالحب، والتمع نورٌ في مكان ما وراء جبهته.

فهم تريان أنها كانت النهاية، فركع إلى جانب السرير، وراح ينشج وينتحب.

نهض إيوهان موريتز، وسأل:

- هل أستدعي طبيباً؟

لم يُجب تريان، واستمرّ يضغط على يدي أبيه بين يديه، ويبكي بيأس لم يشعر طيلة عمره بأقوى منه.

فهم إيوهان موريتز عندئذٍ الخبر، فنزع قبعته وركع بجانب تريان، ورسم على صدره إشارة الصليب.

نهض إيوهان موريتز بعد لحظات، فإذا بالسجناء قد تجمهروا حول الخيمة، وقد جاءوا من الخيام المجاورة وكلّ الخيام الأخرى.

شقّ إيوهان موريتز لنفسه طريقاً بين السجناء الذين كانوا جميعاً عراة الرؤوس صامتين، وعاد بعد قليل بشمعة وضعها قرب رأس الميت، في علبة من علب المحفوظات الفارغة، بدلاً من الشمعدان. كانت الشمعة مصنوعة من بقايا الشحوم التي يطلى بها عادة جوانب صناديق الورق المقوى التي تشحن فيها أنواع «الشوكولاتة». أضاءها ونصبها فوق سرير الكاهن كوروغا.

Twitter: @ketab_n

جاء طبيب المعسكر، وهو من سجناء الحرب كذلك، يتبعه ممرضان يحملان نقالة، فدخلوا الخيمة حيث كان جثمان الكاهن كوروغا مسجى.

سأل تريان:

- ماذا تريدون؟

أجاب الطبيب:

- لقد جئنا نحمل الجثة، لأننا لا نستطيع ترك جثث تحت الخيام.

- وإلى أين تمضون بها؟

فأجاب الطبيب:

- إلى خارج المعسكر، لكننا لا ندري أين. يجب علينا أن نُعلم السلطات العليا كي يحضر الأميركيون فينقلونها في سيارة.

- لكن من حقي، رغم ذلك، معرفة المكان الذي ستضعون فيه جثة أبي.

أجاب الطبيب بخشونة:

- هناك أشياء كثيرة نودّ لو نعرفها، ولكن معرفتها مستحيلة.

اقترب الممرضان من السرير وأرادا نقل جثة الكاهن على النقالة، فأوقفهما الطبيب بإشارة من يده وقال:

- يجب أن أعاين الوفاة لأتأكد منها. إذ لعلّه على قيد الحياة.

أمسك بيد الكاهن واحتفظ بها برهة بين يديه، ثم انحنى ووضع أذنه على صدر العجوز.

انتصب واقفاً وأمرَ الممرضين قائلاً:

- يمكنكما نقل الجثة.

Twitter: @ketab_n

صاح تريان:

- كلا!

قال الطبيب:

- ما فائدة الاعتراض؟ إننا لسنا إلّا مجرد مساجين مثلكم، لا نستطيع إلّا إطاعة الأوامر.

- أريد قبل كلّ شيء أن أعرف المكان الذي ستنقلون إليه جثمان أبي. إنّ هذا أقل ما أستطيع طلبه، طالما أنني لن أستطيع حضور دفنه. أريد أن أتأكد من أنه سيُدفن بحسب الطقوس المسيحية. إنّ من حقي معرفة ذلك ولو كنت سجيناً. إنه في اللحظة التي فارق فيها الحياة لم يعُد سجيناً، بل أصبح من حقه أن يحترم، كما تحترم الأموات، كلّ الأموات، على اختلاف مذاهبهم!

سأل الطبيب:

- ومَن قال لك أن الأموات لا يحترمون؟

أجاب تريان:

- إنني لم أقل هذا. إنّ أبي كاهن أرثوذوكسي، وأريد أن يُدفن بحسب طقوس الكنيسة التي كان ينتمي إليها.

- اطلب ذلك غداً خطياً من القائد الأميركي.

- وهل تستطيع أن تؤكد لي أن غداً لن يكون الوقت قد فات لمثل هذا الطلب؟

قال الطبيب:

- إنني لا أؤكد شيئاً. إنني سجين أنا الآخر كما أنت سجين.

- إذاً سيمكث الجثمان هنا. أريد، قبل أن أفترق عنه، الحصول على تأكيد بأنه سيدفن حسب تعاليم الكنيسة الأرثوذوكسية.

قال الطبيب:

- إنك تعترض عبثاً.

Twitter: @ketab_n

- يجوز، ولكنني أمانع رغم ذلك.

- إننا ملزمون بأخذ الجثة.. إذ تلقينا أوامر تقضي بعدم ترك جثث في المعسكر.

قال تريان:

- يمكنكم أخذه بالقوة، ولكنكم ستأسفون.

قبض الممرضان على ذراعي تريان وأبعداه بقسوة عن السرير، ونقل جثمان الكاهن على النقالة، بينما كان تريان يتخبَّط بين أيدي أولئك الذين كانوا يحُولون دونه والقيام بأية مقاومة. ولما مرّ الممرضان بالنقالة من أمامه، لم يستطِع أن يرى إلّا جبين أبيه، ذلك الجبين المرتفع الوضّاء المنير كالقمر.

كان إيوهان موريتز يمشي في أعقاب الممرضين، عاري الرأس، حاملاً بين يديه علبة التنك التي وضع فيها الشمعة المحترقة.

- إنه إثم ستدفع ثمنه غالياً. لا تنسَ أن هناك فِعالاً لا يُصفح عنها، لا تنسَ أبداً أيها الطبيب أنك منعتني عن مرافقة جثة أبي حتى باب المعسكر.

- لست أنا الذي منعتك، إنه النظام.

وجاء في تلك اللحظة رئيس سجناء المعسكر، فوقف بجانب تريان وقال له:

- هدىء من روعك. إذا سمعوك تصرخ نقلوك إلى زنزانة تحت الأرض.

قال تريان:

- لن يستطيع شيء بعد الآن أن يُهدّئني، لم يعد في العالم سجن أو زنزانة تخنق صرخاتي. سأصوم اعتباراً من اليوم حتى أموت. سأصوم وسط عشرين ألف سجين في هذا المعسكر،

Twitter: @ketab_n

وسأذوي ببطء ساعة فساعة، احتجاجاً على ما وقع. سيكون موتي صرخة ثائرة تخترق الآذان والعيون والجلود، فيشعر بها كلّ مَن حولي، وكل الذين سجنوا معي، والذين أبقوني سجيناً. إن هذه الصرخة ستدوي في الجهات الأربعة، ولن يستطيع إنسان أن يفلت منها أبداً، حتى ولا بعد الموت.

- 146 -

سأل إيوهان موريتز:

- أتريد أن تموت حقيقة؟ أتريد أن تموت جوعاً وعطشاً؟

كان قد انقضى أربعة أيام منذ أن قرر تريان الإضراب عن الطعام. وكانت الحرارة شديدة، وتريان مستلقياً على ظهره في ظلّ الخيمة. كان المشي يُتعبه، والكلام يُتعبه، وكان الوقوف والإصغاء إلى مَن يتحدث أو النظر إلى السماء يتعبه كذلك، بل إن وجود شخصه بالذات كان يتعبه.

قرعت صفارة طعام الظهر، فحاول موريتز إقناع تريان من جديد. قال يسأله:

- ألا تريد أن أحضِّر طعامك؟

كان يمسك بيده قصعة تريان ويشير إليها. أردفَ:

- إنهم سيسرّون لموتك. ولكن حب الموت إثم.

قال تريان:

- يمكنك إذا شئت أن تأخذ حصّتي، لأنني لست في حاجة إليها.

مضى موريتز وعاد بعد قليل وقد ملأ القصعة بالحساء. وضعها

Twitter: @ketab_n

بين ركبتيه. كان الحساء حاراً تفوح الرائحة منه، وكان موريتز يتنسم تلك الرائحة بتلذُّذ.

سأل تريان:

- لِمَ لم تأخذ نصيبي أيضاً؟ إنّ ما تأكله لا يكفيك، بل إنه لا يكفي أحداً.

أجاب موريتز:

- إنني لا أستطيع أكل حصتك لأن اللّه سيعاقبني إذا أكلتها، إذ كيف أُقدِم على التهام نصيبك، بينما أنت تتألم وتتعذب؟ إنه إثم لن أرتكبه.

بعد أن وضع موريتز القصعة بين ركبتيه، رفع عينيه إلى السماء المغطاة بالغيوم الثقيلة، ولبث لحظات ينظر إلى الغيوم وشفتاه منفرجتان. ثم أسدل نظرته ورسم إشارة الصليب.

كان تريان يتابع كلّ حركاته، فرأى موريتز يغمس ملعقته في الحساء ببطء الرجل الذي يحتفل بعادة أو طقس ديني. كان يملأ الملعقة حتى نصفها دائماً، ويحملها بعد ذلك إلى شفتيه بحركة جليلة كهنوتية، حركة المناولة الدينية فإذا ابتلع ما فيها توقف برهة محتفظاً بالملعقة بين أصابعه، كما لو أنها لا تزال ممتلئة. كانت عيناه الكبيرتان السوداوان تحدِّقان بقوة في اللانهاية، في شيء لم يكن أحد غيره يراه، شيء قائم هناك وراء حدود الأرض والسماء.

ملأ موريتز معلقته من جديد حتى نصفها كعادته، لأنه ما كان أبداً يلتهم أكثر من نصف ملعقة من الحساء، ولا أقل من ذلك. ثم حملها إلى شفتيه بذلك البطء وذلك الجِدّ اللذين رافقا حركته الأولى.

كان إيوهان موريتز يأكل بخشوع وتلذّذ واتزان، كما لو كان يُقيم

Twitter: @ketab_n

شعائر دينية. كان تناول الطعام في نظره عملاً مقدّساً، يعود به إلى جلاله الأصلي، لأن المسيح قام بذلك العمل.

وككل حركة رئيسة، كان موريتز يتنكّب السرعة، ويقوم بمهمته بانتباه وخطورة، فلا يترك قطرة من الحساء عالقة بشفتيه، أو يدعها تسقط من ملعقته، أو يهملها في القصعة.

كانت تلك الحركات التي كان يستعملها إيوهان موريتز في تناول طعامه، الشبيهة بالحركات القدسية توحي بالصمت وتنفي الريبة والشك.

لم يكن فيها شيء مسرحي ولا شيء رخيص ولا عبث. كان موريتز، في ساعة الطعام، يدخل في نسق الطبيعة الكبيرة، فيتغذى كما تتغذى الأشجار التي تمتصّ رواؤها من غور الأرض. كان كيانه كله ينسجم مع الحركة التي يقوم بها، فكان في تلك اللحظة لا يرى ولا يسمع كل ما حوله، ويعود إلى نفسه يتقمّصها، ويلتقي فيها مع الطبيعة ويتّحد بشدة معها. ولمّا أنهى طعامه بعد أن نضح بملعقته آخر قطرات الحساء في القصعة لبث برهة جامداً في مكانه، يتأمل المشهد الذي يعرض لناظريه، ذلك المشهد الذي لم يكن أحد غيره يراه. ثم جمع أصابعه الثلاثة ورسم على صدره إشارة الصليب من جديد.

التفت إلى تريان وقال له وكأنه هبط إلى الأرض بعد حلم طويل:

- إنه إثم كبير أن يأكل الإنسان طعام غيره.

ثم نهض واقفاً ومضى يغسل القصعة.

لبث تريان في مكانه يحدِّق في البعيد، دون أن يرى الأفق. كان يرى أمام عينيه صورة إيوهان موريتز وهو يحيي طقس التغذية، ذلك الطقس المحترم الجليل الذي امتنع هو عن إحيائه.

Twitter: @ketab_n

قال تريان كوروغا:

- إنني أرفض كلّ مساعدة طبية.

كان ذلك مساء اليوم الرابع لصوم تريان، وكان قائد المعسكر الملازم جاكوبسون قد أُعلم بوصول لفيف من الصحفيين الأميركيين الذين كانوا يزورون المعسكرات والسجناء الألمان المنقولين إلى ستوتجارت، فأمر رئيس سجناء المعسكر شميدت والطبيب الأول أن يتصرّفا بشكل ما فينقلا كوروغا في أثناء زمن ما إلى أي مكان خارج المعسكر لأن الصحافة ما كان يجب أن تُحاط علماً بأمره الذي كان يلفت النظر والانتباه. والحقيقة أن تريان كوروغا لم يكن نازياً، وأن أباه الذي مات منذ حين كان راهباً أبتر الساقين، وكانت زوجته يهودية، فكان بذلك يقدِّم كثيراً من عناصر الفضيحة لأي ناقد صحفي، وإذا هاجمت الصحف هذا الموضوع، فإن رئيس المعسكر سيُستدعى على الفور إلى أميركا وهو الأمر الذي كان يتحاشاه، لأنه كان على وشك الانتهاء من جمع مجموعة هامة من الخزف الألماني. كان قد اشترى كلّ هذه الأشياء لقاء بضع علب من السجائر وحفظها في صناديق خشبية أودعها قبواً في منطقة الاحتلال الأميركية، فلم يكن ينقصه إلّا إيجاد الوسيلة لإرسال تلك المجموعة النادرة إلى الولايات المتحدة. كان يعرف أنه إذا استطاع شراء المجموعة الكاملة الموزّعة في عديد من المدن والقُرى والأقبية الألمانية، فإنه سيستطيع بعد ذلك أن يعيش بهدوء دون أن يعمل شيئاً من خلال ما يتبقى له من حياة على الأرض.

ومن أجل ذلك، كان يريد بكلّ ما أُوتي من عزم وقوة أن يبقى في مركزه حتى يستطيع شراء البقية الباقية من تلك الأواني الخزفية.

Twitter: @ketab_n

ولو أن الصحفيين ما كانوا في ستوتجارت لما خشي الملازم من الفضيحة، ولانقضى أمر كوروغا بسكون وسلام، بل إنه ما كان ليُشير إليه في تقاريره، لأن السجناء كانوا يموتون في المعسكرات كل يوم من الجوع. وكان واقع موت معظم السجناء بسبب قلة الغذاء، وموت آخر لأنه يرفض تناول الطعام، غير ذي أهمية أبداً. ولكن الفضيحة في مثل هذه الظروف كانت تفسد كل مشاريعه ولم يكن يريد إفساد تلك المشاريع، لأنّ الأمر كان يتعلق بالملايين من الدولارات، والفضيحة ستحرمه تلك الملايين.

كان رئيس سجناء المعسكر شميدت - وكان سابقاً برتبة زعيم ورئيس شرطة ويمار الألمانية - قد وعد الملازم جاكوبسون بتسوية قضية كوروغا بأقصر مدة ممكنة وفي سرية تامة.

قال يحدّث تريان:

- إنّ كل طبيب مرغم على العناية بالمريض، ولو كان ذلك يرفض العناية. وأنت مُصاب بالحمى فسننقلك إذن إلى مستشفى المعسكر.

كانت الساعة العاشرة مساءً، وإيوهان موريتز جالس بالقرب من سرير تريان. كان موريتز يجفل كلما سمع صوت رئيس المعسكر شميدت، لأنه كان يحس بأنّ ذلك الصوت يكاد يشبه صوت إيورغو إيوردان.

قال تريان:

- إنني أرفض مغادرة مكاني. إنكم لا تريدون معالجتي لأنني مريض، بل لأنكم تخشون الفضيحة التي سيثيرها وجودي هنا. لذلك تحاولون إخراجي من الخيمة. لكنكم لن تستطيعوا دفع الفضيحة. تعتقدون أنني سأموت سريعاً؟ إن العشرين ألف جثة التي يذخر بها المعسكر لا تقلقكم، لأنّ المساجين الآخرين يموتون بالتدريج

Twitter: @ketab_n

وبهدوء أكثر. وإذا مات المرء بهدوء، فإنه لن يثير فضيحة. إنهم لن يثيروا فضيحة بموتهم البطيء المحقق. لِمَ إذن لا تنقلونهم هم الآخرون إلى المستشفى؟

قال الطبيب دوروف رئيس أطباء المساجين:

- إنّ واجبي يحتّم عليَّ أن أنقلك إلى المستشفى لأنّ حالتك مقلقة جداً يا سيد كوروغا. إننا لن نستطيع إبقاءك هنا ليلة أخرى تحت هذه الخيمة.

رفع ممرضان جسد تريان كوروغا ووضعاه على النقالة كأنه شيء وليس إنساناً، فضمّ موريتز قبضتيه وصرف على أسنانه وأراد الدفاع عن تريان، لكنه تأكّد من أنه خاسر سلفاً.

قال تريان:

- إنها جريمة كبرى أن يعمل المرء عملاً عادلاً تنفيذاً لغاية غير عادلة.

غير أنّ الطبيب تظاهر بعدم السماع، وقال آمراً:

- هيا بنا.

حمل الممرضان النقالة إلى خارج الخيمة.

أخذ السجناء يبتعدون عن طريقهما ويفسحون لهما ممراً. كانوا جميعهم مستيقظين وكانوا جميعهم صامتين.

كان ذلك الصمت يشبه السكوت الذي يعقبه الموت. كان السجناء جميعاً يعرفون ويفهمون أن أمراً خطِيراً كان يحدث في تلك اللحظة، ولكن أحداً منهم ما كان يعرف على الدقة نوع ذلك الأمر.

كانت الليلة قمراء مضيئة وإيوهان موريتز يمشي وراء النقالة منخفض الرأس، وكأنه يواكب جنازة. كان يحمل بين يديه ثياب تريان وأحذيته ونظارتيه وغليونه. كانت الدموع تملأ عينيه، وفجأة

Twitter: @ketab_n

عاد إلى نفسه فأكّد لها أن الإنسان الممدّد على تلك النقالة كان صديقه، وأنّ ذلك الصديق ما زال على قيد الحياة.

ولمّا بلغ الموكب مدخل المستشفى، منع إيوهان موريتز من الدخول إذ قال له رئيس المعسكر:

- إنك لا يمكن أن ترافقنا إلى الداخل، لأنك لا تحمل تصريحاً بذلك. إنّ الأمر صارم واضح: لا يجوز لأحد أن يتحدث إلى تريان كوروغا، لا يجوز له أن يرى أحداً. سأحمل إليه بنفسي ألبسته وأحذيته.

لبث إيوهان موريتز طيلة تلك الليلة يتجوّل وحيداً قرب الأسلاك الشائكة المحيطة بالمستشفى لأنه لم يستطِع إقناع نفسه بالابتعاد عن تريان.

- 148 -

سجن تريان كوروغا في إحدى غرف المستشفى. كانت غرفة حاوية على ستة أَسِرَّة أخرج المرضى منها ليبقى تريان وحيداً فيها.

وقد تلقى ممرضان شابان أمراً بحراسته.

استلقى تريان على السرير وأدار وجهه إلى الجدار. وكانت شفتاه جافتين أشبه بالرماد، وكانت الأحلام والخيالات تخترق ذهنه كالشريط الملون.

لبث مغمض العينين لكنه مع ذلك، ظلّ يشعر بنور عنيف يبهر أبصاره يشبه أنوار «النيون». كان ذلك الضوء ينبعث من داخل نفسه. كأن ضوءاً ساخناً يحرق جفنيه. وكانت أفكاره كلها ملونة مضيئة حتى إن جسمه بدا له كأنه صنع من نور خفيف محرِق كأحلامه تماماً.

Twitter: @ketab_n

كان يشعر كأنه يحلّق من علٍ.

ناجى نفسه: «أكاد أفهم الآن سبب صيام الزهاد والنساك.

«إنهم عندما يجوعون يصبحون أكثر قابلية للانفصال عن الأرض. إن اللّه يكون قريباً جداً منهم. إنهم يشعرون كأنهم يمسّون السماء بجباههم».

لبث تريان كوروغا فترة طويلة في حالة وَجد وانذهال، وفجأة أدرك أنهم جاؤوه بالطعام.

كان أحد الممرضين قد وضع طبقاً على الكرسي، بالقرب من سرير تريان الذي كان يدير له ظهره. لم يرَ تريان الطبق لكنه كان يعرف بكلّ دقة ما يحويه.

تحسَّس أنفه بادئ الأمر رائحة البطاطا المقلوّة بالزبد، ثم رائحة القهوة. كان يشعر بالصحاف على الطبق، كما لو كان رآها وتذوقها لأن حاسة الشم عنده أصبحت مرهفة جداً، فلم يشعر مرة من قبل أنه استطاع تمييز رائحة عن أخرى، كما يميزها في ذلك اليوم.

كان على الطبق كذلك قدح كبير مملوء بالحليب الساخن. كانت رائحة الحليب تشيع في جو الغرفة بشدّة كرائحة القهوة. وكذلك كانت رائحة اللحم قوية نفاذة. كان تريان يحسّ بحدّتها كما يرى المرء لوناً صارخاً يمتاز عن بقية ألوان لوحة زيتية. كانت رائحة الزبدة واللحم المشوي تزيد في صرخة الإغراء التي كانت ألوان الطعام الأخرى تطلقها. كانت تضمخ الغطاء وملابسه وشعره وجدران الغرفة.

كان تريان يشعر بأن رائحة اللحم - المحروق قليلاً - والزبدة والحليب والقهوة تلتصق به وكأنها مرهم لزجٌ.

كان يحسّ بها تخترق رئتيه مع كل شهيق وتغوص حتى معدته.

Twitter: @ketab_n

كان يتملّكه شعور يشبه شعور الجائع وهو يأكل، ويغلب عليه الاعتقاد بأنه عاد عن صيامه بعد أن استمسك به بتجلد وقوة. بذل جهداً كبيراً ليمحو رائحة الأطعمة من سماء الغرفة ومن الهواء الذي يستنشقه، لكن ذلك لم يكن ممكناً، بل كان ذلك العطر - عطر الطعام - يزداد عمقاً دقيقة بعد دقيقة.

راح تريان كوروغا يحلِّل تلك الرائحة بعقل مشرق كما يحلل الضوء بتمريره من خلال موشور.

قال يخاطب نفسه: «إنها وسيلة كغيرها للتثبت من إمكانات حاسة الشم». واسترسل في عملية التحليل التي كانت تعطيه إمكانية السيطرة على مشاعره واعتبار الطعام موضوعاً للبحث ليس إلا. وقد كانت أولى اكتشافاته أن اللحم المقدَّم إليه لم يكن لحم خنزير أو بقر، بل كان من نوع آخر استطاع تريان رغم ما يدخل في صناعة الأطعمة المحفوظة من أجزاء وعقاقير أن يحدس أنه لحم دواجن. وبصورة أدق لحم دجاج رومي. شعر برغبة تدفعه إلى التثبت من صحة تخمينه، لكنه قاوم تلك الرغبة ولبث مستديراً إلى الجدار. كانت رائحة الحليب تنبىء كذلك بأنه ترك على النار حتى احترق. فاستنتج أنه صنع من مسحوق الحليب الذي يغلي بسرعة لأنه مركّز جداً. كذلك أدرك تريان أنّ على الطبق إلى جانب تلك الأطعمة لون من «المربى»، وكانت رائحة هذا النوع أضعف من غيرها. فكانت حاسة تريان تُدركها بصعوبة وكأنها لون فاتح حائل في لوحة زاهية الألوان، غير أن اكتشاف «المربى» استناداً إلى حاسة الشمّ جعل تريان يحسّ برضى فكري وكأنه ضرب رقماً قياسياً أو قام باكتشافٍ مخبري عظيم. وكان الأمر الذي لم يتوصّل إلى تحسُّسه بأنفه هو وجود الخبز على الطبق أم عدم وجوده. فإذا كان الخبز موجوداً فعلاً فإنه يجب أن يكون خبزاً أبيض نخل حتى لم يبقَ من دقيقه إلا

Twitter: @ketab_n

النشاء، وصنع على الطريقة الأميركية، وقد انقضى على صنعه يوم فأكثر.

اقترب الممرض من سريره، وقال له:

- من الخير لك أن تأكل فوراً، لأن الطعام إذا برد يفقد طعمه ولذته.

غير أن تريان لم يجب. كان يودّ الاستمرار في تحليل محتويات الطبق دون أن ينظر إليها، لكن الاستمرار استحال عليه. . لقد فقد الهدوء اللازم لهذه العملية وكذلك فقد التركيز الذهني. كانت الروائح في تلك اللحظة قد اختلطت حتى غدت رائحة واحدة كما تمتزج أطياف الألوان السبعة في النور الأريض. لقد خلطت كلمات الممرض الروائح، كما يقطع الحجر الملقى في بحيرة صغيرة تماوج الماء الرتيب.

اكتأب تريان كوروغا لأنه لم يستطع تحليل روائح الأطعمة وتذوقها على صحتها، لكنه لم يلبث أن أغمض عينيه ولمّا استفاق صباحاً كانت أطعمة الأمس لا تزال في مكانها، وقد أصبحت الرائحة وبدت كأنّ الأطعمة قد ماتت. لم ينظر تريان إليها، غير أنه تأكد من أنها باردة وبالتالي ميتة..

كان تريان كوروغا شديد التعب، فما استطاع أن يتقلب في سريره. ولم يفتح عينيه. بلّل شفتيه بلعابه مراراً، فأزعجه أن يكون لهما طعماً مرّ المذاق حامضاً.

جاء الممرض بطبق آخر وضعه قرب سريره بعد أن حمل طعام الأمس. كان الطبق الجديد يحوي هذه المرة على بيض بلغت رائحته من الشدة والنفاذ ما للإعلانات من ألوان صارخة. وكان إلى جانب البيض عصير برتقال وقدح من الحليب والقهوة وقطعة من الزبد، غير

Twitter: @ketab_n

أن تلك الروائح كلها كانت تجرح تريان كوروغا كأنها نِبال تخترق لحمه.

أغمض تريان كوروغا عينيه وضم جفنيه بقوة لشدة ما كان الألم حاداً عنيفاً.

تمتم: «رباه ساعدني على الانتهاء بسرعة، إن الصمود للإغراء المستمر المُلحّ شديد الصعوبة لمن كان سجين جسدٍ حي».

عزى نفسه حينما فكّر أن جسمه سيموت في خلال يومين أو ثلاثة.

قال: «سأكون ميتاً في خلال يومين أو ثلاثة»، وعاد إلى النوم من جديد.

- 149 -

جلس تريان كوروغا في سريره واشرأبّ بعنقه يطلّ على النافذة. كان الوقت ظهراً، فرأى في فناء المعسكر المساجين واقفين في ثلاثة صفوف منتظمة وهم عراة تماماً. كان فناء المعسكر كله غاصاً بالرجال العراة.

وتحت نافذة المستشفى، كانت هناك سيارة جيب يُحيط بها نفر من الجنود المسلحين بالعصي، وهم يمضغون اللبان. فكان السجناء يتوافدون أمام الجنود واحداً إثر الآخر في مشية مترددة. كانوا عراة تماماً يتقدمون بذعر، وكان تريان يعرف هذا اللون من الأحاسيس، لأنه أحسّ بمثله في ظروف مماثلة.

قال في سره وهو يتساءل: «إنه تفتيش جديد ومصادرة جديدة؟ ماذا ينتظرون في هذه المرة؟».

Twitter: @ketab_n

كان التفتيش والمصادرة يجريان مرّات كل شهر.

في تلك اللحظة وصل عجوز أمام الجنود.

قال تريان: «المطران بالاد، مطران فارصوفيا».

كان المطران طويل القامة نحيلاً محدودب الظهر قليلاً، عبارة عن هيكل عظمي يغطيه الجلد، يمكن إحصاء عظامه على البُعد. وكانت لحية المطران بيضاء، ولم يكن في الفناء كله لوناً أبيض غيرها، فإذا نظر المرء إليها شعر كأنها تعكس نوراً. كانت بيضاء ناصعة، تضفي على صاحبها نبلاً. فلمّا وصل أمام الجنود تضاحكوا ساخرين.

لكن المطران ما كان يبدو عليه أنه يراهم. كان ينظر إلى السماء من فوق خوذاتهم، وكانت السماء في ذلك اليوم زرقاء كقبة كنيسة بيزنطية.

عاين الجنود أصابع المطران، ثم أمره المترجم:

- باعد بين أصابعك.

ففتح الكهل أصابعه وأكبّ عليها الجنود يفحصونها بعناية. غير أنّ السجين لم يكن يحلي أصابعه بالخواتم.

أمر المترجم المطران:

- ارفع ذراعيك.

رفع الهرم ذراعيه إلى صدره أولاً، وكأنه يبارك المصلين، ثم إلى فوق رأسه. ما كان ينظر إلى المترجم ولا إلى الجنود، لكن المترجم والجنود كانوا يفحصون جسده بدقة خشية أن يكون قد أخفى حلياً تحت إبطيه.

ثم عاينوا شعره ومؤخرة رأسه، لأن شعر المطران الأبيض كان طويلاً يمكن أن تخفى بينه بعض الحلي. أبعد الجنود أولاً خصلات

Twitter: @ketab_n

شعره بعصيهم ثمّ بأيديهم، فلم يتركوا مكاناً إلا وتحسسوه بأصابعهم باحثين. ولم تنجُ لحيته الطويلة من تفتيشهم، مخافة أن يكون قد دسّ بين شعرها بعض الخواتم.

قال المترجم:

- استدر.

فاستدار الشيخ مولياً ظهره إلى الجندي.

قال المترجم:

- انحنِ.

فمال محنياً ظهره وكأنه يتضرع ويبتهل أمام الأيقونات، لكن الانحناء وحده لم يكن كافياً.

قال المترجم:

- باعد بين ساقيك.

فامتثل المطران وباعد بين ساقيه البيضاوين الناحلتين، فراح المترجم والجندي يفتشان عن الخواتم والأشياء الذهبية الأخرى التي قد يكون المطران قد خبأها بين ساقيه أو في مؤخرته.

كان المطران منحنياً مديراً نحو الجنود، مباعداً بين ساقيه. فقال أحد الجنود كلمة إلى زميله، وبعدها تكلم المترجم، فقال:

- يمكنك أن تذهب.

وراح الجنود يفتشون الشخص التالي.

ابتعد المطران بتلك الخطوات المترددة والريح تداعب لحيته وشعره وكأنهما علمٌ حريري أبيض. خيِّل لتريان أن المطران لم يكن عارياً كالآخرين.

تابعه تريان كوروغا بنظرته حتى بلغ صف الرجال العراة وانتظم بينهم، فتحوَّل في تلك اللحظة إلى واحد منهم، دون أن يختلط مع

Twitter: @ketab_n

ذلك الحشد المجتمع. كان هناك شيء يخفق حول رأسه، شيء يستوقف البصر، لعله كان شكل رأسه. على كل حال كان هناك شيء يرغم الناظر على التأمل فيه والنظر إليه كما يتأمل المرء الصور الدينية والأيقونات.

قال تريان كوروغا، وهو ينتفض:

- إنني أعرف الآن نوع هذا الشيء الذي أراه.

فالتفتَ الممرضون إليه غير أن تريان ظلّ ينظر من خلال النافذة متجاهلاً وجودهم.

«إن رأس المطران مُحاط بالنور، إنه محاط بهالة. إن وراء ذلك الجبين نور ساطع، أكثر ضياء من «النيون» والكهرباء، وهو الذي يشع حول رأسه تلك الإشعاعات، إنه نور ذهبي».

رفع العجوز عينيه نحو نوافذ المستشفى بعد أن انتظم في صفوف وحدته فازداد لمعان الهالة التي تحيط برأسه شدة.

حدَّث تريان نفسه، «إن الهالة ليست إذن اختراع مصوري الأيقونات» وراح يفحص السجناء الآخرين، فشاهد رؤوساً أخرى تحيط بها تلك الهالة، رؤوساً لم يكن يعرف أصحابها كلهم. كان رأس مدير مجمع فيينا العلمي محاطاً بهالة أيضاً، وكذلك رأس صحفي شاب من برلين، ووزير يوناني، وسفير رومانيا في برلين، وعدد آخر من الناس كانت رؤوسهم جميعاً محاطة بهالة براقة من نور. وكانت جباههم تعكس إشعاعات أشبه بالنار المشبوبة أو العاكس الكهربائي. غير أن تلك الإشعاعات حتى كانت أجمل ممّا يمكن أن تحدثه النار أو الطاقة الكهربائية كان ذلك الضوء الذي ينبعث من جباههم قادراً على إنارة العالم كله، وما كان يمكن للظلام أن ينتشر على الأرض أبداً بفضل ذلك النور.

Twitter: @ketab_n

سأل الملازم جاكوبسون:

- لماذا لا تريد أن تأكل؟

كان الملازم قد دخل غرفة تريان، بعد أن خرج منها الطبيب ورئيس المعسكر ليمكث وحيداً معه. سأل:

- ماذا ترغب؟ لا ينبغي أن تَعتبر هذا المعسكر مَعرضاً!

فأجاب تريان:

- إنني انقطعت عن الأكل لأنني لا أشعر بالجوع. لقد اختفت شهيتي إلى الطعام فجأة، وأشعر بغثيان رهيب. إنّ إمعائي مقلوبة. وأنت أيها الملازم ألا تشعر بالغثيان؟ صمت جاكوبسون وأسف لبقائه وحيداً مع تريان كوروغا. خيّل إليه أن السجين قد جنّ. كانت عيناه تلتمعان، ففكر الضابط في نفسه: «قد يهاجمني ويخنقني»! وألقى نظرة إلى الباب ثم ابتسم وقال:

- هدئ روعك يا سيد كوروغا، إنك شديد الانفعال مُثاراً. وسبب ذلك مفهوم واضح. فأنت لم تطعَم منذ ستة أيام ولم تشرب.

قال تريان:

- لا تذهب، أيها الملازم. إنني لستُ مجنوناً فلا تخف مني. إن سؤالي حول الغثيان كان غريباً شاذاً. لا شك أنه لا يمكن أن تشعر بالغثيان لأن المرء إذا بدا مغمض العينين محكماً سدّ أنفه، فإنه لا يتعرض لشيء لأن الإنسان يتعود كل شيء حتى الغثيان. إنها مسألة إرادة فحسب، وأنا لا أملك إرادة. ولذلك تنتابني موجة الغثيان والقيء. هناك عمال يتناولون إفطارهم وغذاءهم وعشاءهم قرب فتحات المجاري العامة أو حفر المراحيض. ولكن ذلك لا

Twitter: @ketab_n

يؤثر فيهم لأنهم ألفوه. لقد رأيتهم بأم عيني يتناولون مصيراً محشواً وشرائح من الخبز المطلية بالزبد، على بعد خطوتين من حفرة أقذار عضوية، ويتلمّظون ويلعقون شفاههم مسرورين هانئين، ويتبادلون الأقاصيص والأحاديث. إن المرء يألف ذلك حتى ولو كانت حاسة الشم عنده مرهفة حادة. إن الألمان كانوا يحرقون جثث المساجين في معسكرات الاعتقال. لكنهم ما إن يغلقوا باب الأتون المعد لإحراق الجثث حتى يمضون لتناول طعامهم ببشاشة وغبطة، دون أن يشعروا بأيّ غثيان. يوجد هنا رجال صنعوا فروشاً من شعور النساء اللاتي قُتلن في معسكرات الاعتقال، واستعملوا تلك الفروش للنوم عليها مع عشيقاتهم، ومطارحتهن الهوى. وقد أنجبت لهم نساؤهم أبناء بعد نومهم معهن على تلك الفروش، التي تحوي على شعور نساء قُتلن وأحرقن. لقد مارسوا تلك الغرائز، دون أن يشعروا بأي تقزّز أو اشمئزاز، نعم دون أن تتقزّز نفوسهم، بل إنهم على العكس كانوا يشعرون بلذّة وسرور. لقد كنت في السجن مع امرأة كانت تستعمل في غرفة نومها وفي مخدعها الخاص سجفاً مصنوعة من الجلد الآدمي. فكانت تحوّل الضوء المنبعث إلى أصفر داعر مثير للشهوات. وعلى الضوء الذي كان يتسرب من خلال ذلك السجف الآدمي، مارست تلك المرأة الحب، وأكلت، ورقصت، وشربت، واستسلمت لذراعَي رجل انحنى فوقها وقبّلها. لقد كانت سعيدة رغم كلّ ما يحيط بها من فظاعة وقسوة. والكائنات البشرية تألف الغثيان لأنه مجرد إرادة وعادة. لقد استحيى الروس نساء في الثمانين من أعمارهن. لقد استحيوا عدداً لا يحصى منهنّ، تناوبوا مضاجعتهن بمعدل عشرة رجال لكلّ امرأة. لكنهم بعد مقارنة امرأة في الثمانين، لم يشعروا بالغثيان، بل شربوا الفودكا وطربوا. أما أنتم، فإنكم لا ترتكبون شيئاً من هذا. إني أعرف هذه الحقيقة،

Twitter: @ketab_n

وأعرف أنكم لا تستحيون النساء بالقوة، بل تقدّمون لهن قطع «الشكولاتة» وتستعملون ما يقيكم العدوى إذا ما ضاجعتموهن ولا تتصرفون كذلك تصرف الألمان. لأنّ لكل شعب عاداته وتقاليده. لكنكم أنتم أيضاً لا تخافون الغثيان ولا تشعرون به مهما عملتم. إنني واثق من أنكم لا تتعرضون لأي خطر، لأن الغثيان - وأرجو أن تصدقني - وبالٌ جسيم. انظر إلى آلامي وشدّتها. إن أمعائي مقلوبة كما يقلب القفاز. إنني أشعر بها وكأنها في فمي. إنّ عصارة الصفراء تنكص في طريقها، وكلّ معدتي مضطربة لا تعرف قراراً لأنني أشفق على الكائنات البشرية إشفاقاً فظيعاً. فكيف تريد مني أن أستطيع الأكل في مثل هذه الشروط. كيف تطلب إليّ أن أحتفظ بشهيتي إلى الطعام؟ هل أدركتَ أنني لن أعرف بعد اليوم كيف أتناول طعاماً؟

كان الملازم جاكوبسون قد اقترب من الباب وهو يأسف لمجيئه. لم يبلغه رئيس المعسكر والطبيب أن تريان كوروغا قد جنّ، بل أبلغاه أنّ المريض كان محتفظاً بكامل إشراقه الفكري. لكن ما سمعه للتوّ، كان ينفي ذلك القول. لقد كذب كلاهما لأنّ السجين كان مجنوناً.

قال قائد المعسكر:

- إنك على حق يا سيد كوروغا. إن في مثل هذه الأحوال يستحيل عليك أن تشعر بشهية للطعام.

قال تريان:

- لا تذهب. إنني أنهض بصعوبة كبيرة. انظر من النافذة وأخبرني إذا كان التفتيش قد انتهى.

فأجاب الملازم جاكوبسون:

Twitter: @ketab_n

- كلا، إنه لم ينته بعد.

ازداد تعجب تريان كوروغا وذهوله. وتساءل في سره: «كيف يستطيع رجل بعد أن ينظر إلى طريقة التفتيش الذي يُجرى في الفناء، أن يمضي مباشرة إلى مائدة الطعام كما سيفعل جاكوبسون»؟

كان الوقت ظهراً.

قال تريان:

- إن التفتيش لم ينتهِ بعد، ولن ينتهي بسرعة لأنه لمَّا يبدأ بعد. لقد فتشتم بادئ الأمر عن الذهب في الحقائب والدور والجيوب وبين الملابس وفي الأحذية والثنيات وفي السراويل الداخلية. والآن تبحثون عنه في أفواه الرجال وتحت آباطهم وفي مؤخراتهم. إنكم تبحثون في كل مكان. وعلى الرجال أن يخلعوا ملابسهم ويقفوا عراة أمامكم. مع ذلك فإنها ليست إلا البداية. سوف تنتزعون الجلود غداً بحثاً عن الذهب تحتها، ثم تنتزعون العضلات عن العظام بحثاً عن الذهب، وبعدئذٍ تحطمون العظام لتنظروا إذا لم يكن فيها شيء من الذهب، وأخيراً تضغطون أدمغة الرجال وتفتشون في أمعائهم وأمصرتهم وتمزقونهم إرباً، بحثاً عن الذهب وقطع الذهب وخواتم الذهب. ستحطمون القلوب وتجزئونها بحثاً عن الذهب. الذهب! الذهب! الذهب! إننا اليوم في البداية: إنكم ما زلتم تبحثون فوق الجلد، لكن الجلد سيُنزع والتفتيش سيستمر. . .

لم يكن الملازم جاكوبسون في الغرفة حينما بلغ كوروغا هذا الحدّ من كلامه، بل كان قد خرج. لذلك فقد عاد تريان يتجه نحو الجدار.

Twitter: @ketab_n

عرض حال رقم 6 - الموضوع: اقتصادي. (القِيم والثروات التي يعثر عليها مع السجناء).

لقد صودرت من المساجين، في بحر التحريات التي أجريت من قبلكم، خواتم الزينة والزواج والأساور والساعات وأقلام الحبر والنقود الفضية وكل الأشياء القيِّمة.

وعلى الرغم من أنّ تلك التحريات تجري بدقة حتى أَدَمَة البشرة، فإنها مع ذلك ليست تحريات كاملة.

لقد لاحظت اليوم حول رأس عدد من المساجين تيجاناً تشبه هالات القديسين التي ترسم على الأيقونات. إن للقديس كما أعرف تيجاناً من الذهب. غير أن هالات المساجين ليست من ذهب أو من أي معدن ثمين، ولو كانت كذلك لكانت تلك التيجان - أو الهالات إذا كنتم تفضلون هذا التعبير - قد صودرت من قبل. لكنها رغم افتقارها للمعدن الثمين، فإن قيمتها أرفع من أن يُغضّ عنها الطرف.

إنني شخصياً لست من العلماء. لكنني أعتقد أن تلك الهالات يجب أن تكون ذات قِيم مرتفعة، لأنها لا يمكن أن تظهر إلا نتيجة إشعاعات تنبثق من أدمغة بعض السجناء وأرواحهم.

إن من الضروري لَفت النظر إلى أن أموراً كهذه لا تظهر في المجتمع الآلي الغربي. لأن تلك الظاهرات على ما يبدو، من خصائص المجتمعات غير الراقية، لكن ذلك عديم الأهمية. إذ طالما كانت لتلك التيجان قيمة ما، فلا يجب والحالة هذه أن تبقى في متناول يد المساجين، لأن احتفاظ المساجين بأشياء ثمينة قيِّمة ممنوع بشدة.

Twitter: @ketab_n

إنني أعتقد أن هذا النوع من التيجان أو الهالات كان، في بعض مراحل التاريخ، موضوع مصادرات متعدِّدة. فقد كان الغزاة البرابرة، من نوع جنكيزخان، يقدّرون هذه الزينة التي تُكتشف عند بعض المساجين حق قدرها، وينتزعونها منهم. ولم تكن وسائل النقل في تلك الحقبة من التاريخ مماثلة لوسائلنا اليوم. لذلك فقد كان جنكيزخان - وهو الذي كان يريد الحصول على تلك الهالات وامتلاكها - يعطي الأمر بأن ينقل الرأس مع الهالة إلى قصره كي لا يفسد الإشعاع الضوئي الذي ينبعث منها. فكانت الرؤوس ذات الهالات، رؤوس المساجين من بلاد الصين والعرب، تُربط بخيط، وتُعقد إلى سروج الخيل، وتُحمل إلى منغوليا. ولكن حدث في الطريق - بسبب الشروط الجوية وتبدل الحرارة الفجائي ولا شك - أن اختفت الهالات عن كل الرؤوس المقطوعة، وظلّت محرومة من الزينة، فألقيت بعد أن تطرّق إليها الفساد.

ولكي تتحاشوا خسارة كهذه، يحسن بكم أن لا تعمدوا إلى قطع رؤوس المساجين كما فعل من قبل جنكيزخان، بل تستطيعون الاحتفاظ بأولئك الذين يملكون هالات حول رؤوسهم، في نواقيس زجاجية ذات جو مقننٍ وحرارة دائمة، وإرسالهم إلى وطنكم.

إن مجتمعنا جمٌّ سعادة لا مَثيل لها بامتلاكه الوسائل الآلية الفنية اللازمة، التي توفر علينا الخسائر التي مُني بها البرابرة من قبل. لقد نقلت الأخبار والأساطير أن نصف مليون هالة قد ضاعت على هذا الشكل في الزمن الغابر.

وتفضلوا واقبَلوا كالعادة تعبير إعجابي - ابتسم!

الشاهد

Twitter: @ketab_n

قال رئيس مساجين المعسكر:

- ستُنقل إلى المستشفى في خلال خمس دقائق.

كان يذرع غرفة تريان في مستشفى المعسكر جيئة وذهاباً. أردف يقول:

- سوف يطعمونك هناك رغماً عنك، وأنني آسف لذلك. لقد حاولنا كما حاول الملازم جاكوبسون أن نثنيك عن عزمك، وبذلنا ما بوسعنا. لكنك لم توافق على تبديل سلوكك. لقد أردنا العمل في مصلحتك فأدرت لنا ظهرك.

كان تريان مستلقياً على سريره وظهره إلى رئيس المساجين. فقال هذا بغضب:

- إنّ سلوكك يدلّ على نقصٍ عام في شعور الزمالة في نفسك. إنك تضيِّع وقت الأطباء والملازم جاكوبسون عبثاً بمسائلك الشخصية. إن لدينا عشرين ألف سجين في المعسكر، علينا أن نهتم بشأنهم، وليس بك وحدك من دونهم. إنك واحد، بينما هم عشرون ألفاً. إن المشاكل الخاصة لا ينبغي أن تحتل حيّزاً في تفكيرنا. إنّ لكلٍّ من هؤلاء المساجين أسرة: زوجة وأطفالاً، ولهم مشاغلهم الشخصية أيضاً. فماذا يحدث لو حذا كلّ منهم حذوك؟ لكنك أنت، لا تفكر أبداً في الجماعة. إنك أناني. لقد تبعت أنا نصائح الملازم جاكوبسون، وهو رقيق الشعور يؤمن بالديمقراطية ككلّ الأميركيين، فأضعت هذه الأيام الأخيرة، بسبب إصغائي لنصائحه، ما لا يقلّ عن خمس ساعات كلّ يوم في العناية بشخص واحد مفرد، على حساب العشرين ألفاً الآخرين. إنّ هذا جنون مطبق.

فقال تريان:

Twitter: @ketab_n

- إنك لا تعنى بأيّ سجين في هذا المعسكر. إنك تهتمّ بآلة إدارية، وأقصد: إنك تعنى بشيء غير شخصي. إنّ المخلوقات في هذا المعسكر لا يجب أن يخلط بينهما وبين تلك الآلة التي تقتصر على سجلات وآلات كاتبة وأرقام. إنك تهتم بهذه الأشياء فقط. أما العشرون ألف سجين، فإنك يا سيدي رئيس سجناء المعسكر لا تهتم بأحد منهم. إن العشرين ألف رجل مخلوقات من لحم وعظم ودم وروح. إنهم مخلوقون من ألم وإيمان ورغبات وجوع ويأس وأوهام.

«وأنت لا تعنى لا بأجسادهم، ولا بدمائهم، أي بعناصرهم الشخصية، ولا بآمالهم أو يأسهم، وهي العناصر الأكثر خصوصية وتعلقاً بهم. إنك تهتم بالأوراق والأرقام. إنك لا تعرف سجيناً واحداً منهم، فكيف تزعم أنك تهتم بشأن العشرين ألف سجين بينما أنت لا تهتم بواحد منهم؟ إنّ قولك مضحك! إن المعلومات والأشياء الأخرى المجرّدة هي وحدها التي تستأثر باهتمامك واهتمام جاكوبسون، وليس الرجال أنفسهم. حتى أنا، إنني لا أظفر باهتمامك بصفتي إنساناً. إنني، بالنسبة إليك، لست إلّا كسراً من وحدة مقسمة إلى عشرين ألف قسم. ولهذا السبب، يغضبك التفكير في أنك تضيع وقتك معي. إنك لم تنظر إليّ كما ينظر إلى شخص. حتى امرأتك، لا يمكن أن تنظر إليها كمخلوق فردي خاص. لقد اعتبرتها ولا شك امرأة تقوم بمهمة أمّ لأولادك وإدارة بيتك. لكنك كما يبدو، لم تنظر إليها قط في مجموعها. مع ذلك فإنها ليست موجودة إلا في مجموعها كزوجة، بل إنك لا تعرف نفسك أكثر من معرفتك لها.

«إنك لم تعرف أي مخلوق على سطح الأرض. لأنك لو عرفت مخلوقاً بشرياً واحداً، لما شعرت قط أنكَ تضيع وقتك وتصرفه عبثاً، إذا صرفته في العناية بإنسان. إنك لم تعرف إلّا مخلوقات بشرية

Twitter: @ketab_n

معدَّلة ومحولة إلى مقياس واحد، لكن هؤلاء ليسوا مخلوقات بشرية بمعنى الكلمة، كما أنّ المكعبات التي يؤخذ ضلع واحد منها لا يمكن أن تكون مكعبات حقيقية.

جاء الممرض معلناً أنّ سيارة الإسعاف قد وصلت إلى فناء مستشفى السجن. فقال تريان:

- وددتُ لو أستطيع وداع صديقي إيوهان موريتز.

- محظور عليك أن تخاطب أياً من السجناء.

أدار تريان كوروغا ظهره إلى رئيس السجناء، فلفّه الممرضون في غطاء من الصوف وحملوه إلى عربة الإسعاف كما تُحمل الأشياء العادية.

كانت نافذة عربة الإسعاف مغلقة بستارة، لكن تريان كوروغا كان على ثقة من أن إيوهان موريتز واقف أمام باب مستشفى السجن، بانتظار رحيل عربة الإسعاف.

ابتسم تريان كوروغا وهو يفكّر في إيوهان موريتز، وقال بودٍّ ورفق: «الوداع»!

- 153 -

لقد جاءنا أميركيان بسجين مجنون.

نهض رئيس أطباء مستشفى السجناء في «كارلثروه» من سريره، وأضاء النور الكهربائي، ثم نظر إلى ساعته فألفاها الواحدة صباحاً. فراح الممرض الذي أنبأه بقدوم السجين المجنون يساعده على ارتداء ملابسه: فلما انتهى، خرج الطبيب من الغرفة وهو سيئ المزاج.

كان السجناء لا يوفدون إلى هذا المستشفى الكبير إلّا جماعات جماعات. فكانوا يُستَبْقون في المعسكر، حتى يبلغ عددهم مائة

Twitter: @ketab_n

مريض، وعندئذٍ فقد ينقلونهم إلى المستشفى. فكان المرضى الخطيرون يرغمون على الانتظار في المعسكر، ثلاثة أو أربعة أسابيع حتى يتم العدد، فيصبح نقلهم جائزاً. ولقد وقع في خلال العام كله حادثان استثنائيان، وكان هذا الحادث الأخير الثالث من نوعه.

سأل الطبيب وهو يدخل إلى المكتب:

- أي نوع من المجانين يمكن أن يكون، حتى يأتونا به في هذه الساعة من الليل؟

فقال الممرض:

- إنها حالة خطيرة جداً ولا شك. لكنني لم أرَ المريض بعد. لقد كان نائماً في عربة الإسعاف. إنه ولا شك حادث جدّي حتى احتمل أميركيان عناء نقل المريض في مثل هذه الساعة.

كان الطقس بارداً في الخارج، والطبيب منزعج لأنه انتزع من فراشه الدافئ، فكان يرتجف من شدة البرد وهو يوقِّع على ورقة إدخال السجين المريض.

صعد الأميركيان إلى عربة الإسعاف، وعادا من حيث أتيا؛ بينما عاد الطبيب إلى فراشه، بعد أن رفض معاينة المريض على الفور. لقد كان يرتعد من البرد، لذلك اكتفى بأن أوعز بنقل المريض إلى الجناح الخاص بالأمراض العقلية.

لم يكن تريان كوروغا يعرف المكان الذي وَجد نفسه فيه. كان يعرف فقط أن العربة أصيبت بعطب أخّرها حتى منتصف الليل. ولم يكن يهتم بالوقت، خصوصاً وأنه لم يفتح عينيه إلا عندما اجتاز به الممرضان فناء المستشفى، محمولاً على النقالة، وعندئذٍ فقط فتح عينيه، فرأى السماء تلتمع النجوم فيها.

قال وهو يبتسم للطريق الأبيض الكبير الذي كان يبدو في السماء: طريق «المجرة»، وتذكر أقوال رئيس السجناء في المعسكر:

Twitter: @ketab_n

«سنرسلك إلى مستشفى حيث يطعمونك هناك بالقوة». فصمم تريان بعزم على رفض كلّ معونة طبية: «سأرفض تناول الطعام أو الشراب طالما كنت متمالكاً قواي الحسية».

لمّا سمع الممرضان اللذان يحملانه عبارة «طريق المجرة» ضحكا ووضعا النقالة على الأرض، واقترب أحدهما من تريان وقال له بهزء:

- لقد بلغنا طريق المجرة.

لم يفهم كوروغا غاية الممرض، ولم ترق له الدعابة، وشعر بأيدٍ تحمله وتمدِّده على سرير.

- 154 -

راح تريان كوروغا يتأمل الغرفة التي وجد نفسه فيها. كان في سقفها مصباح كهربائي محاط بغلالة معدنية، والنافذة مشبكة بقضبان حديد متينة. كان في الغرفة أربعة أسرة رأى على اثنين منها مريضان لبثا قريبين من بعضهما يتحادثان، وهما يرتديان الثياب العسكرية الألمانية.

لما أدخل تريان أمس إلى الغرفة، لم يلتفت ذلك المريضان إليه، بل ظلا يتحادثان. كان يبدو على كليهما أنهما لم يتجاوزا سنَّ الشباب. أما المريض الثالث فكان ممدداً في سريره، مخفياً رأسه تحت الغطاء. غير أن عيني تريان وقعتا على حذائين ضخمين يبرزان من تحت الغطاء، فتساءل في سره: كيف يستطيع المريض ذو الحذائين الضخمين البقاء نائماً في تلك الساعة.

وكان، بالقرب من الباب، ممرض يرتدي سترة بيضاء، يجلس على مقعد. كان رأسه يشبه رأس رئيس سجناء المعسكر شميدت:

Twitter: @ketab_n

رأس مربع كبير، رأس من خشب. وكانت عضلات وجهه كلها جامدة ميتة، وكذلك كانت نظراته زجاجية خامدة. لم يكن للممرض رأس رجل ميت، ولكن رأس رجل لم يكن حياً أبداً.

اقترب الممرض من تريان وسأله:

- ألا تريد أن تقصّ علينا حكايتك؟

غمز في ذقنه كما يفعل المرء مع طفل يؤنبه فتخلص تريان كوروغا منه ولم يجب.

استطرد الممرض:

- إنك لا تريد إذن أن تقصّ علينا شيئاً! إنك من أولئك الذين يصمتون.

وربت على خده وأردف:

- إذا كان ذلك يروق لك، فلا بأس من أن تتسلى وحدك مع العنكبوت الذي في السقف.

وعاد يجلس على مقعده قرب الباب.

- 155 -

لقد سجنوني في مستشفى للمجانين لأنني أضربتُ عن تناول الطعام.

راح تريان كوروغا يعضّ شفتيه قهراً، وقد تبدَّد تعبه، واستعرت في نفسه رغبة هوجاء تدفعه إلى النضال.

خاطب نفسه: «إنني في مستشفى المجانين! إنّ خطتهم ليست رديئة. إنني لم أصادف مثلها من قبل، حتى ولا في الروايات التي تصف التعذيب في السجون الروسية. لو وقع كل الأطباء المساجين وأساتذة الجامعات في المعسكر على شهادة تثبت أنني مجنون. إنهم

Twitter: @ketab_n

يريدون إثبات جنوني اعتماداً على إضرابي عن الطعام، لكن في الحياة بعض الأمور التي لا تنتهي بهذه السرعة، وخصوصاً بهذه البساطة. سأثابر على النضال».

ضغط تريان كوروغا على قبضتيه.

قال في سرّه: «ينبغي أن أثبت لهم الآن أنني متمالك كلّ قواي العقلية».

اقترب من الممرض مترنحاً، وهو يستند إلى الجدار.

سأله الممرض:

- هل جئت تقصّ عليّ حكايتك الصغيرة؟ كنت أعرف أنك ستقصها عليّ.

وضحك الممرض، واستطرد يقول:

- إنّ كل من يأتي إلى هنا يحمل معه قصته الصغيرة ليرويها، لكن لا وقت عندي الآن للإصغاء إليك، يا صغيري. سترويها لي غداً أو بعد غد. في خلال شهر أو سنة إذا شئت، لأن الوقت لن يعوزك لتقصها.

كان الممرض يحمل صحيفة بين يديه، فأراد الاستمرار في القراءة، لذلك قال:

- إنّ سريرك هناك فاذهَب إليه والبِث ساكناً، ولا تشغل سرير غيرك. هل فهمت؟

قال تريان:

- كنت أريد أن أسألك شيئاً.

فأجاب الممرض منزعجاً:

- إنني أعرف أنك تريد أن تسألني شيئاً، ولكن لا وقت عندي الآن. اذهب إلى فراشك. ينبغي أن تكون غلاماً عاقلاً وإلا لقّنتك درساً صغيراً بالسوط الذي سأريكه.

Twitter: @ketab_n

وأخرج من درج في الطاولة سوطاً من سياط الفرسان عرَضَه على تريان، ثم أعاده إلى مكانه.

أدرك تريان كوروغا أن كل ما سيقوله لا فائدة منه، وأنّ كل محاولة من قِبَله ستُعتبر تخريف مجنون، لذلك عاد إلى سريره واستلقى عليه.

- 156 -

«لم يكن وجودي في السجن كافياً حتى أزجّ الآن في ملجأ للمجانين». . . وأغمض تريان عينيه بيأس! . .

كان يريد تنظيم خطة نشاطه لليوم التالي، لكنه شعر بعجزه عن كل شيء. فنام مطبق القبضتين.

- انهض!

انتفض تريان إذ لم يكن بعد قد أغفى، فرأى الممرض الذي نقله أمس منتصباً أمامه. لقد عرفه تريان من صوته، لأنه لم ينسَ بعد أنه قال له أمس بعد أن وضع النقالة على الأرض: «لقد بلغنا طريق المجرة».

- أعطني كلّ ما في جيوبك.

نهض تريان وراح يبحث في جيوبه عمّا فيها بيدٍ مرتعدة. أخرج منديله وقدَّمه للحارس، ثم أخرج من جيب آخر الغليون الذي رافقه في كلّ هذه المحن، فقدمه إليه كذلك. أما الجيب العلوية فقد أخرج منها أيقونة صغيرة تمثّل القديس أنطوان. فتأملها برهة ثم سلّمها كذلك للحارس. .

- أليس معك أشياء أخرى؟

فأجاب تريان:

Twitter: @ketab_n

- كلا، إن هذا كلّ ما معي.

فقال الممرض آمراً:

- ارفع ذراعيك!

رفع تريان ذراعيه إلى مستوى صدره وعجز عن رفعهما إلى الأعلى. وشعر بغشاء رقيق يحجب عينيه.

أمر الحارس:

- ارفعهما إلى فوق رأسك!

أجاب تريان بصوت خافت:

- لا أستطيع. إنني أشعر بألم هائل ودوار وتبلد.

فأمسك الممرض بذراعيه ورفعهما ثم شبكهما فوق رأسه. فأحسّ تريان بيديه تبهظانه ثقلاً، كحجر صلد أقيم فوق رأسه. لم يتوقع مرة أن يشعر بثقل يديه على هذا الشكل، وأن يعجز عن إبدال مكانهما أو تحريكهما.

فتش الممرض جيوبه، فشعر تريان بأن الأيدي الأجنبية لم تدخل إلى جيوبه فحسب، بل إنها كانت تخترق جلده ولحمه باحثةً عن شيء ما.

- يمكنك أن تخفض ذراعيك.

وأخذ الممرض بيديه وأسدلهما على جانبي جسده.

- انزع سيور حذائك.

فقال الممرض الذي كان يقوم بالحراسة في الغرفة:

- دعه بسلام. انظُر إلى وجهه، ألا ترى أنه أصفر كالشمع؟

مدَّد الممرضان تريان على السرير، وحلّا سيور حذائه وحملوها معهما، ثم نزعا من سراويله العسكرية الداخلية البند الذي يثبتها، وأخيراً نزعا نظارتيه.

Twitter: @ketab_n

هتف تريان بصوت كله ضراعة وتوسل:

- لا تأخذوا نظارتي!

لقد كان بصره شديد الضعف.

- إنك تفكر في قطع أحد شراينك بزجاجها، أليس كذلك؟

- إنني لا أرى شيئاً إذا لم أثبت نظارتي.

- ليس لديك ما تراه هنا!

حزم الممرض نظارة تريان ومنديله وغليونه والأيقونة في رزمة ربطها بإحكام. لقد كانت تلك الأشياء كلّ ما يملك تريان كوروغا على الأرض. فأخذها الممرض ومضى.

- 157 -

- انهض لتأكل!

كان ذلك في صباح اليوم الأول الذي أمضاه تريان في مأوى المجانين.

نظر تريان إلى القصعة المملوءة بالحساء التي كان يمدّها الحارس إليه وقال:

- عبثاً. لن آكل!

قال الحارس:

- إذا كنت تظنّ أنك تستطيع التصرف على هواك فإنك تضيع وقتك.

ووضع قصعة الحساء على الأرض قرب السرير واتجه إلى السرير المقابل.

قال تريان:

Twitter: @ketab_n

- إنني مضرب عن تناول الطعام منذ ستة أيام.

- إن كلّ الزبائن هنا يعلنون الإضراب، يا دميتي. إنك لست وحيداً في ذلك!

اقترب الممرض من المريض الذي رآه تريان يغطي رأسه والذي كانت أحذيته الضخمة تبرز من الجانب الآخر من السرير.

كان هرماً ذا لحية بيضاء، ينظر بوجل إلى الحارس. فلمّا اقترب هذا منه، أخفى المسكين وجهه في الوسادة وهو يغمغم:

- ماذا تريد مني؟

وعاد يحشر رأسه تحت الوسادة، وكأنه بذلك يفرّ من سلطة الحارس.

هتف هذا آمراً:

- انهض، أيها الأب الصغير! ينبغي أن نقدِّم إليك طعامك.

اقترب الشابان المجنونان من العجوز أيضاً. كانا يقفان متجاورين وكأنهما يخافان الافتراق لحظة عن بعضهما، وكان الممرض يدعوهما «البولدوغان»[1].

صاح الحارس.

- أنتما أيها البولدوغان، هيا اقفزا عليه!

كان يلقي إليهما أمره، وكأنهما كلبان حقيقيان. فقبض أحدهما على العجوز من ظهره تحت الإبطين، بينما تناول الآخر رأسه وأرغمه على الجلوس في سريره.

قال الحارس ضاحكاً:

- رويدكما. رويدكما لا تحطِّما عظامه!

---

(1) Bouledogue: نوع من الكلاب الإنجليزية الشرسة التي تمتاز بضخامة الفكين. [المترجم]

Twitter: @ketab_n

كان العجوز يبكي، وقد اعتمد ذقنه بصدره، وراح ينظر إلى الأرض بعناد.

قال الممرض:

- افتح فمك، أيها الأب الصغير! لقد جاءتك المربية بالمصاصة!

غير أن العجوز كان قد ألصق ذقنه بصدره، وأطبق فكيه بكلّ قواه.

قال الممرض للمجنونين الشابين:

- افتحا «بوزه»، ولكن تصرّفا بلطف!

استوى «البولدوغان» على ركبتيهما فوق السرير، وأدخلا أصابعهما في فم العجوز وفتحا فكيه عنوة.

أطبق أحد الممرضين بيده على أنف العجوز ومنعه من التنفس عن طريق الأنف، بينما صب الآخر الحساء في فمه.

بصق العجوز ما في فمه على المجنونين الشابين اللذين راحا يضحكان بانشراح، بينما أفرغ الممرض ملعقة حساء أخرى في حلق الشيخ، فلم يستطع إخراجها هذه المرة، واضطر إلى ابتلاعها، إذ توقف الطعام في بلعومه، فكان عليه أن يبتلعه إذا أراد تفادي الاختناق. لقد كان أنفه متعطلاً عن وظيفته بفضل الضغط الذي كان الممرض يمارسه عليه بأصابعه، فكان الفم الطريق الوحيد للتنفس وابتلاع الطعام كذلك.

هتف المسكين:

- إنني أختنق!

لكن عملية الإطعام بالقوة استمرّتَ بترتيب، بينما كان العجوز يصيح بين الحين والحين زاعماً أنه سيختنق، ويتخبط بين ذراعي

Twitter: @ketab_n

الممرض، ويحاول التخلّص من المجنونين الشابين اللذين كانا مطبقين عليه بكلّ قواهما.

قال الممرض:

- ألا ترى، أيها الأب الصغير، إن العملية ممكنة!

كان الشيخ ممتقعاً أصفر الوجه كالشمع.

غطى تريان كوروغا عينيه بيديه ليحجب عن ناظريه ذلك المشهد الغريب.

سأله الممرض:

- هل تشعر بالخوف؟ سيحين دورك بعد دقائق قليلة.

سأل «البولدوغان» بصوت واحد:

- هل سنطعمه هو الآخر؟

- سنطعمه كذلك إذا لم يكن عاقلاً!

لم يعد المجنونان الشابان ينظران إلى العجوز، بل راحا يعاينان فكي تريان وعنقه بعيون خبيرة!

انحنى تريان كوروغا وأخذ القصعة، وراح يأكل دون أن يمضغ طعامه. فلما انتهى قال:

- إنك على حق. إنّ من يرفض الطعام، بعد أن يُسجن في مأوى للمجانين، لا شك مجنون حقيقي. إن المجانين لا يستطيعون إعلان الإضراب عن الطعام، لأنهم غير مسؤولين عن تصرفاتهم. أما أنا، فلست مجنوناً. لذلك أكلت حسائي. ومعنى ذلك أنني عدلتُ عن الصراع الذي بدأته.

Twitter: @ketab_n

كان تريان يحدّث نفسه قائلاً: «ينبغي أن أثبت لهم بكلّ ما في طوقي من قدرة أنني لست مجنوناً». كان يشعر بألم في رأسه لأنّ الطعام الذي ابتلعه منذ حين كان يثقل على معدته وكأنه كمية من الرصاص. لكنه كان يبذل مجهوداً جباراً للوقوف على رجليه والابتسام. اقترب من الممرض المكلف بالحراسة، وقال له:

- أريد أن أتحدث إلى الطبيب المشرف على هذا القسم.

فأجاب الممرض:

- انتظر المعاينة أولاً، وعندئذٍ ستتحدث إليه.

- ألا أستطيع مخاطبته قبل أن يحين دوري في المعاينة؟

- إن مرضى هذا القسم لا يحقّ لهم أن يستدعوا الطبيب إلّا في مواعيد زيارته المقرَّرة.

قال تريان:

- إنني أفهم السبب. لن يزعج الطبيب نفسه من أجل مجنون. لكنني أقسم على أنني لست مجنوناً.

- لِمَ، إذن، أرسلوك إلى هنا إذا كنت سليم العقل؟

فأجاب تريان:

- ليرغموني على قطع الإضراب عن الطعام الذي بدأت قبل أسبوع. لقد أخبرتك بذلك من قبل. والآن لقد أكلت. فلم يعُد إذن أي سبب لمعاملتي على اعتبار أنني مجنون. ولو أنني رفضت تناول الطعام، لاعتبرتم تصرفي لوناً من الجنون وليس احتجاجاً صامتاً، لكن الأمر الآن قد وضح.

لاحظ تريان أن الممرض يقرأ صحيفته دون أن يصغي إليه أو أن يعير كلماته جزءاً من اهتمامه.

Twitter: @ketab_n

قال تريان بصوت متهدج:

- أما زلت تعتبرني مجنوناً حتى بعد أن تناولتُ الطعام؟

فقال الممرض آمراً:

- امضِ إلى سريرك واتركني أقرأ صحيفتي.

- لكنني أبلغتك أنني لست مجنوناً.

- طبعاً، طبعاً. والآن، استلقِ على فراشك والبِث هادئاً. ينبغي أن تكون عاقلاً هنا. لأن الغلمان الذين لا يهدؤون يؤدَّبون بضربات السوط.

- 159 -

لم يقُم الطبيب بزيارته قبل ظهر ذلك اليوم. وحوالى الظهر، جاء ممرض واقتاد أحد الشابين المجنونين، ثم أعاده بعد نصف ساعة، محمولاً على نقالة وُضعت في منتصف الغرفة. كان منخري المجنون الشاب محشوين بالقطن، وجبينه شديد الشحوب، وكان فمه مغطى بالزبد الأخضر كالكلب المسعور وشفتاه ترتعدان.

- ماذا فعلوا به؟

كان المجنون الآخر «البولدوغ» يضحك وهو يتأمل جسد صديقه متصلباً تهزّه تشنجات النزع! كان صدر المسكين يرتفع كمنفاخ الحداد، وعضلات يديه وفخذيه تهتز وتضطرب وحدها، وكأنها نزعت عن بقية الجسد أو عزلت عنه، وقد اتخذ جلده لوناً جديداً. لم يكن لونه يشبه لون رجل حي. كانت سلسلته الفقرية متصلبة تصلب الأشياء الميتة. كانت حركاته وتشنجاته تشبه ما يصدر عن الدمية الآلية التي تتحرك من تلقاء نفسها. فكان الشيء الوحيد الذي

Twitter: @ketab_n

فيه هو ذلك الزبد الأخضر الذي كان يتدفق على شدقيه ويبلل صدره ويسيل منه إلى قماش النقالة.

سأل تريان من جديد:

- ماذا فعلوا «بالبولدوغ»؟

فأجاب الممرض:

- لا شيء، إنها زرقات تحت الجلد!

- أي نوع من الزرقات هذه؟ لِمَ يتخبط هكذا؟

قال الممرض:

- لا تكُن فضولياً فتاي! ستتلقى مثلها أنت الآخر. ليس أبعد من غد!

- غداً؟

عاد تريان كوروغا ينظر إلى الجسد المتخبط على النقالة.

قال الممرض:

- أيدهشك ذلك؟ ألا تصدق؟ إنّ كل زبائننا هنا يجب أن يعالَجوا بالزرقات.

قام الممرض إلى حيث كان «البولدوغ» مسجى، فأبدل القطن الذي في منخريه وضغط على خده، لكن لم يبدر عن الجسد أي ردّ فعل. قال:

- لو أنك قطعته إرباً لما شعر بشيء. إن هذه النوبة تجعله عديم الإحساس طيلة الوقت الذي تبقى مستولية عليه. إنكم جميعاً في حاجة إلى مثل هذه الزرقات. إنها تجعل الأعصاب وحدها تنشط وتتحرك. انظر إلى هذه الرياضة الجميلة التي تقوم بها الأعصاب الآن.

جلس تريان على سريره وغطى وجهه بيديه. فتح الباب فانتفض تريان مذعوراً. ولكن لم يكن الطبيب هو الذي دخل في تلك

Twitter: @ketab_n

اللحظة، بل كان ممرضاً جاء يقود «البولدوغ» الآخر. قبض على ذراعه وخرج به من الغرفة.

لم يمضِ وقت طويل حتى عاد الممرضان «بالجسد» على نقالة فوضعاه بجوار زميله. كان المجنون الشاب صورة طبق الأصل عن زميله الممدد بجانبه: قطع القطن في منخريه، والزبد الأخضر المتدفق من فمه، ذلك الزبد الذي يُرى عادة على شدقي الكلب الكلِب، والاهتزازات والتشنجات على طول الجسد المسجى الخالي من الإحساس.

اقتيد العجوز كذلك ثم أعيد على محفّة ثالثة وُضعت بجانب «البولدوغين».

راح تريان يتأمّل الأجساد الثلاثة وهي تتخبّط على إيقاع مماثل ولو كان غير متناسق ولا متَّزن.

سأل تريان:

- أيّ نوع من الزرقات هذه؟

فقال الممرّض:

- إنه الكارديازول، وهو مثير للأعصاب. إنه يهزّ دماغك ويبدِّد الضباب الذي يكتنفه.

وراح الممرض يضحك.

عاد تريان ينظر من جديد إلى الأجساد الثلاثة الممددة عند قدميه. كانت اهتزازاتها تبدو آلية كالحركات التي تقدم بها الآلة الصاقلة. بينما كانت فتحات الأنوف تتمدد وتتقلص على إيقاع متفق مع الاهتزازات وقوتها. أما الصدور فكانت ترتفع وتنخفض كمكابس الآلات.

كانت الحياة المتبقية في تلك الأجساد، وقد تحوّلت كلية إلى حركات آلية تقوم بها العضلات. أما الغرائز والعقل والإرادة كانت

Twitter: @ketab_n

ميتة. لم يكن باقياً في تلك الأجساد إلا الانعكاسات الآلية وحدها، وقد اتسعت وعمَّت الجسد على شكل تشنّج، كذلك الذي يسبق النزع ويرافقه.

خُيِّل لتريان كوروغا أنه بهذا المشهد يرى الحياة البشرية كلها في المجتمع الآلي المعاصر. تصوّر أن جدران الغرفة التي كان فيها قد تباعدت حتى حوت بينها أوروبا كلها، ثم الغرب كله، ثم العالم.

كان في تلك الغرفة ثلاثة أجساد مسجاة على الأرض تتحرك وفق تقلصات آلية كالآلة الصاقلة، وقد تحوَّلت فيها الحياة إلى حركة رتيبة، لا تفكير فيها ولا إرادة، لكن تريان كان يرى في تلك الأجساد، أجساد كل المخلوقات على الأرض.

كان تفكيره مبالغاً فيه ولا شك، مطبوعاً بطابع الشذوذ. لكنه كان يقلقه ويزعجه، كان يخيّل إليه أن رئيس سجناء المعسكر شميدت، يرقص على إيقاع تقلصات تلك الأجساد، رقصة شيطانية يرافقه فيها الملازم جاكوبسون قائد معسكر كورنويسذم. والحاكم براون والطبيب أبراموفيسي وكل الآخرين كانوا يرقصون على إيقاع «الجاز» والآلة والاهتزازات التي تحدِثُها زرقات الكارديازول في أعصاب المرضى، كان يرى مجتمعاً كاملاً يتخبط متشنجاً كتلك الأجساد. فأغمض عينيه وغطاهما بيديه وصرّح: «لا أريد! لا أريد!».

- 160 -

لست أرى على بطاقتك الشخصية أي تنويه بإضرابك عن الطعام.

Twitter: @ketab_n

كان الطبيب ينظر إلى تريان نظرة مستريبة بحكم مهنته. استطرد يقول:

لو أنك أضربت عن الطعام، لذكروا ذلك على بطاقتك. غير أنني أقرأ عليها بدلاً من ذلك: «اضطرابات عقلية، محاولة انتحار، نوبات عنف ومشاكسة، فكرة اضطهاد» هذا كل شيء، لا شيء أبداً بخصوص إضرابك عن الطعام، عمل ينجم عن الفكر المشرق والإرادة العاملة. لكنه غير وارد في بطاقتك، لقد شخّص مرضك ووقَّع عليه أستاذان من أساتذة الجامعات، عَلَمان من أعلام الطب الألماني، فمن تريد مني أن أصدِّق؟ أنت أم الأستاذين؟

كان الطبيب مقتنعاً من أن تريان قد ابتكر قصته ابتكاراً مِن أَلِفها إلى يائها.

قال يسأله:

- هل أنت واثق من أن زوجتك سجينة هي الأخرى؟ إنني شخصياً أميل إلى الظن بأنك لست متزوجاً وإلا فأين خاتم الزواج؟

- لقد صودر مني في خلال التحريات الكثيرة في المعسكر.

قال الطبيب:

- إن هذا معقول، لأنني لا أملك دليلاً معاكساً، ينبغي أن أتقيَّد بما جاء على بطاقتك الطبية. فلا يجب أن تغضب إذا كنت سأعتبرك حتى ظهور أدلة معاكسة - مخطئاً في ادعاء وجود زوجتك في السجن، لأنك لست متزوجاً كذلك أبوك، إنه لم يمت في المعسكر وأنت لم تسجن دون سبب، إنني مضطر للتجاوز عن كلّ ما قد ترويه لي.

راح تريان كوروغا يفكِّر في موقفه العصيب: «كيف يمكن البرهان على أنه صحيح العقل نيره؟ إن كل حركة وكل كلمة كانت حتى تلك اللحظة تعتبر طبيعية، تصبح عند وجود المرء أمام الطبيب

Twitter: @ketab_n

الفاحص، حركات وكلمات موسومة بالجنون، إن الكلمات نفسها والأفكار نفسها والآراء نفسها التي تعتبر في الحياة العامة طبيعية، أو تدل على الذكاء المفرط، تصبح في مأوى المجانين دليلاً على الجنون المطبق، إن الحدود بين الحالة الطبيعية والجنون لا يمكن أن تحدّ بنقاط دقيقة واضحة، مع ذلك ينبغي أن أبرهن على أنني لست مجنوناً!».

قال تريان:

- أتوسل إليك أيها الطبيب أن تساعدني!

- ماذا أستطيع صنعه؟

- تستطيع أن تصدقني!

قال الطبيب:

- إن هذا لا يبدِّل حالك أبداً.

- إنني لا أسألك رأيك، بل أطلب إليك أن تصدِّقني حقيقة، وأطلب إليك كذلك أن تُخضعني لفحص طبي دقيق.

قال الطبيب:

- إنّ طلبك الأخير غير ذي موضوع لأن الفحص الطبي ضروري وإجباري، أمّا عن طلبك الأول فجوابي: كلا، إنني رجل علم ولا أصدِّق إلّا ما أتبينه، إنني لا أستطيع تصديق شيء دون أدلة.

- صدِّقني على اعتباري إنسان!

فكرر الطبيب قوله وهو يضغط على كل كلمة:

- إنني رجل علم. وضميري المهني يمنعني من تصديق كائن مَن كان دون الاستناد إلى الأدلة.

Twitter: @ketab_n

أخضع تريان لفحص طبي فأخذ من دم أوردة ذراعيه ومن دم أصابعه، ثم حلل دم ذراعه للمرة الثالثة وكان تحليلاً شديد الأهمية. لقد كان يعطي من دمه بخضوع واستسلام، لأن الإنسان مجبر على إعطاء دمه في كل مكان وزمان، لكن ذلك لم يكن كافياً.

أدخلوا إبرة جوفاء في مؤخرة رأسه ليسحبوا بواسطتها قطرات من السائل الحيوي الذي يغذي النخاع الشوكي. فاحتمل ذلك رغم الألم الشديد، وتكررت العملية فكان تريان مستسلماً خاضعاً لأنه كان يعرف أن الإنسان ينبغي أن يدفع ثمن الحياة من عقله أيضاً وليس من دمه فحسب. فإن لم يدفع، يُحرم من حقه في الحياة.

أثاروا الغدد وأخذوا عينات من الإفرازات على اختلاف أنواعها، ووضعوها على رقاق من الزجاج، وراحوا يحللونها على أضواء المصابيح. فحللوا البول واللعاب وإفرازات مختلف الغدد والأعضاء الداخلية والهضمية، وأخضعوها للمجاهر وللمخابر، ووزنوها وصفوها في مختبر السجن.

وصوّر الأطباء رئتيه بالأشعة، ثم رأسه ثم هيكله العظمي عظمة فعظمة، مفصلاً بعد مفصل وعرضوها للأشعة البنفسجية.

راح الأطباء يبحثون عن الجرح الذي سبّب صرخة الإنسان اليائسة في طلب العدالة، لكن الجرح كان غير ظاهر، فازداد الأطباء عناداً وراحوا يبحثون عنه في جسد تريان، وفي رئتيه، وعظامه، ودماغه، ونخاعه، ودمه، وكان هو يترك لهم حريتهم في العمل والاختبار. عادوا يفحصون عضلاته، عضلة فعضلة، وأعصابه بدقّة ليختبروا ردّ الفعل فيها. وانتقلوا إلى ركبتيه ويديه ومعدته. فلم يتركوا

Twitter: @ketab_n

جزءاً صغيراً من مجموع الجسد، إلّا وأخضعوه للفحص. وأصغت أذن الطبيب الحساسة إلى حركات دمه السرية واستمع إلى ضربات قلبه، وحاول بما أوتي من عمل وخبرة، أن يلمس حركة واحدة غير طبيعية في رئتيه.

صعد تريان إلى الميزان ثم أخذت مقاييسه: طوله، محيط صدره، عظامه، ذراعيه، فخذيه، وفتحوا فمه «وعاينوا أسنانه؛ فعدوها وتحسّسوها بأيديهم، ثم فحصوا لسانه فكان أشبه بطعام متفسخ. لقد فحصوا جسد تريان وكأنه سلعة يشتبه في جودتها ومصدرها؛ ليتأكدوا ممّا إذا كانت صالحة أو غير صالحة.

وبعد ذلك أخضع للاستجواب الذي تعاين خلاله الملكات العقلية عند المصابين بالجنون؛ فتناقش الطبيب معه صبحاً وظهراً ومساءً وأحياناً في خلال الليل؛ فكانت أجوبته عن كل الأسئلة وأشدّها تفاهة مدوّنة بدقة؛ وراح الأطباء يبحثون بين كلماته عن دليل من أدلة الجنون كما يبحث رجال المباحث الجنائية عن أدلة جرمية في منزل الضحية؛ حرضوا تريان على الحديث عن طفولته وأمه وأخواته وأبيه وزوجته وكل مَن عرفهم وعن النساء اللواتي مرَرن في حياته. ولمّا كان تريان يعرف الاتجاهات الغائصة في ظلام عدم الوعي والإدراك، تلك الاتجاهات القاتمة المختفية، التي يبحث الأطباء عنها فإنه راح يساعدهم في مهمتهم على قدر ما يستطيع.

كانت روح تريان تُشرّح وتُعرّى وكأنها خزانة مملوءة بالألبسة القديمة والثياب القذرة، فتحت على مصراعيها ليبحث فيها الباحثون. فحشر الأطباء أنوفهم فيها دون أن يشمئزوا من شيء، وراحوا يشمّون كل ثوب وثنية، ويتحسّسون كل زاوية ومنعطف في حياته الخاصة الشخصية.

وأخيراً انتهى الفحص. فقال الطبيب:

Twitter: @ketab_n

- إنك صحيح تماماً! باستثناء مضاعفات لا يمكن تحاشيها وسوء تغذية، وهبوط الوزن عن الحد المقبول الطبيعي. وحاجتك إلى تجديد قواك. وما عدا ذلك، فإنّ كل شيء طبيعي. لقد شاهدنا بوادر فقر الدم، لأنّ مفاصلك منتفخة متورمة بسبب نقص التغذية، وأسنانك مريضة لهذا السبب أيضاً. إن نبضك ضعيف بسبب ضعف جهازك العام، وهناك بعض اللطخات البريئة على رئتيك وبوادر «الروماتيزم»، لكن هذه الآلام شائعة معروفة عديمة الأهمية.

قال تريان:

- هل صدَّقتني الآن وتأكّدت من أنني لست مجنوناً؟

كان تعباً منهوك القوى كما كان تعب يسوع على جبل الزيتون.

- أرجوك أن تعمل على خروجي من هنا على الفور.

فقال الطبيب:

- سوف نُدخلك إلى الشعبة الطبية لأنك شديد الضعف.

فقال تريان:

- أريد أن أعود إلى المعسكر.

- إنّ ما تقوله ليس قولاً حكيماً.

فكرّر تريان:

- أريد العودة إلى المعسكر بأسرع ما يمكن!

بعد أسبوع من ذلك اليوم، أعيد تريان إلى المعسكر من جديد. عاد إليه مزوّداً بكل الأوراق الثبوتية التي تنصّ على سلامة عقله وخلوه من الجنون. كانت عيناه تلتمعان ببريق الفوز، لكن جسده كان يترنح من الضعف والألم والإنهاك وكأنه طيف.

Twitter: @ketab_n

- إن التوقيف الآلي أسلوب، ولكنه لا يمكن أن يكون سبباً للتوقيف لكي يزجّ برجل في السجن ويعامَل ما يعامل المجرمون، ولكي يُقتل بوسائل سريعة أو بطيئة ينبغي أن يكون هناك سبب موجب ينبغي أن يكون ذلك الشخص مذنباً. فما هو ذنبي أنا؟ وما هو ذنب امرأتي؟ ماذا جنى أبي من ذنب؟ ماذا ارتكب إيوهان موريتز. إنني عندما طرحت عليك هذا السؤال بيأس طبيعي محقّ بعد أن أمضيت خمسة عشر شهراً في السجن، اعتبرت صرختي بادرة من بوادر الجنون. إنّ الكائن البشري يخسر وجوده منذ أن أصبح تعطّشه للحرية والعدالة رمزاً لجنونه. يستطيع الإنسان أن يبلغ أرقى درجات الحضارة في مراقي التاريخ، لكن حضارته لا يمكن أن تكون عوناً له في شيء.

كان تريان كوروغا يتحدث إلى الملازم جاكوبسون الذي استدعاه حال عودته إلى المعسكر.

أشعل الملازم جاكوبسون لفافة، وبدا كأنه آسِف لما بدر منه نحو تريان. قال:

- إنكم معشر الأوروبيين تنظرون إلى الأمور من الزاوية القاتمة، حتى ليتبادر إلى الذهن، أنكم لا تعرفون إلا التطير والتشاؤم.

أجاب تريان:

- يجوز أن تكون على صواب. إن هذا ولا شك خطأ ولكن أن يبقى المرء باسماً وهو ينظر إلى مأساة البشر واضطراباتهم، فإن ذلك شديد الخطورة لدرجة لا يمكن مضاهاتها.. إنه أكثر من مجرد خطيئة أو مجرد شذوذ.

Twitter: @ketab_n

قال الملازم جاكوبسون:

- لقد حاولت أن أقدم لك معونة، لكنني أخفقت. لقد طلبتُ إعادتك إلى الحرية...

فقاطعه تريان قائلاً:

- إنني واثق من أنك عملت ما في استطاعتك دون أن يؤدي ذلك إلى نتيجة مُرضية. إنّ أيّ رجل بعد الآن لن يستطيع تحرير رجل آخر أو تحرير نفسه. لقد أصبح البشر الآن أقلية موثوقة الأيدي مغلولة العنق، وأصبح الإنسان عاجزاً عن مدّ يد العيون إلى أترابه. إنه مربوط إلى سلاسل آلية تعرفها أنت كذلك. إنها سلاسل البيروقراطية الآلية، التي تزيّن معاصمنا وأقدامنا، إنها كل ما تستطيع الحضارة الغربية الحاضرة تقديمه إلى الإنسان: الأصفاد!

قال جاكوبسون:

- عُد إلى المعسكر واسترح والبث ساكتاً! وحاذر أن ترتكب أية حماقة.

- لم يبقَ لي ما أعمله إلّا ما يسمح به المجتمع الآلي لأي رجل.

قال الملازم جاكوبسون:

- أرى أنك عدت إلى أفكارك القائمة إنني لا أحب أن أراك على هذا الشكل. هل تريد أن تدخن لفافة؟

- بكل سرور.

أخذ تريان اللفافة من الملازم ثم سأله قائلاً:

- ألا ترى أيها الملازم جاكوبسون أننا متفرجون نتعمد البقاء في «الصالة» حتى بعد انتهاء العرض؟ إن هذا العناد لا يُجدي لأننا سنطرد جميعاً ونلقى على الباب مهما كانت مراكزنا وإمكاناتنا، لن يبقى منّا أحد لأن «الصالة» يجب أن يُجدَّد هواؤها، وأن ترفع

Twitter: @ketab_n

المقاعد. كذلك القارّات، فإنها بحاجة إلى هواء جديد، لأن مشهداً جديداً سوف يمثَّل على مسارحها بعد حين. سوف يستمر التاريخ بعرض مشاهده دورياً. لقد كانت بالأمس «عروض الحال» هي التي تعلق وتعرض. وهي ليست إلا صرخات توسل يطلقها الإنسان طالباً إلى المواطنين في المكاتب أن يدعوه يعيش. غير أن ذلك المعروض الذي كان يتوسل الرجل المحكوم بالإعدام فيه طالباً منحه الحرية والعفو، قد رُفض لأنه لم يُقرأ، وبذلك لم يحز المشهد على نجاح، لأنه لم ينته نهاية سعيدة.

وغداً ستعزف قطعة جديدة عامة عنوانها «المجموعة الميكانيكية» - باليه - وسيكون مشهداً لا رجال فيه. سيعتلي المسرح رجال آليون وآلات ومواطنون بغير وجوه. لكنني لن أكون حاضراً هذا المشهد، لأنه سيبدأ متأخراً، فلن أستطيع حضوره. أما أنت فإنّ لك هناك شرفة خاصة، ولكن لترى فقط بدء التمثيليات. هيا إنها مسلية! ولكن لا تنسى أنّ الشرفة محجوزة لك لبداية العرض فقط...

ترك تريان كوروغا لفافته المشتعلة في المنفضة على مكتب الملازم وبارح الغرفة.

- 163 -

صادف تريان كوروغا إيوهان موريتز عند مدخل المعسكر قرب الباب. كان موريتز شديد الحزن فلما وقعت عينه على تريان راح يبكي:

- أهذا أنت؟ ما ظننتُ أنني سأراك بعد.

- وهل كنتَ ستأسف لذلك؟

قال إيوهان موريتز وهو يضغط يديه مصافحاً:

Twitter: @ketab_n

- كنت سآسف عليك حتى الموت. إنني لم أستطع تبادل كلمة الوداع معك قبل رحيلك، إنهم لم يسمحوا لي بدخول مستشفى المعسكر. لقد حاولت مراراً أن أصل إليك. أين كانوا يحتجزونك؟

قال تريان:

- بين المجانين.

رفع إيوهان موريتز يده إلى فمه، وقال وهو ينظر إلى تريان:

- بين المجانين؟ مستحيل!

قال تريان:

- بل إنه صحيح، لقد جئتُ معي بما ندخِّنه.

حلّ تريان عقدة في منديله وأخرج منه قليلاً من التبغ:

- لقد سجنوك هناك؟ يا سيدي تريان المسكين!

جلسا على الأرض المحرقة قرب باب المعسكر وراحا يلفان التبغ.

كان موريتز غارقاً في ذهوله ودهشته فقال تريان:

- لقد أحببتَ غليوني دائماً أليس كذلك؟

فأجاب موريتز:

- عندما يكون للمرء غليون، فإنه يجدِّد دائماً ما يدخنه فيه. إن المرء يستطيع أن يحشو فيه أتفه كمية من التبغ وكلّ الأعقاب التي لا يمكن أن تدخل في تكوين اللفافة، ولهذا السبب أسفتُ لأنني لا أملك غليوناً. إنّ مَن لا يملك غليوناً في المعسكر، يشعر بالقسوة والعذاب.

مدّ تريان كوروغا يده إلى موريتز مقدِّماً الغليون الذي كان يحتفظ به منذ أكثر من عام، والذي كان يضعه في فمه باستمرار ولو لم يكن فيه شيء من التبغ. قال:

- إنني أعطيك غليوني.

Twitter: @ketab_n

فأجابه موريتز:

- إن هذا مستحيل. إن الغليون في المعسكر يساوي كنزاً. فبأي شيء ستدخن بعد الآن؟

- لن أدخن بعد الآن. إنها آخر لفافة.

- هل منعك الطبيب عن التدخين؟

- كلا. إنه لم يمنعني. إنني سأنقطع عن التدخين من تلقاء نفسي.

أخذ إيوهان موريتز الغليون وراح يحشوه بالتبغ، وقال:

- إنني أشكرك! ولكن إذا عدتَ إلى التدخين من جديد فإنني سأعيد إليك غليونك. تستطيع أن تعتبره دائماً معك لأنني لا أتقبَّله منك إلا طيلة فترة امتناعك عن التدخين.

- اطمئن. لن أدخِّن حتماً بعد اليوم.

علت شفتي موريتز ابتسامة، فقال:

- إنني أنا الآخر وعدتُ نفسي مراراً بالكفّ عن التدخين لكنني ما استطعت مقاومة رغبتي. إن العدول عن التدخين أمرٌ غير يسير.

فقال تريان:

- إنني أعرف ذلك. لكنني هذه المرة جاد في عزمي.

أشعل تريان كوروغا اللفافة وموريتز الغليون وراحا يدخنان بسكون. نزع تريان نظارتيه وراح يتأملهما بعناية وشغف. كانتا نظارتين في إطار من الصفت، راح ينظر إليهما وكأنه سيفترق عنهما بعد قليل.

لم يبقَ لديه من الأشياء الشخصية التي درج على الاحتفاظ بها معه إلا النظارتان. أما كيس التبغ، وخاتم الزواج، وحافظة النقود، وقلم الحبر، وقلم الرصاص، فقد صودرت جميعها منه حيناً بعد حين.

Twitter: @ketab_n

لم يبقَ لديه إلا نظّارتاه.

كان الصليب الصغير الذي يطوّق عنقه بسلسلته قد رافق أباه إلى مثواه الأخير، لأنه وضعه على صدره بعد موته ليدفن معه، لأنّ من عادة القساوسة الأرثوذوكس أن يُدفنوا مُرتَدين ثوبهم الكهنوتي وعلى صدورهم أيقونة. لكنه للأسف لم يستطع أن يدثّر أباه بثوبه الكهنوتي بعد موته، لأنه كان مرتدياً قميصاً أميركياً عليه الحرفان س.ح. مطبوعان على ظهره وأكمامه.

لم يكن مرتدياً قميصاً داخلياً، لأنّ قميصه لم يكن قد جفّ بعد غسله. كان إيوهان موريتز قد غسل القميص في صباح ذلك اليوم، فلما مات القس رُفع من تحت الخيمة ونقل على المحفة، حتى قبل أن يستطيع تريان إلباسه قميصه. لكنه استطاع أن يدسّ، تحت القميص الخارجي، الصليب الصغير الذي كان يحمله حول عنقه. ولا شكّ أن أباه دفن مع ذلك الصليب، بل ولعله إذا لم يكن قد دفن، قد أحرق في المحرق الخاص مع ذلك الصليب.

والآن لم يبقَ لتريان إلا نظارتاه. كانتا الشيء الوحيد الذي يمتلكه بالإضافة إلى شخصه. فكان جسمه ونظارتاه هما كلّ الأشياء المادية التي استطاع إنقاذهما والاحتفاظ بهما من حياته السالفة. والآن كان ينظر إلى النظارتين ويتفحصهما في شيء من الأسف والتشاؤم.

قدمهما إلى إيوهان موريتز وقال:

- هل تريد أن تحتفظ بنظارتي؟

فقال موريتز الذي ظلّ يعتبر أن حاجة المرء إلى زوج من النظارات يضعه طيلة عمره فوق أنفه لون من العقاب الأليم وحِمل ثقيل لا يُطاق:

- هل تستطيع الآن أن ترى دون الاستعانة بالنظارات؟

Twitter: @ketab_n

سرّ موريتز سروراً مخلصاً لأنّ تريان أصبح في غنى عن نظارتيه، لكن تريان قال:

- كلا، إنني لا أستطيع النظر إلى شيء دون نظارات. لكنني إذا تخليت عنهما أشعر براحة أكثر. لذلك لن أضعهما بعد اليوم.

- لقد أدهشني دائماً أن أراك تضعهما طيلة النهار ولا تنزعهما إلا عند النوم. إنني لم أرَكَ أبداً بغير النظارات.

قال تريان:

- إذا أطلق سراحك قبلي فإنني أسألك أن تحمل نظاراتي إلى زوجتي. لعلك لن تجدها بسرعة، ولكن احتفظ بهما معك في خلال الوقت اللازم، لأنك لا تعرف أين ومتى ستراها وتقابلها. لعلكما تتقابلان فيما بعد في رومانيا. فحاذر أن تحطّمهما.

أخذ إيوهان موريتز النظارتين وراح يتأملهما. كان يشعر بأنّ تريان كوروغا يخفي عنه شيئاً، لأنّ تصرفه بإعطائه الغليون ثم النظارات كان عديم المعنى.

قال تريان:

- لا تخف يا موريتز. إنّ كل ما أريده منك هو أن تحتفظ بنظارتي، لأنني لن أستعملها بعد اليوم، ولأنني لا أريد كذلك أن تقعا في أيدٍ غريبة. لقد تطلعت بفضلهما إلى عديد من الأشياء في حياتي، فهل تفهم لِمَ أعتز بهما وأحبهما؟

«لقد نظرت خلالهما إلى زوجتي أول مرة، وشهدت خلالهما ألف ألف فتاة جميلة، وتأملت بواسطتهما اللوحات والتماثيل ومعروضات المتاحف والمدن... لقد نظرت من خلالهما إلى السماء والبحر والجبال وقرأت بواسطتهما ليالٍ طويلة مئات ومئات من الكتب. لقد رأيت أبي يموت من خلال هذه النظارات، ورأيتك أنت وكل أصدقائي بواسطتهما، وشهدت أوروبا تنهار والرجال

Twitter: @ketab_n

يموتون جوعاً ويسجنون، ويعذبون، وتنطفئ شعلة الحياة في نفوسهم في معسكرات الاعتقال.

«إنني بهذه النظارات شاهدت قديسين ورجالاً ومجانين.

«وفيهما شاهدت قارة بكاملها، بما عليها من رجال وقوانين ومعتقدات وآمال، تموت - دون أن تعرف أنها تموت - سجينة في المعسكرات، حبيسة القوانين الآلية في ظل مجتمع نكص حتى بلغ الوحشية البربرية.

«إن هاتين النظارتين يا عزيزي موريتز تضاهيان عيني. وقد يبلغ بي الأمر أحياناً أن أخلط بينهما، لأنهما لا تنفصلان عن بعضهما. بهما رأيتُ كلّ ما شهدته حتى هذه الساعة.

«والآن لست أريد متابعة النظر، لأنني تعبت، ولأن المشهد طالَ أكثر من المعتاد.

«إنني إذا احتفظتُ بهما أكثر ممّا احتفظت، لن أرى إلا الأنقاض. سأرى مدناً متهدمة، ورجالاً متهدمين، وبلداناً وكنائس وآمالاً كلها متهدمة ومحطمة.

«لقد نظرت خلالهما إلى أنقاض حياتي الشخصية، وإلى دمار الدمار. إنني لست قاسياً متوحشاً، لذلك لا أستطيع النظر إلى هذه النتائج ولا أستطيع احتمال رؤية الأنقاض والدمار في كل مكان.

«لقد قام ممهدون يسوون الطرق فوق تلك الأنقاض استعداداً لفظاعات جديدة. إنهم المواطنون الذين انبعثوا في التاريخ الجديد، من ذلك العالم الجديد. ولكي يُقيموا حضارتهم بدأوا بالسجون. مع ذلك فإنّ الأمر يخصهم. لكنني، شخصياً، أشعر بعجزي عن متابعة السير معهم. لأن عليّ أن أمضي العمر كله على شكل متفرج، والعيش على شكل متفرج، يعني أنه كالشاهد، وهذا ليس عيشاً. إن المجتمع الآلي الغربي لا يعطي بني الإنسان إلا مكان المتفرجين.

Twitter: @ketab_n

«إنها لسخرية مُرّة أن يكون الشيء الوحيد الذي لم يُصادر مني في خلال التحريات هو نظارتاي. ممّا يدل بوضوح على الشيء الوحيد الذي يُسمح لي به. لقد فكّرت أحياناً بأن الجنود كانوا كرماء إذ تركوا لي نظارتي. لكنني الآن متأكد من أنه لم يكن كرماً، بل وحشية وقسوة، لأنهم لم يحشروني فقط في دور المتفرج، بل دلوني كذلك على ما يجب أن أرى: المعسكرات. إنه لا يجوز لي أن أرى شيئاً آخر غير المعسكرات ودور المجانين والسجون والجنود ومئات المئات من كيلومترات الأسلاك الشائكة. ولهذا السبب، أرغب عن نظارتي.

«إنني أعدل عن الشيء الوحيد الذي ظلّ مسموحاً لي به هنا على هذه الأرض. إن النظارات - كالعينين - هي من أكثر الأشياء إبداعاً وبُعداً عن المقارنة والمضاهاة. ولكن، يشترط لكي تكون كذلك أن يكون صاحبها حياً. فإذا نزعت منه الحياة أو إذا لم يبقَ له منها إلّا قطرات تافهة أو حدود ضيقة أو منفذ صعب شائك، فإن بقاء النظارات عندئذٍ يعتبر دعابة رهيبة. فهل رأيت مرة ميتاً يضع نظارات على أنفه؟

- ولكن أنت، يا سيد تريان، إنك لست ميتاً!

- إن الأمل الوحيد الذي نحتفظ به حتى الآن هو أن لا نكون أمواتاً. غير أن الأمل لا يمكن أن يضاهي الحياة نفسها. إن الأمل عشبة تنبت حتى بين القبور.

قال موريتز:

- ولكن نحن، يا سيد تريان، إننا أحياء!

- إننا نعتقد ونأمل أن نكون على قيد الحياة.

نظر إيوهان موريتز إلى تريان كوروغا نظرة طويلة. تذكر أن

Twitter: @ketab_n

تريان قد خرج مؤخراً من مستشفى المجانين. لقد قال له بنفسه ذلك.

استطرد تريان:

- لا تخف يا عزيزي موريتز، إنني لست مجنوناً، إنك إذا ظننتني كذلك أشعَرْتني بأسف مرير. إنك تزعم أنني ما زلت على قيد الحياة، لأنني إذا توقفت عن الحياة فذلك معناه، في نظرك، لزوم دفني. وأنني عندئذٍ ستكون عيناي مغمضتين وقلبي متوقف عن الخفقان وأجفاني مسبلة وجسدي بارد. أي أنك سترى عندئذٍ جثتي الهامدة. ولكن يا عزيزي موريتز هناك بعض الميتات التي لا تخلِّف وراءها جثثاً. فالحضارات مثلاً تموت ولا يبقى منها جثث، وكذلك الأديان إذا ماتت والأوطان. إن الرجال أحياناً يموتون دون أن يخلفوا جثثاً، فهل تفهمني؟

راح إيوهان موريتز يبكي بحرقة.

- لِمَ تبكي، يا عزيزي موريتز؟

- إنك مريض، يا سيدي تريان...

- أتقصد أنني أهذي وأنني مجنون؟

- كلا. إنني لا أزعم ذلك، يا سيد تريان! كيف أستطيع التلفظ بمثل هذا القول؟

قال تريان:

- إنك تعتقد بأنني مجنون ولذلك تبكي. لكنك تبكي عبثاً لأنني لست مجنوناً، يا عزيزي موريتز. إنني أكثر إشراقاً وصحواً من أي وقت مضى.

- هل صحيح يا سيدي تريان؟

- بالتأكيد، يا موريتز. إنني متمالك كلّ قواي.

قال إيوهان موريتز:

Twitter: @ketab_n

- إنني لم أزعَم أنك مجنون لكنني، ظننتُ أنك قد تكون مريضاً لأنك لبثت زمناً دون طعام ولا شراب... وهناك حيث كنت، لا شك أنهم عذبوك. إنك شديد الشحوب. لكنني لم أفكِّر أبداً في أنك...

وتحاشى إيوهان موريتز أن يلفظ كلمة «مجنون».

لفّ تريان كوروغا سيجارة أخرى وهو يحدِّث نفسه بأن الرجال الذين يتألمون لانهيار الحضارة الأجنبية ينهارون ويختفون معها تماماً، وأن أولئك الذين يشاهدون ذلك الانهيار فحسب يلبثون غرباء عن المأساة. فهم إمّا أن يكونوا منحدرين من مدنية آلية كالملازم جاكوبسون مثلاً الذي كان يعتبره مجنوناً أو من أسر بدائية كإيوهان موريتز. وهؤلاء ما زالوا في مرحلة الإحساس والأوهام والخرافات، لذلك فإنهم كذلك يعتبرونه مجنوناً. إن الرجال لا علاقة لهم بأوروبا. وهكذا يعتبر إيوهان موريتز كما يعتبر جاكوبسون كلّ رجل بلغ ذروة الألم الفكري وحدوده القصوى مجنوناً.

إن نورا زوجته هي وحدها التي تستطيع أن تُدرك أن الأمر لا علاقة له بالجنون، بل إنه راجِعٌ إلى الألم العنيف الذي بلغ أقصى منتهاه. إنها وحدها تستطيع العيش حتى بعد هذه المأساة لأنها تحمل في دمائها تمريناً وراثياً لآلاف السنين التي قضتها سلالتها في العبودية والذعر والامتهان. لقد ألفت سلالتها العبودية والألم في مصر لمّا سُخِّر أفرادها في بناء الإهرامات واحتملت الاضطهاد الديني في إسبانيا وروسيا ومعسكرات الاعتقال في ألمانيا. إن سلالة إليونورا ويست ستقاوم كذلك وتصمُد للحضارة الآلية. فابتهج تريان كوروغا عندما فكّر في ذلك، وابتسم وقال:

- أشعِل غليونك يا موريتز، واذهَب إلى الخيمة وضَعْ النظارتين

Twitter: @ketab_n

في مكانٍ أمين. إنك تعرف أنني أريد منك تسليمهما لزوجتي سليمتين.

- فوراً، يا سيدي تريان.

ومضى إيوهان موريتز بخطوات بطيئة مقوّس الكتفين قليلاً وهو يجذب أنفاساً من غليونه.

شعر تريان كوروغا بأنّ إيوهان موريتز لم يكُن يجتاز فناء المعسكر، بل قرون التاريخ بتلك الخطوات الهادئة الغريبة عن كلّ ما حولها، وأنّ جذوره مغروسة في أعماق الأرض وعينيه تحدقان في المعجزة المتجدّدة أبداً في زرقة السماء دون أن يتساءل أبداً عن سرّ هذه الزرقة الشديدة.

«إن إيوهان موريتز ونورا ويست سيعيشان في أوروبا حتى ولو كانا في صميم المجتمع الآلي الغربي. لكنهما لن يعيشا طويلاً. لعلهما كذلك لن يحضرا إلّا الفصول الأولى من المشاهد الجديدة، وبعد اختفاء آخر بني الإنسان من البشر ستحفل الأرض بمخلوقات أقوى من الإنسان، مخلوقات آلية تأتي من الشرق والغرب والشمال والجنوب فتعجّ بها الكرة الأرضية...».

- 164 -

اختفى إيوهان موريتز عن ناظري تريان تحت الخيمة فنهض هذا وألقى بلفافته إلى الأرض واتجه نحو باب المعسكر المركزي.

لم يكن من حقّ المساجين أن يدخلوا إلى الباحة التي تُشرف على المدخل الرئيس.

كان تريان كوروغا يعرف ذلك. لكنه استمر يمشي متوغلاً بخطىً ثابتة لا سريعة ولا بطيئة. إنها كالخطوات التي يعود بها

Twitter: @ketab_n

الإنسان إلى منزله بعد يوم حافل بالعمل، عارفاً أنه يستطيع السير على هواه وراغباً مع ذلك في عدم التلكؤ والتأخّر عن العودة إلى الدار.

شاهد السجناء الذين كانوا في الفناء ولم يكن عددهم ينقص عن ثلاثة أو أربعة آلاف - سجين يدخل في الممشى المحرم. فاقتربوا من الأسلاك الشائكة ليروا عن قرب حقيقة الأمر. لقد ظنوا أنه أحد الموظفين لدى مكاتب القيادة أو أحد الأطباء المساجين. وهؤلاء وحدهم يملكون الحق في تخطي ذلك الحدّ.

كان السجناء يتوقون إلى معرفة الأمر بأيّ ثمن. ففي المعسكر، ما كانت تفوتهم شاردة ولا واردة لأن ألوفاً من العيون كانت تبحث بلهفة وشوق وجشع عن كلّ الدقائق. لأن العيون كانت ترى كل يوم المناظر إياها التي رأتها في اليوم السابق، لذلك فإنها كانت تتحرق إلى الجديد من الأمور، إلى كلّ ما هو غير عادي مهما بلغ من نقاهة. إنها رغبة أزلية عريقة في تلافيف العقل البشري وهي تبحث أبداً عن الجديد والخاص وعن العوامل الدقيقة الشخصية في الحياة وتتحاشى كلّ ما هو رتيب وتير.

ومرور سجين في المنطقة المحرّمة حدثٌ جدير بالنظر إليه بعناية وانتباه. إنه حدث خطير. فهل كان لذلك السجين الحق في اجتياز تلك المنطقة بصفته طبيباً أم موظفاً؟ إن ذلك كان يستحق المشاهدة ويستحق عناء تجمهر المساجين وشخوص أبصارهم وكأنهم سحروا ببراعة ممثل على مسرح أو أذهلتهم جرأة هذه الفعلة الممنوعة.

كان تريان يعرف أنه متبوع بألوف العيون والأبصار، ويعرف كذلك أنّ الحراس كانوا في أبراج الرقابة يسيطرون على المعسكر والأسلاك الشائكة التي حوله، كانوا دهشين بالمثل يراقبونه وهم يتساءلون إلى أين يقصد. كان تريان كوروغا لا ينظر إلى المساجين

Twitter: @ketab_n

الذين يتبعونه بأبصارهم ولا إلى الحراس البولونيين الذين كانوا أمامه على ارتفاع الأبراج.

كان يمشي باستقامة ولكن لم تكن خطواته تشبه خطوات الرجل الثائر الذي صمم على تخطي كل العوائق التي في سبيله، فسار بخطى ثابتة متزنة، بل كانت كذلك خطوات مرنة كتلك التي يخطوها المرء لمجرد الرغبة في السير والتريّض.

غير أن تريان كوروغا ما كان يشعر برغبة في السير. لكنه كان يعرف أنّ فعلته تلك تهدف إلى نتيجة وحيدة، وأنها كانت ترضي ذهنه وعقله. ومن أجل ذلك كانت خطواته مزيجاً بين القسوة والاتزان وليس أشبه بحركات الآلات أو الرجال الذين يتهافتون في سباق أعمى تدفعهم أهواؤهم. لم تكن خطوات تريان كوروغا تدلّ على التعصّب والاندفاع الأعمى.

كان يمشي وعيناه متّسعتان: لقد كانت قواه الإبصارية محدودة بغير النظارات، لكن عيني قلبه وذهنه كانتا مفتوحتين وكان يرى طريقه والهدف من طريقه والسرور والأسى اللذين يلتقيان عند نهاية ذلك الطريق.

كان المدقق في خطوات تريان كوروغا يستطيع أن يقرأ فيها، في تلك الخطوات على الرمال، تلك الخطوات المتجهة إلى الأسلاك الشائكة والحراس، حزناً عميقاً ولكنه مكبوت مكتوم. إنه حزن بني الإنسان الذين يغادرون بيوتهم ويمضون بعيداً عنها. ألم البحارة عندما تشقّ السفينة عباب البحر الخضم مبتعدة عن شاطئ الوطن.

إنّ مَن يرى تلك الخطوات ويستطيع قراءة ما تعنيه لا يمكن أن يجد غير هذه المعاني فيها. كانت تلك المعاني مكتوبة على الآثار

Twitter: @ketab_n

التي كانت تخلفها أقدامه على الرمال، لكن العيون التي تستطيع مثل هذه القراءة لم تكُن بين ألوف عيون النظارة.

كانت عيون الحراس البولونيين وعيون المساجين ترى فقط أن تريان كوروغا يزداد اقتراباً من الأسلاك الشائكة وأن هذا عمل ممنوع محرم وأن أيّ سجين لا يحقّ له أن يصل إلى أقرب من متر ونصف من الأسلاك الشائكة.

مع ذلك فقد كان كوروغا يرتكب هذا المحظور.

وضع السجناء أيديهم على عيونهم يحجبون عنها حركات تريان وما قد ينجم عنها. وكان بعضهم يضع قبضته على فمه قلقاً من رؤية النتيجة كما لو كانوا يشاهدون صراعاً مثيراً أو شريطاً عنيفاً أو يقرأون رواية بوليسية ممتعة.

كان البولوني في برج الرقابة لا يصدِّق عينيه. ولعله هو الآخر قد رفع يده إلى فمه، لكن يده كانت تحمل بندقية، فلما رفع يده ارتفع السلاح معها. تذكّر أن واجبه يقضي عليه بإطلاق النار على السجين الذي يقترب من الأسلاك الشائكة. فضغط إصبعه على الزناد وانطلقت الرصاصة. وعندئذٍ تذكر البولوني أنه ارتكب خطأ لأنه لم يصوِّب بندقيته إلى الهدف. ولما يطلق المرء البندقية، ينبغي أولاً أن يسدد إلى الهدف. ذلك هو النظام المتبع وهو يعرفه. وكان عقله الباطن يعرفه كذلك، ولذلك فإنه صحح خطيئته بحركة لاشعورية قبل أن يطلق رصاصته الثانية إذ سدَّد إلى الهدف وكان الهدف هو الرجل.

•

سمع تريان الطلقة الأولى ثم الثانية. وشاهد بريقاً خاطفاً يتكسر أمام عينيه ثم شعر بتعب يكتسح جسمه ويدفئه من رأسه إلى أخمص

Twitter: @ketab_n

قدميه. تعب يشبه ذلك الذي يشعر به الإنسان في الشتاء عندما يكون في غرفة دافئة وبعد أن يشرب سائلاً ساخناً. وشعر بشيء ساخن يسيل على يديه ثم ترنح جسده وسقط على الأرض المحرقة قرب الأسلاك الشائكة. لقد سقط دون ضجة أشبه بالمعطف الذي يسقط عن المشجب تلقائياً إلى الأرض.

شعر تريان بإشفاق عميق على ذلك الجسد الذي انهار رخواً على الأرض، ذلك الجسد الذي كان له أخلص صديق. في تلك اللحظة فقط تحقق من مقدار حبّه لذلك الجسد. ثم فكّر في نورا وفي أبيه وقد كان كلاهما في مثابة الجسد له. وتتابعت أمام عينيه صورة نورا وأمه وصورة إيوهان موريتز وقاضي التحقيق داميان وعدداً آخر من الصور جاءت كلها تسكن فترة في دماغ تريان ثم تتساقط بالتتابع كاللوحات التي تسقط من الجدران منذ أن ترفع المسامير التي تثبتها.

سقطت اللوحات التي تمثل الصور الحبيبة إلى نفسه. سقطت إلى الأرض مع جسد تريان كوروغا وتراكمت بعضها فوق بعض.

لم يعد الفكر يستطيع إبقاءها أمام العينين لأنه فقَدَ القوة على ذلك، لكن الشيء الوحيد الذي لبث برهة أخرى منتصباً لا يسقط مع تلك الصور كان رأسه الذي رفض التمرغ على الأرض.

غير أن ذاكرته كانت كالعلم تغطي بطيأتها تلك الصور الحبيبة وذلك الجسد الذي أصبح واهياً وقد فارقته الدماء.

كان تريان كوروغا يعرف ما يريد أن يقول لكنه لم يقُل ما يريد. كان يريد أن يبتهل بصلاة يحبها، لكن تلك الصلاة كان مقدَّراً لها كالعديد من الأشياء في الحياة أن تبقى في طي الخفاء، مع ذلك فإنها لم تكن صلاة طويلة ولو أنه عاش لحظات أخرى، لحظات بسيطة جداً، لاستطاع أن يردِّد هذه الصلاة:

Twitter: @ketab_n

أيتها الأرض الحبيبة
إنني أمنحك نفسي إلى لا عودة
أنا المجهول الذي جئت من بعيد جداً إلى هنا[1].

التصقت وجنته وشفتاه بالأرض الحارة بحركة مفعمة بالحنان والصداقة والاستسلام التام والحب العميق.

كان كل شيء خطيراً كاملاً لأنه تمّ ببساطة وبطء جليل كالنار التي تنطفئ بعد طول اشتعال.

وفي فناء المعسكر، كان إيوهان موريتز يريد إطلاق صرخة مدوية. رفع يده إلى فمه لكنه تمالك في آخر لحظة. لم يكن الصراخ هو ما يجب عمله في تلك اللحظة. أطرَقَ برأسه إلى الأرض ورسم إشارة الصليب.

- 165 -

بعد مضي أربعة أيام على موت تريان كوروغا، تلقى إيوهان موريتز رسالة من سوزانا.

رسالة من سوزانا إلى إيوهان موريتز:

«عزيزي إياني.

«لعلك تظن أنني متّ. إذ مضى علينا زمن طويل لم يتلقَّ أحدنا أنباءً عن الآخر. لقد ظننتُ مراراً في خلال الأعوام التسع الماضية أنك متّ وأردتُ أن أستقرئ صلوات عن روحك في الكنيسة كما يجب أن يكون الحال نحو الموتى.

---

(1) القصيدة للشاعر: ر.م. رلك.

Twitter: @ketab_n

«ولكني كنت دائماً في اللحظة الأخيرة أعدل عن رأيي.

«كان قلبي يحدِّثني بأنك لم تمُت. إنني الآن سعيدة لأنني لم أستقرئ صلوات عن روحك ولم أقم شعائر الدين لأنّ مثل هذه الأمور مجلبة سوء لغير الأموات.

لقد أعطاني السيد بيروسيه - وهو من الصليب الأحمر السويسري - عنوانك وأبلغني أنك سجين منذ سنوات.

«وبعد أن حمدت اللّه الجليل الذي حفظك على قيد الحياة، توجَّهت إليه بصلوات ليتفضّل بفتح عيون أولئك الذين أودعوك السجن دون ذنب جَنَيْته - لأنني أعرف أنك لست لصاً ولا قاتلاً وأعرف أنهم سجنوك دون سبب - علّهم يطلقون سراحك.

«إن عندي أشياء كثيرة أقصّها عليك إذ إن كثيراً من الأمور قد وقعت في خلال السنوات التسع التي انقضت. ولكن لا يوجد في رسالتي متّسع لأقص عليك كلّ شيء.

«لعلك ستنزعج إذا علمتَ أني الآن في ألمانيا وأنني هجرت البيت والأرض وكلّ ما كنا نملكه هناك وجئت أنشئ أبناءنا في أرض غريبة. لذلك فإنني سأقصّ عليك الأسباب.

«إنك غادرتنا في اليوم الثاني من عيد العنصرة.

«لقد أخبرني أهل القرية بأنهم رأوك يسوقك الدركي متنكباً بندقيته. لكنني لم أصدقهم لأنني كنت أعرف أنك لست مذنباً ولذلك فلا يجوز سجنك دون ذنب وسوقك كالمجرمين في حراسة الحراب.

«وانقضت أربعة أسابيع على ذهابك. فأنضجت خبزاً ساخناً وانتظرتك لنأكله معاً. كنت أعرف أنك ستعود جائعاً عطشاً. فلما برد الخبز وفات عليه اليوم أعطيته للأطفال وخبزت خبزاً جديداً وانتظرتك من جديد وكل أملي أنك ستجد عند حضورك خبزاً ساخناً

Twitter: @ketab_n

تأكله. لقد كان هاتف خفي ينبئني بأنك ستعود. لذلك رحتُ أنتظرك كل يوم. كنت أعتقد أنك ستصل مساءً فأترك الباب مفتوحاً لأجنِّبك مشقة الانتظار إذا طرقت الباب وهرعت إليه أفتح لك. كنت أعرف أنك ستعود تعباً وفي قدميك آلام من المشي الطويل، لذلك ما كنت أريد أن أجعلك تنتظر أمام الباب. لكنك يا عزيزي إياني لم تعُد. فعدلتُ عن خبز الخبز، من أجلك لأنني لم أجد طحيناً مدخراً ولم أستطع إيجاد الطحين. مع ذلك لبثتُ أنتظرك كل يوم.

«وذات يوم جميل، وكان ذلك قبل حلول عيد العنصرة الثاني، جاءني الدركي معلناً أنك يهودي وأنهم سيأخذون البيت مني. وأبلغني أنني إذا شئت الاحتفاظ بالبيت والبقاء فيه مع الأطفال فليس عليّ إلا أن أوقِّع ورقة، ورقة طلاق، فوقَّعت ولكنني لم أطلقك، بل لبثتُ أنتظرك كسابق العهد.

«ولمّا دخل الروس، قتلوا القس كوروغا مع خيرة أهل القرية. فذهلتُ أنا وأمك أريستيتزا وأخذنا القس ليلاً - لأنه لم يكن قد مات بعد - وأخرجناه من حفرة القاذورات وأردنا أن نخفيه في الغابة. لكننا التقينا بقافلة ألمانية، فأعطيانهم القس ليعنوا به ويحملوه إلى المستشفى. ولستُ أدري إذا كنا أحسنّا صنعاً، لكننا ما كنا نستطيع تركه يموت. وفي اليوم التالي أُعدمت أريستيتزا بيد ماركو غولدنبرغ عقاباً لها على فعلة الأمس. وأرادوا إعدامي بالمثل. لكنني حملتُ الأطفال وفررت من القرية. لقد اشتغلتُ وتألمت في أمكنة كثيرة. كنت أخاف أن يقبض الروس عليّ ويعدموني بالرصاص كما فعلوا بأمك. لذلك فقد فررتُ على قدر ما استطعت. غير أن الروس أوقفوني أخيراً في ألمانيا بعد انتهاء الحرب. فلم يقتلوني رمياً بالرصاص، بل كانوا شفوقين عليّ إذ أعطوني خبزاً لأولادك وحلوى وألبسة لأنهم لم يكونوا أبناء شخص ألماني. وقد أعطوني كذلك

Twitter: @ketab_n

طعاماً وألبسة لي، وإنني الآن آسفة شديد الأسف لأنني فررت من فانتانا خوفاً من الروس.

«وقد استمرّ ذلك أربعة أيام كنت أنتظر أن أشفى من المرض الذي نزل بي لأعود إلى منزلنا. وذات مساء قرع أحدهم النافذة. ولما استطلعت الخبر وجدت أنهم جنود روسيون. اقتحمو الباب ودخلوا إلى البيت وراحوا يفتشون فيه عن نساء أخريات. فأخذوا ابنة صاحبة المسكن التي كانت في الرابعة عشرة من عمرها. أعطونا خمراً لنشرب وأشهروا مسدساتهم وأفهمونا أنهم سيقتلوننا بالرصاص إذا امتنعنا عن الشراب. ثم أمرونا أن نخلع ألبستنا ونقف عاريات. كان الأطفال، أطفالنا، في الغرفة معنا. قلت لهم أنهم يستطيعون قتلي إذا شاءوا لكنني لن أخلع ثيابي أمامهم. فانتزع الجنود ثوبي وقميصي ومزقوهما شرّ ممزق ثم استحيونا ولبثوا في مضاجعنا حتى الفجر وقد ضاجعونا جميعهم. ولقد صبّوا في فمي عرقاً لأنني رفضت تناول الشراب، وكذلك ملأوا به أذني وعادوا إلى فراشي من جديد. اغفر لي يا عزيزي إياني إذا كنت أقصّ عليك كلّ هذا لأنني لا أريد أن أخفي عنك شيئاً. ولما استيقظت، كان الروس قد ذهبوا ولم يبقَ حولي إلّا الأطفال يبكون كما يندب الباكون الأموات.

«وفي المساء التالي عاد الروس من جديد. كانوا هم أنفسهم جنود الأمس. جاءوا بابنة صاحب المسكن وعادوا يضاجعوننا مرة أخرى.

«واختفيتُ أنا مع الأطفال في القبو خشية أن أقع فريسة بين أيدي الجنود الروس من جديد. غير أنّ الليلة الثالثة لم تكن خيراً من سابقتيها. لأنّ الروس عثروا عليّ في القبو وانقضت تلك الليلة كالليلتين السالفتين. لكنني لا أعرف حقيقة ما حدث لأنه أغمي عليّ منذ أن وضعوا أيديهم على ذراعي.

Twitter: @ketab_n

«ودام الحال هكذا أسبوعين كاملين ليلة إثر ليلة. كنت أختبئ كل مرة في البستان أو في مخزن المؤن أو عند الجيران، لكن الجنود الروس كانوا يعثرون عليّ أبداً فلم أستطع الإفلات منهم ليلة واحدة. فقرَّرت الانتحار. لكنني عندما كنت أرى الأولاد، كنت أشعر بضعفي واستحالة تركهم دون أم. لقد كان غياب أبيهم وحده كافياً. إذ ماذا يستطيعون عمله إذا ما لبثوا وحيدين في بلد غريب. إنني إذا كنت لم أنتحر فما ذلك إلا من أجلهم. أما أنا، فإنني منذ الآن أعتبر نفسي ميتة. ولقد فررتُ إلى الغرب فراراً من الروس. فوصلت إلى منطقة الإنجليز ومنها إلى المنطقة الأميركية حيث ما زلت إلى الآن. وقد أوقفني الروس مرّات في الطريق وكانوا كل مرة يستحيونني أمام الأطفال كما هو شأنهم مع كل النساء. وقبل أن أجتاز المنطقة الروسية إلى المنطقة الإنجليزية استبقاني الجنود الروس على الحدود ثلاثة أيام كانوا لا يدعوني ساعة من الليل أو النهار إلا وضاجعوني. وفي آخر مقارنة لهم معي، خرجتُ حبلى. لقد مضت خمسة أشهر على هذه الحادثة، وأشعر الآن بالجنين في أحشائي.

«إنني أسألك رأيك فيما يجب أن أعمل. اكتُب لي إذا كنت ما زلت تعتبرني زوجة لك بعد كل ما حدث، وإذا كنت تقبل بعد كلّ هذا أن تعود إليّ.

«إنني أنتظر جوابك بفارغ صبر، وأنا أبكي لأعرف ماذا يجب عليّ أن أعمل».

«سوزانا»

Twitter: @ketab_n

لبث إيوهان موريتز بعد قراءة الرسالة فترة طويلة وأوراقها بين أصابعه المتقلصة. سمع صوت نفير الطعام، لكن صوته بلغ أذنيه بعيداً خافتاً وكأنه في حلم. سمع نداء الطعام لكنه لم يتحرك، بل لبث مستلقياً على ظهره.

كانت نظرته وحياته والطريقة التي كان مستلقياً بها متبدلة كلها عن جري عادته. لم يعُد إيوهان موريتز المعهود، ذلك الإيوهان موريتز الذي كانه حتى الآن، بل تبدَّل إلى إنسان آخر. كان جسد إيوهان موريتز وروحه كالشريط الذي يمر فيه تيار عنيف جداً لم يستطع الصمود أمامه. لم يبقَ منه إلا رماد ساخن هي كلّ بقايا موريتز أمس. أما موريتز الجسد، فلم يعُد له وجود. حتى أنه لو وَخَزه بعضهم بإبرة لما شعر بالألم. أصبح إيوهاناً جديداً لا يشعر بالجوع ولا بالعطش، إيوهاناً لا يدري أهو سعيد أم حزين.

كان يستطيع أن يبكي وأن يضحك معاً لأنه لم يعُد يساهم في شيء من الحياة ولا يشعر أنه على قيد الحياة.

نهض إيوهان موريتز من سريره وخرج من الخيمة وراح يمشي دون أن يعرف لنفسه هدفاً.

توقف أمام الأسلاك الشائكة على جري عادته دون أن يعرف السبب. ولو أنه تجاوز الحدّ المسموح به وأطلق عليه الجنود النار فقتلوه لما شعر بأيّ أسف. لكنه ما أراد تجاوز الحدّ ولم يكن يريد تجاوزه. إنه لم يكن يرغب في شيء أو يريد شيئاً أبداً.

وبعد لحظات اقترب منه جنديان أميركيان وفي أيديهما آلات التصوير وأرادا التقاط صورة له.

Twitter: @ketab_n

لم يتحرك موريتز من مكانه ولم ينظر إليهما. لكنه انتفض عندما لمح الجندي الثالث. فناداه بهدوء:

- سترول، كيف جئت إلى هنا؟ . . .

توقف الجندي الأميركي في مكانه، وظلّ برهة ينظر إلى موريتز وآلة التصوير في يده.

كان هوسترول، موظف الإعاشة السابق في معسكر اليهود في رومانيا، سترول الذي فرّ معه برفقة الطبيب أبراموفيسي في بودابست. نظر كل منهم إلى الآخر وتعارفا.

ولما ناداه موريتز باسمه للمرة الثانية، وضع سترول جهاز التصوير أمام وجهه وهو يخفي عينيه ويتظاهر بأنه يصوّر موريتز.

ثم ابتعد مسرعاً دون أن يجيب.

لبث إيوهان موريتز واقفاً وراء الأسلاك الشائكة ينظر إلى سترول والجنديين الآخرين وهم يركبون سيارة جيب ويبتعدون.

ولما أقلعت السيارة، عاد سترول فألقى نظرة على إيوهان موريتز لكنه سرعان ما أشاح بعينيه مرتبكاً.

لم يغضب موريتز قط، ولو أن سترول، صديقه في المحنة، تنكّر له وتظاهر بأنه لا يعرفه في غير ذلك اليوم لغضب غضباً جنونياً.

لكنه اليوم لم يشعر بأذى لأنّ كلّ شيء كان لديه تافهاً.

لبث إيوهان موريتز واقفاً أمام الأسلاك الشائكة.

شعر بيد تلمس كتفه فاستدار مذعوراً:

- هيّئ نفسك للذهاب، يا موريتز!

التفت إيوهان موريتز. ظنّ أن أمراً بإطلاق سراحه قد وصل إلى قيادة المعسكر وأنهم يبلغونه ذلك الأمر. فشعَّ في عينيه بريق السرور، وقال:

- هل يطلقون سراحي؟

Twitter: @ketab_n

قال رئيس الخيمة الذي أنهى إليه الخبر الأول:

- كلا وللأسف، يا عزيزي موريتز!

- إنهم إذن سينقلونني إلى معسكر آخر، أليس كذلك؟

- نعم. إلى نورمبرغ!

هز إيوهان موريتز رأسه بلا مبالاة. كان يعرف أنه منذ أن أعلن بصورة آلية أنه مجرم حرب هو وكل جنود فرق الحرس فإن ذهابه إلى نورمبرغ، حيث اجتمع مجرمو الحرب الآخرون أمثال غورنغ، ورودلف هس، وروزمبرغ، وفون بابن... كان منتظراً فيه أن يحكم عليه بالإعدام وأن يشنق. وأصبح كل شيء في تلك اللحظة عنده سيان.

ولذلك فقد استمر ينظر من خلال الأسلاك الشائكة إلى الأفق البعيد.

عاد رئيس الخيمة يربت على كتفيه، ويقول:

- ستذهب في خلال نصف ساعة.

لم يتحرك إيوهان موريتز. قال رئيس الخيمة:

- اذهب وهيئ أمتعتك! إن الوقت لا يكاد يسمح لك بذلك. سيكون الاجتماع عند الساعة الثالثة عشرة.

قال موريتز:

- ليس لدي أمتعة.

- ألن تأخذ معك شيئاً؟

- لا شيء أبداً.

- ولا غطاؤك؟

- ولا غطائي.

فكّر رئيس الخيمة لحظة أن إيوهان إذا ترك غطاءه الصوفي فإنّ

Twitter: @ketab_n

ذلك سيسمح له هو إمكانية استعمال غطائين. لكنه سرعان ما طرد تلك الفكرة من رأسه وقال:

- ينبغي أن تحمل معك غطاءك لأن سجن نورمبرغ الدولي بارد رطب. لسوف تحتاج فيه إلى غطائك.

- إنني لن أحتاج إلى شيء.

قال رئيس الخيمة، وهو يبتعد:

- لا تتأخر على أية حال. سيكون الاجتماع في تمام الثالثة عشرة.

لبث موريتز في مكانه وطرف حذاءه على حافة الخط الأبيض الذي يفصل بين المنطقة المحرمة على المساجين والمنطقة المباحة، فتحرَّكت قدم موريتز اليمنى ووطئت الخط الأبيض، ورفع عينيه إلى البولوني في برج الرقابة. كان الحارس يسدِّد بندقيته في تلك اللحظة ويقف على استعداد لإطلاقها، غير أن إيوهان موريتز لم يتخطَّ الحد الأبيض، بل مكث حيث كان وقدمه على حافة الخط. وبعد نصف ساعة كان يذهب إلى نورمبرغ مع مجرمي الحرب الآخرين الذين جمعوهم من المعسكر.

لبثت رسالة سوزانا هي الأخرى في الخيمة مع بقية أمتعة إيوهان. فحاول زملاؤه قراءتها، لكنهم عزفوا عن ذلك عندما وجدوها مكتوبة بالرومانية وتأكدوا من أنهم لن يفهموا منها شيئاً.

كان ورق الرسالة رقيقاً جداً فمزَّقها السجناء قطعاً صغيرة وراحوا يلفون فيها التبغ بدلاً من ورق السجائر.

وراحوا يدخِّنون لفافاتهم.

Twitter: @ketab_n

عرض حال رقم 7 - الموضوع: عدالة. عقاب مجرم الحرب إيوهان موريتز. (هذا المعروض وصل إلى المكتب بعد موت الشاهد).

قررت محكمة نورمبرغ الدولية باسم اثنتين وخمسين أمة أن صديقي إيوهان موريتز مجرم حرب.

إنّ هذا أمر جميل لأنني منذ أن يعلن قرار الإدانة لن أتنزه معه في ساحة المعسكر لأنه لا يجوز ولا يُستحسن أن يتنزه المرء في فناء المعسكر بصحبة المجرمين، خصوصاً وأن ذلك لن يكون خالياً من النقد والاستهجان.

لكن إيوهان موريتز يبدو غير مبالٍ بقرار محكمة نورمبرغ الدولية وبخطورة جريمته.

وهذا هو موضوع هذا الغرض.

إنه يزعم أنه لم يقتل أحداً في حياته حتى ولا ذبابة، وأنه إذن ليس مجرماً. الأمر الذي لا شك في خطئه طالما أن اثنين وخمسين أمة قررت في محكمة دولية أن إيوهان موريتز مجرم. إن إيوهان موريتز يزعم كذلك أنه لا يعرف الاثنتين والخمسين أمة وأنه إذن لا يمكن أن يكون قد ارتكب جرائماً ضدها. إنّ مناقشته للموضوع ساذجة ولا شك، لذلك قرأت له أسماء الأمم الاثنتين والخمسين التي تتهمه. فوجد بينها بعضاً لم يسمع بأسمائها قبل تلك اللحظة، بل ولم يكن كذلك يعرف وجودها على سطح الأرض، لكن ذلك لا يمكن أن يكون عذراً.

لقد غضب إيوهان موريتز لمّا رأى أنّ اسم فرنسا واليونان في عداد الأمم الاثنتين والخمسين التي تتهمه، وامتقع وجهه من الغضب

Twitter: @ketab_n

ورفض بشدّة أن يصدق ما ورد في لائحة الاتهام. إنه يزعم أنه تعرَّف قبل على ستة من الفرنسيين السجناء أنقذهم من السجن. وأنه تعرّف مرة على يوناني واحد كان سجيناً معه في معسكر واحد فاقتسم معه رغيف الخبز الذي كان يملكه. وفيما عدا ذلك فإنه يزعم أنه لم يربط أية علاقة أخرى بينه وبين اليونان، لكن ما يرويه ليس إلا مجرد مسائل خاصة وشخصية لا علاقة لها بالأحوال العامة.

لذلك فإن إيوهان موريتز يُعتبر مجرماً في نظر هاتين الأمتين أيضاً.

إن القرار واضح وحازم.

ولكي نقنع إيوهان موريتز بإجرامه حيال الأمم المتحدة فإنني أقترح أن يقضي إيوهان موريتز مدة سجنه بمعدل عام في كل من هذه البلدان، وعندئذٍ يستطيع أن يقنع نفسه بحقيقة كونه مجرم حرب. وبذلك فقط تتبخر لا مبالاته.

مع ذلك، وباعتبار أن احتمال بقاء إيوهان موريتز حياً اثنين وخمسين عاماً أخرى، وذلك بسبب الضعف العام الذي هو شامل بالوقت الحاضر كلّ المجرمين أمثاله، ولما كان موته قبل أن تستطيع كل واحدة من هذه الأمم الاثنتين والخمسين التي هي من ضحاياه سجنه لديها لأنها ستشعر بالمغدورية إذا لم يعاقَب في أراضيها، فإنني أقترح بسبب ذلك أن تخفَّض مدة السجن إلى ستة أشهر في كل بلد فيكون مجموع السنين ستة وعشرين عاماً كاملة.

فإذا لم يمُت في خلال هذه الأعوام الستة والعشرين - وأنه لمؤسف حقاً أن يموت قبل أن ينهي فترة العقوبة في كل دولة من الدول الاثنتين والخمسين - فإنني أقترح أن يكبل بالأصفاد وأن يطوف على الأمم الاثنتين والخمسين بمعدل شهر في كل بلد حتى إذا انتهى من طوافه أعاد الكرة من جديد.

Twitter: @ketab_n

وهكذا فإن كل واحدة من الأمم الاثنتين والخمسين ستأخذ نصيبها في عقابه دون أن تُغدر أحدها أو أن يغمط حقها.

ينبغي أن تطبَّق العدالة، والعدالة هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الآلي الغربي.

ولما كانت هناك بعض الأمم - كروسيا وبولونيا ويوغوسلافيا مثلاً - لا ترعى سجناءها وتُبقيهم في حالة كاملة من الحركة والنشاط، وأنه يحدث أحياناً أن تنسى سجناءها في شجونهم زمناً طويلاً، فإنني أقترح أن يُصار إلى وزن إيوهان موريتز بميزان دقيق قبل كلّ طواف وأن يرفق بقائمة دقيقة عن كلّ الأعضاء العاملة التي يمتلكها في جسده.

يجب على كلّ أمة أن تتعهد إيوهان موريتز فتتسلمه من محكمة نورمبرغ الدولية وتعيده إليها على مثل الحالة التي استلمته من قبل شريطة أن يكون وزنه متساوياً وأن تكون الأعضاء العاملة المسجَّلة بدقة في جدول الإحصاء ما زالت عاملة صحيحة.

وهكذا يمكن إبقاء إيوهان موريتز في كامل نشاطه واستخدامه في الأشغال الشاقة في كلٍّ من بلاد الأمم الاثنتين والخمسين.

إنّ المجتمع الآلي الغربي يقوم على مبدأ عدم ترك شيء يفسد ويتعطَّل.

وأنه لمن واجبنا أن نطلب إلى الأمم الأقل مدنية من أممنا أن لا تتصرف حيال الأشياء التي تسلم إليها ببربرية ووحشية.

إنّ مهمّتنا هي نشر الرقي والمدنية في العالم أجمع! هذا هو واجبنا وإننا لفخورون بهذا الدور.

الشاهد

Twitter: @ketab_n

الفصل الأخير

انتهى المطاف إيوهان موريتز إلى خارج المعسكر والسجن فأعيدت إليه حريته.

لقد لبث غائباً عن بيته ثلاثة عشر عاماً.

لقد مرّ في خلال هذه المدة بمئات من المعسكرات وانتهى به المطاف أخيراً إلى زوجته وأطفاله.

كانت الساعة العاشرة مساءً، وكان ذلك هو المساء الأول لموريتز وأسرته. كان موريتز قد تناول طعامه فلبث متكئاً بمرفقيه إلى المائدة يتأمل أطفاله.

كان بيتر، وهو البكر، في الخامسة عشرة من عمره. فكان موريتز ينظر إليه ويفرك عينيه خشية أن يكون في حلم. لم يكن يستطيع تصديق ما تراه عيناه والاعتقاد بأن هذا هو ابنه هو إيوهان موريتز.

كان بيتر يرتدي سترة أميركية زرقاء اللون ويدخّن لفافة، وكانت عيونه تشبه عيني أبيه.

ولم يكن بيتر كذلك يصدق أن هذا الرجل الناحل ذا الفودين الأشهبين، ذلك الرجل الذي كان أمامه والذي لم يره قط من قبل كان أبوه.

Twitter: @ketab_n

لكنه في تلك اللحظة بعد أن رأى أنه سيقطن معه في غرفة واحدة فإنه راح يحاول ائتلاف وجوده.

قال بيتر:

- سأتحدث إلى الرئيس، ولعله يجد لك عملاً في المصنع الذي أشتغل فيه.

ابتسم إيوهان، بينما أردف بيتر يقول:

- وإذا كنت أنا الذي أذكيك فإن الرئيس سيقبلك حتماً. إنه لا يقبل أبداً عمالاً غير اختصاصيين. وأنت لست اختصاصياً، لكنه سيستثنيك من هذا الشرط عندما أقول له بأنك أبي.

نظر إيوهان موريتز إلى ابنه الثاني نيكولاي الذي كان يشبه سوزانا. لقد كان هو الآخر أشقر، ونظراته هادئة وديعة كالقطيفة.

وانتقلت عينا إيوهان موريتز إلى الولد الثالث وعمره أربعة أعوام. لم يكن هذا ولده. لقد جاءت به سوزانا نتيجة بقائها في منطقة الروس، لكن إيوهان موريتز صفح عنها لأنها لم تكن مخطئة فيما صنعت ولم تكن مخيَّرة فيه.

أشعل إيوهان موريتز لفافة جديدة، لقد قدَّم له ابنه بيتر - ليُعرب له عن ترحابه بمقدمه - علبة كاملة من اللفافات.

كان إيوهان موريتز تعباً منهوكاً، لكنه لم يكن يشعر برغبة في النوم.

لم يكن في الغرفة إلا سريران. كانت سوزانا ستشغل أحدهما مع الطفل، بينما ينام هو على الآخر وحيداً. أما الغلامان، فإنهما كانا سينامان على دثار يفرشانه. على الأرض.

قال بيتر:

- إن هذه الحال محتملة على شكلها الحاضر حتى تعثر على غرفة أو على سرير جديد.

Twitter: @ketab_n

راح الغلامان يفرشان الدثار على الأرض، وبدآ يخلعان ألبستهما.

لبث إيوهان جالساً وراء المائدة، ورأسه بين يديه، ينظر إلى ولديه بيتر ونيكولاي وهما يخلعان ثيابهما ويستلقيان. تمنيا له ليلة طيبة، فكانا يتحدثان بالألمانية. وكم ودّ إيوهان موريتز لو أنهما خاطباه بالرومانية، لكن الغلامين كانا يتعثران عند التحدُّث بتلك اللغة.

وضعت سوزانا الطفل في السرير «طفل الروسيين»، كما غمغم موريتز في سره. كان الطفل جميلاً جداً ذا خصلات من الشعر الأشقر.

كان موريتز لا يحب النظر إليه. لكنه كان - عندما أجاب على رسالة سوزانا من المعسكر - قد أعربَ لها عن نيته في اعتبار الطفل كولده.

بيد أن سوزانا ما كانت كذلك تحبّ أن ينظر موريتز إلى الطفل الأشقر الجميل. نزعت عنه ملابسه وأودعته السرير وكأنها تخفيه عن عيني موريتز.

لبثت سوزانا واقفة فترة طويلة في وسط الغرفة لا تعرف ما تعمل.

ثم جلست إلى المائدة قبالة زوجها. كانت تعرف أن موريتز منهوكاً تعباً، لكنها ما كانت تجرؤ على دعوته إلى الإيواء إلى السرير. كانت تشعر أنها مذنبة، وأنها سبب كلّ ما حدث، وأنها علة سجنه كل تلك السنوات التي قضاها في المعسكرات. صحيح أن تفكيرها كان أخرقَ. لكنه كان أقوى من إرادتها. فما كانت تستطيع العزوف عن التفكير. . .

كذلك شعرت أن استباحة الروس لجسدها كانت بخطئها، لذلك

Twitter: @ketab_n

ما كانت تقدر على احتمال نظرة إيوهان موريتز، وما كانت تجرؤ على تنبيهه إلى لزوم النوم والاستراحة.

كانت تعرف أنه سيأتي بعد غياب. فجهَّزت له الطعام، وسوَّت له السرير. لقد كان جائعاً جوع الذئاب، فالتهم كلّ ما كان على المائدة.

وكان في تلك اللحظة قد أتى على نصف علبة اللفافات التي قدَّمها إليه بيتر.

والآن، وقد نام الأولاد، رفعت سوزانا عينيها إلى وجه زوجها. وتقابلت نظراتهما ولبثت مرتبطة ببعضها لحظة لا تستطيع عن بعضها فكاكاً.

- أهذا هو الثوب الذي كنت ترتدينه ذلك المساء؟

كان موريتز ينظر إلى الثوب الأزرق ذي الياقة الواسعة الذي كانت سوزانا ترتديه ليلة أن قتل إيورغو إيوردان أمها. كانت سوزانا ترتدي ذلك الثوب عندما حملها إلى منزل أبويه، عند أريستيتزا التي رفضت إيواءها، وعند الكاهن كوروغا الذي أعطاه الغرفة الصغيرة قرب المطبخ. كانت سوزانا بادئ الأمر لا تملك إلّا ذلك الثوب، حتى ولا قميصاً تحته. وظلّت في خلال أسابيع متعاقبة لا تلبس سواه فلا تخلعه إلا مساءً عندما كانت تنام عارية تماماً. واستطاعت بعد ذلك أن تَحيك لنفسها أثواباً أخرى. لكنها ظلّت تعتبر ذلك الثوب أجملها وأفضلها. وكان هو الثوب الذي يحبه زوجها أكثر من سواه. لأنّ أجمل أسابيع غرامهما كانت تلك التي انقضت بينما كانت سوزانا تلبس ذلك الثوب وحده.

قالت سوزانا:

- إنني لم ألبس هذا الثوب منذ رحيلك عن فانتانا. لقد أقسمتُ يوم أن أوقفوك على أن لا أضعه على جسدي إلا عندما أراك داخلاً

Twitter: @ketab_n

من الباب. لقد حملته معي إلى كل الأمكنة التي تنقلت فيها طيلة الأعوام الثلاثة عشر. ولقد انتظرت طيلة ثلاثة عشر عاماً، غير أنني لم ألبسه غير اليوم.

أطرقت سوزانا والخجل يغمرها، ثم عادت فرفعت رأسها وتقابلت نظراتها مع نظرات إيواها.

ودَّ إيوهان موريتز لو يُجلسها على ركبتيه ويقول لها ببساطة: «لقد أضناني الحنين إليك».

لكنه لم يقُل لها شيئاً.

أشعل لفافة جديدة وعاد ينظر إلى الأولاد النيام، ثم يتوقف بأبصاره على وجه سوزانا. إنها لم تختلف اختلافاً بيناً. لقد تجعَّد وجهها قليلاً وفقدت بشرتها نعومتها، وتلوَّن شعرها بلون الكتان، وضمر ثدياها وتهدَّلا. لكنها ظلّت هي هي لم تتبدَّل عن أمس البعيد. لم يكن إيوهان موريتز يعتقد أنه سيجد سوزانته إياها، سوزانّة فانتانا. لقد كانت الأعوام الثلاثة عشر دهراً طويلاً.

قال إيوهان موريتز:

- إنني أريد أن أتنزه قليلاً:

لكنه لم يتحرك. لقد كان ينتظر أن تبدأ سوزانا بالحركة.

سألته:

- هل أستطيع أن أرافقك؟

لم يُجِبْها. لكنه انتظر أن ترتدي ثيابها.

ثم خرجا من الغرفة على أطراف أقدامهما خشية أن يستيقظ الأولاد.

كانا يشعران بشيء من الخجل.

ولما هبطا السلالم، تلامس كتفاهما مرتين. وظلا وقتاً لا يتحدثان.

Twitter: @ketab_n

كانت السماء داكنة، وكان موريتز يودّ رؤية الشارع الرئيس، فقادته إليه.

أمسكت بيده أمام واجهة زجاجية مُضاءة لتُريه زوجاً من الأحذية كانت تريد ابتياعها له، ثم مضيا بعد ذلك. غير أن يديهما ظلّتا متعانقتين وراحا يتفرجان ويتنقلان من واجهة إلى أخرى. لم يتحدثا عن المعسكر ولا عن بيتهما في فانتانا. تناسيا الماضي لأنهما يريدان قضاء أمسية هادئة خالية من الذكريات الأليمة.

قال إيوهان موريتز:

- سأستريح يومين ثم أبحث عن عمل. لعلّ بيتر يستطيع إدخالي في عداد عمال مصنعه.

فأجابت سوزانا:

- ستستريح أولاً بضعة أسابيع، ولن تبحث عن عمل إلّا بعد ذلك. إنك الآن شديد الهزال وإنني وبيتر نكسب ما يكفي لعيشنا. إنني أغسل الثياب ولي زبائن كُثُر.

وضغطت على يديه بشدّة. كان يحب الأسلوب الذي لجأت إليه لتُفهمه أن عليه أن يستريح.

بلغا أبواب المدينة. كانت إلى يمين الطريق ويساره سهول جرداء. والظلام يخيم على الكون، فقال إيوهان موريتز:

- أكاد أعتقد أننا في فانتانا.

فأجابت:

- هذا صحيح.

وعادا إلى نزهتمها وهما يفكران في ليالي فانتانا وفي صراخ البوم. كان كلاهما يفكّر في أمر واحد.

قال موريتز:

- إن قدميّ تؤلمانني، فهل تريدين أن نجلس برهة؟

Twitter: @ketab_n

ودخلا بستاناً، وجلسا على العشب فيه.

قال موريتز، وهو يستلقي على ظهره ويضع يديه تحت رأسه:

- إن هذا يذكّرني بفانتانا.

ثم استدار في استلقاءته وجعل وجهه إلى الحشائش، وأردف:

- استنشقي شذى العشب يا سوزانا. إنها رائحة الأعشاب في البستان الذي كان قريباً من بيتك. هل تذكرين؟ إنه البستان الذي كنا نلتقي فيه...

فانحنت إلى العشب تشمّ عبيره. كان قلبها شديد الخفقان وقد ارتج عليها فلم تُجبه لأن صوتها، لو نطقت بكلمة، كان سيبدو ضعيفاً متهدجاً.

وضع إيوهان موريتز يده على كتفِ سوزانا فلبثت منحنية كي تستبقي يده.

مكثا برهة هكذا لا يتحركان. كانا متباعدين تصل بينهما تلك اليد التي كان إيوهان موريتز يضعها على كتفِ سوزانا، وما كانا يجرؤان على الاقتراب من بعضهما أكثر من ذلك.

قال إيوهان موريتز:

- أتعرفين يا سوزانا، لقد ذويتُ حنيناً إليكِ في المعسكر...

كانت بعض النجوم تلتمع في السماء. فنظرت سوزانا إلى السماء ثم ازدادت انحناءً نحو موريتز دون أن تشعر. كانت خجلى.

استطرد إيوهان موريتز معتذراً:

- أرجو أن تغفري لي يا سوزانا لأنني في المعسكر كنت أحلم غالباً بأنك عارية أمامي. عندما يسجن المرء يشعر غالباً بذلك. إنني أريد بذلك أن أطلعك على كلّ الحقيقة. لقد كنت أحلم بك. لقد كنت عارية تماماً كما كنت بين الأعشاب وراء منزل أبيك... سيبقى ذلك الصيف أجمل أيام حياتنا.

Twitter: @ketab_n

ازدادت سوزانا اقتراباً منه ووضعت رأسها على كتفه. فراح يربت على كتفها، ثم انتقلت يده إلى ظهرها ثم إلى ثدييها، وقال:

- سوف تُتلفين هذا الثوب الجميل الذي احتفظت به ثلاثة عشر عاماً.

همَّت أن تقول له إن الثوب لن يُتلف. لكنه استطرد:

- يحسُن بك أن تنزعيه وأن تضعيه جانباً كما كنت تفعلين في فانتانا.

نزعت ثوبها، وكانت في حركاتها أشبه بتلك التي تحاول إخفاء جسدها حتى لا يراه. كانت عارية تماماً، وكانت الأعشاب خضراء، فارتسم جسدها البضّ عليها كالرخام الأبيض. طوقها بيده وقال، وهو يدهش لقوله:

- إنك لم تتبدلي عن ذي قبل. إنك سوزانة الأمس. إنك كما كنت بالأمس البعيد لما كنا نلتقي في البستان. كيف استطعتِ البقاء دون تبدّل؟

قالت:

- هذا غير صحيح. لقد هرِمتُ. أمّا أنت، فإنك لم تتبدل.

جذبها موريتز إليه، فابتعدت، فقال:

- إنك تبتعدين كما كنتِ تفعلين من قبل، وكأن الأعوام الثلاثة عشر لم ترسم دورتها في الزمن.

كانت تفكِّر في مثل ذلك الأمر.

لقد طوّقها بذراعه كما كان يفعل من قبل، وجذبها وغطى فمها بقبلاته حتى كاد يخنقها. وشعرت بصدره يسحقها كالدرع الثقيل. كل شيء كان كالماضي.

قالت سوزانا:

- إن جسدك يفوح برائحة العشب كما كان في فانتانا. لقد كان

Twitter: @ketab_n

جسدك أبداً محتفظاً برائحة العشب والعلف. إنني أنا الأخرى كنت أفكّر فيك طوال الوقت. وأقسم لك. لقد أمضيت كل هذه السنوات أفكّر فيك بكلّ قواي وعقلي. وأقسم لك. لقد كنت شمسي وزوجي وسمائي، أنت وحدك.

كانت تريد أن ينال موريتز حظّه من الراحة أولاً لكنه كان مصمّماً.

قال:

- سأذهب صباح غد مع بيتر لأنني لا أستطيع البقاء دون عمل. لقد قضيت ثلاثة عشر عاماً وأنا أشتغل من الصباح حتى المساء دون راحة، وكان عملي شاقاً قاسياً.

توقفا أمام أحد المخازن، وكانت الواجهة مضاءة.

قال موريتز:

- سأشتري لك، من أجري الأول، هذا العقد من اللآلئ الزجاجية. هذا الأحمر. هل يروق لك؟

فنظرت إلى بطاقة السعر ومنها إلى وجه إيوهان. كانت كلّ أحلامها أن يشتري لها إياني عند عودته عقداً من اللآلئ الزجاجية، وها قد تحققت أحلامها.

قالت:

- سوف لن نفترق بعد اليوم أبداً.

- إذا بدأت العمل غداً فسأشتري لك العقد يوم السبت المقبل.

ولما بلغا الشارع الذي يقطنان فيه كان الصبح قد انبلج أو كاد.

أخذ موريتز سوزانا بين ذراعيه، وقبّلها وقال:

- لن أستطيع تقبيلك في المنزل لأنّ الأولاد قد يهزأون بنا. إنهم يظنون أننا هرمنا. لكننا لسنا كذلك. ألسنا بعد بعيدين عن سن الشيخوخة؟

Twitter: @ketab_n

شاهدا أمام الباب سيارة كبيرة مضاءة الأنوار.

خفق قلب إيوهان موريتز بشدة، وتلمَّس الجيب التي أودع أوراقه فيها. لقد كانت أوراقاً قانونية، مع ذلك فقد كان قلقاً. كانت السيارة تشبه سيارة المعسكر، وأنوارها تعطي مثل ضياء تلك.

كان موريتز يعرف أن أوراقه لا غبار عليها، وأنه كان يحتفظ بها معه وأن أنوار كل السيارات تعطي ضياءً متشابهاً.

قالت سوزانا:

- لِمَ ترتعد؟

لم يُجب. لكنه تعجَّل الدخول إلى البيت.

وبينما كان يصعد السلم، التقى بدركيين كانا عائدين من مسكنه. كانا قد أيقظا أولاد إيوهان موريتز وقالا لبيتر أن عليهم أن يكونوا جاهزين في الساعة السابعة صباحاً أمام الباب، ومعهم خمسين كيلو غراماً من الأمتعة لكلّ منهم.

لكنهما لما قابلا إيوهان موريتز على السلم، انتهزا تلك الفرصة ليطلعاه على الأمر أيضاً.

- ينبغي أن تكونوا على استعداد في السابعة صباحاً وأن تقفوا أمام الباب.

سألت سوزانا عن السبب، فأجابها أحدهما:

- إن كل الغرباء في شرقي أوروبا سيحفظون في المعسكرات. إنه تدبير سياسي لأن بلادكم في حالة حرب مع الحلفاء الغربيين. ولكن لا تقلقوا فالحياة في المعسكرات جيدة. ستأكلون هناك كما يأكل الأميركيون. إنّ هذه العملية ليست إلا إجراءً بسيطاً على سبيل الاطمئنان فلا تخافوا. إنكم لا تُعتبرون سجناء.

أراد إيوهان موريتز تلك الليلة أن يفرّ.

لقد استُدعي مرة ليقصّ على حاكم المدينة كيف أنقذ الفرنسيين،

Twitter: @ketab_n

فصدَّق الخدعة آنذاك، وكلفه ذلك التصديق أعواماً طويلة في السجن. غير أنه الآن لم يعُد يصدق شيئاً. أخذ الكيس الذي جاء به قبل ثماني عشرة ساعة من معسكر «داشو» وأيقظ الأولاد ليودّعهم.

راح بيتر يضحك وهو يرى أباه على وشك الفرار. كان بيتر يتكلم الإنجليزية بطلاقة، وكان صديقاً للأميركيين. سأل:

- إلى أين تريد الذهاب، يا أبي؟ لا تكن ساذجاً. إنني أعرف الأميركيين ولي عدد من الأصدقاء بينهم. إننا نخرج كل مساء معاً. إذا قال لك الأميركيون أن الأمر لا يتعلق بتوقيفك، فيمكنك أن تصدِّق. وإذا كان الأمر تدبيراً سياسياً، فإنّ معنى ذلك أننا سنحصل على الطعام الأميركي والقهوة الجيدة واللفافات «والشكولاتة»، بل إننا لن نكون مرغمين على العمل. فمن السخف إذن أن تفرّ. إنك لا تعرف الأميركيين.

فكّر إيوهان موريتز في كل معلوماته وفي كل الآلام التي احتملها وكل ما رأى، ثم نظر إلى بيتر. ما أراد أن يفسد على بيتر أحلامه وخيالاته فيقصّ عليه كل ما يعرفه.

ترك إيوهان موريتز كيس أمتعته جانباً، وراح يحدِّث نفسه بأنه لا يعرف أن يفرّ. لأنه إذا هرب من الأميركيين وقع بين أيدي الروس. والحالة عند الروس أشد نكراً. ولم يكن معنى ذلك أنه يصدق كل ما يقوله بيتر، بل كان يعرف جلية الأمر. غير أنه كان تعباً لا يملك القوة على الفرار. فلم يكن لديه ما يعمله إلّا أن يبقى، ليُسجن من جديد.

قال إيوهان موريتز لبيتر:

- إنك على حق. إن فراري سيكون سخيفاً.

فربت بيتر على كتف أبيه بصداقة، وقال:

- سوف ننخرط في الجيش الأميركي كفدائيين. وعندما ننتهي

Twitter: @ketab_n

من دحر روسيا، سنعود إلى رومانيا. إنها الحرب بين البربرية والمدنية. ينبغي أن تتطوع أنت الآخر.

لم يصغِ إيوهان موريتز إليه. كان يفكّر في الأسلاك الشائكة التي تحيط «داشور» و«هلبرن» و«كورنويستذم» و«دار مستادت» و«أوهرد روف» و«زيبجلهم»، في أسلاك ثمانية وثلاثين معسكراً قضى سنواته الأخيرة سجيناً فيها. كان يفكّر في تلك المعسكرات حيث مات الكاهن ألكسندرو كوروغا وتريان كوروغا، في تلك المعسكرات التي كاد أن يموت فيها جوعاً.

كان يشعر أن تلك الأسلاك الشائكة تدخل في جسده وتدمي قلبه. فكّر في نفسه:

«سأعود الآن إلى معسكر جديد وبذلك أكون قد مكثت حراً ثماني عشرة ساعة. لكنني الآن لا أسجن لأنني يهودي أو روماني أو ألماني أو هنغاري أو من فرق الحرس، بل لأنني من رعايا دول الكتلة الشرقية».

اغرورقت عيناه بالدموع.

سأل بيتر:

- ما بك، يا أبي، لا تحزم أمتعتك؟

كان الفتى متحمساً لفكرة الرحيل. فقال إيوهان موريتز:

- إنني على استعداد أبداً. منذ ثلاثة عشر عاماً لا همَّ لي إلّا التنقل بين معسكر وآخر. لقد أمضيت هذا الدهر الطويل وأنا على استعداد دائم للرحيل. ولسوف تألف ذلك أنت أيضاً. إنني أشفق عليك، غير أن بني البشر ينبغي أن يألفوا ذلك.

إنهم لن يروا بعد اليوم إلّا معسكرات وأسلاكاً شائكة وقوافل ترحيل. لقد مررت في مائة وخمسة معسكرات، وسيكون هذا السادس بعد المائة. إنه من المؤسف أن لا أنال حريتي إلا ثمان

Twitter: @ketab_n

وأربعين ساعة، إذ مَن يدري لعلني لن أحصل على ساعة أخرى قبل الموت.

ونظر إيوهان موريتز إلى سوزانا، وقال لها:

- لكن ذلك جميل الآن. إنني أستطيع أن أموت الآن. إنني ما كنت أجرؤ على التفكير في أنني سأحيا ساعات جميلة كالتي حييناها. لقد كان ذلك كما سبق لنا في فانتانا، أليس كذلك يا سوزانا؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الخاتمة

- يا سيدة ويست، أريد أن أتحدث معك في أمر شخصي.

وضعت إليونورا ويست على الطاولة الإضبارة التي كانت بين يديها، ونظرت إلى الملازم ليويس.

كان جالساً إلى مكتبه واضعاً ساقاً فوق ساق، مستنداً إلى مقعده يدخن.

كان ليويس رئيس مكتب تجنيد المتطوعين الأجانب، وكانت نورا ويست موظفة ومترجمة في ذلك المكتب. كانت تشتغل منذ ستة أشهر مع الملازم ليويس. كانت تتساءل: «لِمَ لا يضع رباطاً لجواربه؟». وكانت تنظر إلى جوارب ليويس التي كانت أبداً متهدلة أشبه «ببريمة» حول ربلة ساقه وتتساءل: «لِمَ يجلس على كرسيه وكأنه ممتطياً صهوة جواد؟ إنه يشبه البحارة عندما ينزلون إلى مرفأ! مع ذلك فإن ليويس شاب من أسرة طيبة تخرَّج من الجامعة. إنّ الحرية في مجتمع مهما بلغت درجتها لا يجب أن تبلغ حداً تجعل إظهار ساق الرجل للمرأة في المكتب مباحاً».

كانت نورا تشعر أنها تتلقى صفعة كلما مدّ لها ليويس يده بشيء، ولفافته بين شفتيه، أو كلما ألقى على طاولتها بإضبارة كما تُلقى العظمة للكلب.

كان الملازم ليويس لا يعتقد أن نورا تنظر إليه تلك النظرة، بل

Twitter: @ketab_n

على العكس. لقد كان يظن أنها معجبة به غير أن نظراتها كانت دائماً وَجِلة.

قالت:

- إنني مصغية إليك.

- يا سيدة ويست، هل تقبلين أن تكوني زوجتي؟

ازداد الملازم ليويس تشبثاً بمقعده، وراح يتأرجح عليه. فكان المقعد مرتكزاً على قائمتين فقط.

- إنني لا أقبل يا سيد ليويس أن أصبح زوجتك.

- هل لديك مشروعات أخرى للمستقبل؟

فأجابت:

كلا ليس لدي أي مشروع للمستقبل، لكن جوابي سيبقى دائماً: كلا!

فتحت نورا ويست الإضبارة. لكنها لم تكن تستطيع العمل. كانت عيناها تنظران إلى المصنف، لكن عقلها كان في مكان آخر.

لقد لبثت عامين في المعسكر، ثم أخلي سبيلها آلياً، كما أوقفت من قبل آلياً.

ولما استعادت حريتها، لم يكن لديها مال ولا أثواب ولا حلي حتى ولا خاتم زواجها، لأن كل شيء قد صودر. وكانت البيوتات المالية الأجنبية التي تدَّخر فيها أموالها قد صودرت بالمثل، فأصبحت فقيرة كأفقر اليهود. وأُبلغت أنّ تريان قد مات منتحراً. هذا كلّ ما عرفته. لكنها لم تستطع معرفة تفصيلات عن الحادث. وما كانت تستطيع العودة إلى الروسيين ولا تستطيع الابتعاد إلى الغرب أكثر ممّا فعلت. فلبثت في ألمانيا واشتغلت مترجِمَة في إحدى الصحف. ثم صدر الأمر بتوقيف كلّ رعايا الكتلة الشرقية، لأنّ الحرب قد أعلنت بين الكتلتين. فعادت إلى المعسكر من جديد،

Twitter: @ketab_n

بشكل آلي كذلك، لكن سجنها هذه المرة لم يكن كالمرة السابقة. لقد قُبِلَت كأمينة سرّ في مكتب تجنيد المتطوعين الأجانب، فكانت تقطن في المعسكر وتطعم ويُصرف لها أجر. حتى كانت في ساعات فراغها تكتب. كانت تتمِّم رواية «الساعة الخامسة والعشرون» التي لم يستطِع تريان إتمامها. لقد استطاعت أن تنقذ في إحدى حقائبها الأجزاء الأربعة التي كانت تعتبرها أساسية رئيسة في القصة.

لم تكن تفكِّر في المستقبل. كان هدفها كله محصوراً في انتهاء الكتاب. ولم يكن ذلك بمثابة أمل مقبل أو مشروع للمستقبل، بل كانت وسيلة لتحاشي إقامة مشاريع مقبلة. كانت تنكبّ على عملها بكلِّيتها، لأنها كانت تحبّ هذا العمل فتجهد في محاكاة أسلوب تريان، وإنهاء روايته كما لو كان هو الذي أنهاها.

وبهذه الطريقة، كانت تشعر كلما انتهت من كتابة صفحة أنها أقرب إلى تريان. لقد كانت بجانبه تشعر كأنها تكتب معه. لقد قصَّ عليها من قبل كل فكرة روايته، فكانت تسعى من جانبها للسير في طريق إنهائها بأقصى ما يمكن من أمانة ودقة.

قال الملازم ليويس بعد سكوت قصير:

- أوكي .O. K! هل يمكن معرفة أسباب هذا الرفض؟

- إذا كنت تلحّ على معرفتها. إنها الفارق في السن.

- إنّ هذا لا معنى له!

كان الملازم ليويس يضحك بانشراح. استطرد:

- إنني أكبر منك بعام. لقد اطَّلعتُ على أوراقك، فأين إذن وجدت هذا الفارق المزعوم في السن؟ إن الأمر على العكس.

قالت نورا:

- إنك مخطئ.

فأجاب ليويس:

Twitter: @ketab_n

- إنك تمزحين. ما هي سنك؟

أجابت نورا:

- لنتحدث عن شيء آخر، هل تريد؟

- ليس قبل أن تذكري لي سنك.

- ليس من اللائق أن تسأل سيدة عن سنها وخصوصاً بمثل هذا الإلحاح. لكنني أستطيع أن أذكر لك سني. إنّ لي تسعمائة وتسع وستين عاماً. ولا تنسَ أن النساء يعترفن عادة بأقل ممّا لهن من العمر كلما سئلن حول هذا الموضوع. إنني في الواقع أكبر سناً من هذا وأبلغ شيخوخة.

- حسناً، يا سيدة ماتوسالن!

كان ليويس مبتهجاً منشرح الصدر، طروباً لدعابة نورا. أما نورا، فإنها لم تكن تبتسم.

ظن ليويس أن نورا ستقبل عرضه، لكن نورا كرَّرت له أنها ترفض بإصرار.

- لا تغضب، يا سيد ليويس. لكنني لا أستطيع العيش أربعاً وعشرين ساعة في منزل واحد معك.

- لماذا؟

أجابت نورا ويست:

- لقد قلت لك السبب: الفارق في السن. إنك شاب فتي لطيف، أناني ككل الشباب. لكنني أنا امرأة من عالم آخر.

- لست أفهم.

فأجابت نورا:

- لهذا السبب أرفض إعطاءك التفسيرات التي تطلبها. إنّ من الطبيعي أن لا تفهمني. لقد اجتزت أنا ألف عام من الاختبار والحرمان والعذاب، ألف عام جعلتني على حالي الحاضر. أما

Twitter: @ketab_n

أنت، فأمامك الحاضر والمستقبل. إنني أقول أنك قد يكون لك المستقبل، ليس لأنني أشكّ في مستقبلك، بل لأنني ما وثقتُ قط في المستقبل.

قال ليويس بانفعال:

- إنّ قولك شديد الغموض.

قالت نورا:

- اصغِ إلي، يا سيد ليويس! إنني بعد أن أصغيت إلى نجوى بيتراك، جيته، لورد بايرون وبوشكين، وبعد أن أصغيت إلى تريان كوروغا يطارحني الهوى، واستمعت إلى أغنيات شعراء القرون الوسطى وهم يركعون أمامي كما يركع المرء أمام الملكة، وبعد أن شهدت ملوكاً وفرساناً يقتتلون من أجلي، وبعد أن تحادثتُ بلغة الغرام مع فاليري، ورايلك، ودانونزيو، وإيليوت، كيف أستطيع أن أنظر إلى طلبك الذي تلقيه في وجهي مع دخان لفافتك نظرة جدية!؟

- هل ينبغي أن يكون المرء جيته أو لورد بايرون أو بيتراك ليطلب الزواج من امرأة؟

فقالت نورا ويست:

- كلا، يا سيد ليويس، بل إنه لا يجب أن يكون كذلك لا رايلك ولا بوشكين ليطلب المرء الزواج من امرأة، بل ينبغي أن يحب تلك المرأة.

أجاب السيد ليويس:

- إننا على اتفاق في هذا القول. إذ مَن الذي قال إنني لا أحبك؟

ابتسمت إليونورا ويست، وقالت:

- إن الحب يا سيد ليويس عاطفة ولا شكّ أنك سمعت ذلك أو على الأقل قرأته في كتاب ما.

Twitter: @ketab_n

أجاب:

- إننا متفقان من جديد: إنّ الحب عاطفة.

قالت نورا:

- لكنك عاجز تماماً عن إظهار أية عاطفة، ولست وحدك العاجز، بل إنّ أي رجل من حضارتك لا يستطيع إنماء عاطفة في نفسه. إنّ الحب، تلك العاطفة البليغة، لا يمكن أن يكون إلا مع مجتمع يؤمن أن الكائن البشري فريد لا يمكن استبداله. والمجتمع الذي تنتمي إليه، يؤمن بشدّة في أنّ كلّ رجل يمكن استبداله بسهولة. إنكم لا ترون في الإنسان وبالتالي في المرأة التي تزعمون أنكم تحبونها، مثالاً وحيداً خلقه اللّه أو أبدعته الطبيعة دفعة واحدة ومرة واحدة. إن الإنسان، في نظركم، خلق على دفعات. والمرأة، في نظركم، تشبه أي امرأة أخرى.

وبمثل هذا الاعتقاد لا يمكنكم أن تحبوا أبداً. إن العشاق في مجتمعي يعرفون أنهم إذا لم يوفقوا في كسب عطف المرأة المحبوبة، فإنهم لن يستطيعوا استبدالها بسواها بين كل نساء العالم. ولهذا السبب، فإنهم كثيراً ما يقتتلون في سبيل تلك المرأة ويقتلون. إنّ غرامهم إذا رُفض، فإنهم يعرفون استحالة استبداله بغرام آخر. إن الرجل الذي يحبني حقاً، يشعرني بأنني المرأة الوحيدة التي تستطيع إسعاده، المخلوقة الوحيدة. كان يبرهن لي على أنني المثال الأوحد الذي لا شبيه له على سطح الأرض، فأقتنع بصدق قوله وبصحة زعمه. إن الرجل الذي لا يُشعرني بأنني وحيدة ولا يمكن الاستعاضة عني، رجل لا يحبني. والمرأة التي لا تتلقى ذلك التوكيد من الرجل الذي تحب امرأة غير محبوبة. وإذا كنت غير محبوبة من رجل ما، فإنني لا أتزوّجه. فهل أنت قادر يا سيد ليويس على تقديم مثل هذا التأكيد؟ هل تظنّني حقاً المرأة الوحيدة التي لا يمكن أن تعوّض

Twitter: @ketab_n

بسواها؟ أتظنّ أنك إذا أمعنت النظر وبحثت بدقة، فإنك لن تجد من تحلّ محلي في نفسك؟ كلا. إنك واثق من أنني إذا رفضت، فإنك واجد امرأة أخرى تقبل الزواج بك. وإذا رفضت هي الأخرى، فإنك واجد ثالثة ورابعة، أليس كذلك؟

أجاب:

- لعمري أنه صحيح. لكنني سآسف إذا رفضتِ الزواج بي. أقسم لك بشرفي أنني سآسف.

- يجدُر بنا يا سيد ليويس أن نتابع عمل مكتبنا المقدّس.

وفتحت الإضبارة وقالت:

- إنّ كل مَن في المعسكر يريدون التطوع حتى الأطفال والنساء والشيوخ. إنهم كلهم يطلبون قبولهم متطوعين. إنهم جميعاً يريدون الوقوف في جانبكم.

ابتسمت نورا ويست وهي تفكر في الألوف من المواطنين الأجانب الموجودين في الغرب. لقد فرّوا جميعاً من الرعب الروسي، والتجأوا جميعاً إلى المناطق الأميركية أو الإنجليزية أو الفرنسية. إنهم لم يفكروا قط في المكان الذي سيأوون إليه، بل كانوا يفرّون من الروس وبربريتهم. كانوا يهربون من الرعب والموت والعذاب. لقد توجهوا إلى حيث لم يكن هناك روسيون. لقد هرعوا إلى ذلك المكان وعيونهم مغمضة. كان ما يريدونه هو عدم العودة إلى الوراء، لأن وراءهم يقوم ليل طويل ويسيل الدم. وراءهم كان الذعر والجريمة، لقد قبّلوا تلك الأرض الخالية من الروس، قبلوها وهم جاثون، وأطلقوا عليها اسم أرض الآمال والوعود. لقد قبلوها دون أن ينظروا إليها، ودون أن يتساءلوا عن لونها وما تكون.

كانت أرض خالية من الروس، وكان ذلك يكفي، فكانوا لا يبالون أكان يقطنها شعب أو تحتلها أمة.

Twitter: @ketab_n

كانوا ينفرون من رؤية الروس فحسب.

وأوقف الأميركيون الفارين. لكنهم لم يغضبوا لأنهم كانوا في الأرض الموعودة. كان أقصى ما في نفوسهم أن يوفّقوا في الفرار من الروس والإفلات من أيديهم. وقد أفلتوا منهم، فكان كلّ ما يحدث لهم بعد ذلك سهلاً مقبولاً. لذلك لم يزعجهم أن يوقفهم الأميركيون، بل إنهم لو قتلوهم لما احتجوا على فعلتهم. والآن، أعلنت الحرب، الحرب الثالثة، واللاجئون منهكون جائعون سجناء.

كانوا يريدون الطعام والراحة والعمل والحرية. لكنهم لم يثوروا حين لم يجدوا ما كانوا يشتهون. كفاهم أنهم نجوا من أيدي الروس، والنجاة وحدها الهدف الأول في وجوههم.

وعد الأميركيون بإطلاق سراح أولئك الذين يتطوّعون في فصائل القوات الغربية، ومنحهم الحرية. فطلب كلّ السجناء أن يقبلوا متطوعين، ليس حباً بالحرب، بل طلباً للحرية وسعياً وراء إنقاذ أنفسهم من الموت جوعاً.

قال السيد ليويس:

- إنه حماس إجماعي رائع! إن القضية التي من أجلها يحارب الغرب ضد بربرية الشرق، قد تبناها كلّ الناس هنا. إنّ كل الرجال متأكّدون من أنّ ساعة الموت أو النصر قد أزفت، ستكون هذه الحرب فريدة من نوعها في مجرى التاريخ. الغرب المتَمَدْيِن ضد الشرق البربري المتوحش. إنها حرب عالمية حقاً. الحرب العالمية الأولى في التاريخ.

راح ليويس يفرك راحتيه مبتهجاً:

- إنها سعادة أن يساهم المرء في هذه الحرب. إن النصر في جانبنا منذ الآن. سوف تنتشر المدنية على الأرض كلها. ولن يكون

Twitter: @ketab_n

بعد هذه حرب جديدة، سيحفل العالم بالتقدم والازدهار والسؤدد. هذا كلّ ما سيعقب هذه الحرب.

ابتسمت إليونورا ويست. فقال ليويس ملاحظاً:

- إنك لا تبدين متحمِّسة. إنني أرى أنك لست متحمِّسة لقضية الغرب. هل تكونين من أنصار الشيوعية؟ إنك الوحيدة التي لم تعربي عن شعورك صراحة، الوحيدة التي لم تتحمسي لقضية الغربيين.

قالت إليونورا ويست:

- إن أحداً من الناس ليس متحمساً. إنهم يبدون لعينيك متحمسين!

- أليس كل هؤلاء المتطوعين ضد الشيوعية؟

فأجابت إليونورا ويست:

- بلى. ضد الشيوعية. ولكن هذا كل شيء! إن معنى هذا أنهم يريدون العيش في حرية وسلام، والخلاص من جوّ الذعر والإرهاب. إنهم يريدون النجاة من التقتيل والتعذيب والتشريد والتجويع. إن حماسهم ليس سياسياً. إنه موقف الرجال حيال الجريمة والذعر والعبودية.

سأل السيد ليويس:

- وماذا تريدين أكثر من ذلك؟ إن معنى ذلك أنهم تطوعوا بكليتهم في سبيل القضية الغربية. ونحن نقاتل لنمنحهم الحرية والطمأنينة والحماية والديمقراطية!

قالت إليونورا ويست معترضة:

- لا تخدع نفسك بهذه الكلمات. إنّ هذه الحرب التي تسمّيها الحرب العالمية الثالثة، ليست حرب الغرب ضد الشرق. وبعبارة أوضح، إنها ليست حرباً على الإطلاق، وحتى ولو امتدّ خط القتال من قطب إلى آخر وغَمَرَ الأرض كلها. إن هذه الحرب ليست إلا

Twitter: @ketab_n

ثورة داخلية في نطاق المجتمع الآلي الغربي. إنها ثورة داخلية عادية غربية إتماماً ولا علاقة للشرق بها.

قال ليويس:

- لكننا نحارب الشرق، أوروبا الشرقية كلها!

فأجابت إليونورا ويست:

- هذا خطأ! إنكم، أنتم الغربيون، تقاتلون ضد فرع من حضارتكم.

- إننا نحارب ضد الروس.

- لقد غدَت روسيا، بعد الثورة الشيوعية، فرعاً من أكثر فروع الحضارة الآلية الغربية تقدماً، لقد نقلت روسيا كلّ نظرياتها من الغرب. وكلّ ما عملته هو أن طبَّقت تلك النظريات. لقد حولت روسيا الإنسان إلى صفر، كما تعلّمت من الغرب أن تحوِّله. وحوَّلت المجتمع إلى آلة هائلة كبيرة، كما تعلَّمت ذلك من الغرب أيضاً. لقد قلّدت روسيا الغرب كما لا يستطيع أن يقلده إلا البرابرة والمتوحشون. إن ما هو روسي حقيقة، وما أضيف إلى المجتمع الشيوعي، ليس إلا الوحشية والبربرية. إنّ هذا كلّ ما للروس من أشياء تخصّهم. وما تبقّى، فإنه جاء من الغرب. إننا إذا استثنينا التعطش إلى الدم والبربرية في روسيا، وجدنا أنّ كل شيء آخر قد نُقل بأمانة عن الغرب. أما أنتم، فإنكم تحاربون هذه الظاهرة من المدينة الغربية: الفرع الشيوعي من المجتمع الآلي الغربي. ولهذا السبب، فإن هذه الحرب العالمية الثالثة، ليست في الواقع إلا ثورة داخلية، انفجرت في صميم المجتمع الغربي الآلي. إن الفروع «الأطلانطيكية والأوروبية» من المجتمع الغربي، تحارب الفئة الشيوعية الغربية. إنها حرب داخلية ناشبة بين فئتين، بين طبقتين في مجتمع واحد. إنها - إذا شئت الإيضاح - ثورة طبقية، مشابهة لثورة

Twitter: @ketab_n

عام 1848 البورجوازية. إن الشرق لا يساهم في هذه الثورة الداخلية الغربية. إنّ أياً كان خارج المجتمع الآلي الغربي لا يساهم في هذه الثورة. ولمّا كانت هذه الثورة غربية بكلّ عناصرها، فإنها، يا سيد ليويس، ليست لمصلحة الإنسان. إن المجتمع الغربي لا يحفل بالإنسان.

- لست أفهم.

- إن الأمر بسيط تماماً. إنّ مصالح المجتمع الغربي لا تتفق مع مصالح الإنسان، بل على العكس. إن بني الإنسان يعيشون في المجتمع الآلي الغربي، كما كان يعيش القدامى من النصارى: في كهوف وسجون وأحياء محدودة قذرة، على هامش الحياة. إنهم أبداً مختبئون. إنهم محرومون من حق الظهور والإجهار، محرومون من مزاولة الأعمال العامة، وخصوصاً في مكاتبكم، لأنّ حضارتكم استبدلت المذابح بالمكاتب.

«إنّ الرجال الذين ما زالوا على إنسانيتهم، مرغمون على الاختفاء. وإلا فإنهم يُجبرون على التصرف وفق القوانين الآلية.

«لقد حُوِّل الرجل إلى مقياس واحد، من مجموع المقاييس التي كان يتمتع بها، وهو المقياس الاجتماعي. لقد تحوَّل إلى مواطن، وهذه الكلمة لم تعُد مرادفة لمعنى: إنسان!

«إنّ المجتمع الفني الآلي يتجاهل الإنسان. إنه لا يعرفه إلّا تحت مظهره السلبي كمواطن.

«ولما كان هذا المجتمع لا يعرف الإنسان، فكيف يثور من أجله؟

«إن الثورة الحالية - نظراً إلى طابعها الغربي البحت - ستبقى غريبة عن مصالح الكائنات البشرية بوصفهم أشخاصاً.

Twitter: @ketab_n

«لقد غدا الرجل، منذ زمن بعيد، أقلية بروليتارية في مجتمعكم. وأياً كان الرابح للعراك الحالي، فإن الرجل سيبقى أبداً، أقلية بروليتارية، في نطاق المجتمع.

«إن الصراع الحالي، ليس إلا اصطداماً بين فئتين من المخلوقات الآلية، التي تجر وراءها عدداً من العبيد الأحياء، عبيد من لحم ودم.

«إن الرجال لا يمكن أن يُعتبروا مساهمين في الصراع الحالي، إن مثلهم كمثل العبيد في زوارق الرومان المحاربة. إن أولئك العبيد ما كان يمكن اعتبارهم محاربين في سبيل الإمبراطورية الرومانية. إنّ كل ما كانوا يعملونه، هو احتمال الأغلال، وأوزار الحرب. ولا يمكن لمخلوق أن يساهم في حرب وهو مكبل بالأغلال.

سأل السيد ليويس:

- ألا يتطوّع سجناء هذا المعسكر من تلقاء أنفسهم؟ إنّ تأكيدك هذا خطير وفيه مغالاة. إنني لا أهدّدك، لكنني أمنعك بحزم. إنّ كل متطوع يأتي إلينا بمحض اختياره. هل تقصدين مثلاً أننا أرغمنا واحداً منهم على الانخراط في صفوفنا؟ إنك شاهدة على مواقف الأسى والأسف العميقين، اللذين يقفهما أولئك الذين نرفض قبولهم لعدم كفاءتهم. إنهم يهددوننا بالانتحار إذا نحن امتنعنا عن تسجيلهم. أليس عملهم هذا طواعياً؟ أليس عملهم حماسة؟ إنهم أشد تعصباً للقضية منا. إننا عندما نرفض طلبهم يعتبرون رفضنا كعقاب شديد أنزل بهم. أليس كذلك؟

أجابت إليونورا ويست:

- لم يعُد للإنسان طريق آخر للخلاص. إنّ الرجال يجدون أنفسهم في زنزانة في سجن، تحيط بها النيران، فلا يستطيعون إفلاتاً إلّا من طريق واحد. وهذا الطريق، هو الانخراط في الجندية

Twitter: @ketab_n

كمتطوعين. إنّ الشكايات الخطية والالتماسات التي تصلنا كلّ يوم، خير دليل على وجود هذا المخرج الوحيد. إنّ كل شكاية، صرخة يأس مدوية، ترسل نحو المخرج الوحيد الذي تبقّى. إنهم جميعاً يرسلون عروضاً وتوسلات وشكايات. ليس الأوروبيون الهاربون من الشرق بحسب، بل كل أوروبا.

قال الملازم ليويس:

- إنه خطأ. إنّ التطوع ليس الطريق الوحيد للإفلات من النيران. إنهم يستطيعون اللجوء إلى الروس. فلِمَ إذن لا يذهبون إليهم، ويتهافتون علينا؟

فأجابت نورا:

- إن توجيه الرجال إلى الطريق المؤدية إلى حيث الروس يعادل، في هذا المثال، صعودهم إلى أعلى الجدار الملتهب، ليقفزوا من جديد إلى الغرفة التي يشبّ فيها الحريق. إنهم، من أعلى ذلك الجدار، لا يستطيعون إلّا أن يقفزوا إلى النار والموت! وإنك لن تجد رجلاً واحداً يوافق على القفز إلى النار، أو على الأقل، إنه لا يقفز إلى النار وهو يعرف وجود سبيل آخر. والسبيل الآخر هو: نحن. إنهم يحاولون الإفلات، ولكنهم يحاولون التأكد ممّا وراء ذلك الباب. إنّ ما وراءها لا يشغل بالهم. إذ يجب عليهم الخروج من النار قبل كلّ شيء، وإلا فإنهم سيختنقون ويموتون. ووجود باب يمكن الإفلات منه، أفضل من البقاء قرب الجدار الملتهب. ولو عرف الرجال أنّ وراء ذلك الباب ناراً، لفضَّلوا الخروج من الباب! لأنهم على الأقل يشعرون بلحظة أمل، قبل أن يعاودوا النضال. إن الأمل يراود نفسهم، والخيال يهدهد أفكارهم. وذلك أفضل من لا شيء. إنّ من الخير دائماً أن يحتفظ المرء بخيال أو أمل، مهما بلغ من سخفه!

Twitter: @ketab_n

قال الملازم ليويس:

- إنك تنظرين إلى الأمور من زاوية مؤسية. إن المتطوعين لا يفكّرون مثل تفكيرك. إننا، عندما نقبل طلباتهم، نزكي في نفوسهم الحماس. فيقاتلون حتى الموت في سبيل قضيتنا، التي هي كذلك قضيتهم. إنهم خيرة جنودنا. افتحي الباب وانظري إليهم كيف ينتظرون أمام المكتب.

«هناك مئات. وألوف. إنهم يريدون جميعاً التطوع في صفوفنا. إنهم جميعاً يريدون القتال انتصاراً لقضية المدنية. إنهم جميعاً يرغبون في بذل أرواحهم في سبيل الفوز القريب. إن ذلك النصر المرتقب سيحمل للرجال السعادة والحضارة والسلام، والخبز والحرية والديمقراطية. ألا تصدقينني؟

قالت إليونورا ويست:

- كلا. إنّ الرجال لا يؤمنون بهذه الحرب. إنهم قد لا يفكرون مثل تفكيري تماماً، لأنهم قد تألموا كثيراً، ولا يمكن أن يفكّروا على هذا النحو بعد، لكنهم لا يفكرون في شيء مطلقاً. غير أنهم جميعاً يشعرون مثل شعوري، ويتألّمون كما أتألم. إنهم يائسون كما أنا يائسة. مثلي تماماً. إنّ أوروبا كلها تشعر شعوري.

- دعي الحوادث تتكلم، يا سيدة ويست! سأثبت لك مبلغ الحماس الذي يعتلج في نفوس هؤلاء الناس الراغبين في التطوع في صفوفنا. سآخذ مثالاً عفوياً، أترك للصدفة تعيينه.

ونهض الملازم ليويس وفتح باب المكتب على مصراعيه. قال:

- انظري. إن أكثر من خمسمائة شخص ينتظرون اليوم.

وأشار بيده إلى الخطّ الطويل من المخلوقات البشرية الواقفين أمام الباب واستطرد:

- لنأخذ الأول في الصف.

Twitter: @ketab_n

أدخل السيد ليويس الرجل الأول إلى المكتب. كان ينتظر دوره ولا شك أنه جاء قبل الآخرين. ولم يكن الرجل وحيداً، بل كان معه كل أفراد أسرته: زوجة وثلاثة أولاد.

كان رجلاً ذا شعر أسود وفودين أشهبين. كان خداه مسترخيين قليلاً، وعيناه سوداوين كبيرتين، حزينتين وجميلتين.

نظرت نورا في عينيه وقالت في نفسها: «إن فيهما حزناً يرجع إلى توقُّد العقل».

كان الرجل الذي أمامها من فئة العمال. لكن الذكاء كان يشعّ في نظراته. والذكاء يساوي سموّ النفس. لم يكن حزنه حزن جسد، بل كان حزناً نفسياً، مصدره العقل.

أما المرأة التي كانت إلى جانبه فكانت ترتدي ثوباً أزرق فضفاضاً. كان شعرها أشقر تبعثرت بينه خصلات بيضاء. لكنها كانت رائعة الجمال. لم يكن جسمها وحده الجميل، بل كانت أنوثتها كذلك تتفجر من كلّ مسامات جسدها وتشرق حولها.

تاقت نورا ويست إلى أن تبتسم لها كما تبسم لأخت، لكن المرأة لبثت مخفضة العينين، حزينة مذعورة.

وكان أحد الأولاد الثلاثة ذا عينين سوداوين كعيني أبيه، لكن الحزن لم يكن قد تعمَّق فيهما. كانت عيناه اللامعتين الجريئتين تتفحّصان نورا بتطلّع وفضول.

والغلام الثاني، كان كذلك مطرق العينين. كان أشقر. بدا كأنه غير موجود في الغرفة. لقد كان يفكر في شيء آخر.

أما الثالث والأصغر، فقد كان يناهز الرابعة من عمره. إذ كان ذا عينين زرقاوين وشعر أجعد. حارت نورا في نوعه: أهو غلام أم فتاة. لكنه كان جميلاً كالملك الرحيم.

قال الملازم ليويس:

Twitter: @ketab_n

- هذه أسرة كاملة تريد التطوّع في صفوفنا. اسأليهم هل يفكرون مثل تفكيرك؟ سوف ترين أنهم لم يحضروا إلينا بدافع اليأس. إنهم يؤازروننا لأنهم متعطّشون للحرية والعدالة. إنهم يطلبون التطوّع في جيشنا، لأنهم يريدون القتال من أجل السلام والمدنية. إنهم عارفون تماماً ما هم مقبلون على صنعه.. اسأليهم ما تشائين. وسَتَرين!

قالت نورا:

- لا حاجة لي إلى ذلك. إنني لا أريد معرفة ما في قلوب هؤلاء. إن أملي يكفي، فلا ترغمني على يأس الآخرين. ابدأ في أسئلتك كما هي عادتك. إنني لا أريد القيام باستجوابهم.

- أرجوك أن تسألي كلّ ما ترغبين في معرفته. إنني واثق من أنك ستغيرين رأيك أخيراً.

- ليكن!

كانت الجملتان الأخيرتان بمثابة أمر من الملازم ليويس إلى نورا. فرفعت عينيها إلى عيني الرجل الذي كان واقفاً أمام الباب وقبعته في يده. وتقابلت نظراتهما. قالت:

- ما هو اسمك؟

فأجاب الرجل:

- إيوهان موريتز. أريد أن أتطوّع مع كل أفراد أسرتي. إننا نرجوكم قبولنا معاً. إنني أرجو أن تتساهلوا قليلاً فيما يتعلق بسني لأنني تخطّيت السن المطلوبة كما قرأت على الإعلانات. لكنني أشعر بأنني ما زلت شاباً. أما الغلمان فإنهم أصغر سناً من الحدّ المطلوب، لكنهم مجدّون ونزيهون. إننا ضد البلاشفة كما جاء في الإعلانات. ونؤمن في انتصار المدنية كما جاء في الإعلانات الملصقة على باب المعسكر. غير أننا نختلف قليلاً عن شروط السن

Twitter: @ketab_n

المبيَّنة في الإعلان، لذلك فإننا نرجوكم أن تتساهلوا معنا. إنكم إذا لم تقبلونا، حكمتم علينا بالموت. إننا لا نستطيع الاحتمال أكثر ممّا احتملنا.

دفع الغلام ذو العينين السوداوين مرفقه في جنب أبيه كأنه ينبهه إلى أنه تكلم أكثر ممّا ينبغي.

توقف إيوهان موريتز عن الكلام وقد اصطبغ وجهه بحمرة قانية. أدرك أنه ما كان يجب عليه التلفُّظ بالكلمات الأخيرة. لقد أخطأ ولا شك في قولها. ولعلهم سيرفضون قبوله بسبب ذلك.

أردف:

- أتوسل إليكم أن تقبلونا. إننا جميعاً من خيرة العمال وقلوبنا نزيهة.

كان بيتر قد أوصاه بذكر أشياء أخرى. غير أنه ما كان يريد قولها. لم يكن يستطيع القول أنه يؤمن بالحضارة وبالغرب وإلى آخر ما هنالك من أقوال... إنه ما كان يستطيع التلفظ بمثل هذه الأقوال. كان فمه يرفض استيعاب تلك الكلمات، ولسانه يرفض النطق بها. كان متأكداً من أن ابنه سيغضب، وسيغلظ له القول عند خروجه من المكتب. وألقى نظرة ضارعة على وجه المرأة ذات الشعر الأحمر التي كانت في المكتب. وكانت هي الأخرى تنظر إليه!

وعمَّ سكون شامل!

كانت المرأة التي في المكتب تمتاز بنظرات جميلة دافئة ملتمعة.

ورفعت زوجة إيوهان موريتز - هي الأخرى - عينيها، ونظرت إلى تلك السيدة. وحذا الأولاد حذوَها. راحوا جميعاً يتأملونها بحزن صامتين.

Twitter: @ketab_n

ابتسم الملازم ليويس بينما لبثت إليونورا ويست صامتة تتأمل وجه الرجل الماثل أمامها.

- هل تعرف تريان كوروغا؟

انتفض إيوهان موريتز لدى سماعه هذا الاسم. قال:

- لقد كنا معاً.

ما كان يريد أن يتحدث عن المعسكر، لأنّ بيتر أوصاه بتحاشي ذلك في البيت.

قال:

- لقد كنا معاً حتى اللحظات الأخيرة. لقد كنت معه ومع القس كوروغا. لقد لبثت إلى جانب السيد كوروغا حتى وقعت المصيبة...

توقف موريتز برهة ثم استطرد:

- لقد كان أفضل رجل عرفته في حياتي. إنه لم يكن رجلاً، بل كان قديساً. هل عرفت السيد تريان أنت كذلك؟

- إنني زوجته!

استند إيوهان موريتز إلى الباب. وأصبح ممتقع الوجه مكفهراً. أراد أن يُخرج منديله من جيبه، لكنه لم يكن يملك منديلاً. لمس بأصبعه شيئاً زجاجياً في جيبه. كان ذلك الشيء نظارتي تريان كوروغا.

لقد أخذهما ذلك الصباح بالذات ليصنع لهما غلافاً من الجلد. كان يخشى أن تتحطما إذا وضعهما في حقيبته هكذا...

أخرجهما من جيبه، ونظر إليهما فترة، وفكّر في أنه لم يعُد هناك داعٍ لصنع الغلاف الجلدي لهما، لأنه لن يضعهما في حقيبته بعد اليوم.

وضع إيوهان موريتز النظارتين أمام نورا ويست على المكتب.

Twitter: @ketab_n

قال:

- إنهما نظارتا السيد تريان.

ثم سعل لينقّي صوته الصدئ، وأردف:

- لقد أعطاهما لي قبل موته لأحملهما إليك. لقد سلّمهما لي قبل أن... كان صوت إيوهان موريتز متهدجاً فلم يستطع الاستمرار في الكلام. راح يبحث عن منديله من جديد، المنديل الذي لا يملكه، فلم يجد إلا قطعة الجلد التي كان يريد صنع الغلاف منها. أخرجها من جيبه، إذ لم يعُد لها لزوم، فوضعها كذلك على المكتب قرب النظارتين، لمجرد حاجته إلى عمل شيء. قال:

- أردتُ أن أصنع لهما غلافاً من الجلد لأدفع عنهما غائلة الكسر. إن لدي في المعسكر الوقت الكافي لصنع الغلاف، سوف أصنعه، وستحتفظين بهما داخل الغلاف. إن ذلك أفضل، لأنهما ستبقيان سليمتين.

قال الملازم ليويس وهو يدخل إلى المكتب:

- هل تأكدت الآن من أنهم متطوعون حقيقيون؟

سعلت نورا. لقد كانت حنجرتها مضغوطة بين أصابع خفية جبارة. وأخيراً قالت بصوت حازم:

- نعم. لقد اقتنعتُ الآن تماماً. إنّك على حق مبين. إن هؤلاء جميعاً يتضرعون إليَّ أن أمنحهم تسهيلاً في شروط السن. إنهم يريدون التطوع معاً، كلّ الأسرة!

ابتسم ليويس وقال:

- حسناً، امنَحيهم التسهيل اللازم. سوف ألتقط صورة لهم لتنشر في الصحف!

اقترب الملازم ليويس من أصغر الأطفال فداعبه وقال لسوزانا:

- إنه هو الآخر ضد الروس، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

فأطرقت سوزانا بعينيها، ثم فكّرت في أنها يجب أن تقول شيئاً.

قالت:

- نعم، إنه هو الآخر ضد الروس!

كانت تخشى أن يسمع إيوهان موريتز قولها.

وسمعها إيوهان موريتز فعضَّت على شفتيها.

راحت إليونورا ويست تتأمل الأوراق التي ستسجّل الأسماء فيها.

قالت:

- تعالوا هذا المساء إلى مسكني، إنني أقطن في المعسكر أيضاً. سوف نحتسي قدحاً من الشاي وسنتحدث بسكون. ستقصّ عليّ ما تعرفه عن تريان.

وشاعت سحابة على عيني نورا. أردفت:

- والآن، أجب عن الأسئلة لأملئ الأوراق الرسمية: أين كنت منذ عام 1938 حتى الآن؟ قل لي كل شيء. لا تخَفْ. سوف يُقبل طلبك.

ابتسم الغلام البكر. لقد ربح الجولة. وكان سعيداً بذلك.

وكان أصغر الأطفال سعيداً كذلك. كان يأكل الحلوى التي قدّمها إليه الملازم ليويس ويضحك كاشفاً عن أسنانه البيضاء.

أما سوزانا، فقد ظلّت مطرقة الرأس.

أعدّ الملازم ليويس آلة التصوير. كان يريد التقاط صورة لأفراد الأسرة كلهم، عندما سينتهي إيوهان موريتز من إملاء الأوراق اللازمة. كان يجب أن يبدو كلّ شيء مشروعاً صحيحاً.

- لقد كنت عام 1938 في معسكر لليهود في رومانيا، ثم في معسكر للرومانيين في هنغاريا عام 1940. وانتقلت عام 1941 إلى

Twitter: @ketab_n

معسكر للهنغاريين في ألمانيا ثم إلى معسكر أميركي عام 1945. وقد أطلق سراحي أول أمس من معسكر داشو. لقد أمضيت ثلاثة عشر عاماً في المعسكرات. لم تمنح إليّ حريتي إلّا ثماني عشرة ساعة فحسب، وبعدها جاءوا بي إلى هنا...

قال الملازم ليويس:

- ابتسم Keep Smiling!

كانت عدسة آلة التصوير مصوّبة إلى إيوهان موريتز وأسرته.

كان موريتز ينظر إلى نورا وهو يفكِّر في مئات الكيلومترات من الأسلاك الشائكة التي رآها.

لم يرفع أبصاره لمّا تحدث إليه الملازم ليويس، لم يكن يفهم الإنجليزية.

كان يشعر بأنّ تلك الكيلومترات من الأسلاك الشائكة تلتفّ حول جسده.

أردف يقول:

- هذا ما حدث منذ عام 1938 حتى اليوم. معسكرات ومعسكرات ومعسكرات. لا شيء إلا المعسكرات في خلال ثلاثة عشر عاماً.

قال الملازم ليويس:

- ابتسِمْ!

أدرك إيوهان موريتز أن تلك الكلمات كانت موجهة إليه فقال لنورا:

- ماذا يقول الأميركي؟

- إنه يأمرك بالابتسام.

نظر إيوهان موريتز إلى نظارتي تريان على المكتب. خيِّل إليه أنه يرى في تلك اللحظة جسد تريان يسقط قرب الأسلاك الشائكة، وقد

Twitter: @ketab_n

اخترقه الرصاص. كان يفكّر في كيلومترات الأسلاك الشائكة التي كانت تحيط بالمعسكرات. تذكَّر ساقَي الكاهن كوروغا المبتورتين، تذكر كل ما وقع له في خلال الأعوام الثلاثة عشر.

نظر إلى سوزانا، وإلى الطفل الصغير «طفل الروسيين»، فتجهّم وجهه واكتأب. واغرورقت عيناه بالدموع. الآن وقد كانوا يأمرونه بالابتسام، شعر أنه لا يستطيع الابتسام. كان يشعر في تلك اللحظة بأنه سينفجر باكياً منتحباً كالمرأة الثكلى، بيأس. لقد كانت النهاية. ما كان يستطيع أن يتقدّم خطوة أخرى. إنّ أي إنسان ما كان يستطيع أن يتقدم خطوة أخرى إلى الأمام.

غير أن الضابط لبث يأمر إيوهان موريتز وهو يحدق في وجهه:

- ابتسم! ابتسم! ابتسم! ابتسم!...

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فيرجيل جيورجيو

الساعة الخامسة والعشرون

تحكي رواية **الساعة الخامسة والعشرون** قصة حقيقية مذهلة عاشها إيوهان موريتز الذي جاب كافة صنوف المعسكرات، وواجه كل فظائع الحرب بما تحوي من تعذيب وتعسّف وجشع.

اعتُقل باعتباره يهودياً إثر وشاية من رئيس الشرطة المحلية الذي كان يطمع في زوجته، لكنه أقِرَّ فيما بعد بأنه ليس من أصل جرماني فقط، بل من أعرق الأسر في هذا العرق! فجُنِّد في الجيش النازي، وعامله الحلفاء في البداية كصديق لكنهم ما إن ألقوا نظرة خاطفة على «بطاقته» حتى اعتبروه عدواً، من دون أن يكلّفوا أنفسهم معرفة حقيقته. حكموا عليه انطلاقاً من «ملفه»؛ هذه الوصمة التي تُلاحق الإنسان المُعاصر أينما حلّ.

تعتبر هذه الرواية من روائع أدب القرن العشرين، فهي تُعالج الصراع بين الإنسان الحقيقي وإنسان الإدارة المجرّد الذي يتعرض للاضطهاد العبثي. إنه نص قوي وموغل في الراهنية، يَدخله القارئ ولا يخرج منه.

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-816-9
9 789953 688169

لوحة الغلاف للفنان بول كلي